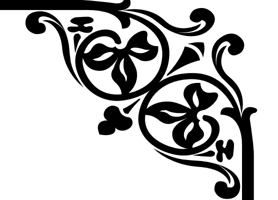
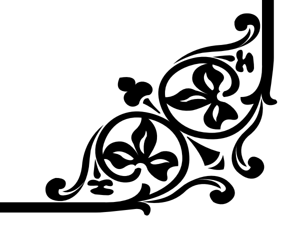
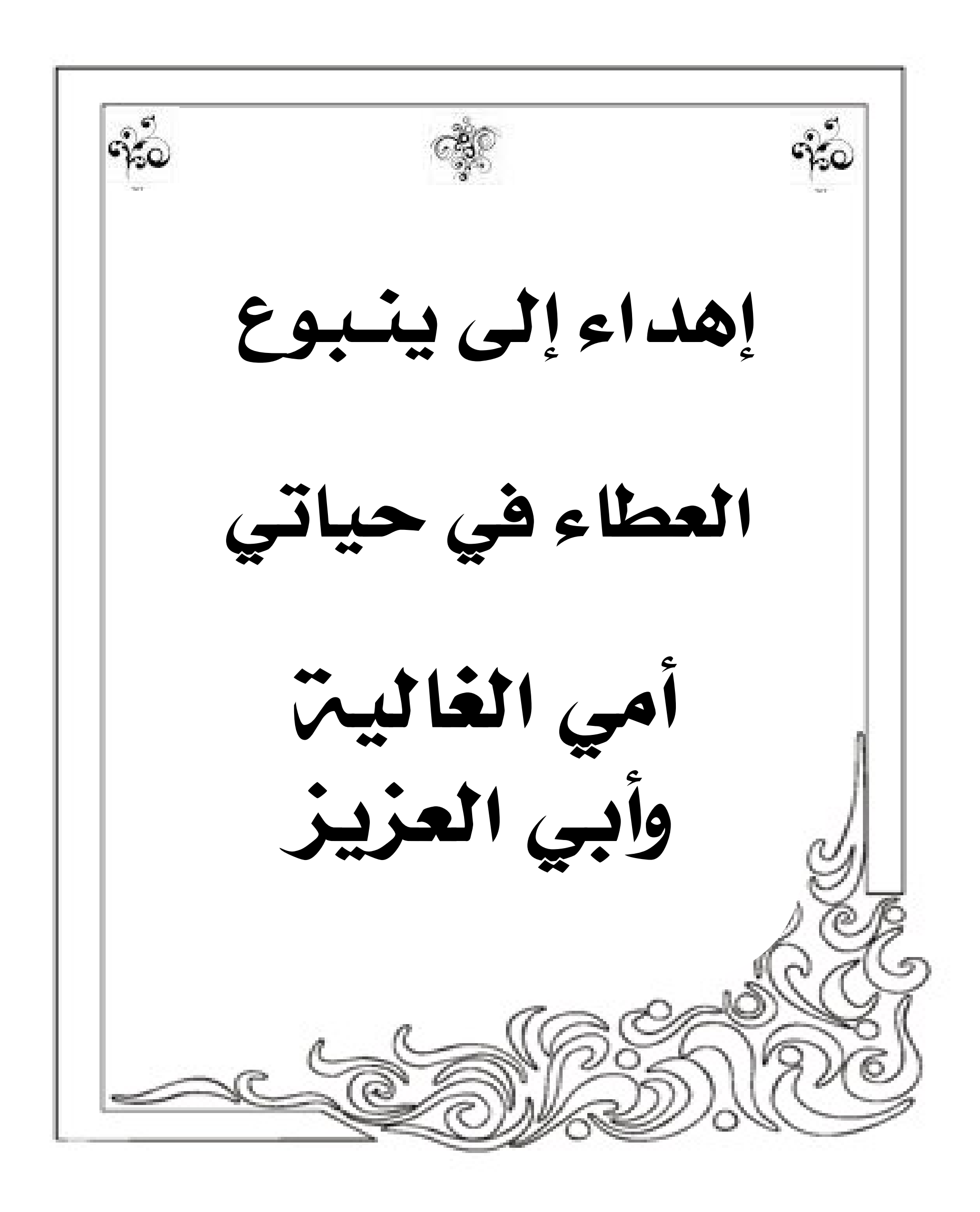



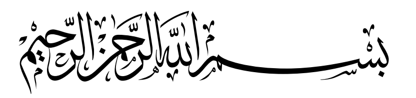
العودة إلى الإيمان

المؤلف
د/ هيثم طلعت علي سرور

نشأة الكون- ظهور الحياة- حوار مع الدكتور عمرو شريف- نشأة الدين- ظهور الفلسفة- الإلحاد – الربوبية- اللاأدرية- أدلة النبوة- آيات الله في خلقه- ادعاءات الملحدين.


إهداء إلى ينبوع
العطاء في حياتي
أمي الغالية
وأبي العزيز



المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعدُ:

يأتي هذا الكتاب تتويجًا لرحلة بدأناها بموسوعة الرد علىٰ الملحدين العرب، ثم أعقبناها بكتاب كهنة الإلحاد الجديد، ثم كتابين يشتملان علىٰ أهم المناظرت التي أجريتها مع الملحدين.

واليوم يأتي هذا الكتاب الذي يمثل خريطة متكاملة لبُنيّات الإلحاد وطرائقه وقنواته، ثم الإتيان علىٰ هذه البُنيات والطرائق والقنوات بالهدم والتخريب والردم.

تبدأ **خريطة كتابنا بالحديث عن ضرورة العودة إلىٰ الإيمان** كحل علمي ومنطقي قبل أن يكون وجداني أو فطري، ثم نتطرق إلىٰ أولىٰ بُنيات الإلحاد وصدفوية مجيء الكون.

ثم نعرج إلىٰ المعايرة الدقيقة للكون، ومسألة الأكوان المتعددة كحل إلحادي لمعضلة المعايرة الدقيقة.

ثم تدب الحياة فجأةً علىٰ الأرض في عُضيات السيانوباكتريا.

ثم يتعاقب ظهور الكائنات الحية ويظهر الإنسان.

وينشأ الدين مع الإنسان.

ويظهر التوحيد والتعدد والوثنيات.

وتظهر الفلسفة.

ثم يعود التوحيد للظهور تحت مسميات مختلفة.

ثم يظهر العلم التجريبي المعاصر.

ثم ننتقل إلىٰ **الباب الثاني والذي يتحدث عن ظهور الإلحاد الجديد،** والربوبية، واللاأدرية، ثم نختم الباب بأدلة النبوات وصحة الإسلام الذي جاء به الأنبياء جميعًا، ولمحة عن آيات الله في خلقه.

ثم ننتقل إلىٰ **الباب الثالث والذي خصصناه لادعاءات الملحدين والذي نختم به رحلتنا في هذا الكتاب**[1].

نسأل الله عز وجل أن تكون رحلة شيقة وتجربة نورانية، ونرجو العلي القدير أن يكتب به الهداية لمن ضلّ والسداد لمن نجا، والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

(١) للتواصل مع د/ هيثم طلعت

(**montaqid@yahoo.com**)

(**https://www.facebook.com/haitham.srour12**)

الباب الأول
العودة إلى الإيمان

العودة إلى الإيمان

لماذا العودة إلى الإيمان؟

القاعدة التي أسس لها القرآن الكريم وشدَّد عليها في أكثر من موضع أن كل بعيد عن الإيمان هو أعمىٰ ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

فالأصل في الكافر العمىٰ، ولا يتحقق له الإبصار إلا بالإيمان، ولن يستطيع أن يتجاوز مرحلة العمىٰ مهما أوتىٰ من علم أو فُتحت له من معارف أو اتسعت دائرة علومه وتعددت طرقها وتشعبت مصادرها فهو سيظل أعمىٰ؛ نعم: مهما بلغ ومهما ارتقىٰ فلن يتجاوز مرحلة العمىٰ إلىٰ مرحلة الإبصار.

فلن يستطيع الإنسان التأسيس للمعنىٰ ولا التأسيس للقيمة إلا من خلال الإيمان، ولن يستطيع تحرير إجابة عن الأسئلة الوجودية الكلية –أسئلة النشأة– مثل: لماذا نحن هنا؟ ما الغاية من الوجود الإنساني؟ وكل أسئلة لماذا why لن يستطيع تحرير جواب لها؛ وستظل أجوبتها حِكْرًا علىٰ الإيمان.

ولن يتجاوز الإنسان بكل علومه ومعارفه وفلسفاته الإجابة علىٰ أسئلة كيف how ، أما أسئلة لماذا فستظل أجوبتها حصرية داخل ميدان الإيمان.

والقارئ في الشأن الإلحادي يعلم أن غاية الإلحاد الآن هي إخراس هذه الأسئلة الوجودية الكبرىٰ –كل أسئلة لماذا–، بل ووصمْها مرة بالتافهة كما فعل ريتشارد داوكينز Richard Dawkins حين سُئل عن بعضها في إحدىٰ الحوارات، ووصمها مرةً أخرىٰ بغير ذات معنىٰ، ولا ندري كيف لأهم الأسئلة

(١) سورة الرعد: الآية (١٩).

في الوجود الإنساني أن توصف بالتافهة أو بلا معنىٰ، وهل كون الإلحاد لا يملك إجابة تصبح الأسئلة تافهة؟!

إن المحاولات المتتالية لإسكات الأسئلة الكبرىٰ ليست إجابة ولا تُشبع إنسانًا يعلم أنه وُلد ليموت! ولا تُقدم حلاً، بل هي برهان آكد وحُجة سامقة علىٰ أن كل بعيد عن الإيمان هو أعمىٰ غير مبصر لحقيقة وجوده ولا لمعنىٰ وجوده ولا قيمة وجوده، ولا يعرف شيئًا عن وجوده.

من أجل ذلك: كانت العودة إلىٰ الإيمان هي شرط استيعاب معنىٰ الإنسان وتحليل ظاهرة وجوده، والتأسيس لقيمته وأخلاقياته ومبادئه وغاية كل عملٍ يعمله، فالعودة إلىٰ الإيمان تملك الإجابة الحصرية لكل أسئلة لماذا، وكل أسئلة المعنىٰ، وداخلها يجد الإنسان ذاته، أما خارجها فلا يجد إلا مجموعة من الذرات المتلاحمة بلا معنىٰ، والتي تتحرك بلا غاية وترتطم بلا هدف.

إن العماء الكامل يصم حالة عدم الإيمان والذين لا يملكون نورًا لن يستطيعوا أن يوجدوه ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[1].

فأصل النور هبة إلهية تقترن بالإيمان، ولن تستطيع كل فلسفات العالم أن تؤسس لومضةٍ من نور، فكوجيتو ديكارت Cogito Descartes " أنا أُفكر" انهار علىٰ يد ديفيد هيوم David Hume ، والحداثة التي أسس لها كانط Immanuel Kant ذابت علىٰ أعتاب ما بعد الحداثة، ولم يعد ثمة إمكان

(١) سورة النور: الآية (٤٠).

إبستمولوجي –معرفي– لتأسيس الوعي والقيمة والمعنىٰ للوجود خارج الدين[١].

إن الإحالة إلىٰ الإيمان شرط أصيل لضمان المعنىٰ، فالحقيقة التي يُسلِّم بها البشر الآن أنه: لا حقيقة غائية في الخارج المادي المستقل، ولا يمكن ضبط الحقيقة بدون إيمان، فالعودة إلىٰ الإيمان هي شرط فكري وعقلي ومبررها هو المعطىٰ المادي نفسه، ففي الوجود المادي الخارجي كل شيء يسير وفقًا لقوانين مادية عمياء صارمة لا معنىٰ لها في ذاتها، مجرد قوانين عرضية حادثة غير مكتفيه بذاتها، لذا كانت الإحالة إلىٰ الماوراء من مقتضيات تبصر وتفحص العالم المادي ذاته.

لكن لماذا جعل الله النور قرينًا بالإيمان، بينما جعل العمىٰ قرينًا بترك الإيمان؟

لأن هذه غاية وجودنا كله، وحقيقة وجودنا، بل ولا معنىٰ لوجودنا حين نتمرد علىٰ هذه الحقيقة.

ولماذا الإسلام بالأخص هو الذي ارتضاه الله لعباده؟

الإسلام ليس فِرقة من الفِرق ولا عقيدة من بين عقائد الأرض، حتىٰ يوضع في مجال مُقارنة مع باقي الديانات .. بل هو أصل الأديان والعقائد والعبادات، وهو أنقىٰ أديان التوحيد.

فالإسلام هو تصحيح لمسار الديانات التي انحرفت، وإعادة لنهج أنبياء العهد القديم من لدن آدم إلىٰ نوح وصالح وأيوب وهود وإبراهيم وموسىٰ وداوود

(١) في دلالة الفلسفة وسؤال النشأة، د. الطيب بوعزة، ص١٩.

ويونس وهارون وعيسىٰ .. فعقيدة هؤلاء جميعًا هي عقيدة الرب إلهنا رب واحد بلفظ التوارة والإنجيل .. هذه العقيدة التي لا تعرف تثليث ولا أقانيم ولا موت آلهة منتحرة، ولا انتزاع آلهة من آلهة أخرىٰ - انتزاع الروح القدس من الآب - ولا آلهة قومية .. يقول تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[١].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[٢].

إذن فالإسلام ليس ديانة كالديانات وإنما هو أصل الديانات، وتصحيح للخلل الذي أصاب الديانات وبالأخص اليهودية والمسيحية في نسختيهما العهد القديم والجديد[٣].

لكن مقتضى الإيمان هو العبادة فلماذا العبادة؟!

العبادة هي تهذيب الغريزة وضبط النفس وانكسارها لباريها، واتباع الباري في كل ما أمر ونهىٰ، ولا يُصلح النفس إلا ذلك، فكما قررنا سابقًا لا يمكن التأسيس للأخلاق ولا للمعنىٰ إلا من خلال الإيمان.

---

(١) سورة الشورى: الآية (١٣).

(٢) سورة النساء: الآية (١٦٣).

(٣) كهنة الإلحاد الجديد، د.هيثم طلعت، ص٨٣.

وهل يحتاج الله لعبادتنا؟

الله غنيٌّ عن العالمين .. هذا أحد أصول الإسلام ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾[١].

لكن الله سبحانه وتعالىٰ يعلم أن عباده لن يصلحهم إلا عبادته.. ولن تستقيم أحوال العباد ومعاشهم إلا في كنف طاعته، وبقدر ابتعاد الإنسان عن الله بقدر استحلاله للمحرمات، فإذا لم تكن ثمة عبادة لله فكل شيءٍ مباح؛ لأنه لم تعد ثمة محرمات.

وكلما ابتعد الإنسان عن الله فإنه يُقاد من بطنه وفرجه أكثر مما يُقاد من عقله وضميره، حتىٰ صار يُطلق علىٰ إلحاد الغرب " إلحاد الفرج والبطن"، فعبادة الله صمام أمان للإنسان، والعبادة ترجع فائدتها علىٰ الإنسان فقط كما في الحديث القُدسي: «**يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أُوفيكم إياها؛ فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه**».

فعبادة الله غاية وجود الإنسان، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[٢]، أي: لم أخلق الثقلين إلا مُهيئين لعبادتي بما ركَّبت فيهم من العقول والحواس والقُوىٰ، فهم في حالة صالحة للعبادة، مُستعدة لها، فمن جرىٰ علىٰ موجب استعداده وفطرته آمن بي وعبدني وحدي، ومَن عاند واستكبر اتبع غير سبيل المؤمنين[٣].

---

(١) سورة الزمر: الآية (٧).

(٢) سورة الذاريات: الآية (٥٦).

(٣) تفسير سورة الذاريات، الشيخ حسنين مخلوف رحمه الله–شيخ الأزهر السابق–.

وهل اللهّ يُحب أن يُعبد؟

العبادة هي حق الله تبارك وتعالىٰ علىٰ عباده، فهل تعرف ما معنىٰ «**حق الله تبارك وتعالى على عباده؟**» .. إن الله عزَّ وجل هو الرب، الخالق، الملك، الحق؛ الذي يستحق وحده أن يُعبد، وأن يُشكر، وأن يُحمد، هذه صفاته يا إنسان .. هذه صفاتُ ربك الذي خلقك ورزقك.

تخيل رجلًا يسير في صحراء قاحلة ثم ظهرت فجأةً مائدة فيها من أصناف المأكولات ما لا يُحصىٰ، فأكل وشرب، وسمِن جسده وتجشَّأ، ولم يشكر المُنعم عليه، بل لم يشغل باله بمعرفة مصدر رزقه، هل يستوي هو ومَن يعرف رازقه بل وخالقه ويشكره علىٰ نعمه التي لا تُحصىٰ ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[1]؟

هل من المستغرب أن تشكر خالقك؟

هل من المستغرب أن تنظر في طعامك وشرابك ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾[2]؟ وكيف جعل الله طعامك وشرابك سائغًا؟ وجعل لك هضمًا ومخرجًا؟ وقدَّر عليك رزقك منذ كنت في بطن أمك بلا حيلةٍ منك ولا من غيرك؟

ألَا يستقيم لك أن تشكر رازقك والمُنعم عليك به؟

فالله يُحب أن يعبد ويرضىٰ لعباده الشكر، ويكره الجحود ولا يرضىٰ لعباده الكفر.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية (٣٤).

(٢) سورة عبس: الآية (٢٤).

وبدون عبادة الله يستبيح الإنسان كل المحرمات، وتتفكك عنده كل الأشياء، فعبادة الله هي صمام ضبط الحياة وضبط القيمة، ولن يُصلح الإنسان إلا عبادة خالقه.

ويبقىٰ السؤال: لماذا يقرر الله سبحانه وتعالىٰ لنا طقوسًا محددة في العبادة دون غيرها؟

عندما قام هنري فورد Henry Ford بصناعة السيارة، وقرر كيف تعمل سيارته ووضع الكتالوج وحدَّد الأصلح في التعامل مع سيارته، هنا هو الصانع وهو الأدرىٰ بالأصلح لصنعته، لم يعترض أحد، فإذا كان الله خالقك ورازقك فمن البديهي أن يحدد لك ما هو الأصلح - **ولله المثل الأعلىٰ** -.

الإحالة إلى الما وراء

بما سبق يتقرر أن العودة إلىٰ الإيمان والإحالة إلىٰ الما وراء، شرط كما قلنا لضمان المعنىٰ وتأسيس الإمكان الأنطولوجي -الوجودي- للحقيقة، ومن ثَم تسويغ بحث إمكانها الإبستمولوجي-المعرفي-[١].

إن الحقيقة التي يُسلّم بها البشر الآن أنه: لا حقيقة في الخارج المادي المستقل، ولا يمكن ضبط الحقيقة بدون دين واستقاء من الما وراء، ولا يمكن التأسيس للحقيقة أو ضبط المعرفة أو تقييم المعنىٰ بلا دين، ولم يعد ثمة إمكان إبستمولوجي لتأسيس الوعي الماهوي للوجود خارج الدين.

إن شرط الإحالة إلىٰ الدين شرط معرفي إبستمولوجي، وشرط مادي أنطولوجي، وشرط عقلي أولي؛ لأن إدراك الوجود يفيد تغيره وعرضيته وعدم

(١) في دلالة الفلسفة وسؤال النشأة، د. الطيب بوعزة، ص١٩.

اكتفاؤه بذاته، وهذا الإدراك -إدارك عدم اكتفاء الوجود بذاته- يستوي فيه البدائي وعالِم الفيزياء والفلسفي البارع، فالإحالة إلىٰ الدين هي قضية عقلية ومعرفية ومادية ومنطقية في الأساس، قبل أن تكون قضية أخلاقية أو نزعة إيمانية أو تجرد روحاني!

والموقف الإلحادي من هذه القضية موقف مدهش للغاية؛ لأنه يفترض التأسيس الماهوي لحقيقة الوجود مجردة، وبعد أن يعجز عن هذا التأسيس يقوم بالعودة إلىٰ الما وراء لاستقاء المعرفة والبحث عن اكتفاء الوجود لكن هذه المرة بصيغ لا عقلية ولا منطقية ولا مادية ولا معرفية، فيفترض الوعي في العدم والأزلية في المُحدث والشيئية في اللاشيء، وذاتية الانتقال إلىٰ الحياة في اللا حي، وذاتية التنسيق والضبط والعناية والانتقال للأفضل علىٰ مستوىٰ الكاوس-الفوضىٰ-، فتصير قضية الإلحاد الكفرية قضية جحد للعقل في المقام الأول ومعاندة للوجدان في الجوهر ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[1].

وأصل الإحالة إلىٰ الما وراء هو أصل عقلي، هدفه الأسمىٰ بحث الوجود الحق الذي يفصح عنه عالم الحس إفصاحًا ناقصًا.

ويصبح الانتقال من عالم الحس إلىٰ عالم المُثُل الماورائي هو مقصِد الوعي الوجودي كله، لذا ارتسمت صورة المفكر في كل الحضارات بالشخص المنعزل عن المجتمع المادي؛ لأنه مشغول بالكليات.

ولذا كانت المعرفة الما ورائية عند المفكرين أعلىٰ المعارف وأشرفها؛ لأنها النوع الوحيد المنوط بتفسير القضايا الكلية والوجودية والأسئلة الكبرىٰ، فنجد

(١) سورة الملك: الآية (١٠).

ديكارت مثلًا يقول: " الفكر الإنساني شجرة جذورها الماوراء وجذعها الفيزياء وأغصانها بقية العلوم"[1].

ولذا كان أكثر الناس انشغالًا بالماورائيات هم المفكرون وعلماء المادة؛ لأنهم لا يجدون في المادة اكتفاءًا ذاتيًّا يبرر وجودها، فطاليس كان فيزيائيًّا ورياضيًّا وفيثاغورس عالم فلك، وأفلاطون مؤسس الحركة الميكانيكية، وابن رشد فيزيائي وطبيب، وجابر بن حيان الكيميائي الأول وواضع أُسس المنهج التجريبي في البحث العلمي، والكندي رائد تحليل الشفرات.

ولم ينشغل بعلوم المادة إنسان إلا وأدلىٰ دلوه في الفكر بمقتضىٰ بحثه في المادة، فالإحالة إلىٰ الما وراء هي شرط فكري وعقلي ومبررها المعطىٰ المادي نفسه.

بعض المصطلحات التي قد تبدو غامضة:

الإبستمولوجيا: هي النظرة المعرفية التي في الذهن .

الأنطولوجيا: هي الشيء المادي خارج الذهن .

الماهوية: هي حدّ الشيء بما هو هو، وأصلها اسم الاستفهام ما والضمير هو: ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾[2].

الكاوس: الفوضىٰ.

---

(1) Descartes, principes de la philosophie, p266. (منقول من (م س ص٧٨

(٢) سورة البقرة: الآية (٦٨).

وبذلك يتقرر أن تصور وجود الإله ليس حاجة مشروعة بل حاجة مُلحة، فالعقل هنا لا يبتدع فرضية وإنما يُعبر عن حاجة ضرورية ضرورة الماء والهواء بل أولىٰ منهما، بل إن استيلاء سؤال الخلق علىٰ خواطر الأطفال ما أن يبتدءون في النطق والحكي أمرٌ معلوم، فضرورة الصانع مغروزة منذ وقت مبكر جدًّا، قبل تشكل الوعي ذاته.

فالعقل في أقصىٰ درجات فطريته لا ينفك عن سؤال الصانع، وبلهجة طفلتي الصغيرة " مين طيب؟"

بل إن فرضية الخالق - بتعبير الملاحدة- هي الأفضل علىٰ كل المستويات النفسية والوجودية معًا، وهي الجواب عن سؤال لماذا، وهي الجواب عن معنىٰ تطلعنا لما وراء الزمان والمكان، وهي الجواب عن الأسئلة الوجودية الكبرىٰ، وإن كان الملحد قادرًا علىٰ إخراس جميع هذه الأسئلة فهذا ليس بجواب.

وباستخدام اللغة العلمية وبعيدًا عن الدين فأيضًا أفضل الفرضيات الممكنة بالنسبة لمعطياتنا المعرفية هو أيضًا وجود الخالق.

فالإلحاد لم يكن يومًا ما مطلب معرفي ولن يكون.

فالذي لا يعرف الله كالأعمىٰ في هذه الحياة الدنيا، فهو لا يدري لماذا خُلق ولا يدري الحكمة من وجوده ويخرج من الدينا ولا يدري لماذا دخل فيها ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾[1].

فمعرفة الله هي مقتضىٰ عقلي من الواقع المادي ذاته، فإذا رأيت سيارة تتحرك بين المنحنيات والطرق الدقيقة بمهارة فحتمًا تتأكد أن السائق موجود،

(١) سورة محمد: الآية (١٢).

إن خروج الوجود من اللاوجود بمنتهىٰ المعايرة الدقيقة لحظة الخلق الأولىٰ fine-tuned universe يدل علىٰ خالق عليم قدير حكيم عظيم .

بل إننا نستطيع معرفة بعض صفات الخالق بالتفكر في مخلوقاته:

سنشاهد الحكمة في كل مخلوقاته واستغلاق أفهامنا مهما بلغ بنا العلم فهو الحكيم.

سنشاهد الخبرة في كل ما دق وصغر فهو الخبير.

سنشاهد القوة حتى في قلب نواة الذرة فهو القوي.

سنشاهد الجمال في ندفة الثلج ولون الزهرة وصوت العصفور حتى شكل المعادلة الرياضية التي صاغ منها الكون فهو المصور البديع.

سنشاهد هداية الرضيع إلى طعامه وغريزة الأم إلى الحنو على وليدها فهو الهادي.

سنشاهد الحياة والحركة في أدق الجسيمات وفي أعظم الأفلاك فهو المحيي.

سنشاهد الإتقان والمعايرة الدقيقة لكل قانون يسير به الوجود فهو العليم .

سنشاهد الحفظ لكل الموجودات بما يكفل لها قدر ما تعيش به فهو الحافظ.

سنشاهد تدبير الأقوات والأرزاق لكل كائن بقدره فهو الرزاق.

سنشاهد أنه خلق الوجود كله من خامة واحدة-الهيجزات الأولى- فهو الواحد الأحد.

لكن في واقع الأمر ليست كل صفات الخالق تُطلعنا عليها موجوداته، فالعقول متكافئة في حالتها الصفرية في الاستقلال بفهم عالم الغيب، فالعقل لا يستقل باستيعاب عالم الغيب أو فهم مراداته، بل إن مطلق العقل منفتح علىٰ ممكنات لا حصر لها في استيعاب عالم الغيب، لذا كان الدين جوهر استيعابنا للقضية الوجودية الكبرىٰ، وضابط تصوراتنا ، فالعقل لا يفرض أحكامًا مفصّلة علىٰ ما يجوز وما لا يجوز علىٰ الخالق، فمعرفة مراد الخالق لا يستقل به العقل وحده ولا يفرض معرفة تفصيلية بشأنه، أو توجه بعبادة مخصوصة وإنما يتيح ذلك العقل والسمع- النقل- معًا.

وفي هذا تصبح القضية الدينية هي الحاجة الأقرب للمنطق والعقل ومعطياتنا المعرفية.

الآن وبعد أن بينَّا أن العودة إلى الإيمان ضرورة عقلية ومنطقية، نطرح أولى بُنيّات الإلحاد وهي القول بصدفوية نشأة الكون ردًّا على السببية.

صدفوية نشأة الكون والسببية

أصل العلم الحديث يقوم علىٰ العلاقة بين السبب والمؤثر، فرصد الذرات يتم عبر إثبات أثرها ودلائل وجودها، ورصد القوانين يتم عبر الاستدلال بأثرها، ورصد الجاذبية هو رصد لأثرها وليس رصد للجاذبية ذاتها فنحن إلىٰ اليوم لم نرصد جسيم جاذبية واحد graviton ومع ذلك نُسلم يقينًا بوجود الجاذبية، بل كل علوم المايكرو تقوم علىٰ رصد الأثر، فلا يوجد شيء في العلم الميكروي يسمىٰ مثلاً مشاهدة الإلكترون، وإنما رصد أثره!

وهنا شاهدان؛

الشاهد الأول: أن السببية أصل العلم وأقوىٰ من البرهان والقانون، فالذي ينكر السببية لمجرد مخالفتها لعقيدته الإلحادية فهو معاند لبديهة عقلية مستقرة في عقول جميع البشر منذ اللحظة الجنينية -إذ ثبت أن الجنين يؤمن بالسببية وهو ما زال في بطن أمه ولو ضغط الطبيب علىٰ رحم الأم أثناء الفحص يعطي الجنين رد فعل حسب مكان الضغط وحسب التأثير، فهو يؤمن بوجود سبب ومُسبب-.

الشاهد الثاني: أن الاستدلال بالأثر هو استدلال علمي منطقي يقبله العقل ويقوم بمنزلة البرهان علىٰ وجود المؤثر.

والآن لدينا كون مخلوق بمعايرة دقيقة للغاية fine-tuned من اللازمان واللامكان إلىٰ المكان والزمان مع أن قانون العلم يقول بحفظ الطاقة وأن الطاقة لا تُستحدث من العدم، لكن نحن أمام طاقة هائلة استُحدثت من العدم في لحظة واحدة- فكل طاقة الكون وكل مادة الكون ظهرت في جزء أقل من مليار مليار مليار جزء من الثانية-، ألا يدل ذلك علىٰ مُحدث وخالق وصانع، أليست هذه بديهة لا يجد العقل لها ردًّا؟

أما القول بالصدفة فهو جهل بأصول الإحتمالات؛ لأن الصدفة لها شرطان لا ينفكان عنها، وهما: الزمان والوجود، فالصدفة تشترط زمان تقوم فيه بإحداث أثرها، وتشترط وجود مادي مكاني تقوم عليه ليُنتج مفعولها، فكيف نقول بدور الصدفة في إيجاد الكون، مع أن كوننا جاء من اللازمان واللامكان؟ كيف يظهر أثر الصدفة دون ظهور الصدفة نفسها؟ كيف تُعطي الصدفة أثرًا قبل وجودها ووجود الزمان ووجود المكان اللذان هما شرطا الصدفة الأساسيان؟

أيضًا للصدفة أركان لا تنفك عنها؛ مثل:

أولاً: العشوائية؛ لكن كوننا مخلوق بمعايرة دقيقة للغاية فيما يعرف بالحد الحرج fine-tuned فالكون وُجد بآلاف الثوابت الفيزيائية التي لو اختل واحد منها بمقدار ضئيل للغاية لما ظهر للوجود معنىٰ.

ثانيًا: اللامعنىٰ؛ بينما المعنىٰ هو الأصل في كل حركة وفعل علىٰ الأقل بالنسبة للإنسان الذي يستوعب ذاته، إذ لو لم يكن للوجود معنىٰ فلا معنىٰ للاغتصاب وسيبدو مجرد حركات ديناميكية وانثناء أربطة وشد أوتار لا أكثر!

ثالثًا: اللاقيمة؛ بينما كلنا يبتغي القيمة وتوجهه القيمة حتىٰ الملحد يكرز-يبشر -بكهنوته الإلحادي منطلقًا من وجود قيمة لتكريزه وهدف مرجو منها.

رابعًا: اللاغاية؛ بينما لكل فعل غاية ولو لم يكن لوجودنا غاية، لما كان السعي لإنقاذ الفتاة المُغتصبة في المثال السابق معنىٰ!

خامسًا: اللامعيارية؛ فمعيارية الأخلاق مثلاً مهما صنعها الإنسان أو المجتمع لن تخرج خارج الإطار المادي المنفعي المصلحي، بينما

الأخلاق لا مادية، ولو رأىٰ مجموعة من الشباب الفتاة في المثال السابق تُغتصب، وعلموا أن إنقاذهم لتلك الفتاة قد يؤدي إلىٰ مقتلهم، وقاموا بإنقاذها، فهؤلاء في عُرف الإنسانية أبطال يجب أن يُكرموا، بينما ماديًّا لا معنىٰ لتصرفهم بل هو تصرف ضد المادة وضد المصلحة الشخصية وهو تصرف غير مقبول، وهذا يؤكد لامادية الأخلاق، وانفصال معنىٰ الإنسان عن هذا العالم المادي، وقيمة الفعل الإنساني وغائية تصرفه ومعنىٰ وجوده؛ وأنه يستمد معناه وقيمته من عالم آخر، وبالتالي هذا مثال علىٰ الأقل يوضح مفارقة الإنسان بمفاهيمه وقيمه ومبادئه وأخلاقياته للعالم المادي المجرد، فيؤكد وجود المعنىٰ والقيمة والهدف والغاية، - إذ كيف يستطيع كون خالٍ من الغائية أن يخلق إنسان تُحركه الغائية والهدف؟- ، بل إنه لا يشذ عن الإيمان بغائية التصرف الإنساني إلا الملحد.

إذن ما سبق دلائل مباشرة

تدل على وجود الخالق القادر الحكيم الصانع المدبر خالق هذا الوجود.

تدل على معنى وجود الإنسان وغائية وجوده. وقيمة كل أفعاله.

وسفاهة القول بالصدفة.

كارثية القول بالصدفة، والقول بأزلية العالم

القول بصدفوية الظهور المفاجيء لوجودنا كما حرّرنا، يعد كارثة من وجهين:

١- الصدفة تفتقر إلىٰ الزمن، والذي يفتقر إلىٰ شيء يأتي بعده، وبالتالي الصدفة جاءت تالية للزمن؛ لأن الزمن شرط وجودها، وكوننا ظهر من اللازمن، أي من اللاصدفة.

٢- الصدفة بدورها تفتقر إلىٰ المادة التي ستطبق نفسها عليها، فالمادة سابقة علىٰ الصدفة لأن شرط وجود الشيء سابق عليه، فكيف يُفسر ظهور مادة الكون بالصدفة مع أن الصدفة لن تظهر إلا بعد ظهور مادة الكون، والكون كله ظهر من اللامكان أصلًا.

إذن فظهور المادة إما أن يُفسَّر بالصدفة وهذا باطل؛ لأن المادة شرط لوجود الصدفة، كما أن زهر النرد شرط لعامل الصدفة في لعبة النرد، والصدفة تفتقر إلىٰ عامل الزمن وحقيقة الزمن لا تخرج عن جنس المادة، فالمادة شرط لوجود شرط وجود الصدفة وبالتالي فالصدفة لا تفسر وجود المادة.

فمطلق وجود المادة هو أصل لتصور الزمن الذي هو أصل لتصور وجود الصدفة[(١)].

لكن هنا قد يدعي الملحد أن المادة مادة لا تفتقر إلىٰ تفسير، وسنظل ندعم أزليتها وتسلسلها اللانهائي؛ لكن هذه كارثة من ثلاثة أوجه وليس وجهين:

(١) إننا قلنا في حق الخالق نفس هذا الكلام من أنه لا يفتقر إلىٰ تفسير، فأنكرتموه وأبيتم، إذن كان هذا محض تحكم لا أكثر ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[(٢)].

---

(١) من وحي كتاب - ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان، د. عبد الله بن سعيد الشهري، مركز نماء للبحوث والدراسات، الطبعة الأولىٰ ١٤.

(٢) سورة النجم: الآية (٤٢).

(٢) قبولكم لمبدأ عدم التفسير في وجود الكون ورضوخكم له، هو قبول لمبدأ يخالف أصلكم العظيم الذي يقضي بأنه ما من شيء إلا يمكن تفسيره، وأن القوة التفسيرية تبلغ ذروتها وتكمل إحاطتها في نظرية كل شيء TOE .

(٣) أما قولكم بالأزلية والتسلسل اللانهائي فهذا لعنة anathema علىٰ العلم الطبيعي؛ لأنه يقضي علىٰ أي أمل في تفسير العالم، وهذا يعني أنكم بدوغمائيتكم الإلحادية تقضون علىٰ كل علم وفكر [١].

فالذي يقضي بالأزلية يقضي بلا غائية العلم الطبيعي وعبثية سعيه، ولذا يقول لودفيغ فتغنشتاين Ludwig Wittgenstein " معنىٰ العالم لابد أن يقع خارج العالم، في داخل العالم كل شيء علىٰ ما هو عليه، ويقع كما يقع، في داخله لا يوجد قيمة، وإن وجدت فستكون بلا قيمة – لأنها غير مُفسرة تفسير كامل–، فعندما تكون هناك قيمة لابد أن تقع خارج نطاق الحوادث ووجود الأشياء في ذواتها، فلابد في النهاية أن يقع خارج العالم"[٢].

فما بالنا ومظاهر التصميم أظهر في ظواهرها من كل شيء.

وفي واقع الأمر فلعبة أزلية الكون قد انتهت تمامًا، فبداية الكون في الزمان والمكان صارت الآن حقيقة علمية، يكاد يُجمع عليها المجتمع العلمي كله، ولـم يعد يُنادي بأزلية الكون إلا الملحد.

---

(١) المصدر السابق.

(2) Wittganstein, L., Tractatus Logico-Philosophicus, p183.

ولم يعد لفرضية أزلية الكون أي سند علمي أو تجريبي أو رصدي، بل كل الرصد العلمي يتجه نحو الإقرار ببداية الكون من اللازمان واللامكان، وهذا أمر بطبيعته يقلِق أي ملحد بسبب لوازمه اللاهوتية.

ولا أكاد أعرف الآن مَن يدعم أزلية الكون إلا الملحدين، وهنا يتجلىٰ الصراع بين العلم والكهنوت الإلحادي، الصراع بين المعطيات العلمية والدوغما الإلحادية، وللأسف الشديد لن يتقبل الملحد ببساطة أن يتنازل عن أي أصل من أصول إلحاده مهما ارتفعت وثوقية العلم ووثوقية الأدلة التي يحملها؛ لأن القضية دين إلحادي كهنوتي وثني دوغمائي يتشربه قلب الملحد ويصير مع الوقت إيمانًا ودينًا يكرز -يُبشر- له الملحد ويدعو إليه.

ولا أكاد أُحاور مُلحدًا إلا وأجد عنده رصيدًا من النزوع نحو القول بأزلية الوجود، مع أن هذا أمر لم يثبت علميًّا بأي شكل من الأشكال ولا صورة من الصور، لكنه الدين الإلحادي الجديد.

ولذا اعترف الفيزيائي الملحد [ستيفن واينبرج] Steven Weinberg، أنه كان يتمنىٰ نظرية الكون الثابت الأزلي؛ لأنها أكثر جاذبية، وأبعد عمَّا نادت به الأديان[1].

لكن أُمنيات ستيفن واينبرج اصطدمت أول ما اصطدمت بحائط العلم نفسه، ولم يعد لها مكان داخل العلم المادي، يقول الفيزيائي البريطاني [دينيس شياما] DENNIS SCAIMA "لم أُدافع عن نظرية الكون المُستقر لكونها

(١) عالم داخل العالم، نيل توروك، ص ٢٢٦.

صحيحة، بل لرغبتي في كونها صحيحة، ولكن بعد أن تراكمت الأدلة تبين لنا أن اللعبة قد انتهت"[١].

فاللعبة قد انتهت فعلًا، وبذلك يعترف[أنتوني فلو] Antony Flew فيلسوف الإلحاد في القرن العشرين قائلًا: "يقولون: إن الاعتراف يفيد الإنسان من الناحية النفسية، وأنا سأُدلي باعترافي .. إن نموذج بداية الكون شيء محرج جدًّا بالنسبة للملحدين ، ذلك لأن العلم أثبت فكرة طالما دافعت عنها الكتب الدينية"[٢].

وبعد كل هذا سيظل الكهنوت الإلحادي هو المسيطر، والدوغما الإلحادية هي الصوت الأعلىٰ رغم العلم ورغم الرصد، إن الأمر عندهم دين.

وبعد أن أبطلنا القول بصدفوية الكون وأزلية العالم، يجمل بنا أن نعرج الآن إلى المعايرة الدقيقة للكون لحظة الخلق الأولى.

(1) Introduction..The Unity of the Universe. N.Y., Doubleday ..Dennis William Sciama...introduction.

(2) Henry Margentau, Roy A. Vargesse. Cosmos, Bios, Theos. La Salle IL: Open Court Publishing,1992. 241.

المعايرة الدقيقة للكون

(Fine-tuning of universe)

ظهر الكون إلىٰ الوجود بمعايرة دقيقة لآلاف الثوابت الفيزيائية والطبيعية، والتي لو اختلّ ثابت منها بمقدار جزء من مليار مليار جزء لاختل الكون قبل أن يبدأ أو لتوقف عند مرحلة البيضة الكونية cosmic egg .

يقول الفيزيائي الشهير ستيفن هاوكنج Stephen Hawking: " إن سرعة توسع الكون سرعة حرجة جدًّا إلىٰ درجة أنها لو كانت في الثانية الأولىٰ من ظهور الكون أقل من جزء من مليون في مليـار جزء لانهار الكون حول نفسه قبل أن يصل إلىٰ وضعه الحالي"[(١)].

وكل الثوابت الفيزيائية ظهرت في نفس اللحظة بنفس المعايرة الدقيقة والضبط الحرج فمثلًا:

(١) كتلة الإلكترون Electron mass تمثل ٠.٢٪ من كتلة النيوترون Neutron mass، وهذه هي الكتلة القياسية لتكوين الذرَّة .

(٢) ولو كانت كُتلة البروتون Proton أثقل مما هي عليه الآن ب٠.٢٪ فقط، فإنه سينحلَّ إلىٰ نيوترونات Neutrons، وبالتالي سيعجز عن الإمساك بالإلكترونات التي تدور حول النواة وسينهار النموذج الذري، ولو كانت النسبة بين كتلة البروتون إلىٰ كتلة الإلكترون أقل قليلاً مما هي عليه الآن، فلن تظهر نجومٌ مستقرّة، ولو كانت أعلىٰ قليلاً مما هي عليه الآن فلن تظهر الأنظمة التشفيرية في خلايا الكائنات الحية DNA – لأن الأنظمة التشفيرية تعتمد علىٰ

---

(١) موجز تاريخ الزمن، ص١٢١.

توازن ذرات الكربون التي تُشكِّل القواعد النيتروجينية في أنظمة التشفير، وذرات الكربون تحتاج إلىٰ توازن كتلة البروتون مع كتلة الإلكترون حتىٰ يصبح الكربون ذرة مستقرة -. وبالتالي لن يظهر الكائن الحي .

(٣) عندما تلتحم ذرتان من الهيدروجين فإن ٠.٧ ٪ من كتلة الهيدروجين تتحول إلىٰ طاقة، لو كانت هذه الكتلة هي ٠.٦٪ بدلا من ٠.٧٪ ، فإن البروتون لن يلتحم بالنيوترون، ولظل الكون مجرد هيدروجين فحسب، ولما ظهرت باقي العناصر، ولو كانت الكُتلة المتحوّلة إلىٰ طاقة هي ٠.٨٪ بدلاً من ٠.٧٪، لأصبح الالتحام سريعًا للغاية، الأمر الذي سيؤدي إلىٰ اختفاء الهيدروجين فوراً من الكون، فتستحيل معه الحياة، فالرقم يلزم أن يكون بين ٠.٦٪ و ٠.٨٪.

(٤) النسبة بين القوىٰ الكهرومغناطيسية والجاذبية هي ١ : ١٠ أس٤٠، وهو فرق شاسع لا يمكن استيعابه، كذلك الفرق بين القوىٰ النووية القوية والقوىٰ الجاذبية، هو أيضًا فرق مهول للغاية، ولو افترضنا أن الأرض التي تجذب الإنسان بقوىٰ الجاذبيّة، قامت بجذبه بالقوىٰ النووية القوية، فإن وزن الإنسان علىٰ الأرض سيُعادل مائة مليون نجم!

لكن السؤال الآن: ما الذي يجعل القوىٰ الجاذبية بهذا الضعف الشديد، والقوىٰ النووية القوية بهذه القوة الشديدة؟ مع أن هذا الفارق الرهيب في موازين القوىٰ ليس من شروط ظهور الجسيمات الأُولىٰ، ولا من مُعطياتها ..!! إنه الإعداد الإلهي بالعناية الفائقة.

(٥) يقول [ماكس تيجمارك] Max Tegmark عالم الكونيات الأمريكي: "إذا كانت القوىٰ الكهرومغناطيسية أضعف مما هي عليه بـ٤٪ فقط، لانفجرت الشمس فور تكونها، وستصبح نفس النتيجة إذا زادت القوة الكهرومغناطيسية

عما هي عليه، إن ثوابت الطبيعة تبدو مُعدَّة بعناية عند مستوًى ما، وإذا كانت القوىٰ النوويّة الضعيفة أقل مما هي عليه الآن لن يتكون الهيدروجين، وبالتالي سيظل الكون مجرد غبار كوني، وإذا كانت أقوىٰ قليلاً فإن جسيمات النيوترينو neutrinos ستعجز عن مغادرة المستعرات العملاقة - السوبرنوفا Supernova- وبالتالي لن تنتقل العناصر اللازمة للحياة خارج المستعرات العملاقة – النجوم المُنفجرة -"[١].

(٦) قوىٰ الجاذبية لو كانت أقوىٰ قليلاً مما هي عليه الآن لما استغرقت حياة الشمس التي ستتكون بعد ذلك أكثر من عشرة آلاف سنة . فهذا ضبط غير قابل للاختزال أو للتأجيل، فسبحان بديع السماوات والأرض .!!

ولذا يرىٰ [ليونارد سوسكايند] أستاذ الفيزياء النظرية بجامعة ستافورد والمؤسس لنظرية الأوتار الفائقة أن مُعطياتنا عن الثوابت الكونية – مثل النسبة بين الإلكترون والبروتون –، تقف كلها علىٰ حافة سكين وكلها مُستقلة عن بعضها البعض، وفي الوقت نفسه تتلاقىٰ لتسمح فقط بإحداث الحياة، وتغيُّرُ أيِّ مُعطىٰ من هذه المعطيات التي نشأت مستقلة لم يكن يسمح لها بالتلاقي فضلًا عن إمكانية إيجاد حياة أو حتىٰ منظومة كونية [٢].

ولو افترضنا للحظة أننا نرغب مثلًا في رؤية الذرات الموجودة داخل رأس دبوس صغير، فإننا بحاجة إلىٰ تكبير رأس الدبوس بحيث يصير بحجم الكرة

(١) space.mit.edu/home/tegmark/multiverse.pdf.

(٢)http://www.edge.org/3rd_culture/smolin_susskind04/smolin_susskind.html.

الأرضية وفي تلك الحالة لن يتجاوز حجم الذرَّة كرة قدم صغيرة .. لماذ الذرات بهذا الحجم المدهش؟

إذا افترضنا أننا نرغب في رؤية النواة داخل الذرَّة فإننا بحاجة لتكبير كُرة القدم السابقة لتصير بحجم ملعب كرة قدم كبير وفي تلك اللحظة فلن يتجاوز حجم نواة الذرة حبة غُبار صغيرة للغاية .. فحجم نواة الذرَّة يساوي جُزء من عشرة بلايين جُزء من حجم الذرَّة .. ومع ذلك توجد كُتلة الذرة كلها في النواة ٩٩.٥٪ .

والآن التساؤل الهام: كيف تكون كتلة ملعب عملاق كلها موجودة فقط في حبة غُبار منه والباقي فراغ تـام؟

إن هذا النظام الذري بهذا الشكل وهذا التوازن بين كتلة النواة في مقابل حجمها داخل الذرة هو النظام الوحيد الذي يسمح بتشكيل الكون وبحدوث التفاعلات الفيزيائية .

فهذا الأمر لا يُمكن استيعاب حدوثه بالصُدفة أو الخبط العشوائي إنه تدبيرُ وإحكامُ وعجيبُ صُنْعِه، ولذا يأمر الله سبحانه باستمرار بتدبر آيات خلقه وشواهد قدرته!

وهكذا آلاف الثوابت الكونية في كوننا والتي جاءت بمنتهىٰ المعايرة الدقيقة والضبط بحيث تتيح كل صور الحياة والاتزان حولنا، وكل ثابت منها يمثل معجزة بحد ذاته وأروع هذه الثوابت هو الثابت الكوني Cosmological constant الذي لو اختلفت قيمته بأقل من جزء من صفر يليه ١٢٣ صفر ثم ١ من الواحد لانهار الكون بأكمله، وغيرها من الثوابت الشيء الكثير مثل درجة غليان الماء، ومثل كتلة البروتون ومثل حجم النواة ومثل حجم الذرة و.. ، إنها

معايرة دقيقة وضبط بعناية وإلا ما ظهر الكون، إذن الخلق لابد أن يستتبعه إعداد بعناية fine tuning of the universe وهذه الكلمة fine tuning of the universe دخلت إلىٰ الفيزياء عن طريق الفيزياء وليس عن طريق الدين.

هذا هو الإشكال الحقيقي الذي يفرض نفسه علىٰ الملحد من ضمن آلاف القرائن والأدلة التي تثبت روعة الخلق وضبط الصنع، ولا يبقىٰ إلا شكر المنعم أو تجاهل القضية وتمضيتها عبث في عبث.

الأكوان المتعددة

وأمام إشكال المعايرة الدقيقة للكون، افترض الملاحدة وجود أكوان متعددة لا نهاية لها ظهر كوننا من بينها بقانون الاحتمالات وهذه مغالطة تحتوي علىٰ عشرات الأخطاء العلمية والمعرفية والعقلية والمنطقية، لكنها الحل الوحيد المتاح!

يعترف ريتشارد داوكنز في حواره مع ستيفن واينبرج علىٰ موقعه الرسمي، فيقول: "إذا اكتشفت هذا الكون المدهش المعد فعليًّا بعناية .. أعتقد ليس أمامك إلا تفسيرين اثنين .. إما خالق عظيم أو أكوان متعددة"[1].

---

(1) If you discovered a really impressive fine-tuning ... I think you'd really be left with only two explanations: a benevolent designer or a multiverse.
VOICES OF SCIENCE... Richard -Dawkins -Steven-Weinberg -Lawrence-Krauss-PZ-Myers-David-Buss..

وردًا على خرافة الأكوان المتعددة نقول:

أولًا: افتراض وجود أكوان متعددة هو فرض ميتافيزيقي لا يدعمه دليل إمبريقي أو تجريبي أو ميثودلوجي واحد!

وكون عقل الملحد يدعم هذا القول بل ويقوم باستخدامه؛ فهذا معناه أن العقل يدعم الفرض الميتافيزيقي ولا يستبعده من الحساب العقلي، إذن عقولنا مُهيأة لاستيعاب الماورائيات، إذن لا مانع من قبول فكرة الميتافيزيقيا عمومـًا، وإنما يعترض الملحد علىٰ نسبتها إلىٰ الخالق تحديدًا !!!
فمشكلة الملحد مع الخالق تحديدًا وليست مع المعطيات أو مع تركيبة عقله!!

ثانيـًا: يستحيل إمبريقيًّا –تجريبيًّا- إثبات أكوان قبل كوننا، أو أكوان مع كوننا؛ لأن هذا الأمر رصديًا يكسر حاجز أُفق الجسيم particle horizon وهذا أمر ممنوع فيزيائيًّا.

ثالثًا: الرياضيات التجريدية لا تسمح بوجود كون آخر مع كوننا أو كون آخر قبل كوننا؛ لأن وجود أكثر من كون سيتبع نفس main Hamiltonian وهذا ممنوع رياضيًّا طبقـًا للـ orthagonality theorm.

رابعًا: وجود أو عدم وجود أكوان أُخرىٰ لا يجيب عن السؤال، ولا يُفسر المعايرة الدقيقة لكوننا، المشكلة أن الملحد في رده هذا يتصور أن كوننا هذا مثل النرد – الزهر- الذي رُمي بلايين المرات- ولا ندري مَن الذي يرمي النرد في كل مرة-، المهم أنهم يتصورون أنه من البساطة بمكان أن يأتي كون واحد من بعد بلايين الرميات العشوائية بشكل منظم وبتوليف دقيق كامل لثوابته الفيزيائية، والخطأ هنا أنهم يتصورون أن ذلك التوليف الدقيق المدهش هو مثل أن يأتي رمي ألف زهر متتابع ويأتون جميعهم بالرقم ٦ مثلًا، المهم أن بلايين

الرميات تأتي كل مرة بتوليفة دقيقة تسمح بوجود ثوابت كونية مدهشة، والمشكلة الأُخرىٰ ثبات هذه التوليفات والحفاظ علىٰ باقي التوليفات الصحيحة، فكل ثابت من الثوابت الكونية هو توليفة دقيقة من بلايين الرميات، وليست القضية في التوليفات فحسب، بل بقاء هذه التوليفات، ودقة هذه التوليفات.

وفكرة الأكوان المتعددة هي فكرة نتجت لحل معضلة الإعداد المسبق لكوننا بعناية fine tuning of the universe فهي كحل تفترض أن هناك تريليونات تريليونات تريليونات الأكوان الأخرىٰ ١٠ أس٥٠٠ كون طبقا لستيفن هاوكنج في كتابه الأخير - التصميم العظيم - لكن في الواقع نحن لم نشهد أي كون آخر غير كوننا فضلا عن تريليونات تريليونات تريليونات الأكوان الأخرىٰ.

ثم إن هذا لا يحل مشكلة التصميم المسبق بعناية؛ لكوننا بل ربما مع الوقت يطرح تساؤلات فلسفية أعمق مع تقدم علوم الفيزياء .

وللمرء أن يتساءل: لماذا الإقدام علىٰ فرضية غاية في الغرابة والدهشة والبعد عن التجريب والاختبار واليأس التام في الرصد كتلك الفرضية، فقط لمجرد الهروب من معطيات كوننا التي تطرح تساؤلات فلسفية عميقة؟

يرىٰ علماء الكونيات الداعمين لتلك الفكرة من أمثال ليونارد سوسكايند أن رصد كون آخر هو مستحيل علميًّا ومنطقيًّا، والسبب في ذلك يرجع كما قلنا لما يُعرف بأُفق الجسيم the particle horizon وهو أقصىٰ مسافة من تلك الجسيمات التي تحمل المعلومات والتي ما أن تصل للراصد يكون عمر الكون قد انتهىٰ منذ مليارات السنوات الضوئية، وأي كون آخر حتمًا هو خارج أُفق الجسيم the particle horizon .

وبما أن فرضية الأكوان المتعددة طبقا لأفق الجسيم يستحيل رصدها أو حتىٰ اختبار وجودها، فإنها تخرج خارج دائرة العلم المادي النظري – لأن حجر الزاوية في العلم هو الرصد والاختبار والتجربة – وتتحول إلىٰ فرضية فلسفية لا تخرج خارج هذا الإطار .

ولذا يقول عالم الكونيات جورج إليس cosmologist George Ellis أن فرضية الأكوان المتعددة ليست من العلوم، ولا توجد داخل دائرة العلم وإنما في إطار الفلسفة .

ويبدو أنه كما قال أرسطو قديمًا أن: الذي ينكر الميتافيزيقيا هو أيضًا يتفلسف ميتافيزيقيًّا .

ثم إننا بحاجة إلىٰ رصد كون يختلف عنّا في قوانين فيزيائه وقاصر في معطياته، حتىٰ نفخر بكوننا وأنه الكون المميز وهذا يطرح إشكالات أعمق بكثير إذ لابد من التصميم الدقيق لكل كون قبل خروج هذه الأكوان بكل هذه المعطيات ففي كتابه التصميم العظيم يقرر ستيفن هاوكنج أن فكرة الأكوان المتعددة هي فكرة مزعجة للغاية .

فعملية إبداع أكوان متعددة عملية مدهشة للغاية وتحتاج إلىٰ قوانينها الخاصة هي الأخرىٰ، وثوابتها الفيزيائية الخاصة التي ربما تفوق في دهشتها وعظمتها ثوابتنا تريليونات تريليونات تريليونات المرات، وهل لهذه الأكوان المتعددة كون " أُم" ، ثم مِن أين أتىٰ هذا الكون الأُم؟ وبالتالي ربما نكتشف أن الذين افترضوا أكوان متعددة سيجابَهون يومًا ما بإلزامات ماورائية أعظم بكثير مما لو كانوا تخلوا عن تلك الفكرة ... إننا ننتقل خطوة ما ورائية أعلىٰ بالقول بأكوان متعددة .

إذن الأكوان المتعددة لم تحل مشكلة الإعداد بعناية بل طرحت مشكلة الإعداد بعناية لكن على أبعاد أخرى ربما لا يجرؤ العقل البشري على استيعابها في الأمد المنظور .

ثم إن معادلات النظرية M والتي اعتمدها ستيفن هاوكنج في كتابه الأخير تفترض خمس نهايات –معادلات– مختلفة تمامًا، والخمس معادلات بنفس الدرجة من القوة وكل معادلة تنتهي بملايين الطرق المختلفة.

يقول ستيفن هاوكنج ما يلي:

"In addition to the question of dimensions, string theory suffered from another awkward issue: There appeared to be at least five different theories and millions of ways the extra dimensions could be curled up String theorists are now convinced that the five different string theories and super gravity are just different approximations to a more fundamental theory, each valid in different situations .That more fundamental theory is called M-theory p174"[1].

ولذا يعترف هاوكنج أننا حتى الآن نحاول أن نفكّ ألغاز النظرية إم ولكن يبدو أن هذا مستحيل: People are still trying to decipher the nature of M-theory, but that may not be possible.p.١٧٥

(١) التصميم العظيم، ص١٧٤.

أيضًا هذه الطريقة الفلسفية – الأكوان المتعددة- للهروب من مُشكلة المعايرة الدقيقة للكون تناقض شفرة أوكام Occam's razor ، فطبقا لشفرة أوكام فإن أبسط التحليلات لمشكلة معقدة هي الصحيحة، وينبغي اختيار أبسط نظرية تناسب حقائق المعضلة، لكن هؤلاء الفيزيائيون يختارون أعقد نظرية إنهم يختارون ١٠ أس٥٠٠ كون وخمس معادلات صحيحة وملايين الطرق لكل معادلة، كل هذا حتىٰ يتسنىٰ لهم أمام هذه التريليونات تريليونات تريليونات الأكوان أن يفترضوا صدفوية نشأة كون مميز للغاية ككوننا.

الخلاصة:

لقد سقطت المقولات الإلحادية القديمة التي كانت تقول أن الكون كاف نفسه بنفسه، واحتاج الملاحدة أنفسهم للخروج خارج الكون للبحث عن أكوان متعددة، للخروج من مأزق الثوابت الكونية التي هم أنفسهم أطلقوا عليها الثوابت المُعدة بعناية fine-tuning .

والآن: وبعد أن تبين أنه لا يوجد حل عملي أو فيزيائي مقنع للثوابت الكونية التي نحيا في ظلالها وعلىٰ روافدها، لم يعد أمام هؤلاء مناص مادي أو فيزيائي أو عقلي من التسليم بالخالق العظيم الذي أتقن كل شيء، وجاء به علىٰ أروع صورة تدهش كل عالم فيزيائي يبحث في الكون ويُسلم بعظمة الخلق وروعة الإبداع وذهول الثوابت الفيزيائية .. ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[1]، فسبحانه ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[2]،

---

(١) سورة النمل: الآية (٨٨).

(٢) سورة طه: الآية (٥٠).

سورة طه، سبحانه الذي أحسن كل شيء خلقه وجاء به علىٰ أروع صورة ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾[1].

وهو سبحانه الذي أمرنا أمرًا مباشرًا أن نتفكر في آلائه وعظمة خلقه وكيف بدأ الخلق ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ﴾[2].

لقد سرنا ونظرنا كيف بدأ الخلق، ونشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فهو الذي علمنّا كيف نشكر الله

فالحمد لله رب العالمين

(١) سورة السجدة: الآية (٧).

(٢) سورة العنكبوت: الآية (٢٠).

الكون الدوري Cyclic model

لكن تبقىٰ نقطة جانبية عتيقة قد يثيرها الملحد هنا، وهي فرضية الكون الدوري Cyclic model وتقوم فرضية الكون الدوري علىٰ تكرر انكماش الكون ثم انفجاره، إلىٰ أن يظهر كون جديد بمعايرة صالحة لنشأة حياة كأمر صدفوي.

في واقع الأمر؛ حديثًا لا يتحدث العلماء عن الكون الدوري Cyclic model فقد خرج تقريبًا خارج دائرة العلم، لأن الذين كانوا يتحدثون عن الكون الدوري كانوا يتجاهلون القانون الثاني للديناميكا الحرارية والذي يتطلب إعادة ضبط الأنتروبيا في كل كون متكون جديد، وإلا فإن درجة الأنتروبيا تزداد مع كل كون وبالتالي تصير درجة الحرارة لا نهائية طالما كان الإنكماش والإنفجار لا نهائيين، لكن معطياتنا العلمية تقول أن درجة حرارة الكون هي الآن ٣.٥درجة مطلقة، إذن تبقىٰ مسألة نشأة كوننا مفطورًا مبدعًا –علىٰ غير مثال سابق– دالة علىٰ حدوث وابتداء الكون وسقوط فرضية الإنكماشات السابقة.

فسبحان بديع السماوات والأرض–**خالقهما علىٰ غير مثال سبق**– ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

وقد أثبت العلم حديثًا أنه كان يوجد الحد الأدنىٰ من الأنتروبيا لحظة نشأة الكون وهو ما يؤكد أن الكون لم يسبقه انكماشات ولا يوجد ما يُعرف بالكون

(١) سورة البقرة: الآية (١١٧).

الدوري، وأن الكون فعليًا ظهر علىٰ غير مثال سبق، كما أخبر رجل يرعىٰ الغنم علىٰ قراريط لأهل مكة منذ ١٤٠٠ عام.

ثم إن كل انفجار سيتطلب نفس الثابت الكوني المدهش ونفس الإعداد بعناية في كل نموذج كوني متكون وإلا لن يتكون شيء وهذا دليل جديد علىٰ الخطأ العلمي لهذه النظرية .

the model “entails the same degree of tuning required in any cosmological model[1].

لكن لماذا تأخر ظهور الكون على اللّه الأزلي؟

هنا قد يقول مُلحد –وأذكر أني سُئلت هذا السؤال– لماذا خلق الله الأزلي هذا الكون في هذه اللحظة دون غيرها؟

الإشكال الأكبر في الفكر الأرسطي والذي تأثر به فلاسفة المسلمين أمثال الفارابي وابن سينا هو استحالة تأخر المعلول" العالم المادي" عن العلة الأولىٰ "الله سبحانه وتعالىٰ"–، استحالة تأخر النتيجة عن السبب–، فقالوا بقِدم العالم، فلو تأخرت النتيجة عن السبب، أو تأخر المعلول عن العلة فلماذا اختار الله أن يؤثِر وقتًا لاحقًا ليوجد فيه العالم، وكيف نقرر بذلك أن إرادته وقدرته صفات قديمة قائمة بالذات؟

هذا السؤال السفسطي أجابه حجة الإسلام الغزالي –رحمه الله– منذ قرابة ألف عام في كتابه تهافت الفلاسفة، وانتهىٰ أمره؛ لكن نظرًا لحداثة أسنان الملحدين العرب فما زالوا ينقلون عن آبائهم كهنة الإلحاد بلا وعي، ويظنون

---

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/Cosmological_constant.

أنها أسئلة حديثة تفتقت عنها أذهان الملحدين المعاصرين، لذا قررنا أن نُحرر جواب الغزالي -رحمه الله- هنا مرَّة أُخرىٰ!

ذهب الإمام الغزالي رحمه الله إلىٰ عدم استحالة تأخر النتيجة عن السبب، فما المانع أن الله أحدث العالم في وقت مُعين بإرادة أزلية؟

فالله ذو قدرة وإرادة أزليتين قديمتين، ولكن آثار تلك الإرادة والقوة تحدث متىٰ شاء!

أما تخصيص الله لوقت لاحق لا شيء فيه، لأن الأزمان جميعها متساوية قبل ظهور الأحداث فيها- فالكون جاء من اللازمان بلغة الفيزياء المعاصرة-، أي أن الزمن كان متوقفًا، ولم يكن ثمة زمن!

وقد وافق ابن رشد الغزالي بجواز تأخر المعلول عن العلة، - النتيجة عن السبب-، ولكنه أضاف أن الله لم يؤثر وقت علىٰ وقت، بل آثر خلق العالم علىٰ عدمه !

وتقدم الله علىٰ العالم هو تقدم بالذات - ذاته سبحانه وتعالىٰ-، وليست تقدم بالزمان- لأنه خالق الزمان والمكان والكون جاء من اللازمان واللامكان- ، فالله لا يلحقه زمان أصلاً، والله ليس كمثله شيء ولا أول له، وهذا هو الحل الوحيد الذي يُفسر لنا وجود العالم، وبفضل الله هو جوهر الإسلام وركن عقيدته الأكبر!

ظهور الحياة على الأرض

وبعد أن يظهر الكون وتمضي السنون تظهر الحياة علىٰ الأرض، وهنا تطفو علىٰ السطح أسئلة:

لماذا مضت كل هذه السنون، حتىٰ تظهر الحياة علىٰ الأرض؟

لله الحكمة البالغة؛ ونريد أن نحرر هنا ردًا مجملاً لكل الأسئلة التي تحمل معنىٰ: ما الحكمة من كذا؟

يقول ابن القيم رحمه الله في مسألة وجود ذَنب الدابة مع عدم الحاجة ظاهريًا إليه. يقول: "«وعسىٰ أن يكون في ذَنب الدابة حكم آخر تقصر عنه أفهام الخلق، ويزدريه السامع إذا عُرض عليه، فإنه لا يُعرف موقعه إلا في وقت الحاجة»[1].

ويقول أيضًا في موضع آخر من كتابه: «ما حكمة هذا النبات المبثوث في الصحاري والقفار والجبال التي لا أنيس بها ولا ساكن، وتظن أنه فضلة لا حاجة إليه ولا فائدة من خلقه».

ولما انتهىٰ رحمه الله إلىٰ ذلك التمس رد المتشابه إلىٰ المحكم فقال: «وهذا مقدار عقلك ونهاية علمك، فكم لباريه وخالقه فيه من حِكمة وآية من طعم أوحش وطير ودواب مساكنها حيث لا تراها تحت الأرض وفوقها، فذلك بمنزلة مائدة نصبها الله لهذه الطيور والدواب تتناول منها كفايتها، ويبقىٰ الباقي كما يبقىٰ الرزق الواسع الفاضل عن الضيف لسعة رب الطعام وغناه التام وكثرة إنعامه»[2].

---

(١) مفتاح دار السعادة، ٢/ ٦٦٩.

(٢) المصدر السابق، ٢/ ٦٤٩.

ويقرر ابن الجوزي رحمه الله منطقية رد المتشابه إلىٰ المحكم فيقول: «ولو قيل للعقل: قد ثبت عندك حكمة الخالق بما بنىٰ، أفيجوز أن يقدح في حكمته أنه نقض؟ لقال: لا؛ لأني عرفت بالبرهان أنه حكيم، وأنا أعجز عن إدراك علل حكمته، فأسلم علىٰ رغمي، مقرًا بعجزي»(١).

وكان قد قال –ابن الجوزي– قبل ذلك: «تأملت حالاً عجيبة، وهي أن الله سبحانه وتعالىٰ، قد بنىٰ هذه الأجسام متقنة علىٰ قانون الحكمة، فدل بذلك المصنوع علىٰ كمال قدرته ولطيف حكمته. ثم عاد فنقضها، فتحيرت العقول بعد إذعانها له بالحكمة في سر ذلك الفعل؟ فأعلمت أنها ستعاد للمعاد، وأن هذه البنية لم تخلق إلا لتجوز في مجاز المعرفة، وتتجر في موسم المعاملة، فسكنت العقول لذلك؟».

وهنا عاد ابن الجوزي يقرر رد المتشابه إلىٰ المحكم فقال: «فأما من يقول: لم فعل كذا؟ وما معنىٰ كذا؟ فإنه يطلب الإطلاع علىٰ سر الملك، وما يجد إلىٰ ذلك سبيلاً، لوجهين؛ **أحدهما**: أن الله تعالىٰ ستر كثيرًا من حِكمه عن الخلق. **والثاني**: أن ليس في قوىٰ البشر إدراك حِكم الله تعالىٰ كلها فلا يبقىٰ مع المعترض سوىٰ الاعتراض المخرج إلىٰ الكفر ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾(٢)، والمعنىٰ: مَن رضي بأفعالي، وإلا، فليخنق نفسه، فما أفعل إلا ما أريد»(٣).

---

(١) صيد الخاطر، ص٧٩.

(٢) سورة الحج: الآية (١٥).

(٣) المصدر السابق، ص٣٦٨، ٣٦٩.

يقول ديكارت في كتابه التأملات: "ليس لدي أدنىٰ سبب يجعلني أتذمر من أن الله لم يمنحني قدرة أعظم علىٰ الفهم، أو أنه لم يهبني نورًا طبيعيًا أكثر مما وهب، فمن الطبيعي أن تظل هناك أشياء غير مفهومة بالنسبة لفهم محدود، ومن الطبيعي أن يظل الفهم المخلوق محدودًا، عوضًا عن هذا، يتوجب علي أن أشكر له أنه لم يجعلني مدينًا له بقدر كرمه عليّ، بدلاً من أن أظن به أنه أخفق في إعطائي، أو أنه أخذ مني تلك الأشياء التي لم يعطني إياها في الأصل"[١].

وقد جلَّىٰ الله الحِكمة من أفعال الخضر لسيدنا موسىٰ مع أنها أفعال تُعد ظاهريا مُنكرة وغير مستساغة، لكنها تكتنف علىٰ خير عظيم ... وقصة موسىٰ والخضر لم تأت في القرآن من باب السرد والحكايا لكن من باب التدبر والإخبات والإقرار بقصور النفس البشرية وحكمها المُتعجل.

ولا يجوز لملحد أن يحتجَّ في باب الحِكمة الإلهية بشيء، لأن الملحد بداهَةَ ليس كُلي العلم، ولا يعرف ما في غدٍ حتىٰ يُقرر، ويعطي نظرة شمولية لمسألة لم يستوعبها.

ذكر الأصبهاني: أن نبيا من أنبياء بني إسرائيل كان يجلس بالقرب من بئر ماء، فجاء فارس ليشرب، ثم وهو خارج من البئر سقطت حافظة نقوده ولم يلتفت إليها.. فجاء راعي غنم يرِد الماء فوجد حافظة النقود فوضعها في جيبه.. ثم جاء شيخ كبير ليشرب من البئر و جلس علىٰ حافة البئر يلتقط أنفاسه فعاد الفارس باحثًا عن ماله فلم يجده فاتهم فيه الشيخ الكبير فقتله. فقال النبي: يارب ضُرِبت عنق الرجل ولم يأخذ المال، وإنما الذي أخذ المال الراعي..

---

(1)Descartes, R., Meditations and Other Metaohysical Writings, p.49.

فجَّلِّ – فأظهِر – لي الحكمة ..فأوحىٰ الله إليه أن والد الفارس أخذ هذا المال من والد الراعي فرددت المال إلىٰ الوارث، وأن هذا الشيخ قتل والد الفارس فاقتصصت منه![١].

الخلاصة: حُكم الملحد علىٰ الأمور التي تخفىٰ فيها الحِكمة قاصرٌ بقصور الطبيعة البشرية نفسها، وبقصور نظرتها الإدراكية، فالاستيعاب الشمولي، والحُكم الكُلي، ليس مجال النفس البشرية ولا يقع في نطاق قدرتها القاصرة، وبالتالي فلا يحق للملحد أن يتحدث في باب الحِكمة الإلهية بشيء. ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[٢].

لكن لماذا الكون بهذه الضخامة، والأرض بهذه الضآلة؟

هذا السؤال كثيرًا ما يكرره الملحد برغم تفاهته وسذاجته.

فيدعي الملحد أن الكون ضخم، فما معنىٰ أن يهتم الخالق بكرة الأرض الصغيرة تلك؟

الرد: يُشغب الملاحدة كثيرًا بمسألة ضخامة حجم الكون وحقارة حجم الأرض وبالتالي حجم الإنسان، لكن هذا الكلام يشتمل علىٰ افتراض جدلي

(١) الإقتباسات في الفقرات الأولىٰ من كتاب ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان، م. س.

(٢) سورة آل عمران: الآية (٧).

وهو أن ضخامة حجم الشيء أو ضآلته مؤثر في المسألة، وهو فرض مجرد عن أي دليل.

ثم إنه ليست العبرة بالحجم الحسي للإنسان وإنما بالحجم المعنوي لأشياء بلا حجم كالأخلاق والصدق والأمانة، ولو كان للحجم في ميزان الله أدنىٰ اعتبار لكانت السماوات والأرض أولىٰ بحمل الأمانة، ثم إن الحيتان أضخم من الميكروبات بمليارات المرات، فهل هذا يعني أن الحيتان أهم من الميكروبات؟ وما معنىٰ كلمة أهم هنا؟ وما القيمة الجدلية لهذه الكلمة"أهم"؟

وهل الله يهتم بالكائن الضخم لضخامته ولا يهتم بالكائن الصغير؟ أم أنه كفل للجميع الرزق والنظام الأنسب؟

ثم إن السماوات والارض مصدرهما نقطة أصغر من رأس الدبوس –أصغر من بروتون الذرة بمليارات مليارات المرات–، أليس كذلك يزعم كل فيزيائيي العالم طبقًا للبيج بانج؟

أيضًا الحجم نسبي ولو تحولت المجموعة الشمسية كلها إلىٰ ثقب أسود فلن تتجاوز كيس شيبس صغير- حجم الأرض ٠.٩ سنتيمتر مكعب-. إذن القضية ليست بالأحجام ولا الحكم علىٰ الأشياء يكون بالأحجام والأوزان والأثقال..

القضية هي إدراك هذه الأشياء واستيعابها، والآن هل ثمة شيء يستوعب هذه العلاقات بين الأحجام إلا الإنسان؟ هل ثمة شيء يدرك الفوارق إلا الإنسان؟ هل ثمة شيء يدرك القوانين وضخامة الأفلاك وعظمة الخلق وروعة الإعداد بعناية إلا الإنسان؟

هل ثمة شيء يدرك أن الوردة حمراء وبديعة التنسيق والجمال غير الإنسان؟ هل ثمة شيء يدرك مدارات الأفلاك وروعة المنظومة الفيزيائية التي تحكم الكون غير الإنسان؟

إذن لا يختلف العلماء علىٰ أن الإنسان مركز الكون إدراكيًا وسيكولوجيًا وحديثًا فيزيائيًا ومنذ الأزل دينيًا .

والآن نعود للحديث عن ظهور الحياة على الأرض:

الحياة:

وتدب الحياة في عُضيات السيانوباكتريا- وهي أول كائن حي يظهر علىٰ وجه الأرض علىٰ الإطلاق طبقًا للداروينية نفسها-.

وهنا لابد أن نُدرك حقيقة في غاية الأهمية:

الوقت المنصرم منذ نشأة الكون إلىٰ وقتنا الحالي غير كافٍ لنشأة عُضية واحدة من مئات العُضيات الموجودة داخل السيانو باكتريا Cyanobacteria أول الكائنات علىٰ وجه الأرض علىٰ الإطلاق،" فالسيانو باكتريا أول كائن ظهر علىٰ وجه الأرض طبقًا للداروينية لأنه لو لم يظهر هو لما ظهر أي كائن آخر فهو مصدر الأوكسجين الذي سمح لبقية الكائنات بالظهور".

والعُضية الواحدة من عضيات السيانوباكتريا بها تشفير معلوماتي داخل الشريط الوراثي يتجاوز ١٥٠٠ بت أو حرف- والبِت هي وحدة تشفير – لو ظهرت بِت واحدة مكان أُخرىٰ ما نشأت السيانو باكتريا ولا قامت بوظيفتها، وهذا يعني ١٥٠٠ حرف بمنتهىٰ التنسيق والضبط، في حين أن عمر الكون كله لا يسمح إلا بظهور ٣٤ بت بحساب نظرية الإحتمالات، لأنه قد مضىٰ منذ الإنفجار الكبير ١٠ أس ١٧ ثانية فقط وهي تعادل ١٤ مليار سنة، و٣٤ بت

تحتاج إلىٰ ١٠ أس ١٧ ثانية من أجل الوصول إلىٰ الترتيب الصحيح وهو عمر الكون- هذا في حال افترضنا أن هناك بتِ جديدة تضاف كل ثانية-.

لكن عضية واحدة من مئات العضيات التي تعمل معًا داخل السيانوباكتريا تحتاج كحد أدنىٰ ١٠ أس ٧٥٠ ثانية لتشكيل ١٥٠٠ بت وهو ما يعني مليارات مليارات أضعاف عمر الكون.

أمام هذه المعضلة افترض الملحد ريتشارد داوكينز بصحبة برنامج ريتشارد هارديسون أن هناك برنامج سيحتفظ بالحروف الجديدة الصحيحة- البتات الصحيحة- ثم يبني عليها بعشوائية وهكذا إلىٰ أن يصل إلىٰ الحرف الجديد الصحيح حتىٰ تكتمل ١٥٠٠ بتِ الأولىٰ في أول عضية من عضيات السيانو باكتريا.

لكن لم يقل لنا عبقري كل الأزمنة وفلتة العقلاء، ماذا سيحدث لو تم الاحتفاظ بحرف خاطيء؟ ألا يعني ذلك توقف التجربة لأن العضية لن تتشكل وستهلك السيانوباكتريا فورًا؟ ولم يقل لنا ما هي الآلية التي ستعيد الحروف مرةً أخرىٰ؟

وكيف نسي العلامة أن برنامج الكمبيوتر يحتاج لوعي وتصميم وإرادة وصنع وضبط ومعايرة دقيقة، فلماذا اشترط ذلك في تجربته ورفض أن ينسبه للخالق في بيئة الأرض الأولىٰ؟

بل إن ظهور الشيء لا يعني دوام استمراره فما معنىٰ تشكيل عشر بتات؟ ما الذي يضمن استمراريتهم أو وجود معنىٰ لهم أصلاً، وما قيمتهم الوظيفية حتىٰ تحتفظ بهم السيانوباكتريا التي لم تتشكل بعد، وكيف تتحول بتات ملتصقة إلىٰ وظيفة حياتية تخصصية داخل كائن آخر؟

ثم ألا تدل آلية خلق الحياة إلىٰ خالق يعجز كل جهابذة الأرض عن محاكاة أبسط حياة ثم يفترضون ظهورها بالصدفة في كل مكان؟

لماذا أمام كل هذه البديهيات يرفضون الخالق ويفترضون المستحيل العقلي؟

ثم لم يقل لنا الفلتة النحرير كيف تخلق لنا البتات منظومة معرفية تُعطي وظيفة؟ فالبتات كالكلمات المكتوبة علىٰ ورق تصف هيئة وظيفية بطريقة رمزية! كيف تتحول هذه الرموز إلىٰ وظيفة حيوية داخل الكائن الحي الأول، كيف يتم فك الترميز ثم إنتاج معطىٰ وظيفي حيوي، والسؤال الأهم: مَن الذي قام بالترميز قبل أن يتم فكه وما أدرىٰ الكائن بحاجته إليه ليتم ترميزه ثم استخدامه في المستقبل وقت الحاجة؟

ثم كيف يكون الكائن الحي علىٰ علم مسبق بمجموعة البتات المطلوبة – ١٥٠٠ بت– في كل عضية، وهو لم ينشأ بعد ولم يقم بأي وظيفة؟

وكيف يكون علىٰ علم مسبق بما يريد بحيث يحتفظ بالبتات الصحيحة ويترك الخاطئة؟

ولو لم تكن هناك خطة مسبقة كاملة للسيانوباكتريا، فكيف توجد التخصيصة الوظيفية للعضيات؟

أيهما أقرب للمنطق والعقل؛ الإيمان بهذه المستحيلات العقلية التي مستحيل عقلي واحد منها كفيل بترك القضية بالكلية، أم الإيمان بالخالق الذي توافرت الأدلة والقرائن علىٰ روعة صنعه وضبط خلقه وقدرته؟

نعلم أن الإيمان بالمستحيل العقلي لا يكلف شيئًا، لذا هو أسهل في عقل كاره للدين وهارب من تكاليف الشرع، وهذا هو المبرر الوحيد للإلحاد!

فبرنامج الكمبيوتر الذي يفحص المتتابعات ويختار أكثرها شبهًا بالتتابع المطلوب الذي تم تحديده مسبقًا، يعني أن العملية تجاوزت التطور العشوائي إلىٰ تصميم واختيار ذكي للوصول إلىٰ تتابع تم تحديده مسبقًا بتوجيه من عقل خارجي، فهذا خلق موجه نحو غاية محددة مسبقًا يهيمن عليها عقل ذكي، وهذا غاية ما يريد المؤمن من الملحد الاعتراف به!

فالتطور عشوائي وليس عقلاني وليس له أي دور إنشائي، ثم إن المحاولات المتكررة لجمع ١٥٠٠ بت هي وقائع مستقلة independent events، محاولات لا يؤثر بعضها في بعض، فمثلاً لو تضخمت الأحماض الأمينية مليارات مليارات المرات، فستظل النسبة الاحتمالية هي نفسها في كل مرة، لأن المحاولات وقائع مستقلة وكل مجموعة أحماض أمينية تتصرف بانعزال عن بعضها البعض فتظل نفس الاحتمالية بنفس القيمة قائمة، وهذا يُسقط مفهوم الصدفوية ككل.

المشكلة أن ريتشارد داوكينز ببرنامج ريتشارد هارديسون يطلب هدف مُحدد منذ البداية يسعىٰ البرنامج إليه، وفي كل مرة يقوم الكمبيوتر بمقارنة النتائج وفحصها للاحتفاظ بالحروف المبرمجة لديه واستبعاد الباقي، إنه تدبير موجه برعاية خاصة وعناية فائقتين وعقل ذكي ووعي وحكمة وإرادة وقصد وهذا غاية ما يحدثكم عنه المؤمن في قضية الخلق.

الحد الأدنى من الجينات

يحرص الملحد علىٰ فرضية الابتداء من جينة واحدة – الجينة هي وحدة بناء الكروموسوم في أي خلية خلية- والملحد بذلك يتيح تصور التدرج في ظهور الكائنات الحية، فالمفترض أن نبدأ من صفر جينة.

لكن حتىٰ هذه الفرضية الشوهاء جاء العلم ليقضي عليها تمامًا، فطبقًا لنظرية الحد الأدنىٰ من الجينات Minimum gene set concept لا يجوز النزول عن حاجز ٣٠٠ جين.

وقد وجد العلماء أن الميكوبلازما Mycoplasma –أدق كائن حي موجود علىٰ وجه الأرض علىٰ الإطلاق – لديه ٤٦٨ جين، والجينة الواحدة تحتوي علىٰ تشفير لبروتينات مُركبة قد تصل من ١٠٠٠ إلىٰ ١٠٠٠٠ حمض أميني .

ولو أننا افترضنا الصدفوية لتخليق أدق كائن علىٰ وجه الأرض Mycoplasma فإنه طبقـًا لقوانين الاحتمالات نحتاج إلىٰ مليارت الأكوان بحجم كوننا، لتمتلىء بالميكوبلازما المشوهة والوسيطة من أجل إنتاج ميكوبلازما واحد سليم، فكائن الميكوبلازما Mycoplasma بحاجة إلىٰ مصفوفة من البتات أو القواعد النيتروجينية تقترب من ٤٠٠.٠٠٠ قاعدة من أجل إنتاج كائن واحد سليم ، وهذا احتمالية نشأته ١٠ أس ٢٠٠.٠٠٠، أي أن الكائنات المشوهة ستملأ مليارات المليارات المليارت من الأكوان للخروج بكائن واحد سليم، حيث إن عدد الذرات في كوننا كله هي ١٠ أس ٨٠ ذرة .

فإذا كان التطور صحيحـًا، والصدفوية هي التفسير، فنحن بحاجة إلىٰ أن نبدأ من صفر جينة، إذا أردنا المرور من الهيدروجين إلىٰ الإنسان .

لكن من الناحية النظرية لا يُمكن أن ننزل إلىٰ أقل من ٣٠٠ جين كما قلنا، وهو ما يُعرف بالحد الأدنىٰ من الجينات Minimum gene set concept ، وفي عدد ٦ يناير ٢٠٠٦ نشرت مجلة الطبيعة الشهيرة Nature أنه " لا يمكن أن نتجاوز حاجز ٣٩٧ جين ".

فإنتاج الطاقة وحده يتطلب ٦ جينات كحد أدنىٰ، وإذا نقص جين واحد فالخلية لن تُزوَّد بالطاقة، وهكذا كل وظيفة أساسية لها حدٌ أدنىٰ من الجينات.

كتب داروين يقول " إذا أثبتنا وجود أي عضو مُرَّكب بحيث أنه لا ينشأ من تعديلات طفيفة متعاقبة فإن نظريتي ستنهار تمامًا".

If it could be demonstrated that any complex existed, which couldn't possibly have been formed by numerous, successive, slight modifications, my theory will absolutely break down[1].

وها قد ثبت أن الأعضاء مركبة ويستحيل أن تنشأ من تعديلات طفيفة!

جدلية التصميم:

لكن هنا قد يدعي الملحد أن تفسيرنا لوجود الخالق بناءًا علىٰ وجود التصميم، هو مجرد قياس علىٰ خبرتنا البشرية، فإذا قلنا له الساعة معقدة تدل علىٰ مصمم لها، يقول الملحد: هذا قياس علىٰ الخبرة البشرية لا أكثر مستوحىٰ من القياس analogy علىٰ سلوك البشر ككائنات عاقلة، لكن في واقع الأمر نحن نقول أن التصميم وإدراك التصميم لا يعيه الإنسان فحسب وإنما كل كائن غير الإنسان، فالتلازم بين شيء يحمل مظاهر التصميم وبين كائن يتمتع بإدراك هو شيء متواتر في الطبيعة وجميع أنظمة الحياة، فهو تلازم موجود قبل أن يوجد الإنسان، وكامن في مظاهر أجناس الحياة، فادعاء أن التصميم مرتبط بالقياس علىٰ الخبرة البشرية لا أكثر هو محض ادعاء تفنده كل مظاهر الحياة في كل

(1) Source: the origin of species p189.

مكان، بقطع النظر عن وجود الإنسان لكي يفرض ذلك الفرض المشتق من سلوكه ككائن عاقل أو مدرك، فكل الكائنات الحية يصدر عنها من آثار التصميم بقدر ما تحمل من إدراك، كالنحل والعنكبوت والأميبا ونواة الخلية والإنزيمات الهاضمة والهرمونات وكل شيء ، فهناك تلازم بين أي درجة من درجات الإدراك والسلوك التصميمي الناشيء عن ذلك الإدراك، لذلك نحن في موقع القوة لكي نعمم هذا التلازم لأنه لا يوجد ما ينفيه بل هو الأصل في كل أنظمة الوجود، فتقريرنا بوجود المُصمم ليس تحكمًا وإنما بناءًا علىٰ مشاهدات مطردة لم يخرمها استثناء حقيقي فهو أصل نقطع به حتىٰ يرد ما ينفي هذا الأصل نفيًا لا تقل قوة أدلته علىٰ تواتر قوة الادلة الإثباتية التي نحملها، فقضيتنا هي قضية عقلية ومنطقية من الطراز الأول، والقضية الإلحادية هي قضية لا عقلية ولا منطقية أيضًا من الطراز الأول.

فالتصميم الموجود والدال علىٰ المُصمم الواعي المدرك الخالق؛ نقول هذا التصميم يشتمل علىٰ تعقيد مشهود وتنظيم مرصود وغاية معقولة، وهذا يشمل جميع أنظمة الحياة ولا ينكره عاقل، بل إن سمة التعقيد لا ينفك عنها موجود، والتعقيد دليل مباشر علىٰ إرادة، فالتعقيد مرتبة زائدة علىٰ مرتبة وجود الشيء، فهل يوجد شيء هو موجود فقط بلا أدنىٰ درجات التعقيد؟ إن كمون صفة التعقيد يشمل الذرة والإلكترون والخلية وبذرة الفاكهة والهرمون وكل شيء في الوجود.

إذن تفسيرنا لا يرتبط بواقع الخبرة البشرية فحسب كما يظن الملحد–مع عدم سذاجة الاحتكام للخبرة البشرية–، ولكنه تفسير لقياس بعض الطبيعة علىٰ بعض، فديناميكية طيران طائر العُقاب هي أفضل ديناميكية طيران علىٰ الإطلاق، وهي المُلهمة لتطوير الأنظمة الحركية لطائراتنا، إذن فالقياس في حال

ديناميكية طيران طائر العقاب لم يعد علىٰ شيء معهود للخبرة البشرية، إذ ليس للخبرة البشرية هنا سابق عهد بمثل تلك الديناميكية المُكتشفة، وإنما قياس للخبرة البشرية علىٰ مظهر جديد من مظاهر التصميم.

ونفس الأمر ينطبق علىٰ نظام التنظيف الذاتي الذي تستخدمه زهرة اللوتس، فبنية نظام النظافة الذاتي في زهرة اللوتس يحاول البشر مُحاكاته في واجهات ناطحات السحاب حيث يصعب تنظيفها، ومُركب lotusan من إنتاج شركة إسبو يعتمد علىٰ تقنية اللوتس، وإن كان أقل كفاءة وفاعلية إذ تنحسر شواطيء خبرة أمهر علماء البيولوجيا الجزيئية وأمهر المهندسين أمام ما يتم اكتشافه في الطبيعة من إبداع تلو الآخر ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[١]، بل إن خبرات البشرية قاطبةً تعجز عن الوفاء بشرح نفحة من نفحات التصميم الكامن في أدق الأنظمة الحية كالخلية، أو أدق الأنظمة المادية في الذرة ونواة الذرة وحديقة حيوان الجسيمات Particle Zoo ، ولكي نُحيط بما بقي من أسرار، علينا أن نُحيط بكلمات الخالق ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[٢].

وعلينا أن نُحيط بحدود أمره قبل ذلك ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[٣].

بل في واقع الأمر إن الصدفة التي يروج لها الملحد ويدفع بها في وجه الخصم، هي التي تعتبر من قبيل القياس علىٰ خبرتنا البشرية لا أكثر، فهي حالة ذهنية تتبع طريقة نظرنا للأمور في تفسير ما حولنا، والواقع أنها لم تخرج خارج

---

(١) سورة الجاثية: الآية (٤).

(٢) سورة الكهف: الآية (١٠٩).

(٣) سورة القصص: الآية (٦٨).

نطاق الحالة الذهنية حتىٰ يومنا هذا، فلم يثبت العلم التجريبي أي دور للصدفة في أي نظام تعقيدي، إذ لم يتم رصد أي دور لها في تعقيد نظام حياتي بسيط، بل هي محض افتراض عقلي وحالة ذهنية غير مرصودة ولا واقعة.

وحتىٰ إذا تركنا المنظومة الحياتية وذهبنا إلىٰ المنظومة المادية المجردة، فالتعقيد موجود منذ البدء في الذرة وفي بناء الذرة، ولا دور للصدفة في تحديد كتلة الإلكترون أو كتلة البروتون واللتان تعتبر العلاقة بين كلتيهما هي العلاقة المثلىٰ لتشكيل ذرة مستقرة، وكذلك حجم نواة الذرة، ولذا لن تجد حديث عن الصدفة في الفيزياء؛ لأن شرط الصدفة كما فصَّلنا قبل ذلك هو الزمن، والزمن لم يظهر إلا مع ظهور العالم، والشرط الثاني للصدفة هو وجود المادة التي تُطبق نفسها عليها، ونفس الأمر نقوله فظهور المادة كان معقدًا قبل أن تعرف الصدفة أنها موجودة هذا في حال وجودها أصلًا.

ولذا لم يتردد داروين نفسه في نفي الصدفة حين قال:" لقد عبّرت عن قناعاتي الداخلية، بطريقة واضحة وناصعة أن الكون ليس نتاج صدفة"[1].

بل ويُقر داروين بأن مظاهر التصميم ودلائله شعور يغمر الإنسان بقوة ساحقة[2].

ثم إنه عندما يتمرد الملحد علىٰ الاحتكام لخبرتنا البشرية وقياسنا، فإننا نقول له: بأي دليل من خارجنا نحن مطالبون بالتمرد عليها وعدم الاحتكام إليها؟

---

(1) Charles Darwin to W. Graham, the Life and Letters of Charles Darwin, vol.1, p.285.

(٢) المصدر السابق.

فالذي يرىٰ أن قياس تصميم الكون علىٰ الأشياء التي صممها الإنسان هو قياس قاصر-ديفيد هيوم- فقد أبعد النجعة؛ فالعلاقة بين الكون وما يصنعه الإنسان قائمة، باعتبار أن كليهما وجود حادث في المكان يتكون من المادة ويحتاج إلىٰ طاقة لتشغيله وإنشاؤه، كذلك فعلامات التصميم في كوننا من الوضوح بحيث لا تحتاج لمقارنة بكون آخر.

ثم إن برهان التصميم والخلق يعتمد علىٰ أدلة الإدراك المباشر لكشف التصميم وليس علىٰ أدلة القياس، فمثلًا عند نزولك علىٰ أحد الكواكب المهجورة ورأيت آلة معقدة فحتمًا ستُدرك أن الآلة تم تصميمها فهو إدراك مباشر وليس دليلًا عقليًّا له مقدمات يمكن طرحها للتفنيد.

بل إن كارل ساغان الملحد الشهير يعتبر في مسلسل cosmos الكوني أن رصد أي إشارة معقدة من الفضاء الخارجي سيعني نشأة حضارة عملاقة تحاول التواصل معنا.

مجرد إشارة تحمل بضعة بتات-حروف- توفر دليل عقلي يكفي الملحد للإستدلال علىٰ وجود حضارة عملاقة وحياة وتقانة عالية في ناحية ما من الكون، في حين نفس الملحد يتظاهر بأن ٣ بليون رسالة داخل الجينوم تحمل شفرات ورسائل وظيفية غاية في التعقيد لا تمثل أي حكمة أو إرادة ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[1].

بل إذا وجد علماء الحفريات إناء في منطقة ما من العالم، فإنهم يبحثون فورًا عن حضارة مندثرة في تلك المنطقة لمجرد وجود إناء.

---

(١) سورة النمل: الآية (١٤).

بل إن برهان التصميم طرح يقوم بذاته دون الحاجة لمشابهة ما نرىٰ أو قياسه علىٰ ما نقوم به.

فالتشبيه بمصنوعاتنا لتسهيل التصور بالنسبة لعقولنا لا أكثر.

ولذا فأدلة القرآن في أكثرها لا تدعو إلىٰ دليل قياس عقلي، لكن تستخدم المنهج الأقوىٰ دلالةً وهو لفت النظر مباشرةً لأدلة الصنع والتصميم والعناية والخلق ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[١].

وعندما سأل دوق آرغيل جورج كامبل George Cambell داروين قبل موته بعام عن أدلة التصميم العجيبة في الخلق مثل تزاوج زهرة الأوركيدا فقال داروين: " هذه الفكرة كثيرًا ما تعصف بعقلي، ثم هز رأسه وأضاف: وفي أحيان أُخرىٰ تتلاشىٰ"[٢].

تتابع ظهور الكائنات الحية:

وبعد أن ظهرت الحياة علىٰ الأرض، وتتابع ظهور الكائنات الحية؛ تطفو علىٰ الأُفق أشهر القضايا الإلحادية علىٰ الإطلاق وهي الداروينية! ويظهر التنظير الأشهر في الملف الإلحادي وهو تنظير خلق أم تطور؟

ونظرًا لكون هذه القضية قد أشبعتها بحثًا ونقدًا في كتبي السابقة وخاصةً الفصل الثامن من كتابي"كهنة الإلحاد الجديد"، فإنني أطرح في هذا الكتاب قضية شيقة للغاية. ألا وهي: حوار دار بيني وبين دكتورنا الفاضل عمرو شريف

---

(١) سورة فصلت: الآية (٥٣).

(2) Well, that is often comes over me with overwhelming force.

حول خلق مباشر أم تطور، فالدكتور عمرو شريف حفظه الله يدعم بشدة التطور الموجه ومن أجل ذلك دار بيننا هذا الحوار الشيق والذي أترككم معه، والذي يضبط إشكال خلق أم تطور!

الحوار مع أُستاذنا الحبيب د. عمرو شريف حول تبنيه لقضية التطور الموجه.

في البداية؛ يعلم الذين طالعوا كتب الدكتور عمرو شريف، مثل كتاب **"كيف بدأ الخلق"** وكتاب **"ثم صار المخ عقلًا "**، وكتاب **"أنا تتحدث عن نفسها "**، أن دكتورنا الفاضل يدعم بشدة قضية التطور الموجه، وشاء العلي القدير أن يطلب مني بعض الأحباب أن أكتب نقدًا لتوجه الدكتور، فكتبت النقد في مجموعة ورينا نفسك علىٰ الفيس بوك، ولم تمض أيام حتىٰ أُخبر الدكتور عمرو شريف بنقدي، فدخل مشكورًا إلىٰ مجموعة ورينا نفسك وقرر أن يُجري حوارًا حول قضية التطور، وبالأخص صيغة التطور الموجه، فكان هذا الحوار الذي أنقله الآن بين أيديكم ليستفيد منه طالب العلم، وليحذر القارئ في كتب دكتورنا الفاضل من هذه الإشكالية.

وأبدأ بنقل نقدي الأول الذي كتبته إبراءًا للذمة، وتبيانًا لعقديتنا في قضية التطور الموجه.

مداخلة للدكتور هيثم مع الدكتور عمرو شريف

مداخلة د. هيثم طلعت الأولى

باسم الله والحمد لله؛

سألني أحد الأحباب بخصوص محاولات دكتورنا الفاضل عمرو شريف لهيكلة التطور بحيث يتناسب والمعطىٰ الديني!

وصراحةً هذه إحدىٰ المآخذ الثلاثة الكبرىٰ التي نأخذها علىٰ دكتورنا الفاضل، ونجزم أنه-إن شاء الله- سيتراجع عنها يومًا ما، إذ ليس في العلم الرصدي ما يدفعنا للاعتقاد ببلاهة التطور، وليس في البحث الإمبريقي – التجريبي- ما يعضد موقف التطور، بل ليس ثمة دليل واحد علىٰ الإطلاق قائم بذاته يُثبت وقوع التطور، ولا يوجد أب واحد موثق علميًّا للـ٣ مليون كائن حي علىٰ وجه الأرض الآن، ولا يوجد تطور نوعي واحد macro-evolution – إنتقال من نوع إلىٰ نوع – مُثبت حتىٰ الآن علميًّا أو تجريبيًّا أو رصديًّا، ولا توجد طفرة واحدة مفيدة mutation أثبتها العلم حتىٰ الآن، ولا يستطيع العلم التجريبي التعامل مع الفرض الفلسفي التأويلي المسمىٰ انتخاب طبيعي natural selection- ولذا يقرر فيلسوف العلوم الأشهر كارل بوبر Karl Popper أن قضية الانتخاب الطبيعي تقبع خارج إطار العلم بالكلية؛ لأنها لا تخضع لمبدأ falsifiability ، والذي يعني قابلية النفي وهو شرط النظرية العلمية – فالقضية بالكلية فلسفية تأويلية من الطراز الأول، فلماذا نُخضع المعطىٰ الديني لفروض كهنوتية هلاوسية كهذه؟

لكن يبقى السؤال: طالما أن التطور هلوسة تأويلية، إذن كيف خلق الله الدواب والأنعام؟

القرآن صريح في أن الله سبحانه خلق كل دابةٍ من ماء ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

وأصل كل بحوث اكتشاف حياة خارج الأرض astrobiology تقوم علىٰ البحث عن الماء خارج الأرض.

فالماء هو أصل الخلق؛ ثم إن الله خلق كل دابة بمشيئة وقدرة وإرادة وحكمة خاصة؛ والله سبحانه يخلق الأشياء بالأسباب وبضد الأسباب وبدون أسباب، وخلقه للخليقة سبحانه يكون فَطرًا ﴿فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[2]، والفطر هو الإنشاء الأول.

وليس التشابه الجيني والوظائفي بين المخلوقات إلا من أدلة وحدة الخالق ووحدة خامة الخلق، وهذه سُنة الله في خلقه، وآية علىٰ عجيب صنعه ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3].

لكن ما معنىٰ هذه الكائنات التي لا حصر لها، والكائنات التي ظهرت واختفت حتىٰ قبل ظهور الإنسان نفسه -كالديناصور-؟

---

(١) سورة النور: الآية (٤٥).

(٢) سورة الإسراء: الآية (٥١).

(٣) سورة الرعد: الآية (٤).

الله سبحانه لم يخلق شيء عبثًا، يقول ابن القيم رحمه الله: «ما حكمة هذا النبات المبثوث في الصحاري والقفار والجبال التي لا أنيس بها ولا ساكن، وتظن أنه فضلة لا حاجة إليه ولا فائدة من خلقه.... وهذا مقدار عقلك ونهاية علمك، فكم لباريه وخالقه فيه من حِكمة وآية من طعم أوحش وطير ودواب مساكنها حيث لا تراها تحت الأرض وفوقها فذلك بمنزلة مائدة نصبها الله لهذه الطيور والدواب تتناول منها كفايتها ويبقىٰ الباقي كما يبقىٰ الرزق الواسع الفاضل عن الضيف لسعة رب الطعام وغناه التام وكثرة إنعامه»(١).

فما أبعد أحكامِه سبحانه وتعالىٰ عن الفحص، وطُرقه عن الاستقصاء.

المقصود مما سبق: أننا لسنا بحاجة إلىٰ تأويل نص ديني مع معطىٰ كهنوتي فهذا ليس حال العاقل النابه، وإذا كان الكهنوت التطوري تدعمه مؤسسات علمية كبرىٰ فهذا لا يرفعه فوق إطار الفرضية، ولا يدفعه بعيدًا عن الزائفية pseudo-science، وأصل ديننا يقوم علىٰ العلم الحق أتىٰ به مَن أتىٰ؛ وما بقي فهو تخريصٌ وظنٌ لا يدفع الحق ولا يرفعه ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾(٢).

المأخذ الثاني:

المأخذ الثاني الذي نأخذه علىٰ دكتورنا الفاضل د.عمرو شريف في كتبه؛ هو ربط العمليات العقلية بالمراكز الدماغية، وجعله الأمر سببًا؛ وهذا واضح جدًّا في كتابه "ثم صار المخ عقلًا"، إلىٰ الحد الذي اعتبر فيه حتىٰ الطقوس

---

(١) مفتاح دار السعادة، ١/ ٢٣٤.

(٢) سورة الأنعام: الآية (١٤٨).

الروحانية تخضع لإطار الوظائف المخية ولا تتعداها، بينما في واقع الأمر أن القضية تزامنية وليست سببية؛ إذ أن العمل العقلي يسبق الوظيفة الدماغية، ثم تأتي الوظيفة الدماغية كمرحلة تنفيذية لاحقة، فالقضية تزامنية- في وقت واحد- وليست سببية، وإحدىٰ البديهيات التي يقررها الدكتور عمرو شريف نفسه في كتبه أن تبادل أيونات الصوديوم والبوتاسيوم علىٰ جدران خلية عصبية يستحيل أن يُنشئ قيمة ولا معنىٰ ولا فكرة، فالعمل الدماغي هو قضية ميكانيكية من الطراز الأول –قضية تنفيذية- تعقب عملية الإرادة العقلية وإن سبقت الوعي ذاته؛ لأن الوعي قد يتأخر عن إرادة العقل ووظيفة الدماغ، فيظهر الوعي تالٍ لنشاط مركز دماغي ما، فالقضية تزامنية وليست سببية، فالعقل يقرر ثم الدماغ يُنفذ ثم الوعي يعي.

ولا تُفرز تبادلات صوديوم وبوتاسيوم إرادة ولا وعي ولا فكر ولا قرار ولا مبدأ ولا معنىٰ ولا قيمة، هذه بديهيات لا علاقة لها بكونك ملحدًا أو مؤمنًا.

ويقرر دكتورنا الفاضل عمرو شريف هذه الحقيقة بنفسه في كتابه "رحلة عقل"؛ إذ يقول: "أثبت د. روجر سبيري Roger Sperry الحائز علىٰ نوبل في وظائف المخ أن الوظائف العقلية لا علاقة لها من قريب أو بعيد بالمخ المادي وهي فقط قد تستعمله كآلة .

ويقول السير جون إكلز John C. Eccles الحائز علىٰ نوبل في الطب: "أجدني مضطرًّا إلىٰ القول بطبيعة غير مادية لذاتي وعقلي، طبيعة تتفق مع ما يسمونه الروح".

وقد وضع جون إكلز مع فيلسوف العلوم الأشهر كارل بوبر Karl Popper ، كتاب يشي عنوانه بأبعاد القضية وعنوان الكتاب((الذات والمخ التابع لها The Self and its Brain)) ".

وقد قام عالم النفس الشهير وأخصائي السلوك والذاكرة كارل لاشلي Karl Lashley بتدريب الفئران والقرود علىٰ العديد من الخدع، وعندما يتعلمون الخدعة يقوم بقطع جزء من الدماغ لمعرفة في أي جُزء تُخزن الذاكرة، وقد تفاجأ عندما رأىٰ أنه باستطاعته قطع أجزاء كبيرة من الدماغ، لا يهم أي جزء أعلىٰ أسفل داخل خارج سطحي عميق أمامي خلفي علوي سفلي، النتيجة واحدة دائمًا وهي عدم تلف الذاكرة أو ضياعها، فالذاكرة ليست في النهايات العصبية المُعدلة، ولا في فسفرة البروتين ولا الطرق الجزيئية الأخرىٰ، ببساطة الذاكرة ربما لا تكون في الدماغ أصلاً[1].

ويرىٰ عالِم الأعصاب الدماغية الشهير كارل بريبرام Karl Pribram أن الوعي والإدراك الإنساني لا علاقة لهما بالدماغ أو الوصلات العصبية والذي يرهق نفسه في هذا النفق الضيق فلن يخرج بشيء[2].

لكن هنا قد يطفو علىٰ السطح سؤال: طالما أن العقل ليس في الدماغ، لماذا إذن نفقد الوعي بتلف الدماغ؟

دماغنا يمثل جهاز تنفيذي لا تشريعي – إذا جاز التعبير- فهو لا يُشرعن القيمة ولا يحدد المعنىٰ ولا يصدر القرارات، وإنما المسئول عن كل ذلك هو

---

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/Karl_Lashley.

(2) http://en.wikipedia.org/wiki/Karl_H._Pribram.

العقل. وليس للدماغ إلا التنفيذ، فهو جهة تنفيذية وليس جهة تشريعية، ويمكن تشبيه الدماغ بجهاز التلفاز، فهو مجرد مستقبِل للمعلومة ومُعالِج لها، وحين قطع الأسلاك يتوقف ويُفقد الإرسال، فالأصوات الصادرة من التلفاز ليست صادرة عنه أو مُخزنة فيه، بل هو مجرد مستقبل ومعالج للمعلومة، وإذا تلفت الدائرة الكهربية فيه أو تلفت الأسلاك يتوقف عن الإرسال والاستقبال وبالضبط هذا ما يحدث في حال تلف أسلاك الدماع نتيجة صدمة أو تلف الدائرة الكهربية نتيجة زهايمر، أو كليهما نتيجة تعاطي بعض العقاقير كالمخدرات، فساعتها يتوقف الدماغ عن الإرسال والاستقبال.

المأخذ الثالث:

المأخذ الثالث الذي نأخذه علىٰ دكتورنا الحبيب د.عمرو شريف في كتبه؛ هو صب صكوك الإيمانية علىٰ الفلاسفة والعلماء المثبتين لوجود خالق، مثل قوله عن جون ليسلي الفيلسوف المؤمن-في كتابه خرافة الإلحاد-، ولفظ الإيمان لا يُطلق في الإسلام إلا ويراد به الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والإيمان والإسلام صنوان إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا كما يقرر الأُصوليون، فليس مؤمن مَن كان غير مسلم. وربما نلتمس لدكتورنا في هذا المأخذ أن المتبادر إلىٰ الذهن هو مجرد الإيمان بالله، لكن الإطلاق يُفضل فيه التقييد حتىٰ لا يُلبّس علىٰ العوام خاصّة مَن ليست مقارنة الأديان له دِربة، فوجب التقييد! إذ كل دين وكل فلسفة وكل مذهب غير الإسلام مردودٌ علىٰ صاحبه يوم القيامة، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا، هذا هو الأصل الذي لا نحابي فيه أحدًا، إذ المحاباة كفر، وديننا صواب لا يحتمل

الخطأ وكل دينٍ غيره خطأ وباطل لا يحتمل الصواب ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[1].

انتهىٰ

بعد كتابتي لهذا النقد بأيام، فوجئت بالدكتور الفاضل عمرو شريف يدخل علىٰ منشوري في مجموعة ورينا نفسك علىٰ الفيس بوك ويكتب:

مداخلة دكتور عمرو شريف

الأفاضل مسؤولي وأعضاء مجموعة ورينا نفسك ...

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...يسعدني أن أطرح عليكم فهمي للتطور البيولوجي ، ومنهجي في طرحه علي الملاحدة ، وذلك في عدة نقاط:

أولا: ينبغي التفرقة بين عقيدة الإنسان ومنهجه في التعامل مع الملاحدة والمتشككين، فالعقيدة مصدرها نصوصنا المقدسة، من قرآن وسنة، علي مراد الله، وليس غيرها من علم أو فلسفة .

أما مناظرة الملاحدة وطرح أفكارنا عليهم فلا بد أن يكون من خلال أرضية مشتركة، وبديهي أنها ليست نصوصنا المقدسة (التي لا يؤمنون بها)، ولكنها "العلم" ... فهم لا يقبلون سواه ....

لذلك فان جميع كتاباتي الموجهة لهم تنطلق من هذه الأرضية المشتركة، حتىٰ وإن اختلفت مع بعض مفاهيمي في العقيدة.

ثانيا: لا ينبغي أن نخاطب الملاحدة بأسلوب (من يقول بالتطور فقد كفر)، ماذا تنتظر من الملحد المتخصص أو غير المتخصص في البيولوجيا؟ المنصف

(١) سورة آل عمران: الآية (٨٥).

منهم سيرجع إلي كبار علماء البيولوجيا، وسيجد أن أغلبهم يعتبر أن التطور حقيقة علمية، بذلك سنكون قد وضعنا الملحد في اختيار صعب، ودفعناه دفعًا لتبني الإلحاد !!

إن هذا ليس طرحًا محتملًا، لكنه واقع حدث في صفحتي حيث دفع هذا الطرح من أحد المتدينين عشرات من المتشككين إلىٰ الإلحاد !!

ثالثا: إذا اتفقنا أن يكون ميدان حوارنا مع الملاحدة هو العلم ، فالمشكلة التي ستواجهنا إن أكثر البيولوجيين الآن يعتبرون أن التطور حقيقة علمية، ... ولن يمكننا إزاحة هذا المفهوم إلا بجهد جهيد يقوم به البيولوجيون من أنصار الخلق الخاص، من خلال أبحاث علمية جادة يقدمونها للمجتمع العلمية المحترمة.

وحتىٰ ذلك الحين، فقد توصلت إلي منهج مناسب للتعامل مع المشكلة في كتاباتي ، وهو:

١) التشكيك في حجية مفهوم التطور البيولوجي ، وإثبات أنه "ليس حقيقة علمية" بل هو من باب ما يطلق عليه فلاسفة العلم "اللجوء إلي أفضل التفسيرات "Inference to the best explanation "، وأن أضيف إليها (التفسيرات المادية) ... وأدعم ذلك بان العلم يعجز في علوم البدايات عن طرح حقائق علمية لنشأة الكون والحياة والكائنات والإنسان .

وأضيف إلي ذلك أن الشواهد التي يتعامل معها العلم تتأرجح كل حين بين القوة والضعف ...

٢) إذا كانت الداروينية هي التطور بآليات عشوائية، فقد أثبت العلم أن ليس هناك عشوائية علي الإطلاق .

ومن ثم إذا تمسك العلم بمفهوم التطور ، فليس أمامه إلا الاعتراف بأن وراء التطور خالقًا حكيمًا قادرًا ، وهذا هو مفهوم التطور الموجه الذي طرحه د. مصطفي محمود منذ أكثر من أربعين عامًا.

إن هذا هو الأسلوب العلمي الوحيد (الأرضية المشتركة) الذي يمكن التعامل به مع هذه القضية، وهو ليس أنصاف حلول ولا وقوف في منتصف الطريق ، كما اعتبره الفاضل د. هيثم.

كذلك لا يمكن في إقناع الملاحدة والمتشككين (بل وأيضـًا المؤمنين) أن "نستبق العلم" كما يطمح الفاضل المهندس أبو حب الله، فهؤلاء يريدون أدلة علمية وليس طرحًا استباقيًّا ...

رابعًا: يتكون المنهج العلمي الذي نتبعه جميعا (مؤمنين وملاحدة) من عدة خطوات، آخرها تحكيم الأقران والنظراء في النظريات الجديدة ...ولكن ليس من خطوات المنهج العلمي الاحتكام إلي نصوصنا المقدسة في قبول أو رفض النظريات العلمية.

أعلَمُ أن كلام الله عز وجل هو الحق المطلق المبين، لكني أتحدث هنا عن فهم بشري لأفراد مختلفين لآيات الخلق في القران الكريم ، وهي ليست من الآيات المحكمات .

ينبغي أن نأخذ حذرنا ، فان تحكيم النصوص المقدسة في النظريات العلمية كان مسؤولا عن انفجار اعتي عاصفة الحادية في تاريخ البشرية في أوروبا في بداية العصر الحديث ، وأخشىٰ ما أخشاه أن تتشابه المقدمات فتشابه النتائج .

خامسًا: في المقابل، لا ينبغي تحكيم العلم في مفاهيم العقيدة في نصوصنا المقدسة، خاصة وهو عاجز عن تقديم حقائق في علوم البدايات.

سادسًا:سألني سائل: هل قضية الخلق علمية أم دينية؟

أجبته قائلًا: يقول الحق عز وجل: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾[١]... أي: إنها قضية علمية أمرنا ببحثها الله عز وجل ... وهي أيضـًا قضية دينية إذ تعرض لها القران الكريم في آياته .

وقناعتي أن الطرحين متكاملين، فنحن مكلفون من الله عز وجل بالبحث في "آليات" الخلق من خلال العلم، ومكلفون بتأمل "الحكمة والقدرة الإلهية" في آيات القران الكريم الخاصة بالخلق.

سابعًا: إذا سألتني عن قناعتي حول الربط بين الطرحين العلمي والديني في قضية الخلق، أجيبك أنني لست متحمسـًا لطرح رؤية واحدة تجمع بين الطرحين، **وذلك لسببين**:

١) لا (ولن) يملك العلم حقائق نهائية في هذه القضية.

٢) الطرح الديني في هذه القضية هو فهم متفاوت لنصوص مقدسة من المتشابهات، ولا ينبغي أن يدعي أحد أن فهمه هو الحقيقة علي مراد الله عز وجل، ومثال ذلك اختلاف المفسرين في الجنة التي أهبط منها ادم عليه السلام، أجنة السماء، أم ربوة علىٰ الأرض؟

ثامنًا: قد يقول قائل: لكنك في كتابك "كيف بدأ الخلق" طرحت محاولة لتأويل آيات الخلق في القران الكريم في ضوء مفهوم الخلق الخاص، فلم؟

---

(١) سورة العنكبوت: الآية (٢٠).

أجيب بأن الحوار مع الملاحدة يتبني (تبعا لرأي العديد من كبار مشايخنا الأجلاء) إنه إذا "ثبت" مفهوم التطور كحقيقة علمية، فان آيات الخلق في القرآن الكريم تقبل التأويل في ضوء هذا المفهوم. وبذلك تنهار أكبر حجج الملاحدة في العصر الحديث حول تعارض الدين مع العلم، فوجب إعطاء أمثلة علي ذلك..

تاسعًا: ما ذكرته من تأويلات في كتابي ليس من اجتهادي، بل نقلته عن بعض المجتهدين، الذين أقر باجتهاداتهم واعتبرتها مقبولة (أصابت أو أخطأت) ولا تتعارض مع ثوابت العقيدة، مرجعيات دينية كبيرة، مثل:

نقلت عن د/ **عبد الصبور شاهين،** الذي تقبل اجتهاداته مجمع البحوث الإسلامية.

نقلت عن د/ **محمد حسن عطية من كتابه قضية الخلق،** وتقبل اجتهاداته وقدم للكتاب د عبد المعطي بيومي ، العميد الأسبق لكلية أصول الدين.

الأخوة الأفاضل، هذا طرح سريع لرؤيتي لمفهوم التطور البيولوجي، ومنهجي في طرحه علىٰ الملاحدة .

فإذا كان مفهوم الخلق الخاص لم يقدم بعد أدلة علمية كافية ليزيد مفهوم التطور البيولوجي عن الساحة، فلا أقل من أن نضعف من سطوة هذا المفهوم ونشكك في حجية أدلته ، ونثبت أنه إذا كان حقيقة فهو يحتاج إلي إله حكيم قادر.

أي: إنه سواء كان الخلق خلقا مباشرًا أو خلقا تطوريًّا فإن الله عز وجل.

بعد انتهاء مداخلة دكتورنا الفاضل، جاء تعقيبي على كلامه كما يلي:

مداخلة د. هيثم طلعت الأولى

باسم الله والحمد لله؛

مرحبًا بدكتورنا الفاضل د. عمرو شريف وجزاكم الله خيرًا علىٰ ما تُقدمونه!

في البداية: دعنا نتفق أن نظرية التطور هي تأويل فلسفي لظاهرة وجود الكائنات الحية لا أكثر!

فلا يوجد دليل واحد مستقل علىٰ التطور النوعي macro-evolution ولا علىٰ الطفرات النافعة mutations ولا علىٰ الانتخاب الطبيعي.

فنحن ما زلنا نتحدىٰ الملحدين أن يأتوا لنا بدليل واحد تجريبي رصدي أُحفوري إمبريقي ميثودولوجي علىٰ أيٍ من أصول نظرية التطور "التطور النوعي- الطفرات النافعة- الانتخاب الطبيعي"، ونكون لكم شاكرين إذا أحضرتم لنا دليلاً واحدًا مباشرًا علىٰ أيٍّ من الأمور السابقة.

ولو كان هناك دليل واحد مباشر علىٰ النظرية لانتهت المجادلات بشأنها منذ زمنٍ بعيد وصارت القضية كقانون الجذب لنيوتن!

أصل أدلة التطوريين وأدلتكم دكتورنا الكريم هي: تناظر الأطراف والتشابه الجيني وتناظر الأجنة؛ وهذه الأدلة تقوم علىٰ مغالطة الاستدلال الدائري: بما أن دكتور عمرو شريف وهيثم طلعت متخرجان في كلية الطب ويكتبان في مجموعة ورينا نفسك إذن لهما أب واحد common archetype، هذا أصل مغالطة الاستدلال الدائري، والأصح عند المناطقة رصد التفريع من الأب أولًا، أما ما يحدث هنا فهو استدلال دائري وفلسفة تأويلية افتراضية.

وجاءت البيولوجيا الجزيئية-فك التشفير الجيني- لتضرب هذه الفلسفة التأويلية في مقتل، حيث قرر علماء البيولوجيا كولن باتيرسون وديفيد ويليام وكرستوفر هيمفريس عام ١٩٩٣ أن: "التطابق في التأريخ الجزيئي هو مراوغ مثل التطابق في شكل الأعضاء، لكن عندما يتصارع التأريخ الجزيئي تبقي الطريقة الوحيدة للاختيار بين المتصارعين هو أن نحدد السلف المشترك مسبقًا

بطريقه مستقلة، وهذا يعيدنا لنفس المغالطة المنطقية الاستدلال الدائري .التي من المفترض أن نتجنبها".

هناك نقطة أخرىٰ محورية وهي أن الأجزاء المتناظرة ليست بالضرورة يتحكم فيها جينات متشابهة، ففي عام ١٩٧١ كتب العالم جافين دي بيير أن: "الصفات التي تتحكم فيها جينات متشابهة ليست بالضرورة متناظرة، والأجزاء المتناظرة ليست بالضرورة يتحكم فيها جينات متشابهة".

ثم إن توارث الأجزاء المتناظرة من سلف مشترك لا يمكن أن ينسِب إلي هوية الجينات تكوُّن التقاسيم - التي تظهر منفصلة علي ظهر الحشرات segment formation in insects مثلًا– حيث تعتمد أجنة ذباب الفاكهة علي الجين المسمي Even-skipped في تطوير تقاسيم ظهرها بشكل سليم، لكن هناك حشرات أخري مثل الجراد والدبور التي تكوِّن نفس تلك التقاسيم بدون استخدام ذلك الجين .

ولأن تقاسيم ظهر جميع الحشرات تعد متناظرة، فإن هذا يظهر أن الصفات المتناظرة لا تستدعي بالضرورة أن تكون محكومة بأجنة واحدة –متشابهة–، ومن الأمثلة الأخري جين يسمي sex-lethal وهذا الجين يعمل علي تحديد الجنس في ذباب الفاكهة، لكن هذا الجين غير موجود في الحشرات حيث تتمايز إلي ذكور وإناث بدونه. وفي الجهة المقابلة، نجد وبصفه مثيرة ومنتشرة أنه توجد تراكيب غير متناظرة تنشأ من جينات متطابقة، فهاهم علماء الجينات يكتشفون أن هناك جينات عديدة من التي تحتاجها ذبابة الفاكهة من أجل نموها بشكل سليم مشابهة تمامًا لجينات في الفئران وفي قنفد البحر وحتي في الديدان .

فإذا كانت الجينات هي المتحكمة في تركيب الجسم وإذا كانت الجينات الخاصه بالنمو في الفئران وذباب الفاكهة شبيهة جدًّا ببعضها، فلماذا إذن لا ينمو جنين الفأر ليصير ذبابةً، ولماذا لا ينمو جنين الذبابة ليصير فأرًا؟

كتب العالم جافين دي بير عام ١٩٧١ : "أية ألية تلك، التي تنتج عنها أعضاء متناظرة، بنفس الشكل، علي الرغم من اختلاف الجينات؟ سألت هذا السؤال ولم أجد جوابًا بعد".

اليوم؛ وبعد أكثر من أربعين عامًا علي السؤال، لم يجد جافين دي بيير جوابًا بعد !!!

وبنفس القياس السابق؛ كيف يمدنا تشابه أطراف الفقاريات بدليل علي التطور الدارويني؟ وإذا كانت الطرق الجينية والجنينة غير متسلسلة -متواصلة - بين الحيوانات فكيف نعرف أنها جاءت من انحدار وتكيف؟ وهل يمكننا أصلًا أن نستنتج وجود سلف مشترك من التناظر؟ وخاصةً أننا رسخنا تعريف التناظر بأنه صفات من سلف مشترك، فكيف إذن نستخدمها كدليل علي التطور؟ وهي أصلًا مُعرَّفة بناءًا عليه.

إذن القضية فلسفة تأويلية تحمل صبغة المغالطة المنطقية السخيفة والاستدلال الدائري العقيم.

أما بخصوص تناظر الأجنة؛ فقد كتب عالم الأجنة الأمريكي إيدموند ويلسون عام ١٨٩٤ أن " الأجزاء المتقاربة جدًّا بين البالغين، والتي لا نشك أنها متناظرة، هي في الغالب مختلفة بشكل واسع في الأصل اليرقي أو الجنيني إما في طريقة التكوين أو في المكان الذي تتكون فيه أو في كلاهما".

ثم كتب عالم البيولوجيا التطورية بير ألبيرتش عام ١٩٨٥ أن "القاعدة أفضل من إستثناءاتها، حيث أن الأجزاء المتناظرة تتكون من أماكن مختلفه غير متشابهه في الأجنه".

وبما سبق تسقط أصول الداروينية كفرضية فلسفية غير مستقيمة حتىٰ منطقيًّا؛ بقي أن أقول: إن الاقتباسات السابقة لمن أراد الاستزادة أو المراجعة، هي من كتاب أيقونات التطور Icons of Evolution لعالم البيولوجيا الشهير بجامعة يال جوناثان ويلز، وتعكف هذه الأيام مجموعة الترجمة العلمية بالفيس بوك علىٰ ترجمة الكتاب وتقديمه للمهتمين بالملف الدارويني، فجزاهم الله عنَّا خير الجزاء.

الآن ننتقل إلى ديننا الحنيف

التسليم بفرضية التطور يوجب علينا أن نفترض أن:

١ – أجداد الأنبياء كانوا حيوانات –عياذًا بالله–.

٢ – وأن أول البشر والده المباشر هو حيوان بشري يسير في الغابة.

٣ – وأن الله لم يخلقنا بيده مباشرةً من صلصال كما ورد في نص الحديث" خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ".

٤ – وأن أول البشر الذي هو آدم ظهر للتو من أب حيواني – عياذًا بالله –.

٥ – وأن أول البشر هذا كان مرحلة تطورية سيعقبها ربما مراحل أفضل لا نعلم، ومصادمة ذلك للحديث المتفق عليه "فلم يزل ينقص الخلق حتى الآن".

٦ – وأن الأصل هو البقاء للأصلح.

لكن كل هذه الافتراضات تخالف بما لا يدع مجالًا للشك روح الإسلام التي تنص علىٰ أن:

١- أول البشر هو إنسان " آدم عليه السلام" خلقه الله بيده ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ﴾[١].

٢- هذا الإنسان خلقه الله من طين الأرض، وهذا الطين تحول إلىٰ صلصال كالفخار ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴾[٢]، أين في نظرية التطور هذه الأمور يا ترىٰ؟

٣- والإنسان الأول هو آدم عليه السلام، لم يكن ناقصاً ثم اكتمل! بل العكس هو ما يخبرنا به النص الديني " فلم يزل ينقص الخلق حتىٰ الآن".

٤- أصل الخلق قضية غيبية لم نطلع عليها ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴾[٣]، فكيف نُسلم لفرضيات ومغالطات لا تستقل حتىٰ بذاتها؟

٥- قضية الخلق تقوم علىٰ التعاون والتكافل لا الصراع الداروني ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[٤].

٦- يقول الدكتور صبري محمد خليل أن كتاب عبد الصبور شاهين "أبي آدم: قصة الخلق بين الحقيقة والأسطورة" – وهو الكتاب الذي يؤصل لفرضية التطور الموجه بمنظور إسلامي-، وهو الكتاب الذي يُحيل إليه كثيرًا د. عمرو

---

(١) سورة ص: الآية (٧٥).

(٢) سورة الرحمن: الآية (١٤).

(٣) سورة الكهف: الآية (٥١).

(٤) سورة الحجرات: الآية (١٣).

شريف، يقوم هذا الكتاب علىٰ مغالطات منطقية مثل: تحليله لكيف عرفت الملائكة أن الإنسان سيفسد في الأرض ويسفك الدماء، وافتراضه وجود بشر سابقين، غير أن هذه الاجابه التي قدمها شاهين مرجوحة، فالإجابات الراجحة عند العلماء هي:

أولاً: أنهم علموا ذلك بإعلام الله تعالىٰ لهم ، وإن كان ذلك لم يذكر في السياق (ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وابن زيد وابن قتيبة).

ثانيًا: أنهم قاسوه علىٰ أحوال من سلف قبل آدم علىٰ الأرض، وهم الجن وليسوا كائنات حيه (ابن عباس وأبي العالية ومقاتل).

ثالثًا: أنهم فهموا ذلك من الطبيعة البشرية (ابن تيمية في منهاج السنة).

رابعا: أنهم فهموا من قوله تعالىٰ - خليفة -أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم ، ويردعهم عن المحارم والمآثم (القرطبي في الجامع لأحكام القرآن).

أيضًا الاستدلال بالآية ﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾[1]، باعتبار أنها تشير إلىٰ مراحل خلق الإنسان كنوع، بينما الآية تشير إلىٰ مراحل تخلق الجنين في رحم أمه، يقول الإمام الطبري في تفسير الآية: «**وقد خلقكم حالًا بعد حال طورًا نُطْفَة وطورًا عَلَقة وطورًا مضغة**».

في واقع الأمر؛ القضية التي نحن بصددها الآن – فلسفة التطور- هي فلسفة تأويلية تخالف نصوص صريحة وأفهام سليمة تناقلها سلف الأمة كابرًا عن

(١) سورة نوح: الآية (١٤).

كابر، فكيف ننتقل من النص الصريح الصحيح إلىٰ التأويل الضعيف المرجوح، ومن الفهم السليم إلىٰ افتراض عصراني استنادًا إلىٰ فلسفة تأويلية نجزم أنها يومًا ما ستصبح أكبر أكذوبة في تاريخ الفكر والعلم؟

بعد هذه المداخلة كتب دكتور عمرو شريف مداخلته الثانية.

مداخلة دكتور عمرو شريف

الدكتور الفاضل هيثم طلعت ...

تأملت بعمق تعليقاتك الأخيرة علي رسالتي، فوجدت أن الاختلافات بين مفاهيمنا ليست في التفاصيل، لكنها اختلافات "أساسية" في "منهج التعامل مع القضية"، وأوضح ذلك في النقاط التالية:

١) تعتبرون أن نظرية التطور "تأويل فلسفي" ومن ثم يمكن إخضاعه لمنطق الوجاهة العقلية والمنطق الفلسفي والاعتبارات الدينية، لكني أشارك المجتمع العلمي أن التطور مفهوم علمي، ينبغي التعامل معه بالمنهج العلمي .

٢) تساوون بين علوم البيولوجيا وعلوم الفيزياء، وبين قانون الجذب الفيزيائي وبين المفاهيم البيولوجية، فتطالبونني بأدلة حسية وتجريبية علي التطور!، أما أنا فأشارك المجتمع العلمي وفلاسفة العلم في إخراج علوم البيولوجيا من دائرة العلوم التجريبية، ومن ثم لا تخضع للحس والتجريب.

تصنف علوم النشأة في البيولوجيا كعلوم "تاريخية"، لذلك تعرف البيولوجيا بـ"التاريخ الطبيعي Natural history "، لذلك فهي تقوم علي "اللجوء الي أفضل التفسيرات"، ولا يخرجها ذلك من دائرة العلم إلي دائرة الفلسفة، فلكل علم من العلوم منهجه في الاستدلال والتفسير، كما تعلمون ...

وما ذكرت من كلام كارل بوبر ينطبق فقط علي العلوم الرصدية، وليس العلوم التاريخية والإنسانية .

وقد وقع الملاحدة في نفس اللبس فأخذوا يطالبوننا بأدلة حسية و تجريبية علىٰ الإلوهية، فهل نسايرهم في نفس خطاهم؟!!

٣) طرحت لتفنيد أدلة التطور رأي وأدلة احد العلماء المعارضين، وفي المقابل يقدم لك الملاحدة في مقابل كل من هؤلاء العلماء عشرات بل مئات العلماء الأكبر شئنا ممن يعتبرون التطور حقيقة علمية، ومن ثم فان هذا "المنهج الانتقائي" لن يجدي في دحض مفهوم التطور، بل سيؤيد موقف الملاحدة؛ إذ أن مناصريهم أكثر وأقوىٰ كثيرًا .

٤) تعتمدون في منهجهم علي "التفاءل" بأن العلم سيثبت في المستقبل صحة مفهوم الخلق الخاص، وهو نفس الأسلوب الذي يتبعه الملاحدة في الاعتراض علي مفاهيمنا الدينية، والملاحدة كما تعلمون لن يقبلوا استخدامنا لهذا المنهج، ويعتبرونه سدًّا للثغرات.

لذلك أري أن المنهج المناسب في التعامل مع القضية هو (كما ذكرت في رسالتي الأولي)، التشكيك في حجية أدلة التطور، وإظهار أنه يستحيل أن يصبح حقيقة علمية، وأن ثبت المفهوم فلن يكون عشوائيًّا، بل ينبغي أن يكون وراءه إله حكيم قادر ...

ننتقل الآن إلىٰ طرحكم الديني، وما اتفق وما اختلف معكم فيه منهجيًّا:

١) أوافقكم علي كل ما استخرجتم من كتاب الله عز وجل من أدلة التقدير للإنسان، وهذا بعض ما عنيته حين قلت إن العقيدة تؤخذ من القران الكريم .

٢) كما ذكرت في رسالتي الأولي، اعترض تماماً علي التصدي للمفاهيم العلمية بمفاهيمنا الدينية، فلكل من الدين والعلم منهجه، ولا شك أن تحكيم النصوص المقدسة ليس من المنهج العلمي .

وأكرر ما ذكرته في رسالتي الأولي، من أن هذا الخطأ المنهجي الكبير كان هو المسئول عن الصراع بين العلم والكنيسة، وكان هو المسئول عن اعتي موجة الحادية في التاريخ .

وللأسف الشديد ها هم المسلمون يقعون في نفس الخطأ، وأخشي أن أقول: ما أشبه الليلة بالبارحة، فلا شك أنكم ناظرتهم عشرات الملاحدة الذين كان هذا الخطأ المنهجي سببًا في إلحادهم .

٣) أنا لا أطالب بمعارضة نصوصًا صريحة وإفهاما سليمة بتأويلات ضعيفة مرجوحة، فقد ذكرت أن عقيدتي استمدها من نصوصي المقدسة، لكني أتبني رأي الكثير من علمائنا الأجلاء بأن آيات الخلق في القران الكريم تحتمل التأويل في ضوء الخلق التطوري إذا ثبت علميًّا مفهوم التطور، وكان ذلك هو المنجي لملايين الشباب المسلمين من مستنقع الإلحاد ..

أخي الفاضل د. هيثم ...

أقترح علي أعضاء مجموعة ورينا نفسك، مراجعة فصل بعنوان "دارون والجسر" من كتاب "قصة الإيمان" للشيخ نديم الجسر، من أجل أن ينظروا للقضية من وجهة نظر تختلف مع ما اعتادوا عليه في صفحتهم .

كما أقترح عليهم مشاهدة حلقتين من برنامج "العلم والإيمان " للدكتور مصطفي محمود علىٰ اليوتيوب، وعنوانهما "غلطة دارون".

كامل احترامي وتحياتي لكم ...

بعد هذه المداخلة جاء تعليقي كالتالي:

مداخلة د. هيثم طلعت الأولى

باسم الله والحمد لله؛

نشكر لكم دكتورنا الحبيب تواضعكم وحواركم معنا وهو حتمًا شرف أدعيه علىٰ الأقل لنفسي التي أعرف قدرها جيدًا.

في البداية؛ دكتورنا الحبيب أشرتم إلىٰ أن قضية التطور ليست فلسفة تأويلية وإنما علم؛ **ثم انتظرنا أدلة هذا العلم فوجدناها فلسفة تأويلية أيضًا.**

فالرجوع إلىٰ أفضل التفسيرات inference to the best explanation هو صياغة فلسفية تأويلية لمعطيات ظواهر مادية، فهذا المفهوم " الرجوع إلىٰ أفضل التفسيرات " صاغه الفيلسوف جيلبرت هيرمان Gilbert Harman وهو مفهوم فلسفي يتعرض الآن لهجوم رهيب فلسفيًّا وعلميًّا وما زال غير مقنع للأوساط العلمية؛ لأن أفضل التفسيرات يحكمها في النهاية المستند العلمي التجريبي أيضًا وليس الفرض التأويلي، فمثلًا: الفلوجستون phlogiston كان أفضل التفسيرات في ظاهرة الاحتراق وكان الإيمان بوجود مادة الفلوجستون هو عقيدة جميع جامعات العالم، وكان يتم تدريس وجود هذه المادة رسميًّا، وكان المجتمع العلمي يقرر أن كل عُنصر قابل للاشتعال يحتوي داخله علىٰ مادة الفلوجستون، وتبين فيما بعد أن الفلوجستون خرافة علمية!

أيضًا ظل نموذج بطليموس قرونًا طويلة أفضل التفسيرات، وكلما اتسعت الاكتشافات الفلكية كان يتم تكييف التفاصيل حتىٰ تنضبط مع النموذج

المعياري المهيمن لبطليموس- الأرض مركز الكون-، ومع الوقت تبين أنه ليس في الإمكان الحفاظ علىٰ سيطرة هذا النموذج المعياري.

يقول الكاتب المعاصر جوسامي Goswami: إن أنصار نظرية التطور يفعلون اليوم كما كان يفعل أنصار نظرية أن الأرض هي مركز الكون، فهم الآن يمارسون نفس عناد السابقين، حيث كان السابقون يقومون برسم عدد لا نهائي من الحلقات والحلقات، ليبرروا دوران الأفلاك حول الأرض ليتمكنوا من التمسك بنظريتهم، وأنصار الداروينية يفعلون اليوم الشيء نفسه تجاه أي اكتشاف يُغير أو يناقض مبادئ النظرية ومبادئ آليتها، بأن يقوموا بتعديلات لا نهائية للنظرية الأُم لتواكب تلك الاكتشافات، فكان المفترض لو أن الأمر كما يزعمون أن تتحقق توقعات النظرية في كل كشف أحفوري جديد لكن الحاصل أنه لا شيء يتحقق البتة، بل إن كل كشف جديد يتطلب رسم دوائر جديدة لا أكثر، وصارت النظرية حبلىٰ بالدوائر عاجزة عن التنبؤ بشيء ولا يقدم الكشف الأحفوري إلا إضافة دوائر جديدة حول النظرية.

إنها صدقني دكتورنا الحبيب فلسفة تأويلية.

أما مشاركتكم دكتورنا الفاضل للمجتمع العلمي في دعمه للتطور فهذا أمر إيجابي نحترمه وعلينا نحن أن نسعىٰ إليه أيضًا، لكن بشرط أن يكون للتطور حجته العلمية وليس مجرد دوغما dogma يؤمن بها المجتمع العلمي، فأنتم ربما ستدهشون إذا علمتم أن بعض أعضاء المجتمع العلمي حتىٰ التسعينيات من القرن الماضي كانوا يُسلِّمون بوجود العرافين، ولم يكن مشروع ستار جيت Stargate Project فخر العسكرية الأمريكية والذي تم إنشاؤه عام ١٩٧٢ ودفعت فيه الحكومة الأمريكية ملايين الدولارات إلا إيمانًا بوجود العرافين،

فهذا المشروع كان يهدف مباشرةً لدراسة قدرة العرافين علىٰ الحصول علىٰ معلومات مفيدة عسكريًّا، مثل: منشأة نووية سوفيتية في فترة الحرب الباردة وكان ممثلوا المجتمع العلمي يمدون العرافين بإحداثيات الطول والعرض للمنطقة المطلوب فحصها ويبدأ العراف في الإدلاء بمعلوماته .. وظل البرنامج يعمل حتىٰ عام ١٩٩٥ .

فهل ننساق خلف المجتمع العلمي حين يمد العرافين بإحداثيات الطول والعرض، ونُسلم بوجود العرافين فقط لأنه مجتمع علمي؟

لكنكم ألمحتم مشكورين إلىٰ أن علوم النشأة لا يصلح فيها العلم التجريبي!!

ومَن قال لكم: إن التطور من علوم النشأة؟!!

هل التطور توقف الآن حتىٰ يوصف بعلم النشأة الذي لن يتكرر؟

مَن قال لكم: إن التطور لا يصلح فيه العلم التجريبي؟

وهل معنىٰ عجزنا عن رصد التطور تجريبيًّا إذن هو غير صالح للرصد؟

وهل يُسلم لكم المجتمع العلمي نفسه أن التطور من علوم النشأة؟

إذا سلَّم بهذا فقد سلَّم بتدخل المتجاوز- العلة الأولىٰ-، وانتهت القضية.

نعم التطور عملية بطيئة تتطلب آلاف السنين، لكن نحن عندنا مليوني نوع من الكائنات الحية المستقلة، وبحساب معدل الظهور علىٰ زمن ظهور هذه الكائنات، ستكون النتيجة أنه لابد أن يظهر كائن حي مستقل جديد كل بضعة ساعات، إلىٰ جانب آلاف الكائنات المتحورة كل دقيقة، هذا في الرصد التجريبي المباشر، ونفس الكلام يُقال عن الرصد الأحفوري؛ فما الحال ونحن

لا نعرف إلىٰ الآن أب واحد مباشر لأي كائن حي علىٰ وجه الأرض، ولم نرصد أي تطور نوعي macro-evolution علىٰ الإطلاق!

وصرنا كما كنا أيام داروين لا نعرف عن الداروينية إلا المظهريات، بما أن فلان يُشبه فلان إذن بينهما قرابة، وهذا من باب وضع العربة قبل الحصان، وهذا ليس علم وإنما تصنيف أنساب، وهنا تكمن المغالطة المنطقية الكبرىٰ في الداروينية والتي تُسمىٰ مغالطة الإستدلال الدائري التي فصلنا فيها القول من قبل.

وكما يقول البيولوجي جوناثان ويلز في كتابه icons of evolution ": هل تشابه السحاب والآيس كريم يعني السلف المُشترك؟"

تخيل أُستاذي الكريم لو علم تشارلز داروين أن مجلة Discovery العملاقة ستنشر في عدد يناير ٢٠١٠ مقالًا تعتذر فيه لداروين أن العلم لم يرصد طوال قرن ونصف من الزمان أيّة طفرة واحدة مفيدة علىٰ الإطلاق، هل كنت تتوقع أن داروين كان سيثق بنظريته؟

صدقني أُستاذي الكريم ستظل الداروينية خُرافة علمية pseudoscience بمقياس العلم ومقياس الفلسفة ومقياس الدين.

أما افتراضكم أن إلحاد البعض سببه عدم التوفيق بين الدين والتطور، فحتمًا هذا البعض مع قليل من النظر سيعلم أن القضية دين آخر وليست علم وساعتها سيقلع عن ديانة التطور، ثم إننا لو جعلنا قضيتنا موافقة كل فكرة تظهر وتروج، فإننا نكون كالذي يصلي صلاة المشركين يومًا وفي اليوم التالي صدقني المشركون لن يُصلوا صلاتنا فنكون نحن الخاسر الوحيد، فالقضية ليست

موافقة كل موجة، لكن القضية ﴿هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[١]، القضية برهان، وصدقني أُستاذنا الحبيب سنتنزل مع البرهان حيث نزل ولا ضير عندنا في ذلك بفضل الله ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾[٢].

أما مقارنتكم دكتورنا الحبيب بين إثبات وجود الله والتطور، فهذا أمر غريب! هل التطور هو أمر ميتافيزيقي عند أصحابه؟

هل التطور خارج حدود الزمان والمكان ولا يخضع لهما وبالتالي نؤمن به ونشهد له، ولا نتطلع إلىٰ أدلة تجريبية تدعمه؟

بارك الله فيكم دكتورنا الحبيب وآمل وأتطلع ألا نكون مُثقلين عليكم!

بعد هذه المداخلة كتب دكتورنا الحبيب مداخلته الختامية...

مداخلة دكتور عمرو شريف

كان اتجاهي أن أعلق واجبكم علي ما تطرحون نقطة نقطة، لكن لغزارة ما طرحتم من آراء وتعليقات سأقوم بالتعليق علي ما طرحتم بشكل مجمع ...

كنت طوال فترة حوارنا القصيرة أبحث عن أرض مشتركة ومنهج قياسي واحد نتحاور علي أساسه في قضية علمية،..

لكن للأسف لم أستطع أن أتوصل إلي ذلك المنهج، وربما كان الخطأ خطأي منذ البداية، فلا شك أن منطلقاتنا مختلفة، فأنا أحرص علي أن تظل القضية في المستوي العلمي فقط لقناعتي بأن هذا هو الأسلوب الأمثل لمخاطبة الملاحدة والمتشككين، وأيضـًا المتدينين الباحثين عن تدعيم العقيدة بالعقل ،.

---

(١) سورة النمل: الآية (٦٤).

(٢) سورة الزخرف: الآية (٨١).

أما منطلقكم فهو إثبات الخلق الخاص المباشر باعتبار القول به من أساسيات العقيدة .

كان عليّ أن أدرك هذا الفارق من البداية مما يوفر عليكم وعليّ الكثير من الجهد

الأخوة الأفاضل: أعرض عليكم النقاط الأساسية لاختلافه معكم، والتي تجعل استمرار الحوار غير ذي فائدة:

١) تتمسكون بتحكيم فهمكم البشري لنصوص متشابهات من القرآن الكريم في القضايا العلمية، وأضفته إلي ذلك اعتبار فهمكم للحكمة والقدرة الإلهية حكما أيضـًا، مثل القول بأن ليس من الحكمة الإلهية وجود الأعضاء الضامرة، لا ينبغي أن نلزم الله عز وجل بمفاهيمنا نحن .

٢) تصنفون مئات الآلاف من علماء العالم إلي مخادعين دجالين ومخدوعين بلهاء؛ لأنهم يقولون بالتطور، وفي ظل هذا التناول يستحيل أن يستقيم حوار علمي .

٣) تنظرون إلي الواقع كما تتمنون أن تروه، ولا تنظرون إلي حقيقته! فتعتبرون أن التطور قد انفضح في العالم، بينما الحقيقة عكس ذلك تمامـًا .

٤) تكتسبون فقرة تحوي آراء آحاد ممن ينكرون التطور، وتعتبرون أنكم بضعة فقرات من هذه قد أسقط ثم النظرية، وتطلبون مني أن أقدم أي أدلة جديدة !! وتقولون: أين أدلتك؟!

أدلتي هي أدلة كل جامعات العالم ومراكزه البحثية التي تعترف بالتطور .

أدلتي هي كل كتب البيولوجيا في العالم، فلا تجدون مرجعًا واحدًا Textbook ينكر التطور .

أدلتي هي كل الجمعيات العلمية الكبرىٰ التي تتبني التطور، حتىٰ أن الاتحاد الأمريكي لتقدم العلوم AAAS (٢٥ ألف عضو) قد أصدر بيانًا يعتبر فيه التطور هو الحقيقة المحورية في علم البيولوجيا .

إن أدلتي لا تفندها آراء آحاد من العلماء، ولا بضعة فقرات في مناظرة علي الفيس بوك .

إن طلب مناقشة هذه الأدلة في الفيس بوك يتطلب تبسيطًا شديدًا لا شك أنه مُخِلٌّ، وعلي من يبغي الحقيقة أن يرجع إليها في مصادرها .

٦) أقول لكم إن منهج علم البيولوجيا وتفسير نشأة الكائنات هو تقديم أفضل التفسيرات، فتصرون علي تقديم الدليل التجريبي المحسوس !!

٧) تؤكدان علي استحالة أن تفسر الداروينية كذا وكذا، وأنا أوافقكم، لكني لا أتحدث عن الداروينية ولكن عن التطور الموجه الذي يوجهه إله حكيم قادر، فهل يستحيل شيئًا علي الله عز وجل؟ !

٨) نعم هناك دوجماطيقية عند الكثيرين في طرح التطور، وقد تحدثت عنها كثيرًا في كتاب " خرافة الإلحاد "؛ لكن ذلك لا يمنع أن الآخرين موضوعيون في طرحهم، وينطلقون من مفاهيم علمية، ولا يستخدمون العلم لإثبات فهمهم الديني .

٩) تستخدمون كذب البعض (إنسان بلتداون) لإسقاط نظرية!! غير منتبهين إلي أن الذين فضحوا هذا الكذب كانوا علماء حفريات تطوريين، لذلك

يعتبر أستاذنا د/ أحمد مستجير فضيحة إنسان بلتداون وسام شرف علي صدر التطوريين.

١٠) ترفضون النظر في رأي بيولوجيين عالميين محترمين متدينين في إقرارهم وجزمهم بالتطور بالرغم من تعارضه مع سفر التكوين الذي يؤمنون به، أمثال مايكل بيهي وفرانسس كولنز .

١١) تعتبرون أني انتقلت من الطور العشوائي إلي التطور الموجه، ومن ثم فآل ممكن أن أصحح مساري! إلي الخلق الخاص. أنا لا أعترض علي تصحيح المسار، لكني منذ اهتممت بالقضية منذ ٤٠ سنة، وأنا أتبني التطور الموجه الذي اقتنعت به علىٰ يدي د/ مصطفي محمود .

كذلك تعتبرون أنكم تستبقون العلم وتستبقونني في القول بالخلق الجاص الذي سيثبته العلم في القريب. إن الاستباق دون أدلة علمية هو نوع من Pseudoscience بل لجوء إلىٰ سد الثغرات .

١٢) كل ما ذكرتموه من سلبيات تواجه التطور يعرفها التطوريون، وقد ذكرت أكثر منها في كتابي "خرافة الإلحاد"، لكن يظل القول بالتطور الموجه هو أفضل التفسيرات العلمية حتىٰ الآن .

١٣) أختم حديثي عن الاختلافات المنهجية بيننا بأن أنقل لكم إحدىٰ تجاربي المهمة في صفحتي لعلكم تجدون فيها الفائدة:

كان أحد المناظرين المتدينين في صفحتي يلجأ دائمًا إلى:

تحكيم فهمه الديني في مفهوم التطور، وتكذيب وسب كل من يختلف معه من العلماء، وهم كما ذكرت مئات الآلاف عبر العالم.

أضيف إلي ذلك "تكفير" كل من يقتنع بالتطور كنظرية علمية (حتىٰ لو كان موجها) !!!

لقد أدىٰ ذلك المنهج إلي نفور عشرات بل مئات من المتشككين والملاحدة ممن كنت أناظرهم أو كانوا يتابعونني، وكان الكثيرون منهم في طريقهم إلي الهداية بفضل الله عز وجل... كما أدىٰ إلي نفور الكثير من المتدينين الذين فوجئوا بأن أحد المناظرين في صفحتي "يكفرون" من يقبل نظرية علمية !!!

أنقل لكم تجربتي هذه حتىٰ ننتبه إلي أن لمنهج الإنسان الذي يتبعه انعكاساته المباشرة علي مواقف الآخرين .

مسئولي وأعضاء جماعة " ورينا نفسك " ....

نظرًا لعجمي عن الوصول إلي أرضية منهجية مشتركة يستمر علي أساسها الحوار، بل أدي ذلك إلي زيادة هوة الاختلاف، فإنني بكل أسف أعتذر عن مواصلة الحوار.

وأصدقكم القول بأنني كنت شديد الرضا والسعادة بما قدمتموه لي من تيسيرات، وما استقبلتموني به من حفاوة، ودعائي لكم بالتوفيق والأجر الجزيل مقابل ما نذرتم من أجله وقتكم وجهدكم . **ونسألكم الدعاء** ....

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ....

أخوكم عمرو شريف

بعد اعتذار دكتورنا الفاضل عمرو شريف عن تكملة الحوار جاءت مداخلتي الختامية كما يلي:

مداخلة د. هيثم طلعت الأولى

باسم الله والحمد لله؛

علىٰ الرغم من قرار دكتورنا الحبيب والغالي ترك الحوار وهو القرار الذي أحترمه قطعًا، وعلىٰ الرغم من أنني أحد الذين كانوا يخشون أن تؤثر هذه الحوارات علىٰ وقت دكتورنا الحبيب!

فما يُقدمه دكتورنا الغالي للأُمة مُقدم عندي علىٰ حوار لن يُغير من قناعاته شيئًا.

لكن أحسب أننا علىٰ الأقل قمنا بإتاحة فرصة؛ ليعرف القاصي والداني أن غاية حُجج التطور هي مسايرة المجتمع العلمي، وأن أقصىٰ ما عند المُدافعين عن التطور هو أن الأغلبية تقول به!

وأُحب أن أُخبركم دكتورنا الحبيب: أنني منذ فترة أضع منشورًا لدىٰ صفحات التطوريين أعرض فيه مبلغ ٢٥ ألف جينه مصري مقابل: اسم واحد لأي كائن حي علىٰ الإطلاق ثبت رصديًّا أو تجريبيًّا أنه جاء عن تطور، أو اسم واحد لطفرة واحدة نافعة تم رصدها، أو دليل واحد تجريبي أو رصدي أو أُحفوري علىٰ انتخاب طبيعي مباشر، أو اسم أب واحد لأي كائن من الـ٢ مليون نوع علىٰ وجه الأرض الآن.

وصدقني دكتورنا الحبيب أنت تعلم وكل تطوري يعلم أنه لا إجابة !!!

مشكلة التطور مع المجتمع العلمي أنه الحل الوحيد، وانهيار التطور يعني انهيار منظومات عملاقة منها منظومة الإلحاد ومنظومة العلمانية ومؤسسات أكاديمية كبرىٰ، لكن هذا لا يعني إطلاقًا أنه الحل الصحيح !!

فإما أن المخلوقات خُلقت خلقًا مباشرًا أو تطورت من بعضها البعض لا يوجد بديل ثالث ..!!

إذا سقط التطور سقط الإلحاد.

إذا سقط التطور انتهت اللعبة.

يقول [فيليب جونسون] Phillip E. Johnson أُستاذ القانون بجامعة كاليفورنيا أن "العلماء يتمسكون بالداروينية علىٰ الرغم من هشاشة الفكرة خوفًا علىٰ وجاهتهم ومستقبلهم الوظيفي،حيث أنهم لن ينالوا دعمًا لبحوثهم وسيصبحون عُرضةً للطرد، أيضا مشكلة أيديولوجية كبرىٰ فالعلماء عندما يقولون: الداروينية غير صحيحة. إذن ما هو الصحيح في تفسير نشأة الحياة؟ هم يتمسكون بنظرية خاطئة، إذا كان البديل عدم وجود نظرية أُخرىٰ وهذا بالضبط الحاصل الآن".

إذن دكتورنا الحبيب افتراضكم صعوبة الوقوف علىٰ أرضية مشتركة معنا في مسألة التطور هو افتراض غير صحيح؛ لأنه الآن تبين أننا نقف علىٰ أرضية مشتركة، فنحن وأنتم نُسلم بأن القضية ليست علمية بالمعنىٰ المعهود للعلم، ونُسلم بأن الأدلة علىٰ التطور لا ترقىٰ للطرح ويستحي الإنسان حتىٰ أن يُقدمها، لكن منتهىٰ حجة المؤمن بالتطور أن المجتمع العلمي يُسلم بها، وهذا غاية ما عند أي تطوري وغاية ما كان عند كل المؤمنين بالأساطير العلمية القديمة، مثل أُسطورة الفلوجستون phlogiston وكذبة البلتداون piltdown وأُحجية

البانسبرميا panspermia وتزييف أرنست هيكل Ernest Haeckel وشطحة تيكتاليك tiktaalik .

القضية ليست علمية كما بدأنا أول الحوار وكما ننهيه الآن، القضية فلسفة تأويلية.

المجتمع العلمي سيظل له كل الاحترام ليس في عقائده ولكن فيما يُقدمه للبشرية من علمٍ نافع.

أيضًا يجب ألا ننسىٰ أن من بين أعضاء المجتمع العلمي ألوف العلماء ممن لا يثقون في التطور ويعتبرونه هرطقة علمية، منهم ويليام ديمبسكي Dembski William الحاصل علىٰ تسع شهادات جامعية منها دكتوراه في الفلسفة ودكتوراه في الرياضيات من جامعة شيكاغو، واللاأدري ديفيد بيرلنسكي David Berlinski، وعالم الكيمياء جيمس تاور، وعالم البيولوجيا بجامعة يال جوناثان ويلز Jonathan wells، وغيرهم ألوف لا يحصيهم إلا الله.

وربما يجمع الموقع الذي عرفنا اسمه منكم[١] مئات من العلماء الذين يرفضون التطور رفضًا تامًّا.

بارك الله فيكم دكتورنا الحبيب، وبارك لنا في علمكم وأدبكم وتواضعكم، ولا حرمنا الله علمكم، ونسأله سبحانه أن يوفقنا وإياكم للحق حيث كان.

انتهى الحوار مع دكتورنا الفاضل عمرو شريف.

---

(١) www.dissentfromdarwin.org.

والحوار السابق يوضح أن القضية تجاوزت كثيرًا مصطلح العلم المادي التجريبي الرصدي، وصارت دوغما، لذا صار النقد الفلسفي لها الآن مقبولاً، لأنها دوغما فلسفية وليست علم، وأُحب هنا من باب النقد الفلسفي أن أقول: إذا كانت الداروينية صحيحة فهي خاطئة.

إذ كيف نُفسر وجود مخلوق في أعلىٰ سُلم التطور، وخرج منتصرًا من خلال منظومة الصراع والبقاء للأصلح والأقوىٰ، ومع ذلك هذا المخلوق أكثر قِيمًا ومحبةً للجمال وإبداعًا، ولديه أنياب أقل حدةً من الأسد، فإذا كانت أنياب الأسد مكنته من التواصل والبقاء علىٰ الحياة أكثر من بعض أجداده ذوي الأنياب الأقل كفاءة، ألم يكن من المتوقع لأكثر الكائنات تطورًا أنه أكثرها افتراسًا وعدوانية، فما الحاصل والإنسان دخل التاريخ برأس مال أخلاقي مبدئي هائل؟!

ما مبرر إيمان الإنسان بالله؟ هل ثمة مبرر دارويني للأمر؟ ولماذا لا يوجد هذا الإيمان الاختياري ولو بصورة بدائية في أكثر الكائنات تقدمًا؟

أيضًا لو كانت نظرية التطور صحيحة فهي غير صحيحة، هذه هي النتيجة التي توصل إليها الفيلسوف ألفين بلانتيجا Alvin Plantiga " إذ لو كانت نظرية التطور صحيحة يكون تفكيرنا كله لا موضوعي -لأنه ناتج عن تطور للمادة ولا نثق به في إعطاء قيم مطلقة-، وبالتالي تكون نظرية وافتراضات الداروينية كلها غير موضوعية بالتبعية".

يقول الأخ كريم فرحات في كتابه: "لست ملحدًا .. لماذا؟" الذي يؤكد صحة الداروينية هو بنفس المقدار يؤكد خطأها، فلو كان العقل ماديًا وكان

يخضع لحسابات العشوائية المادية Quantum Measurement Paradox فكيف يخرج بما هو يقيني مما هو احتمالي بالكُلية؟!!

والحل الوحيد لهذه المعضلة هو شيء مستقل لا علاقة له بالعالم المادي يخرج بالمفردات المطلوبة ويعطيها صفة اليقينية أو الظن الراجح، وبالتالي يبقىٰ الوعي اللامادي والخلق الإلهي هما اللبنة الأساسية لإثبات صحة الداروينية ونفي وجود الوعي اللامادي ونفي الخلق: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[1].

فأكبر دليل علىٰ خطأ الداروينية هو محاولة إثبات صحتها!!!

بعد أن أوضحنا أن القضية التطورية هي فلسفة تأويلية محضة، ننتقل الآن إلىٰ ذلك الإنسان الذي خلقه الله بيده والذي ظهر مع الدين وظهر معه الدين، فلم يكن الدين إلا جزءًا أصيلًا من الظهور البشري والتاريخ البشري حتىٰ أصبح الإنسان يُسمىٰ homo religious أي الإنسان الديني وليس homo sapiens sapiens أي: الإنسان العاقل، وذلك لشدة ما ارتبط الدين بلحظة ظهور الإنسان، ونتعرض الآن لظاهرة نشأة الدين.

---

(١) سورة الأنعام: الآية (١٢٣).

نشأة الدين

إن مطلب الألوهية مطلب توافرت عليه الفلسفات والنبوات، ودلائله البرهانية ماثلة في الأنفس وفي الآفاق، وبواعثه النفسية مركوزة في العقول وفي الوجدانات: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[(١)].

لكن هذا المطلب الوجودي الذي لا ينفصل عن الإنسان، يؤرق الملحد ولا يجد له في فلسفته المادية تحليلًا أو تفسيرًا، فيفترض أن نشأة الدين كانت عبر نظرة الإنسان البدائي في صفحة الكون، وعدم معرفته سبب الظاهرة فيقوم بنسبتها إلىٰ خالق غيبي![(٢)]

وللإنسان أن يتساءل هنا: كيف يكون النظر في الكون أو ظواهره سببًا في إيقاظ الشعور الديني العميق عند جميع الأُمم؟

ما علاقة حدوث ظاهرة كونية بظهور دين له مراسميه وطقوسه والتزاماته الأولية؟

إن استمرار أيّة ظاهرة كونية علىٰ نسق واحد يجعلها أمرًا مألوفًا، لا يُلفت النظر ولا يحتاج إلىٰ تعليل!

بل إننا لو استخدمنا هذا المقياس القاصر الإختزالي في تحليل الأمور، فإن العكس هو الحاصل دومًا؛ فباعث كل الديانات هو روح العظمة والقوة وليس الاستسلام أو الجُبن أو الجهل أو الخوف البدائي!

---

(١) سورة الروم: الآية (٣٠).

(٢) دوركهايم، ونماذج من الحياة الدينية الابتدائية "١٩١٥".

ومن جهةٍ أُخرىٰ لو كان مبعث العقيدة هو المشاهد الكونية وكان هدف الطقوس هو استرحام الطبيعة؛ لما استمر الناس علىٰ التدين بعدما ظهر أنها محاولات عابثة، وبما أن الديانات لم تنقطع يومًا ما، ولم تنفصل عن الجماعة الإنسانية عبر كل التاريخ وعبر كل الجغرافيا، فلابد أن يكون لها منشأ مستقل عن هذا التحليل الاختزالي القاصر الذي يطرحه الملحد !

لكن هل كان باعث الخوف عند الإنسان الأول مبررًا لنشأة الدين كما يقولون؟

إذا افترضنا هذا التصور فكيف نُفسر عبادة الأحجار والحشرات وأتفه الأشياء التي لا توحي مثل هذا الشعور؟

بل كيف نُفسر داخل هذا الإطار التحليلي للقضية الدينية الفصل التام بين الأمور المقدسة والأمور العادية؟

وكيف يؤسس الخوف البدائي لكل الطقوس والديانات والعبادات؟

بل إن أصل علم النفس يقوم علىٰ أن استمرار المُحسَّات علىٰ نسق واحد يُضعف باعث التفكير والخوف[١]، لكن الملحد يضرب بهذا الأصل العلمي عرض الحائط، ويقرر أن الدين الذي هو ركن الوجود البشري قائم علىٰ هذه الأغلوطة الافتراضية الغير متسقة حتىٰ داخل إطارها الذاتي !

ونظرًا لقصور هذا التصور في تحليل الظاهرة الدينية، فقد افترض دوركايم Émile Durkheim أن المجتمع والجماعة والعلاقات القبلية كانت مصدرًا أصيلًا لنشأة الدين، أضِف إلىٰ ذلك تقديس الأجداد واشتراك العشائر في لقب

---

(1) http://www.ncbi.nlm.nih.gov/pubmed/9682527.

واحد فيما يُعرف بالطوطم Totem، وهذا الطوطم في الغالب يكون لقب حيواني كانت تتخذه العائلات البدائية لقبًا لها، وتحول الطوطم مع الوقت إلىٰ البذرة الأولىٰ للدين! [١].

لكن أثبتت الدراسات الميدانية التي أجراها روبرت شميث Schmitt للقبائل البدائية، أن هناك أُمم كاملة وحضارات بأكملها وقارات لا تعرف شيئًا عن الطوطم أو الطوطمية ولا يوجد عندهم نظام الألقاب الحيوانية، ومع ذلك توجد عند هؤلاء جميعًا عقيدة الإيمان بالله الأعلىٰ بصورة واضحة [٢].

بل إن أبحاثًا أحدث قام بها لانج lang وفريزر Frazer أثبتت أن الطوطمية منظومة اقتصادية مدنية، وليست دينية كما كان يتخيل دوركايم، وفكرة الدين نشأت بعيدًا تمامًا عن هذه التصورات الساذجة والتحليلات الواهية!

فالطوطم شعار قومي ورمز يُعرِّف القبائل بأنسابها لا أكثر، ويبعث علىٰ التعاون والقومية، لكن القبائل كانت أذكىٰ بكثير من أن تعبد تلك الرسوم أو مدلولاتها، بل كان لهم معبود روحي آخر مستقل تمامًا يعتمدون عليه[٣].

ولا ننسىٰ أن دوركايم كان له الدور الأكبر في تدليس المعرفة عند الأوربيين خلال عقود طويلة؛ عندما كان يطرح حفلات القبائل البدائية بما فيها من عربدة وارتكاب للمحرمات كمظهر تديني عندهم، إذ ثبت أن هذه الحفلات كانت

---

(1) The Elementary Forms of the Religious Life analyzes phenomenon.

(2) Andrew Lang: the making of religion. New York 1968.

(3) Previous source.

تمردًا علىٰ هيكل الحياة الاجتماعية والدينية للقبيلة وليس العكس، وأصبحت الآن هذه الحقيقة من أشهر تدليسات دوركايم![١].

فالنظم القبلية في كل المجتمعات تقوم علىٰ الفصل التام بين الجنسين؛ إنه لمن السخرية أن يعرض علينا دوركايم ولعقود طويلة هذه الحفلات الماجنة وهذا المسرح البدائي المتهتك باسم المحراب المُقدس للأديان، بل إنه جعل التمرد علىٰ الدين مظهرًا دينيًا، ومحاولات التمرد والصبيانية الشهوانية معيارًا للدين عند الأولين![٢].

لكن هل الدين بالفعل ظاهرة اجتماعية، هل يمكن تحليل الظاهرة الدينية في هذا الإطار؟

الذي يتفق عليه علماء الاجتماع أن الظاهرة الاجتماعية الحقيقية كما نشاهدها في القوانين والقواعد الاقتصادية ذات وجود خارجي مستقل عن أفراد الجماعة، في حين أن الدين ظاهرة فردية في المقام الأول، ظاهرة داخلية جوانية ذاتية مستقلة، فهي تأتي علىٰ العكس تمامًا من الظاهرة الاجتماعية فكيف تقاس هذه بتلك؟[٣].

بل إن افتراض أن العقل الجمعي هو الذي يُنشئ الدين يُسوغ لنا هذا الافتراض أن نقول: إن المعدة هي التي تخلق الطعام وأن البصر هو الذي يُحدث الضياء !

---

(١) الدين، د.محمد عبد الله دراز، ص١٤٩، ١٥٠.

(٢) المصدر السابق ص ١٥٦.

(3)A Redefinition of Social Phenomena: Giving a Basis for Comparative Sociology.

ثم كيف يُنشئ العقل الجمعي الدين؟ هل سمع أحد بديانة ناشئة تحمل تعاليم جديدة، يكون موقف الجماعة منها موقف حمل الأفراد عليها، وإلزامهم بها، هل سمع بهذا أحد من قبل؟

أم أن العكس هو الحاصل، ويكون الموقف المعتاد هو المناهضة لها والمقاومة العنيفة لداعيها، أليس هذا أصل تاريخي مُشاهد ومتكرر يا دعاة التاريخ والتجربة؟

مِن أين جاءت فكرة الإله الأكبر فاطر السماوات والأرض يا دُعاة التحليل المادي، وعلىٰ غرار أي جماعة طُبعت هذه الصورة، وكيف قامت الدعوات لها عبر كل التاريخ وكل الجغرافيا؟

هل عندكم من تحليل واحد مادي لهذه الحقيقية الأولية في الوجود الإنساني؟

إن الذي يقرره علماء تاريخ الأديان أمثال لانج Lange وباسكال Pascal وشميث Schmitt وبروس Bruce وكوبرز Coopers وغيرهم، أن التوحيد وعبادة الله الواحد كانت سابقةً علىٰ التعدد وصناعة الآلهة الوثنية[1].

إن التحليل المادي للظاهرة الدينية هو تحليل أجوف قاصر اختزالي إلىٰ أبعد حد!

إن الحقيقة التي يجب أن نُحررها هنا أن الأديان هي التي سارت إلىٰ الإنسان وهي التي نزلت إليه، ولم يصعد هو إليها، وأن الناس لم يعرفوا ربهم بافتراض العقل البدائي وإنما بنور الوحي !

---

(1) Andrew Lang: the making of religion. New York 1968.

نعم إن الناس لم يكونوا كلهم أوفياء بالوصية المقدسة، لكن هذا التعليم الإلهي لم يُمح أثره محوًا تامًّا من البشرية، ولذلك ظلت فكرة الإلوهية والعبادة والتوحيد واختلاط المقدس بالوثني سمة ظاهرة في الحضارات والأُمم.

إن الدين تجربة وجدانية فطرية أولية خالصة؛ بل هو أسبق في العقل من كل الأوليات وهو جماع كل الحقائق الإيجابية وأصل المعرفة وأصل الأخلاق والقيمة والحق والكمال، وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «**إن كل خيرٍ في الأرض فمن آثار النبوة**»[١].

وقال ابن القيم رحمه الله: «**لولا النبوات لم يكن في العالم علم نافع البتة**»[٢].

فالدين ضرورة عقلية فطرية وجدانية أولية روحية خالصة!

ولا يُعرف ما الإنسان ولا قيمته، ولا يتم التأسيس لأخلاقياته إلا تحت راية النبوات.

بل إن مَن جحد أن يكون الله تعالىٰ قد أرسل رسله، وأنزل كتبه لم يُقدره حق قدره، ونَسبه إلىٰ ما لا يليق به، وأنه خلق خلقه عبثًا باطلًا، وأنه خلاهم سدًىٰ مهملاً، وهذا ينافي كماله المقدس، فمن أنكر النبوات فما قدره حق قدره، ولا عرَفه حق معرفته، ولا عظَّمه حق عظمته![٣].

---

(١) الصارم المسلول، شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ص٢٤٩-٢٥٠.

(٢) مفتاح دار السعادة، ابن القيم رحمه الله، ٢/ ١١٨.

(٣) هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ، ابن القيم رحمه الله، ص٥٧٧.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[١].

ومن نافلة القول أن إنكار الدين، يعني في حقيقته افتراض أن الخالق يُطعم ويرزق ولا يحاسب المُكلف، وهذا ينافي كمال عدله وكمال حكمته سبحانه؛ إن الدين حقيقة أولية في النفس الإنسانية لا تحللها حتميات دوركايم الاجتماعية، ولا الرؤية الإختزالية لمجموعة من القبائل البدائية، فالدين جوهر الوجود الإنساني!.

لكن هنا قد يظهر سؤال: لماذا يدعم الملحد أسبقية تعدد الآلهة على التوحيد مع أننا قررنا أن التوحيد سابق على التعدد؟

في البداية نحن اتفقنا علىٰ أن تعدد الآلهة حالة طارئة غير أصيلة ولا أولية في الجنس البشري، وإلىٰ جانب ما سبق من أدلة، نسوق هنا تصريح السير م. مونيير وليامز Sir M. Monier Williams وجماعة من الباحثين أن: "التوحيد متقدم علىٰ كل صور الشرك التي ظهرت لاحقًا، فالديانة الهندية مثلاً بدأت بحسب نصوص الفيداس بالتوحيد ثم تحللت إلىٰ صور متعددة للشرك"[٢].

(١) سورة الشورىٰ: الآية (١٣).

(2) McCabe, J. the Growth of Religion: A Study of its Origin and Development, Watts& Co. London, p.191. (ثلاث رسائل، م. س)

وصرّح جماعة من الباحثين في دورية Primitive Man، بما نصه: "يظهر أن تاريخ الدين عبارة عن تحلل أو انحراف من صورة مبكرة خالصة ونقية من التوحيد"(١).

إن هذه حقائق أريكولوجية أنثروبولوجية، لكن الملحد يخضع لدوغما عقيدته الإلحادية، وأحد أركان هذه الدوغما أن تعدد الآلهة ظهر أولاً، ثم تطور إلىٰ التوحيد؛ لأن هذه الدوغما هي الوحيدة التي يمكن أن تحلل له فكرة نشأة الدين، بينما مؤدىٰ أن التوحيد سابق علىٰ التعدد هو مؤدىٰ شائك ويصطدم بأيديولوجية الملحد، ففكرة أن التوحيد سابق علىٰ التعدد تعنىٰ أن الدين النقي كان أولاً، وهذا مخالف تمامًا لتصور أن الإنسان خاف من الطبيعة فبدأ يتعبد لظواهرها ومع الوقت فطن إلىٰ التوحيد، وهذا هو التصور الذي يعتنقه ملاحدة الأرض ولا يقبلون النزاع فيه، إذ لا يوجد مبرر واحد لأسبقية التوحيد إلا وجود وحي ديني مباشر يُكسب الناس التصور الصحيح للخالق.

فأسبقية التوحيد مزعجة للدوغما الإلحادية؛ لأنها تقتضي وجود الرسالات وهذا بداهةً ما يكفر به الملحد.

ولمن لا يعلم؛ فالملحد يبني أصول عقيدته الإلحادية علىٰ كومة من الفروض الدوغمائية منها أزلية العالم التي تحدثنا عنها في أول الكتاب ومنها أسبقية التعدد علىٰ التوحيد وسنتعرض الآن لدوغما أُخرىٰ في تحليل الملحد لسير التاريخ، يدعم الملحد وبشدة فرضية تسمىٰ دولاب التاريخ الثايموسي، وسنتعرض الآن لهذه الفرضية الشوهاء.

---

(1) J. M. C. The Origin and Early History of Religion. Primitive Man, Vol.2, p.45. (ثلاث رسائل، م. س)

دولاب التاريخ (أُسطورة الثايموس)

نشأ مفهوم الثايموس Thymus كمفهوم أساسي في أطروحة فوكوياما نهاية التاريخ، وهو في الأصل لفظ يوناني يشير إلىٰ الحيوية واندفاع الروح فهو قوة متوثبة طموحة، بحسب فوكوياما نشأت وتنامت في نفس الانسان الغربي، وتكررت في تراثه بتعابير مختلفة ودلالات متقاربة، فمن إشارة أفلاطون إلىٰ زخم أو حماس الروح، إلىٰ ما أومأ إليه ميكافيللي من تطلب الانسان للمجد، إلىٰ ما ذكره هوبز من زهو وخيلاء، مرورًا بما أسماه هيجل الرغبة في نيل الاعتراف، يأتي مفهوم الثايموس ليصهر تلك المعاني في قالب واحد-بحسب فوكوياما- هذا القالب يفسر محطة التاريخ في المرحلة الأخيرة التي ترسو عند نظام علماني ليبرالي نشهده اليوم[١].

يقوم الإلحاد الجديد علىٰ أن العقيدة الإلحادية هي عقيدة المرحلة، فالتاريخ يتحرك باتجاه واحد، وكل العقائد المادية قامت علىٰ هذا الفرض، وأصل اليوتوبيا الإشتراكية التي ستظهر في المستقبل منصوص عليه في البيان الشيوعي، ولا ندري كيف يقرر الإلحاد الحتمية التاريخية نحو الأمثل وفي نفس الوقت يقرر حرية الإرادة للإنسان؟

المهم أن الملحد ينظر للتاريخ نظرة خطية Linear فهو يرىٰ أن التاريخ يسير في خط مستقيم نحو الأفضل وبالتالي فالإلحاد من مقتضيات المرحلة، وأن الحاضر هو دومًا أفضل من الماضي علىٰ مستوىٰ استيعاب الانسان ورؤيته وحدود حريته، والمستقبل سيكون أفضل من الحاضر، هذه الفرضية الكامنة التي تسيطر علىٰ مستوىٰ اللاوعي بالنسبة للملحد نجدها كثيرًا في تأويله لظهور

(1) Fukuyama, F (1992) The End of History, p.162.

الدين باعتبار أن المرحلة الدينية أعقبها مرحلة ميتافيزيقية يختلط فيها العقل بالماوراء وانتهاءًا بالمرحلة الوضعية المادية، وأيضًا نجد هذا التصور لدىٰ الملحد في نقده للشبهات حول الدين كالعبودية وأنها شبهات مرتبطة بالماضي ومحايثة للأجداد فحسب، وأن المستقبل يستحيل أن يُفرز أمثال هذه الرؤىٰ؛ لأن الإنسان يتطور لما هو أمثل وأفضل عبر خط سير التاريخ ككل.

يقول فيلسوف التاريخ المخضرم كلنغوود في كتابه "فكرة التاريخ": "هناك مجموعة من التصورات تركت وسمًا عميق الأثر في وعي الإنسان الأوربي، أحد هذه التصورات، هو تأويل التاريخ علىٰ أنه تطور أُحادي الاتجاه للبشرية من بداية ضاربة بجذورها في البدائية والهمجية إلىٰ نهاية تحتضن مجتمعًا تام العقلانية والتحضر"[١].

إنه حيود نفسي يسيطر علىٰ ذهن الملحد ويمتلك عليه تلابيبه يفترض نسق ثقافي يزدري الماضي وينتقص الحاضر ويضع كامل أمله في كمال المستقبل، إنه البحث عن عقيدة الخلاص بمنظور لاهوتي إلحادي.

إنه إنجيل البشارة بيوتبيا إلحادية، أو فردوس أرضي يجعل من اليقين بمعطيات العلم ومنهجيته الملاذ الآمن الذي سيؤمن للإنسان فرصة الالتقاء بالحقيقة والعيش معها.

إن افتراض أن التاريخ يسعىٰ نحو المثالية، هو افتراض له تماس بالميتافيزيقيا .

---

(1) Collingwood, R. (2005) The Idea of History, Oxford University Press, p.88.

وجاءت نظرية التطور الداروينى لتُقدم ما يشبه التقعيد العلمي لهذا التصور الفلسفي.

إن ما يقوم به الملحد في واقع الأمر هو عملية توظيف ميتافيزيقي لمعطيات العلم الخام.

لكن لا ننسىٰ أيضًا أن الداروينية قدمت التقعيد العلمي لشرعنة نقاء الجنس الآري وتصفية بقية الأجناس-وهو ما أشعل الحرب العالمية الثانية التي راح ضحيتها ٢٪ من سكان العالم، كما قدمت التقعيد العلمي لفلسفة تحسين النسل بتطهير البشرية من الكتل المريضة والتالفة، كما قدمت التعقيد العلمي للداروينية الاجتماعية والبقاء للأصلح في أطروحة هربرت سبنسر.

وأصبح الهوس بتطور التاريخ دوغما مسيطرة علىٰ العقول، فظهر علم الأعصاب التطوري Evolutionary Neuroscience وعلم النفس التطوري Evolutionary Psychology وعلم الاجتماع التطوري Evolutionary Sociology وأصبح من الصعب الآن التعرض لهذه الدوغما بمعول علمي أو فلسفي.

إنه رسوخ لعقيدة دوغمائية وتحليل كل شيء بناءًا علىٰ هذه الدوغما، حتىٰ لم يكن بالامكان نقدها في عقل الملحد.

يقرر داروين في خاتمة كتابه أصل الأنواع؛ العقيدة والركن الأساس للماديين الجدد في أن المستقبل يتجه نحو الكمال؛ فيقول: "بما أن الانتخاب الطبيعي يعمل كليًّا من أجل مصلحة كل كائن، فهذا نزوع نحو الكمال"[١].

وإن كانت هذه الدوغما مسيطرة علىٰ العقول فإن العلم لم يدعمها تجريبيًّا إلىٰ الآن بشيء، وهذا ما حدا بعالم تطوري كبير في حجم ستيفن جاي جولد، إلىٰ رفض فرضية نموذج التطور الإنساني المرافق للتطور البيولوجي[٢].

بل إن معطياتنا العلمية الأخيرة أثبتت خرافة هذا التحليل لسير التاريخ، فقد صرَّح الناقد والمؤرخ التطوري كارل زيمر، أن العلم الآن لا يتجه نحو فك ألغاز الحياة، وإنما يتجه نحو مزيد من الألغاز[٣].

فقد تواترت الشواهد علىٰ خطأ هذه الرؤية الخطية للتاريخ، الأمر الذي حدا بكثير من التطوريين إلىٰ نبذ التصور الكلاسيكي للمسار التطوري نبذًا كليًّا، خاصَّة بعد ظهور أصوات تؤكد علىٰ عقم مفهوم الانتخاب الطبيعي، وخلو دلالته من معنىٰ يتيح نفسه للاختبار والتحقق.

وهذا ما حققه الفيلسوف جيري فودور في كتابه what Darwin Got Wring[٤].

(1) Darwin, C. (1998) the Origin of the Species, Wordsworth Classics, p.368.

(2) Gould, S.(2007) Ever Since Darwin, p.56.

(3) Zimmer, C. (2012) Redrawing the Tree of Life.

(4) Fodor, J. (2011) What Darwin Got Wrong, Profile Books.

إن العقيدة التقدمية –التاريخ الذي يسير في اتجاه واحد نحو الأفضل– المستوحاة من نظرية التطور في ثوبها الكلاسيكي، لم تعد ذات قيمة عند كثير من فلاسفة العلوم المتأخرين، ومن باب أولىٰ عند الأوساط التي تمارس العلم بمعايير شديدة الصرامة.

ولذا يقول جون ستيورات في كتابه "سهم التطور": "لا يوجد اتفاق حاليًا بين التطوريين حول ما إذا كان التطور يسلك مسلكًا تقدميًّا، الأكثر يؤمنون أن الأمر بخلاف ذلك" [١].

ولذا يقرر فيخته أنه لا مزية لحقبة تاريخية علىٰ أُخرىٰ هكذا بإطلاق دون قيد أو اعتبار، وإلا وقعنا في نوع من الاستبداد الميتافيزيقي، فحركة التاريخ ليست ترقٍّ نحو الكمال، وإنما فصل من الفصول متفرقة الدلالات والنتائج[٢].

من هنا يتضح وهم الادعاء أن التاريخ هو حتمي التقدم نحو الأفضل فضلاً عن الكمال المزعوم، وبالتالي الاستناد إلىٰ الفلسفة التاريخية الخطية هو استناد ميتافيزيقي لا يجد ما يدعمه، فهو مجرد وهم يستحوذ علىٰ عقول كثير من ملاحدة اليوم.

فخيبة الأمل الكبيرة التي صحبت المنتج العلمي نفسه أعادت الإنسان إلىٰ صرح اللايقين مرةً أُخرىٰ، وكتب العالم الروسي الشهير إيليا بريجوجين Ilya Prigogine كتابه نهاية اليقين the End of Certainty .

(1) Stewart, J. (2000) Evolution’s Arrow, p.6.

(2) Collingwood, R. (2005) the Idea of History, p.106.

إذن دولاب التاريخ هو مجرد أُسطورة من جملة الأساطير التي تقوم عليها الديانة الإلحادية، ودوغما كبيرة لا يتنازل عنها الملحد مهما حاول العلم أن يتجاوز هذه الدوغما أو ينقدها، بل إن العلم كلما تقدم خطوة علىٰ حساب الإلحاد فإن الملحد يبدأ لا إراديًّا علىٰ مستوىٰ اللاوعي في إسقاط اللاهوت التقديسي للمنتج العلمي، حتىٰ يَسلم له إلحاده، وقد رأينا قبل قليل كيف أن الملحد تنازل عن كشوف علماء الفيزياء في أن للكون بداية، وشرد بذهنه نحو تحليلات ميتافزيقية تدعم أزلية العالم، ورأينا كيف شرد الملحد بذهنه مرةً أخرىٰ لتوثيق أسبقية تعدد الديانات علىٰ التوحيد علىٰ الرغم من أن الكشوف الأركيولوجية لا تدعم ذلك ولا تؤيده؛ إن الأمر الإلحادي أمر عقائدي دوغمائي صلد، لا علاقة له بالعلم ولا الفكر ولا الرصد(١).

عند هذه النقطة وبعد حديثنا عن نشأة الدين وتحليل سير التاريخ؛ نودّ الانتقال إلىٰ مسألة ظهور الفلسفة.

هل الفلسفة في أصلها تدعم الدين أم الإلحاد؟!

وهل للملحد أن يُمجد الفلسفة والفلاسفة، أم أن الفلسفة في أصلها غُصّة في حلق الإلحاد؟ وأين نشأت الفلسفة بالضبط؟

وهل الفلسفة حصرية باليونان؟

وهل الفلسفة تدعم التوحيد أم الصياغات الوثنية التعددية؟

هل بالفعل يحق للملحد تمجيد الفلسفة، أم أن هذا أمر مضحك وسخيف؟

---

(١) من وحي كتاب ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان، م. س.

دعونا نبدأ بالإجابة عن السؤال الأخير.

أولاً: تمجيد الملحد للفلسفة والفلاسفة شيء مثير للشفقة

دائمًا ما ينتابني شعور بالغثيان كلما رأيت بحثًا لملحد يضع بجانبه تمثال المفكر Le Penseur - تلك المنحوتة الموجودة في باريس والتي تشير إلىٰ رجل يتأمل بعمق-، أو يضع صورة لأحد الفلاسفة القدامىٰ مكان صورته، ويجهل المسكين أنه يُمجد مَن دمروا فلسفته الإلحادية عبر العصور، فعندما يتحدث الملحد عن الفلاسفة أو يفخر بجهودهم، فهو يُشبه اليهودي الذي يفخر بجهود هتلر وجوبلز.

يا نيافات الملحدين ويا حضرات الشمامسة الصغار، ويا كهنة الإلحاد! إن أصل الفلسفة وقوامها وغايتها هو التأسيس للدين ومحاربة الوثنية في كل مكان، وقد كان فلاسفة هليوبوليس وفلاسفة منف Menphis وفلاسفة الأشمونين يعيشون لقضية الكبرىٰ وهي: محاربة كهنة الوثنية في معابد مصر، وكانت جهود طلاب الفلسفة في تلك الحقبة تدور حول رد الآلهة جميعًا إلىٰ الله الواحد الأحد، وكانت هذه الجهود قبل ظهور أخناتون بحقب طويلة، وقد انتصرت جهود هؤلاء في كثير من الأوقات وتمّ الإعتراف رسميًّا بوحدة الإله الخالق في مذهبي عين شمس ومنف قبل إخناتون بكثير علىٰ يد فلاسفة منف وهليوبوليس[١].

وأصبح للتوحيد السيادة الكلية في مصر وصار عقيدة الجميع في الفترة من ١٥٧٥ق.م. إلىٰ١٠٨٧ ق.م.

---

(1) Wilson-the culture of ancient Egypt p228. ترجمة د/ عبد العزيز صالح

ولا نستبعد بل ونُرجح بشدة أن يكون طلاب الفلسفة هؤلاء هم تلاميذ الأنبياء وأتباعهم، فمن الصعب بمكان تخيل استقلال العقل بفكرة التوحيد - توحيد الله -، بل والدعوة إليها ووجود صدىٰ لها عند جموع الشباب والمثقفين وقيام الثورات من أجل تحقيق ذلك المطلب الأسمىٰ؛ نقول: لم يكن ليتحقق كل ذلك دون قبس إلهي ونقولات النبوات وعقيدة مترسخة في العقل القديم تقول بالتوحيد وأنه الأصل، وأن كهنة المعابد خانوا الأمانة فوجبت الثورات المتتالية عليهم والتي لم تتوقف يومًا حتىٰ في عصور الاستعمار الطويلة.

يقول الشيخ نديم الجسر: «وإني أرَجِّحُ أن كثيرًا من فلسفة الأقدمين في مصر والصين والهند هي بقايا نبوات نسيها التاريخ فحُشر أصحابُها في عداد الفلاسفة، ولعلهم من الرسل أو أتباع الرسل»[1].

وإذا تركنا مصر واتجهنا شمالًا حيث ياقوتة الفلسفة في كل العصور ودرة الفلاسفة دولة اليونان القديمة، فإن أصل وقوام الفلسفة اليونانية هو تحرير العقل من أسر الوثنية والدعوة للإيمان بالخالق الواحد، وكان هذا هو السبب في الحكم بالإعدام علىٰ الفيلسوف أناكساغوراس، واضطراره إلىٰ الرحيل عن أثينا- حتىٰ لا يُنفذ فيه الحكم-، فقد كانت تهمته المباشرة هي الدعوة للتوحيد ونبذ الوثنية.

بل إن الذي لا خلاف عليه بين المؤرخين هو أن غاية كل فلاسفة اليونان هو تصحيح الوثنية الإغريقية وإعادة ضبطها علىٰ النمط التوحيدي، وقد تكفل

---

(١) قصة الإيمان، للشيخ نديم الجسر، ص٣٥.

ذلك إصدار أحكام بالإعدام علىٰ كثيرين من هؤلاء الفلاسفة بعد نقدهم لوثنية أشعار هوميروس وهيزيود[١].

وقد انتقد كزيونفان بشدة وكذلك أفلاطون ومن قبلهما فيثاغورس و.....، الصورة الوثنية لآلهة اليونان، وقد كان أفلاطون ينصح بعدم تدريس أشعار هوميروس للأطفال، لما فيها من إخلال بسمو الإلوهية، ولم يعترف أناكساغور وسقراط وأنتيستين وأفلاطون وغيرهم من الفلاسفة إلا بإله واحد رافضين التعدد الوثني[٢].

فتنزيه الألوهية وتوحيدها كان المطلب الأسمىٰ لفلاسفة اليونان، فقد كانت الفلسفة رؤية مشغولة بهاجس الوثنية ومحاولة تنقيتها وإعادتها إلىٰ التوحيد الصحيح، وهذا ما ظهر مع نشأة الفلسفة علىٰ يد طاليس وأنكسيمندر وأمباذوقليس، فلم تكن الفلسفة لتظهر علىٰ يد هؤلاء باصطلاحها المعروف اليوم إلا من أجل نفي الوثنية والدعوة للتوحيد وتنزيه الخالق.

وكانت المدرسة الإيلية التي أسسها الفيلسوف كزينوفان مدرسة توحيدية لتعليم الناس التوحيد الخالص ومحاربة الوثنية بكل صورها، وكان مستند محاكمة وإعدام سقراط هو ما جاء في صك الاتهام أنه "لم يكن يؤمن بالمعتقد الديني للمدينة"، فقد كان سقراط داعية التوحيد وتنزيه الله، ولم يخرج أرسطو من أثينا هاربًا إلا للفرار بالعقيدة التوحيدية حين قال كلمته الشهيرة "لا أُريد لأثينا أن ترتكب في حق الفلسفة حماقة أُخرىٰ مثلما ارتكبتها عندما أعدمت سقراط".

---

(١) في دلالة الفلسفة وسؤال النشأة، د. الطيب بوعزة، ص٢٣٢.

(٢) م. س، نفس الصفحة.

إننا هنا لسنا بصدد الدفاع عن الفلسفة أو تبرير وجودها في وجود النص الديني الأنقىٰ والأسلم والأقرب والأحكم والأعلم، لكن أن يتجرد قمص ملحد لتمجيد الفلسفة فهذا يعني غياب العقلاء عن الساحة وانفراد المجاذيب والمخابيل بالحضور.

إن الفلسفة في أصلها نزوع نحو التنزيه، بل ربما الإفراط في التنزيه- التوحيد الأرسطي- وبالتالي فهي حجر عثرة لكل ملحد، ولا يليق بملحد عاقل أن يدافع عنها فضلاً عن أن يمجدها، فالفلسفة ظلت طيلة ٢٢ قرن تمثل سند معرفي مباشر ودعم ظاهر لكل المدارس المؤمنة.

لا يوجد ملحد واحد في تاريخ أمة الإسلام

لكن هل كان فلاسفة الإسلام ملحدين؟

صراحةً هذا السؤال يكرره الملاحدة كثيرًا، وهو يمثل خرافة من أسخف ما يكون؛ وقد رددت علىٰ هذا السؤال في كتابي كهنة الإلحاد الجديد وأنقل منه الآن شاهدًا:

لا يوجد في تاريخ أُمة الإسلام ملحد واحد

ومشكلة الملحد العربي أنه لا يعرف الفرق بين الإلحاد الاصطلاحي والإلحاد في اللغة.

فيظن أن كل شخص أُطلق عليه لفظة ملحد أنه مُنكر للصانع ..!!

فالإلحاد في اللغة يشمل كل من يميل عن شرع الله ..

أما الإلحاد الاصطلاحي الذي يعني إنكار الصانع فهذا لا يُعرف في تاريخ أُمة الإسلام ..

ولا يوجد في تاريخ أُمة الإسلام عبر التاريخ وعبر الجغرافيا مُلحد واحد ..!!

لا يوجد في تاريخ أُمة الإسلام عبر التاريخ وعبر الجغرافيا مُلحد واحد ..!!

يقول ابن رشد: «**إن العرب كلها تعترف بوجود الباري سبحانه وتعالىٰ**»[1].

ويقول الشهرستاني: «**وشبهات العرب مقصورة علىٰ شبهتين؛ إنكار البعث، وبعثة الرسول**» [1].

---

(١) منهاج الأدلة ص١٢٨، من كتاب (العقيدة الإسلامية في مواجهة التيارات الإلحادية .. د.فرج الله عبد الباري أُستاذ العقيدة والأديان ..دار الآفاق العربية ..ص٤٣).

ويقول الشهرستاني أيضـًا: «**أما تعطيل الصانع العالم القادر الحكيم فلست أراها مقالة لأحد .. ولا أعرف عليها صاحب مقالة**»[٢].

ولذا «**لم يرد التكليف بمعرفة وجود الصانع وإنما ورد بمعرفة التوحيد ونفي الشريك**» [٣].

بل وقد ذهب الآلوسي وابن كثير في تفسيرهما إلىٰ أن الدهرية كانوا يؤمنون بالله لكنهم ينكرون البعث وهذا في تفسيرهم قول الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [٤].

وسنذكر فيما يلي الشخصيات التي وُصفت جهلاً وزورًا وكذباً بالإلحاد:

وليس معنىٰ ذلك أن هذه شخصيات مُنزهة عن الخطأ بل بعضها له أخطاء شنيعة في العقيدة لكن هذا أمر لا علاقة له بالإلحاد - الذي هو إنكار الصانع - من قريب أو بعيد .

الفارابي

وُلد سنة ٢٦٠ هجرية ولُقِّب بـ"المعلم الثاني" نسبةً للمعلم الأول أرسطو .. وهو شارح مؤلفات أرسطو المنطقية... وصاحب كتاب "الآثار العلوية"، والمنافح عن عقيدة التوحيد .. والذي قضىٰ عمره زاهدًا متقشفـًا ليتفرغ لتأصيل فلسفة التوحيد، وواجب الوجود وحين مات صلَّىٰ عليه سيف الدولة ابن حمدان... يقول الفارابي: «**معرفة الحقائق القصوىٰ كلها مصدرها الله**

=

(١) الملل والنِحل ٤-١٠٥ .. (نفس المصدر السابق ص ٤٣).

(٢) نهاية الإقدام ص١٢٣ .. (نفس المصدر السابق ص ٤٣).

(٣) المصدر السابق.

(٤) سورة الجاثية: الآية (٢٤).

والفيلسوف يتلقىٰ الحقائق بواسطة العقل الفعال، فتكون طبيعتها عقليه وليس حسية، أما الرسول فتأتيه المعارف مُنزَّلة من عند الله بتوسط الملك جبريل»(١).

ويضع الفارابي شرطًا جوهريًّا في مدينته الفاضلة وهو الإيمان بالله الواحد الأحد لكل أبناء المدينة .. فكيف يُقال عن هذا: إنه ملحد؟.!!

ابن سينا

وُلد سنة ٣٧٠ هجرية، وكان والده شيعيًّا إسماعيليًّا .. ولُقِّب بـ" الشيخ الرئيس"، وعاش متفائلاً في جميع مراحل حياته وكان يعتقد أن العالم الذي نعيش فيه أحسن العوالم الممكنة، وكان له تأثر شديد بالإسماعيلية في كتاباته ولذا يعتبره شيخ الإسلام -ابن تيمية- من الطائفة الإسماعيلية لا أكثر .

وكان ابن سينا يقول بالمعاد الروحاني لا الجسماني، فقد كان متأثرًا كثيرًا بالفلسفة الباطنية عند الإسماعيلية لكن هذا شيء والإلحاد الذي هو كفر الصانع شيء آخر تمامـًا .

بل إنه لما اعتلَّ وتكاثرت عليه الأمراض في نهاية حياته اغتسل وتاب وتصدَّق بما لديه من مال للفقراء، وأعتق غلمانه طلبًا للمغفرة، وبدأ يختم القرآن كل ثلاثة أيام (٢).

---

(١) الفارابي المعلم الثاني.

(٢) وفيات الأعيان .. لابن خلكان المجلد الثاني صفحة ١٥٧ .

ابن طفيل

وُلد سنة ٤٩٣ هجرية في قرطبة، وهو من قبيلة مُضر العربية، وهو الفيزيائي الطبيب العالم الفيلسوف، قاضي الأندلس .. صاحب رواية: **"حي بن يقظان"** الشهيرة، التي تروي قصة طفل نشأ في جزيرة نائية بحضرة الحيوانات فاهتدىٰ بفطرته إلىٰ الله وظل يتعبد له ... وقصة **"حي بن يقظان"** قصة فلسفية في غاية الرُّقِيِّ الفكري تُصنَّف في باب الإلهيات وإثبات الروح بالفطرة [1].

هل هذا يُقال عنه: إنه ملحد؟!!!

ابن رشد

وُلد سنة ٥٢٠ هجرية .. فيلسوف وفقيه وقاضي وفيزيائي وطبيب .. إمام أهل الأندلس المالكي، شيخ فلاسفة الإسلام .. قاضي أشبيلية .. صاحب كتاب " فصل المقال فيما بين الحِكمة والشريعة من الاتصال"وهو الكتاب الذي يشرح الجمع بين العقل والنقل .. يقول ابن رشد: «**إنّ الحكمة هي صاحبة الشّريعة، والأخت الرّضيعة لها، وهما المصطحبتان بالطّبع، المتحابّتان بالجوهر والغريزة**»، .. ويَعتبر ابن رشد أن الفلسفة هي «النظر في الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها علىٰ الصانع، أعني من جهة ما هي مصنوعات، فإن الموجودات إنما تدل علىٰ الصانع بمعرفة صنعتها وأنه كلما كانت المعرفة بصنعتها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم»[2].

---

(1) http://shamela.ws/index.php/book/973.

(٢) ابن رشد .. فصل المقال ص٢٢.

ثم يأتي ملحد معاصر ويُصنف ابن رشد في قائمة الملحدين عنده ..والله المستعان .!!

ابن الراوندي

من أكثر الشخصيات غُموضا في تاريخ أُمة الإسلام .. لا نعرف هل مات في الأربعين أم الثمانين؟ انتقل بين الديانات ..

كان يهوديًّا وأسلم ليستعز بالدولة الإسلامية العباسية، ثم أصبح معتزليًّا لأنهم الأقرب للخليفة، ثم هاجمهم، ثم التحق بالشيعة الباطنية، وألف كتاباً في تأييد الشيعة مقابل ٣٣ دينار، ثم أصبح سُنيًّا وألف كتابًا في التوحيد انتصارًا للسُّنة، ثم صار يهوديًّا مرة أُخرىٰ وألَّف كتاب البصيرة لنصرة اليهودية مقابل ٤٠٠ درهم، ثم حاول الرد علىٰ اليهود فأسكته اليهود مقابل ١٠٠ درهم أُخرىٰ، **ومِثل هذا عبء علىٰ اليهود واليهودية لا أكثر..!!**[1].

عبد الله ابن المقفع

وُلد سنة ١٤٢ هجرية .. فارسي زرادشتي اعتنق الإسلام .. واتصل بعم أبي العباس السفاح و أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي، وكانت علاقاته السياسية سبباً مباشرًا في قتله وتلويث سمعته من قِبل حُساده بعد موته .. ولذا يقول وائل حافظ في تصديره لكتاب الأدب الصغير " ابن المقفع كُتُبُه بين أيدينا تكاد تنطق قائلة: «**وايم الله ! إنَّ صاحبي لبريء مما نُسب إليه**» !.وليت شعري كيف ساغ لفلان وفلان ممن ترجموا للرجل أن يجزموا بذلك، وكلهم

(١) يوسف زيدان أُستاذ الفلسفة ومدير مركز المخطوطات بمكتبة الاسكندرية (المصدر كتاب "وهم الإلحاد" د.عمرو شريف).

قد صَفِرَت يَدُهُ من البرهان؟ إنْ هي إلا تهمة تناقلوها بدون بيان. وقِدْمًا اتهموا أبا العلاء المعري بذلك حتىٰ قيض الله له مِن جهابذة المتأخرين مَن أثبت بالدليل الساطع والبرهان القاطع براءته".

ولذا يقول د. عبد الرحمن بدوي: «**ابن المقفع نَسبت إليه المعتزلة الكثير من الأقوال وهذا يرجع إلىٰ الحسد**»[١].

ابن زكريا الرازي

وُلد سنة ٢٥٠ هجرية .. عالم وطبيب فارسي ومن أشهر الأطباء في التاريخ .. وقد ابتكر خيوط الجراحة وصنع المراهم ..

لم ينكر وجود الله وكان يعتبر العقل هبة الله ليتفكر به الإنسان .. وهو صاحب كتاب «**إن للعبد خالقـًا**».. فكيف يُصنف في زمرة الملحدين؟

أما ما نُسِب إليه في النبوات فيقول د. عبد الرحمن بدوي: «**ابن زكريا الرازي كل ما لدينا عنه يرجع إلىٰ ما يُورده الخصوم فضلاً عن ندرة هذه الآثار أصلاً**»[٢].

ولذا يُثني عليه الإمام الذهبي في سِير أعلام النُّبلاء ولم ينقل فيه مذمَّة واحدة يقول الذهبي: «أبو بكر، محمد بن زكريا الرازي الطبيب، صاحب التصانيف، من أذكياء أهل زمانه، وكان كثير الأسفار، وافر الحُرمة، صاحب مروءةٍ وإيثار

---

(١) من تاريخ الإلحاد في الإسلام .. د.عبد الرحمن بدوي.

(٢) من تاريخ الإلحاد في الإسلام .. د.عبد الرحمن بدوي .. ص١٦٥.

ورأفة بالمرضىٰ، وكان واسع المعرفة، مكبًّا علىٰ الاشتغال، مليح التأليف .. وله كتاب: الحاوي ثلاثون مجلدًا في الطب، وكتاب: **إن للعبد خالقًا**»!![1] .

جابر بن حيان

وُلد سنة ١٠١ هجرية .. عالم مسلم عربي .. كيميائي ويُعد أول من استخدم الكيمياء عمليًّا في التاريخ .. وتُسمىٰ بإسمه فيقال: "علم جابر"، ويُقصد به الكيمياء، وله في الكيمياء ما لأرسطو في المنطق.

ويوصف طبقًا لفرانسيس بيكون أنه: **"أول من عَلَّم عِلم الكيمياء"**..

وهو أول من اكتشف الأحماض والقلويات وأطلق عليها هذا الاسم الذي ما زالت تعرف به في الغرب والشرق alkali .

واستخدم المنهج التجريبي في أبحاثه .. وكان من أصحاب جعفر الصادق، **وكان صوفيًّا دراسًا للقرآن الكريم!!، ولا أدري ما علاقة الرجل بالإلحاد !!.**

الجاحظ

وُلد سنة ١٥٩ هجرية .. من كبار أئمة الأدب العربي في العصر العباسي .. وكان فقيرًا فصار يبيع السمك والخبز في النهار، ويكتري دكاكين الورّاقين في الليل، فكان يقرأ منها ما يستطيع قراءته... !!

تتلمذ علىٰ يد إبراهيم بن سيار النظَّام المعتزلي .. وله مقالات في أصول الدين.. وأشهر مؤلفاته **"الحيوان"**، و**"البيان والتبيين"** وكان مُحبًّا للعلم والعلماء والأئمة وملازمًا لهم طيلة عمره ...

---

(١) سير أعلام النبلاء: الطبقة السابعة عشر: محمد بن زكريا.

ومن مؤلفاته في العقيدة "**الحُجة في ثبت النبوة**"، و"**الرد علىٰ اليهود**"، و"**الرد علىٰ الجهمية**"[١].

وما أدري كيف يوصف الرجل بالإلحاد؟ !!!

أبو العلاء المعري

وُلد سنة ٣٦٣ هجرية .. شاعر وأديب عربي من العصر العباسي .. قال ابن فضل العمري: "أخذ عنه خلق لا يعلمهم إلا الله، كلهم قضاة وخطباء وأهل تبحر واستفادوا منه، ولم يَذكره أحدٌ منهم بطعن، ولم يُنسب حديثه إلىٰ ضعف أو وهن".

آمن المعري بالله إيمانًا فطريًّا وعقليًّا يجعله لا يرتاب في وجود الخالق:

أثبت لي خالقًا حكيمًا ... ولست من معشر نُفَاة

بل إن صِلته بربه قوية وأعز عنده من الدر والياقوت:

وشاهدٌ خالقي أن الصلاة له ... أجل عندي من دري وياقوتي

انقطع عن الدنيا وفارق لذائذها، وأطلق علىٰ نفسه رهين المحبسين، وكان يصوم النهار ويسرد الصيام سردًا لا يفطر إلا العيدين، ويقيم الليل ولا يأكل اللحوم والبيض والألبان ولايتزوج، وكان يكتفي بما يخرج من الأرض من بقلٍ وفاكهة[٢] .

---

(1) http://forum.alqum-a.com/t28149.html.

(2) http://shamela.ws/index.php/author/84.

اتُّهم بالزندقة بسبب رسالته في الغفران لكنها رسالة مزح كان يمازح فيها صديقه ابن القارح، وتظهر فيها مقدرة المعري اللغوية كما تبدو فيها مقدرته علىٰ السخرية والنقد ..!!

ولكنه وَجد من يدافع عنه نافيًا هذه التهمة. ومن هؤلاء أبو فهر محمود شاكر والمُحدث أحمد شاكر والقفطي وابن النديم، وسَمَّىٰ الأخير كتابه: "كتاب الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري "وقال في مقدمته متحدثـًا عن حُسَّاده وشانئيه: " ومنهم من حمل كلامه علىٰ غير المعنىٰ الذي قصده، فجعلوا محاسنه عيوبًا وحسناته ذنوبًا وعقله حمقًا وزهده فِسقًا، ورشقوه بأليم السِّهام ".

ومِن أحسن الشهادات في حقه شهادة الإمام الذهبي حين قال في سير أعلام النُّبلاء "وفي الجملة فكان من أهل الفضل الوافر والأدب الباهر والمعرفة بالنَّسَب وأيام العرب. وله في التوحيد وإثبات النبوة وما يحض علىٰ الزهد وإحياء طرق الفتوة والمروءة، شِعر كثير والمشكل منه فله ـ علىٰ زعمه ـ تفسير".

الكِندي

وُلد سنة ١٨٥ هجرية .. عالم مسلم عربي .. برع في الفيزياء والطب والترجمة وهو رائد تحليل الشفرات .. ويلقب بـ**"فيلسوف العرب"** نظرا لبراعته في التوفيق بين الفلسفة والعلوم الإسلامية .. وفلسفته كانت في إثبات توحيد الله وفي الروح ويرىٰ أن النبوة تفضل الفلسفة في أربعة أوجه: «في شموليتها وأنها من الله مباشرة وسهولة تلقيها من الله وسرعة تلقينها للناس العاديين بعكس الفلسفة الأكثر تعقيدا»..

فكيف يقال عن هذا أنه مُلحد؟!!!

أبو حيان التوحيدي

وُلد سنة ٣١٠ هجرية .. فيلسوف متصوف .. قال عنه تاج الدين السبكي في طبقات الشافعية الكبرىٰ "شيخ الصوفية وصاحب كتاب البصائر وغيره من المصنفات في علم التصوف.... وكان فقيراً صابراً متديناً إلىٰ أن قال: وكان صحيح العقيدة قال الذهبي: كذا قال، بل كان عدوًّا لله خبيثًا، وهذه مبالغة عظيمة من الذهبي". انتهىٰ.

قال ياقوت الحموي في "معجم الأدباء": "أبو حيان التوحيدي... صوفي السمت والهيئة... فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاءً وفطنةً، وفصاحةً ومكنةً، كثير التحصيل للعلوم في كل فن حفظه، واسع الدراية والرواية، وكان مع ذلك محدوداً محارفًا يشتكي صرف زمانه، ويبكي في تصانيفه علىٰ حرمانه"[١].

إذن لم يكن في تاريخ الإسلام ملحد واحد، فالإلحاد الذي هو إنكار الصانع يختلف عن الإلحاد الإصطلاحي المعاصر .

لا يوجد في تاريخ الإسلام مُلحد واحد عبر التاريخ وعبر الجغرافيا .. ولم يُنسب الإلحاد الذي هو كُفر الصانع إلىٰ واحد من أُمة الإسلام ..!!

ولم يقل بالإلحاد الذي هو كفر الصانع واحد من جملة العُقلاء ولا الفلاسفة ولا الأطباء ولا أهل الفلك ولا الحساب ولا الفيزياء ولا الكيمياء في تاريخ أُمة الإسلام .. **ولم يُحفظ سطر واحد فيه إنكار الصانع عن أُمة الإسلام قاطبةً** ...

---

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، الجزء الخامس عشر، حرف العين.

وحتىٰ ابن سينا الذي أكثر عليه الملاحدة، فغاية ما هو منسوب إليه عند الغزالي وابن تيمية وابن القيم، إنكار علم الله بالجزئيات بعلم جزئي بل بعلم كُلّي – ظنًّا منه أن هذا أقرب للتنزيه –، وهذا لا علاقة له من قريب أو بعيد بالإلحاد الذي هو إنكار الصانع، وحاشا لله أن تُخبل عقول هؤلاء الفلاسفة إلىٰ هذا الحد من الجنون ..!!

وأنكر ابن سينا أيضـًا المعاد الجسماني يوم القيامة " فليكن هذا كافيـًا في مناقضة الجاعلين المعاد للبدن وحده،أو للنفس والبدن معـًا...فالمعاد إذن للنفس وحدها"[١].

وهذه شنيعة كبرىٰ في العقيدة لكن ما علاقتها بكفر الصانع، بل ربما نستدل منها علىٰ إثبات الصانع والإيمان بالبعث عند ابن سينا فهذه من بدهيات عقيدته والتي لم ينفها عنه مَن كفَّروه!!.

ويرىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن ابن سينا ما اشتغل بالفلسفة إلا لتنزيه الله عن افتراءات الطائفة الإسماعيلية التي هي عائلته[٢].

لكنه تأثر بالإسماعيلية أهل دعوة الحاكم في الإمامة [٣].

وبالمناسبة عندما تقرأ كلمة "إلحاد الطائفة الإسماعيلية"، عندما تقرأ هذه الكلمة عند السلف عليك أن تعلم أنها لا علاقة لها من قريب أو بعيد أو فوق أو تحت بكفر الصانع أيضًا ... بل الطائفة الإسماعيلية اثني عشرية مؤمنون بالقرآن

---

(١) الأضحوية ص/ ١٢٦،١١٤.

(٢) شيخ الإسلام ابن تيمية... الرد علىٰ الرد علىٰ المنطقيين... ص١٤١.

(٣) شيخ الإسلام ابن تيمية... نقض المنطق... ص ٨٧.

الكريم حتمًا وقطعًا، موحدون الله حتمًا وقطعًا، مثبتون وجود الله بداهة .. وإنما يقول بعضهم بشناعات كُفرية في العقيدة مثل إنكار المعاد الجسماني وإنكار علم الله بالجُزيئات بعلم جزئي وغير ذلك .. وينسبون الإمامة لإسماعيل بن جعفر الصادق - ولذا سُموا بالإسماعيلية - وبذلك انشقوا عن باقي الاثني عشرية الذين جعلوا الإمامة في موسىٰ الكاظم ... ولا أدري أيضًا ما علاقة هذا بالإلحاد الاصطلاحي المعاصر الذي هو كفر الصانع ..!!

فلابد لابد من التفريق بين الإلحاد لغًة والإلحاد اصطلاحًا ... ولذا يقول ابن القيم رحمه الله: " ومَن أثبتَ منهم وجودَ الربِّ جعله لازمـًا لذاته أزلاً وأبداً غيَر مخلوقٍ، كما هو قول ابن سينا والنصير الطوسي وأتباعهما من الملاحدة "[1].

إذن الإلحاد عند السلف لا علاقة له بالإلحاد الاصطلاحي المعاصر الذي يعني إنكار الصانع ..!

وفي النجوم الزاهرة للتغري بردي قال وهو يتحدث عن ابن سينا:

"كان إمام عصره في الحكمة وعلوم الأوائل، بل كان إمامـًا في سائر العلوم. وتصانيفه كثيرة في فنون العلوم، حتىٰ قيل عنه: إنه ليس في الإسلام من هو في رتبته. قال أبو عبد الله الذهبي: كان ابن سينا آية في الذكاء، وهو رأس الفلاسفة الإسلاميين الذين مشوا خلف العقول، وخالفوا الرسول - قلت: لم يكن ابن سينا بهذه المثابة بل كان حنفي المذهب، تفقه علىٰ الإمام أبي بكر بن أبي عبد الله الزاهد الحنفي - وتاب في مرض موته، وتصدق بما كان معه، وأعتق

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية... ص٨٦.

مماليكه، ورد المظالم علىٰ من عرفه، وجعل يختم في كل ثلاثة أيام ختمة إلىٰ أن توفي يوم الجمعة في شهر رمضان. قلت: ومن يمشي خلف العقول، ويخالف الرسول، لا يقلد الأحكام الشرعية، ولا يتقرب بتلاوة القرآن العظيم".

والله وحده الأعلم بحال ومآل ابن سينا ... لكن غاية ما هنالك أن هذا شيء وإنكار الصانع شيء آخر تمامًا.

فيُرجىٰ عدم الخلط؛ لأن هذا غاية الملحد المعاصر ومنتهىٰ مأربه وبالغ عزمه وأصل قصده والله المستعان ..!!

لكن هنا نريد أن نكمل حديثنا عن الفلسفة وبقي أن نتسائل: كيف نشأت الفلسفة؟ ومَن أنشأها؟ وهل الفلسفة خُلقت خلقًا في قلب اليونان كما يزعم الغربيون الآن؟

أم هي طرح فطري لأسئلة النشأة – الأسئلة الوجودية الكبرىٰ- وبالتالي لم تخل منها مدينة، ولا أُمة ولا حضارة؟

للحوار في هذه القضية أحب أن أطرح رؤية دكتورنا الحبيب الطيب بو عزة – الحاصل علىٰ دكتوراه في الفلسفة- والباحث في الملف الإلحادي، والذي يعكف الآن علىٰ مشروع ثقافي كبير في مدلولات الفلسفة، ونُلخص الآن رؤيته كالتالي:

مركزية الفلسفة اليونانية مجرد وهم عِرقي للغربيين المعاصرين

بعد التأسيس الحداثي للحضارة الغربية منذ قرابة القرنين من الزمان وفي لحظة النهوض بدأ الوعي الأوربي يبحث عن قراءة أورو- مركزية للتاريخ والفكر والحضارة، لتمديد سيادته علىٰ التاريخ ماضيه وحاضره فاستلهم التراث الإغريقي اليوناني، وانطلقت الكتابة التاريخية علىٰ أساس وصل النهضة

الأوربية بالتراث الإغريقي، وأصبح الحديث حول المركزية الأوربية للفكر والثقافة والفلسفة قديمًا وحديثًا هو مقصد المثقفين الغربيين، ولم تعد لبقية الأعراق قيمة أو إنتاج أو ابتكار وإنما تقليد أوربا، فبدا الغرب وحده في الساحة سامقًا بارزًا مُهيمنًا.

وكان هاجس كل مفكري النهضة هو المحافظة علىٰ المركزية الأوربية، وتقطيع أوصال الثقافات الأخرىٰ حتىٰ تبدو بالنسبة للإغريق كشظايا بلا قيمة، وكأنه لم تولد بقية حضارات العالم إلا من رحم الثقافة الإغريقية القديمة.

وكأن التاريخ الأوربي تاريخ نقي من الأخلاط والمؤثرات الخارجية.

وفي تلك الأثناء – أوائل القرن التاسع عشر- بدت حاجة المشروع الاستعماري الأوربي إلىٰ نظرية تبرره، فزادت الحاجة إلىٰ هذه الرؤية المركزية، وهنا انتشرت فكرة سمو العرق الآري، التي ستبررها لاحقًا بيولوجية داروين والقول بالبقاء للأصلح والصراع من أجل البقاء وتباين الأعراق البشرية، واستحقاق الرجل الأبيض الأوربي قيادة العالم وتحضيره، وظهرت مصطلحات عبء الرجل الأبيض، والعبء الحضاري.

وظهر هيجل الذي قال بصراحة: "ما هو شرقي يجب استبعاده من تاريخ الفلسفة"[١].

فقد كان هيجل مسكونًا بعقيدة المركزية الأوربية واستعلاء الأنا الغربي.

ومع الوقت أصبحت قضية التفاضل العرقي والمركزية الأوربية هي خطاب النخبة طوال عصر النهضة.

---

(١) هيجل؛ محاضرات في تاريخ الفلسفة، ترجمة د. خليل أحمد، ص١٩٩.

وظل الحال علىٰ ذلك عقودًا طويلة ولم تنكسر هذه النظرة الاستعلائية إلا بتدمير ثلث أوربا وإعادتها عقود إلىٰ الوراء في حربين عالميتين كان مبررهما الوحيد هو النزاع العرقي وسيادة الأصلح .

وبعد الحربين العالميتين عاد فيلسوف الإلحاد برتراند راسل يُغذي العقل الأوربي بما يبرر استعلائه، فكتب الجزء الأول من كتابه "تاريخ الفلسفة" مُخصصًا لتمجيد الغرب وأسماه حكمة الغرب، فجعل كل فكر وفلسفة إغريقية من أصل إغريقي وكل همجية إغريقية نابعة من تأثرهم بغيرهم[١].

وهكذا تنتهي صياغة مؤرخي المركزية الأوربية إلىٰ صياغة تفسير لاتاريخي لظاهرة نشأة الفكر والفلسفة، لأن التفسير التاريخي يستلزم بحث السياق المجتمعي وصلاته بمحيطه، بينما النزعة العرقية تُقدم تفسيرًا اختزاليًّا غير منضبط مع ما حوله ولا مع ذاته.

لكن هل بالفعل الفلسفة خلق يوناني خالص؟

هل العرق الآري هو العرق الأوحد الذي يُنتج فكر وفلسفة؟

هل عقمت بقية الأعراق عن توليد فلسفة؟

هل العقلية التوليدية هي حصرية للعرق الآري والباقي يأخذ ويُقلد؟

في البداية؛ لابد أن نعلم أن حضارة الإغريق بدأت في القرن العاشر قبل الميلاد، في حين أن الشرق أنتج حضارة منذ أربعين قرنًا قبل الميلاد.

والذي لا جدال فيه أن بلاد الإغريق وعرة التضاريس مما عكس جغرافية بحرية تتلاقح مع غيرها من الحضارات المحيطة، فهذا السياق الجغرافي كان

---

(١) برتراند راسل؛ حكمة الغرب، ص٢٥.

يفرض عليها الانخراط في هجرات واحتكاكات وصدامات وحروب فضلاً عن علاقات تجارية متبادلة، الأمر الذي يستلزم تجاوز القراءة الأورو- مركزية للتاريخ.

بل إن ديوجين اللايرسي صاحب أقدم متن تأريخي للفلسفة يعترف قائلاً أن" الفلسفة نشأت عند البرابرة؛ هكذا كتب أرسطو في بحثه عن السحر، وسوتيون في الكتاب الثالث والعشرين من ميراث الفلسفة"[١].

وأفلاطون نفسه يعترف أن مصطلح فلسفة الذي يتكون من مقطعين" فيلو- صوفيا" ليس من أصل محلي[٢].

وقد أجمع فلاسفة اليونان أنهم تتلمذوا علىٰ حضارات الشرق، وأيونيا مهد الفلسفة الإغريقية كان يمتزج بها عشرة أعراق علىٰ الأقل، كما يقول المؤرخ اليوناني القديم هيرودوت[٣].

في مقابل إسبرطة أنقىٰ الأعراق الآرية لم تُنتج فلسفة ولا فكر ولا شيء ذو قيمة.

ولذا السؤال المطروح دومًا: لماذا لم ينبجس الفكر والفلسفة إلا في المناطق المتصلة بالشرق، والمختلطة به عرقيًا؟

ولماذا ظل العرق الآري النقي عاجزًا عن إنتاج فكر أو حضارة؟

---

(1) Diogene de laerte vies et dovtrines des philosophes p.1.

(٢) المحاورة مع أقراطيلوس، تاريخ الفلسفة اليونانية، مصطفىٰ النشار، ١-٣١.

(٣) طرابيشي؛ نظرية العقل، ص٨٨.

وأثينا لم تظهر بها الفلسفة قبل القرن الرابع قبل الميلاد، أي بفارق قرنين كاملين عن مناطق الإختلاط العرقي كأيونيا.

وإذا عُدنا إلىٰ أوائل فلاسفة اليونان فـ" طاليس" أول فلاسفة اليونان لم يكن آريًّا بل كان فينيقيًّا؟

طاليس بن إكساماياس، فينيقي، حسب هيرودوت. وهو أول من حمل لقب الحكيم.

وأنكسماندرس وأمكسمانس كانا من أصول فينيقية.

وعندما ذهب فيثاغورس ليتتلمذ علىٰ يد طاليس أمره طاليس أن يذهب إلىٰ مصر وبقي فيها ٢٢ عامًا يتعلم[١].

ولذا يقول إيزوقراط أن " فيثاغورس تتلمذ علىٰ يد المصريين، فكان أول من أدخل الفلسفة إلىٰ اليونان"[٢]، وطاليس لم يتعلم إلا في مصر[٣].

ويورد هيرودوت الكثير من الطقوس التي كان يخضع لها فيثاغور لكي يستحق الانتماء للمدرسة المصرية.

بل إن معبد دلفي الإغريقي الذي يقوم بتدريس الفلسفة السقراطية قام الغوغاء الإغريق بإحراقه، وتبرع أحمس ملك مصر بإعادة بنائه.

---

(1) Jean Philippe Omotunde, L`origine negro-africaine du savoir p51.

(2) Ibid, p56.

(3) Ibid, p57.

ويمكننا أن نستخلص مما سبق ما استخلصه مفكر فلسفي كبير مثل جورج. جي. إم. جيمس حين قال أن" الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة"[(١)].

وأن لغة اليونان هي لغة الفينيقيين، حيث استعاروا حروفهم، وأطلقوا عليها حروف الفونيقيا phoinikeia[(٢)].

إن التفلسف والتفكير والتوليد العقلي للأدلة ليس نمطًا مخصوصًا بحضارة أو بشعب، بل كما يقول بن خلدون رحمه الله: " العلوم العقلية طبيعة الإنسان من حيث أنه ذو فكر، فهي غير مختصة بملة، بل يوجد النظر فيها لأهل الملل كلهم، ويستوون في مداركها ومباحثها، وهي موجودة في النوع الإنساني منذ كان عمران الخليقة"[(٣)].

ويمكننا اليوم أن نقول ونحن واثقين تمامًا أن التراث الإغريقي بأكمله هبة الحضارة الإسلامية، فالحضارة الإسلامية هي التي أنقذت تراث فلاسفة اليونان، ونقلته من مجرد أفكار ومعارف، إلىٰ مرجعية يشتغل علىٰ شرحها وتطويرها والحوار معها، الأمر الذي أكسب الفكر اليوناني مسارًا تاريخيًّا فريدًا، حيث امتد إلىٰ المستقبل ولم يندثر كما اندثر غيره، فلولا اشتغال المفكرين المسلمين"الكندي، الفارابي، ابن سينا، ابن رشد"، علىٰ حفظ متون الفكر والفلسفة اليونانية وتحويلها إلىٰ مسائل معرفية حوارية لانطرمت تلك الفلسفة الآن في طي النسيان.

فالمتن اليوناني هو هبة اشتغال الفكر العربي عليه.

---

(١) جورج. جي. إم. جيمس" التراث المسروق"، ترجمة: شوقي خليل، ص٢٥.

(٢) هيرودوت، التواريخ، ص٧٧.

(٣) مقدمة بن خلدون، ص٨٦٠.

ثم إن وجود الفكر اليوناني في حوض البحر المتوسط وهو حوض الحضارة العالمية وقربه من الحضارة الإسلامية التي ستنشأ بعد فترة وتشتغل عليه هو الذي منح ذلك الفكر التداول والاستمرار والتطوير فصار مرجعية فكرية تأسيسية، بعكس الأفكار التي نشأت بعيدًا عن حوض الحضارة العالمية كالحضارة الهندية والصينية التي لم تكتسب سياق الحياة بنفس القدر الذي حظي به الفكر اليوناني.

لكن الواقع أنه لا توجد ثقافة حصرية بأُمة من الأُمم، ولا فكر خالص لعرق من الأعراق، لكن الذي يجتهد ويُبدع يُمكن أن يُنتج والذي يستفيد ويتحصل علىٰ العلوم من غيره يختصر الكثير من الجهد والوقت لبناء معرفته الذاتية المستقلة، فالحكمة ضالة المؤمن أنىٰ وجدها فهو أولىٰ بها[1].

إذن الفلسفة ليست حصرية بأُمة من الأُمم ولا مملكة من الممالك ولا حضارة من حضارات الأرض، ولا تاريخ من تواريخ الزمن، بل هي رد فعل لظهور الوثنيات في كل الثقافات، فهي ربما تتواكب مع النبوات، وربما تكون نبوات مُحرفة، وربما تكون مرتبة بين النبوة والإلهام – حكمة لقمان–، فالله أعلم بأحوال عباده، وهو القاضي بينهم بالعدل، وهو الموحي بأمره ونهيه ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[2].

لكن هنا إحقاقًا للحق وضبطًا للفهم؛ نقرر أن الفلسفة ما لم تهتدِ بوحي لا ينتفع بها أحد، وتصير همًّا معرفيًّا لا مخرجًا إيمانيًّا؛ إذ تتحول إلىٰ جمود منطقي

(1) هذا المقال من وحي كتاب" في دلالة الفلسفة وسؤال النشأة"، د. الطيب بوعزة، مركز نماء للبحوث والدراسات.

(2) سورة فاطر: الآية (24).

جاف، وهذا مُشاهد في كثير من الفلسفات -خاصًة المعاصرة- حتىٰ أصبحت عقول بعض الفلاسفة أكثر عقول أهل الأرض فسادًا، ويعتور عقل المشتغل بالفلسفة من الفساد بقدر ما اشتغل به من تفلسف، وهذا ما لم تكن تلك الفلسفة مهتدية بوحي يُبقي العقل في نطاق طوره الأوسع والأغنىٰ ألا وهو: عقل البصيرة والحكمة والاتعاظ والاعتبار، عقل الأخلاق والقيم والمعنىٰ؛ لا عقل التصورات المنطقية الجافة.

فالحكمة أهم بكثير من المعرفة الفلسفية المنطقية المجردة، بل إن المهارات المرتبطة بالحكمة أهم من المهارات المرتبطة بالمعرفة.

والعالم المادي الذي هو مملكة كلمات الله التي لا تنفد، أرحب من قيود الفلسفة المجردة، فهو يشتمل علىٰ البصيرة والحكمة والفطرة والوجدان والحس والقيم والمعنىٰ والتصميم والمنطق والقوانين والمادة، فقرائن العلم وطرقه لا حصر لها.

لكن مشكلة الفلسفة المتأخرة أنها قيّدت نفسها بقيود الوضعية المنطقية، فحرمت نفسها من طرق أخرىٰ كثيرة للعلم النافع، فهي الآن تسعىٰ لتقييد طرق التصور والحكم والفهم؛ لأن غرضها تمكين الوصول إلىٰ معرفة محددة.

ولذا يمكن الرد علىٰ هذا الاتجاه المعاصر للفلسفة بالقاعدة التي هي نفسها أسست لها، والتي هي: ليس عدم العلم علمٌ بالعدم.

وربما السبب الرئيس في اتجاه الفلسفة المعاصر هذا هو محاولة تقليد طرق وقرائن العلم المادي المعاصر، فدخلت الفلسفة نفس الكوة الضيقة التي نحتها العلم الطبيعي لنفسه، فقصرت نفسها علىٰ المتاح، والمتاح تحت يدها فحسب؛

فكذّبت ما لم تُحط بعلمه ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ﴾[1]، ودخلت الفلسفة جُحر ضب طرق العلم الطبيعي الاستدلالية وسننه، وضيّقت إمكانات العقل وحصرته علىٰ قرائن العلم التجريبي الحسي وطرائقه ومنهجه، ففقدت آفاقًا رحبة وطرائق جمة، ومناهج لا حصر لها، وأضحت ذيلاً للعلم التجريبي بدلاً عن أن تكون مصححًا لمساره وهاديًا لدربه وراصدًا لسعيه.

وهنا يأتي دور حديثنا عن كوة العلم التجريبي، وهل هذه الكوة بالفعل ضيّقت واسعًا؟

وهل حرمت الإنسان بالفعل من مصادر أكثر وثوقية للقيمة والمعرفة والأخلاق؟

(1) سورة يونس: الآية (39).

كوة العلم التجريبي

العلم الطبيعي نحت لنفسه كوة ضيقة بإصراره على:

١-تفرد الخبرة العلمية عن غيرها.

٢-ادعاء انفصال الخبرة العلمية عن التجربة الذاتية.

٣-الحديث عن عالم الحياة في مقابل عالم العلم.

٤-عالم العلم حاضن العقل الوضعي ومتنكر لأي شيء آخر.

٥-عالم العلم بطبيعته يستبعد معانٍ لا تقل أهمية عن خبرات العلم الطبيعي- إن لم يكن أهم-، مثل الغاية والقصد والتي لا يمكن فصلها عن عالم الحياة باعتبارها لُبّ عملية الفهم[1].

ولذا قرر هوسرل ضرورة وضع أُسس منهج ظاهراتي لتبدو الأشياء كما تبدو عليه في سياقها الزمكاني بالنسبة لخبرة الملاحِظ، فلابد في رأيه من الاعتراف الحصري بالبُعد التوصيفي descriptive الموضوعي والبعد الذاتي الحياتي .

هذا المنهج الظاهراتي الأقرب للإنسان ولتحليل ظاهرة وجوده يقبل قول النبي صلىٰ الله عليه وسلم لجبل أُحد: «**إنه جبلٌ يُحبنا ونُحبه**». في مقابل البعد التوصيفي للجبل الذي لا يزيد عن استيعابه كذرات متلاحمة في خضم ذرات أخرىٰ تنفصل عنه بنيويًّا، فحب الجبل هو خبرة في عين الملاحظ لا يتيحها التحليل العلمي.

---

(١) إدموند هوسرل؛ أزمة العلوم الأوربية والفنومينولوجيا الترانسندتالية؛ ترجمة: د. إسماعيل مصدق، ص٣٤.

ولا عيب في هذا المنهج لعدم الدليل علىٰ عيبه، بل العيب في التحليل الجاف، فالصلاة حركات مادية وانحناء أوتار وذبذبات أحبال صوتية، لكنها في الخبرة الذاتية الإنسانية الأقرب للصواب: قُرة عين أو مجرد واجب ينبغي الوفاء به أو عادة أو رياء، وفي كل هذه الخبرات الذاتية هي تحليل إنساني أقرب للعقل، في حين يظل التحليل العلمي الجاف أبعد ما يكون عن الواقع والحقيقة في أصلها، وهنا تكمن المفارقة بين الإنسان وبين العالم المادي.

إن الاستبداد المعرفي للعلم الطبيعي ولغلاة الموضوعية وضحايا التصور المغلوط للعقل، يسعىٰ لإقناعنا بأن النطاق المعرفي للوجود المنطقي العلمي التجريبي هو أساس كل ما نحتاجه من حق، وأن كل معرفة تزعم الاتصال بغير ذلك النطاق أو تتخطاه مهما دعت الحاجة إليها وأقبل الوعي عليها، هي أساس كل وهم، ويجب أن نقتلها في مهدها أو أن ندير ظهورنا لها إن لم نقدر علىٰ قتلها.

فعندما نحت العلم كوته الضيقة الخاصة به اعترف بالعجز عن معالجة الأسئلة الناشئة عن صلة الوعي بمطلق الوجود- أسئلة النشأة والغاية والمعنىٰ والقيمة والأخلاق وكل أسئلة لماذا-،ولم يكتفِ العلم بعجزه بل إن كهنته وصموا تلك الأسئلة بالفارغة والتي لا معنىٰ لها، بل تم وصمها بالغير مشروعة، وهذه بعينها مغالطة الاستدلال بعدم العلم علىٰ العلم بالعدم، فإن حقيقة قولهم يمكن تصويرها هكذا: لما عجزنا عن معرفة الجواب جاز لنا أن نصف السؤال بغير المشروع والفارغ. لكن مع أدنىٰ تأمل وتنزّل يتبين لنا أن هذه الإجابة تنطوي علىٰ مصادرة لأهم ما يميز ويشغل الوجود الإنساني بالكلية، وتنطوي علىٰ خطأ بيّن؛ فخبرة عالم العيش أوسع من خبرة عالم العلم ومشتملة عليها، ومن البديهي أن إثبات الأخص -العلم التجريبي- لا يلزم منه نفي الكل- أسئلة

النشأة- بل إن العكس هو الصحيح، ولذا الذي يملك الدين يملك العلم والآخرة معًا، بينما الذي يرضىٰ بظاهر من الحياة الدنيا لا يجيب عن شيء ولن يصل إلىٰ شيء ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾[١].

فمحاولة تبرير السكوت عن الأسئلة المطلقة الكبرىٰ بحجة البحث في الوجود الخاص- العلم التجريبي- هو محض تحكم ورغبة في اليقين.

وكما قال فريدريك شوماخر-في جمع حافل من العلماء- " محاولة ضغط كل علوم عالمنا في قالب الفيزياء الحسية، سيتحول إلىٰ لعنة يصعب الهروب منها، والأمر أشبه بمحاولة حصر دراسة عمل فني عظيم في دراسة المواد التي يتكون منها"[٢].

العقل بطبيعته قاصر عن إدراك حقائق الأشياء كما هي عليه في الخارج، فالعقل مثلًا بالنسبة لكانط يُطل علىٰ العالم الخارجي عبر ما أسماه بال categories وتعني مفاهيم أولية للإدراك، وهي تفرض علىٰ العقل هيئة لا يتخطاها في فهم الأشياء، هيئة تصله بظواهر لا جواهر العالم، فيعجز الإنسان عن النفاذ إلىٰ حقيقة بواطن الأشياء، وهذه طبيعة العلم ومدىٰ قدرة الإنسان، فهناك طوق معرفي خاص علىٰ نطاق العقل وطريقة عمله، فلا يعرف بواطن الأشياء في حقيقتها إلا الله. وفي الحديث النبوي" وأنت الباطن فليس دونك شيء".

---

(١) سورة يونس: الآية (٧).

(2)Schumacher, E., A Guide for the Perplexed, p.117.

وهذا يعني بمنتهىٰ البساطة والجدّية إصابة غرور المؤمنين بكفاية العلوم التفسيرية في مقتل.

صدر مؤخرًا في (٢٠١٢) كتاب لفيلسوف الوعي الشهير توماس ناجل Thomas Nagel بعنوان:

(Mind and Cosmos: Why the Materialist Neo-Darwinian Conception of Nature is Almost Certainly False).

والكتاب أثار ضجة في الأوساط العلمية والإلحادية، ويمثل ردة صريحة للفيلسوف عن كفاية المذهب الطبيعي؛ وفكرة الكتاب كما يظهر من العنوان: التدليل علىٰ قصور التصور المادي عن الطبيعة.

فالعلم الطبيعي ليس شيء موضوعي في الخارج نفزع إليه ونتوكل عليه متىٰ شئنا، إن عبارة "العلم سيجيب عن ذلك" تلك العبارة التي يكررها الملحد في اليوم الواحد أكثر من مرة، أضحت عبارة مستهلكة بلا معنىٰ، تعطي للعلم لاهوت مستقل، وتثبت تصرفًا مستقلًّا للعلم فهو يُعز من يشاء ويذل من يشاء ويعطي ويمنع، وهذا تدليس من العيار الثقيل فليس العلم مرجع تام الحياد، ولا يمنح سلطان ذاتي إيجابي، فإدراك حقائق الأشياء في الخارج قاصر بقصور العقل البشري، وإلىٰ اليوم نحن لا نعرف ما هي المادة فضلاً عن أي شيءٍ آخر.

يقول سير بيتر مداور Sir Peter Medawer في كتابه "نصيحة للعالِم الصغير" advice to a young scientist "لا شيء يُفقد الثقة في العالِم أكثر من ادعائه أن العلم يمكن أن يجيب عن كل الأسئلة يومًا ما".

العلم ذاتي وليس موضوعي

لا تخرج حالة العلم عن كونها محصلة لحالة من أحوال العقل، والعقل يتلبس بأحوال وتعتوره عوامل وثيقة الصلة بكيان الإنسان كله: حاجاته الجسدية، مطالبه الوجدانية، إملاءاته العاطفية، اتجاهاته الفكرية، إلىٰ غير ذلك، وبالتالي يلزم من ذلك أن العلم الطبيعي يعتريه ما يعتري العقل من صروف وأحوال، فإذا أضفنا إلىٰ ذلك الشاهد الكانطي الذي ذكرناه قبل قليل لزم من ذلك أن العلم الطبيعي عرض من أعراض العقل غير معصوم؛ وهو محصلة اجتهاد يتأثر بالاتجاهات العاطفية والمصالح الشخصية، والأهواء الذاتية، للعلماء والمؤسسات علىٰ حدٍّ سواء.

وقد أحسن التطوري الكبير ستيفن جاي جولد حين قال: "لم تصل السذاجة بنا إلىٰ حد الإيمان بخرافة أن علماء العلم الطبيعي نماذج مثالية للموضوعية الغير متحيزة، أو أنهم منفتحون بدرجات متساوية علىٰ كافة الاحتمالات، أو يصلون إلىٰ النتائج علىٰ قدر الدليل، نحن ندرك يقينًا أن التحيزات تعلب دورًا قويًّا في عملية الاكتشاف"[١].

تخيل انتماء عالم إلىٰ جماعة ملحدة، وكيف سيؤثر ذلك علىٰ نتائج أبحاثه!

يقول عالم الاجتماع نوربرت إلياس Norbert Elias: "مثل الناس الآخرين؛ العلماء مدفوعون في أبحاثهم بأغراضهم الشخصية، متأثرون إلىٰ حد كبير بحاجات الجماعة التي ينتسبون إليها"[٢].

---

(1) Gould, S. J. (2000) Wonderful Life, p.244.

(2) Elias, N., Problems of Involvement and Detachment, p.288.

ولا تخفىٰ علينا تصرفات ريتشارد داوكينز الصبيانية والذي نجزم أن مواقفه العلمية –إن كانت موجودة– تصب في اتجاه الترويج لمشروعه الإلحادي، وكذلك الأصبىٰ منه لورانس كراوز شماس الكنيسة الإلحادية، بحضوره الدائم وتكريزه المستمر في المناسبات الرسمية وغير الرسمية.

وقد بسط القول في تأثير الانتماء الفكري للعالِم علىٰ نتائج أبحاثه، مورخ العلوم الشهير توماس كون Thomas Kuhn في كتابه" بنية الثورات العلمية" وقام بالتأسيس لفرضية عبادة الشمس sun worship عند علماء الطبيعة المعاصرين، وقد أشار إلىٰ أن العلماء الماديين لا ينفكون عن اختيارات تمليها عليهم ميولهم الذاتية وقناعاتهم المسبقة؛ نسوق هذا الكلام لنؤكد خرافة "وضوح وثبات واطراد مناهج العلم الطبيعي نتيجة استقلاليتها "وهذا لا يحتم علينا إلغاء الثقة بالعلم الطبيعي فهذا لا يقوله عاقل، وإنما خفض سقف توقعاتنا بشأن مصداقية النظريات التي ينتجها، وصحة أصول الفرضيات التي يتكئ عليها.

ولذا ينتهي فيلسوف العلوم ديفيد هل David Hull بعد سلسلة مقابلات أجراها مع العلماء ينتهي إلىٰ حقيقة أن:" العلم الطبيعي ومنطقه النهائي يمكن تفسيرهما في ضوء ما يقع من تحيز وغِيرة ولا عقلانية"[1].

فالعلم الطبيعي لا يسير باتجاه خطي منتظم باطراد وإنما قفزات مفاجئة تقف وراءها عوامل نفسية واجتماعية كثيرة ورغبة في إخراس الأقران علىٰ حساب الحياد العلمي، وكما يقول ديفيد هل في موضع آخر من كتابه " مرة بعد

(1) Hull, D., Science as a Process, p.32.

أخرىٰ يقول لي أحد العلماء عن عالم آخر: "سوف أُري ابن العاهرة نتائج أبحاثي)"[١].

ولذا يصل دومينيك فينك الباحث في علم اجتماع العلوم إلىٰ نتيجة أن: "البحث العلمي ليس أكثر من مقاييس شخصية منحازة"[٢].

فهناك دوافع لاشعورية تأخذ بناصية البحث العلمي بالكلية نحو الانحياز لجماعة ينتمي إليها العالِم؛ وهي دوافع ذات أصول مشتركة بين المؤمن والملحد.

وهذا ما أوضحته فيلسوفة الاتجاهات النفسية للعلم ماري ميجلي Mary Midgley في كتابها التطور كديانة Evolution as Religion

وهنا نعود فنُقرر أن العاطفة لا تنفك عن العقل، وأن العقل ليس مكافئ للعمليات الأيونية-تبادل أيونات الصوديوم والبوتاسيوم- التي تحدث في الدماغ، كل هذا يحرر استحالة انفصال الذاتي subjective عن الموضوعي objective.

الذاتية والموضوعية لا تنفصلان!

علينا أن نعلم أن الموضوعية ليست نقيض الذاتية وإلا ما اجتمعتا في النفس طرفة عين، وإنما صورة من صورها ومرتبة من مراتبها مثل أن اليقين درجة من درجات الظن.

---

(١) المصدر السابق؛ ص٣٥٣.

(٢) علم اجتماع العلوم؛ ترجمة: ماجدة أباظة، ص٣٤.

فلا يوجد خندق فارغ بين العالم الذاتي والموضوعي، بل هما متداخلان إلىٰ أبعد حد في النفس البشرية سواء نفس عالم أو عامي، بل إن الذاتية أصل الموضوعية وليس العكس، فنحن نقترب من الحقيقة ويمكن أن نصل إليها، وحين نصل إليها تكون مرتبة من الحقيقة تتلائم مع تركيب عقولنا، وكما قال كانط" إن الحقيقة تابعة لتركيب عقولنا"(١).

فاتصالنا بالحقيقة يكون علىٰ الوجه الذي تأذن به بنية العقل، وهو وطيد الصلة بما ذكره ابن تيمية من استحالة مطابقة الحقيقة الذهنية للحقيقة الخارجية من كل وجه، وهذا لا يثبت نسبية كلية للحقيقة وإنما نسبية لطبيعة إدراك النوع الإنساني من جهة، وطبيعة الأشياء في حقيقتها من جهةٍ أخرىٰ.

إذن إدراك العقل للعلم الموضوعي بطريقة كلية الحياد هو خرافة مَن يتبناها يجهل طبيعة العقل وطبيعة العلم؛ فنحن قد قررنا أن العقل لا يعمل كبرنامج حاسوبي صرف وإنما هو تداخل تام بين الفكر والعاطفة بحيث لا ينفصلان، ثم إن العلم الطبيعي لا يستقل بوجود خاص، وهو ليس أكثر من عرض من أعراض العقل، والعقل عرض من أعراض النفس، وبالتالي يعتريه من التدرج ما يستعصي علىٰ الحصر، ثم إن عالم الحياة سابق علىٰ عالم العلم كما فصلّنا، ثم عرجنا علىٰ الانفصام المتوهم بين الذاتي والموضوعي فرأينا أنهما أحوال للإدراك علىٰ مخبار مُدرج وفي قمة الموضوعية يكون استيعابنا للحقائق بالقدر الذي يأذن به العقل.

(١) تاريخ الفلسفة، يوسف مكرم، ص٤١٩.

وأصل الصراع بين التنويريين والرومانسيين مرجعه إلىٰ الصراع بين الذاتي والموضوعي فالرومانسيون يحاولون حماية الذاتية من جفاف الموضوعية، والتنويريين يتعاملون مع الموضوعية علىٰ أنها شيء مطلق متجاوز ترانسندنتالي.

لكن حدود العلم الطبيعي الموضوعي غير واضحة ومناهجه غير منضبطة، فمن المستحيل والحال هكذا أن نصِم العلم الطبيعي بالموضوعي فضلاً عن أن نصمه بالمطلقية المتجاوزة.

فتخوم العلم الزائف متداخلة بشدة مع تخوم العلم الطبيعي، فنحن إلىٰ اليوم نكاد نجزم أن نظرية التطور علم زائف بلا دليل تجريبي واحد يدعمها ومع ذلك يعتبرها غيرنا علم حقيقي يمكن النقاش حوله.

ولذا يقول فيلسوف العلوم الكبير لاري لودان Larry Laudan " لكي نُحسب في عداد العقلاء علينا أن نُسقط من معاجمنا مصطلحات من مثل –علم زائف– و –غير علمي–؛ إنها تعبيرات جوفاء تقدم لنا خدمة عاطفية فقط"[(١)].

فمن الخانق التحكم في جنس العلم ومحاكمة جنس المعرفة بناءًا علىٰ فرضيات ومقدمات ظنية، مثل فرضية القابلية للتخطئة عن بوبر falsification وهذا نفس ما نادىٰ به لاكتوس Lakatos فالغلو في تبني افتراضات لحدود العلم الطبيعي ربما يحرم الانسان من طرق أكثر وثوقية للمعرفة، وهذا الأمر يتفق عليه الآن كثيرين من فلاسفة العلوم أمثال بول فيرابند ونيكولاس ماكسويل وغيرهم.

---

(1) The Demise of the Demarcation Problem in Physics, p.125.

فمنهج العلم الطبيعي نفسه غير منضبط مما يجعل سؤال التمييز بين العلم الحقيقي والعلم الزائف ليس مطلب منطقي.

من المهم هنا أن نوضح أن الذي يضع مناهج العلم الطبيعي هو فلاسفة العلم الطبيعي وليس علماء العلم الطبيعي، فالذي يضع الأُطر الآن فلاسفة العلم وليس العلم ذاته.

وهذا يؤكد علىٰ حقيقة هامة وهي أن المنهج المعتمَد للعلم غير ذاتي؛ أي غير قادر علىٰ تبرير نفسه أو وضع أُطره بذاته بل يعتمد علىٰ شيء متعدي –فلاسفة العلم–، لوضع أُطره الذاتية وهذه نقطة ضعف قاتلة في المنهج العلمي المعاصر فهو يزعم المطلقية ويبرر لها من خلال شيء متعدي غير مطلق وهو فلاسفة العلم.

فكما فعل كارل بوبر من وضع معيار القابلية للتخطئة، وكما صنعت الوضعية المنطقية من وضع فكرة فحص المقولاتPeer Review؛ وهنا ننبه علىٰ الفرق بين التحقق verification والتخطئة falsification فالأول ألصق بالممارسة المنطقية الوضعية، ولكن لو طبقنا هذا القيد علىٰ نظرية التطور بما تحمله من استحالة التحقق verification فهو ما يجعلنا نؤكد طبقًا للمنهج العلمي ذاته علىٰ زائفيتها، ومع ذلك يصر غيرنا علىٰ حقيقيتها وهنا نؤكد علىٰ اختفاء التمييز بين الحقيقي والزائف.

تعتمد ممارسات العلم الطبيعي كما نعرفه اليوم علىٰ الفرضيات الكلية للمنهج التجريبي المعياري Standard Empiricism والذي هو بحسب ماكسويل" المذهب الذي يقول بأنه في العلم لا يمكن قبول فرضية ذات بال عن

العالم كجزء ثابت في المعرفة العلمية من غير دليل، ومن باب أولىٰ إذا انتهكت الدليل".

وعندما تم تقييم هذا المنهج المعمول به في العلم التجريبي المعاصر، عندما أُعيد تقييم هذا المنهج علىٰ يد ماكسويل ذاته اكتشف عشرة إشكالات جوهرية لم يتمكن المنهج المذكور من حلها، ودعاها إخفاقات المنهج التجريبي المعياري the failings of standard empiricism، وهي موزعة كالتالي: ثلاثة إشكالات تتعلق بالاستقراء induction ومشكلتان في طلب البساطة simplicity ومشكلتان تمسان قضية الدليل evidence وثلاثة إشكالات في أُطروحة تطور العلم scientific progress .

ثم إن المنطقية الوضعية لا تنفي إمكان المعرفة خارج الإطار الذي يوفره العلم التجريبي، لكن لما كانت الوضعية المنطقية بطبيعتها التي يمثلها البشر العاديين فإنها تجاوزت المسموح وصارت تقلل من شأن بقية المعارف نظرًا لطبيعة دعاتها في محاولة اختزال غيرها من أدلة وطرق للمعرفة.

فالمنهج العلمي المنطقي الوضعي يفتقر إلىٰ ضابط جامع ينفي عن الفرضيات التي تقود العلم الطبيعي خلل الاضطراب وآفة الاعتباط في قبول أو رفض النظريات.

فالمنهج التجريبي بحد تعبير ماكسويل نفسه يروم النزاهة إلا أنه ميئوس منه وخادع فهو يروم مثلاً النظرية البسيطة علىٰ النظرية المعقدة وكأنه صاغ فرضية ثابتة عن العالم استقلالاً عن الدليل، وهذا يعني خرق المنهج التجريبي ذاته، بل إن المنهج التجريبي بهذه الصياغة حين يتعامل مع نظرية معقدة فإنه يقوم علىٰ ما يكره.

والمدهش حقًّا أن المنهج التجريبي لا يعترف بأية فرضية تستعصي أو تمتنع علىٰ الدليل، لكنه هو ذاته قائم علىٰ فرضيات من هذا القبيل، فلا يقوم المنهج التجريبي إلا علىٰ:

١ -افتراض أن هناك في الخارج توجد أشياء مستقلة عنا تُسمىٰ حقائق.

٢ -أن هذه الحقائق تستحق اهتمامنا.

٣ -أن هناك شيئًا يميز فهمنا لتلك الحقائق.

يقول الفيزيائي روبرت لالفين: " علماء الفيزياء يقومون علىٰ فرضية مسبقة أن العالم دقيق ومنظم، وأن أي فشل للعلم في تعزيز هذه الرؤية هو قلة إدراك بسبب عدم الدقة في إجراء القياسات الكافية"[(١)].

وعالم الفيزياء الشهير بول دافيز Paul Davis يُسلم بمعقولية الكون قبل البدء بممارسة العلم كحقيقة خارجة مستقلة وتتيح نفسها للفهم بنفس المقدار.

لا يمكن تصور قيام علم تجريبي من دون إيمان مسبق بهذه الفرضيات السابقة، وكأن هذه الفرضيات في حكم القبلية البديهية A-periori التي لا يقوم علم تجريبي بدونها.

ثم قل لي: هل علوم مثل "علم النفس، اللسانيات، الاجتماع". هل تدخل في نطاق العلم الطبيعي أو العلم الزائف؟ إن التمييز الحاد مستحيل وغير منضبط وفي مثالنا هذا ينهار . وحينها يصبح تخلف التناسب incommensurability بين ما هو علمي وما هو غير علمي حقيقة، ويصبح من الصعب تمحيص إحدىٰ النظريتين في ضوء نظرية أُخرىٰ.

---

(١) كون متميز؛ ترجمة: عزت عامر، ص٣٦.

وينص مبدأ التناسب commensurability أنه إذا كان لدينا نظريتان علميتان متعارضتان وتعذر الترجيح ساعتها لا يعمل مبدأ التناسب ويتوقف، وهل تخرج النظريتان خارج إطار العلم؟ علىٰ خلاف بين العلماء. يقول فيلسوف العلوم فيرابند" لا يوجد شيء إسمه نظرية علمية للعالم، وهذا لا يمنع أن هناك أشياء نتعلمها من العلم، ولكن أيضًا نحن نتعلم من الدين وبقايا الفلسفات القديمة، **لا يوجد مبدأ أو مجال موحد موضوعي يصرفنا بعيدًا عن متجر الدين "**[1].

بل إن العلم الطبيعي بأشخاصه وأدواته ومناهجه وغاياته ومؤسساته صار يمارس استبدادًا فظيعًا خاصةً عندما يدعي احتكاره لسلطة التمييز بين ما هو مشروع وممنوع في حق المعرفة، ولذا افتتح فيرابند كتابه Against Method بدعوىٰ أن الأصل في العلم الطبيعي أنه فوضوي وغير منضبط بأصل، فلا وجود للنظرة العلمية كنموذج paradigm متماسك كامل في ذاته، منضبط تفسيريًا ووظيفيًّا، بل تخومه كما فصلنا تتداخل بشدة مع تخوم العلم الزائف واللاعلم.

ضرورة فصل العلم عن الدولة

إن الفكرة التي نحاول أن نسوقها هنا هي أن تجارب الإنسان وخبراته أثرىٰ وأغنىٰ وأكبر من العلم الطبيعي، ولما كان العلم الطبيعي ليس جوهر بائن ولا مَلَكَة منفصلة، ولا يمكن عزله عن التحيزات البشرية والطبيعة الإنسانية القاصرة وتداخل العاطفة بالفكر، لما كان كل هذا! أصبح من العسير بمكان الحديث عن العلم الطبيعي كشيء مستقل في الخارج له مطلقية الحكم علىٰ

---

(1) Feyerabend, P., Against Method, p.261.

الأشياء، أو أن المعرفة الحقة هي التي يتوفر عليها الإنسان بواسطة العلم الطبيعي فقط، فالتصور الصحيح للعقل يأبىٰ تلك المصادرة، والتصور المغلوط للعقل هو الوحيد المنتفع بتصور مطلقية العلم.

يقول مثلاً روبرت شلدريك Sheldrake عالم الكيمياء الحيوية الأسبق بجامعة كامبريدج ردًّا علىٰ أُسطورة أن العقل في الدماغ، وأن هذه دوغما تُحرك المجتمع العلمي دون سند تجريبي واحد يقول: " أين الأدلة الاستثنائية علىٰ الدعوىٰ المادية أن العقل ليس إلا نشاط الدماغ؟ خبرتنا عن أبداننا لا تكون إلا في أبداننا لا في أدمغتنا، خبرتنا المباشرة لا تقدم أي دعم للدعوىٰ الاستثنائية أن خبرتنا داخل أدمغتنا"[١].

ويرىٰ نيتشه مثلاً أن السعي العلمي في قمة جبروته وحياديته هو سعي نحو مزيد من القوة لا مزيد من الحق، وأن البحث عن الحق هو مجرد وهم يخدع به المجتمع العلمي نفسه، فالواقع أن الجميع يبحث عن مزيد من القوة والعلو في الأرض، وربما في هذا قال تعالىٰ: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[٢].

فإعجاب كل ذي رأيٍ برأيه وحصر المؤسسات العلمية الحصول علىٰ المعرفة إلا من طريقها، هذا ما أسس لبؤس المعرفة في الغرب كما يطلق عليه فلاسفة العلوم، وربما فلاسفة المنطق الوضعي اليوم هم أحفاد المناطقة الذين انتقدهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حين قال: "إن هؤلاء ادّعوا أن طرق العلم علىٰ عقلاء بني آدم مسدودة إلا من الطريقين الذين ذكروهما، .. وادعوا

(1) Sheldrake, R., the Science Delusion, p.214.

(٢) سورة القصص: الآية (٨٣).

أن ما ذكروه يوصل إلىٰ العلوم التي ينالها بنو آدم بعقولهم، بمعنىٰ أن ما يوصل لابد أن يكون علىٰ الطريق الذي ذكروه لا علىٰ غيره"[١].

فإن معنىٰ تحكم المؤسسة العلمية التجريبية يؤدي إلىٰ انتفاء القيمة عن العلوم التاريخية والاجتماعية والنفسية والشخصية، ولا معنىٰ للحكمة ولا للبصيرة ولا للحدس ولا للخبرة الذاتية؛ إنه استبداد مريع لم نسمع عنه إلا إبان حكم الكنيسة علىٰ العلم واعتبار أن ما تملكه هو العلم وغيره الهرطقة.

وإن كانت في واقع الأمر حقيقة الصراع القديم بين العلم الزائف والدين الزائف لا بين العلم والدين كما يقول فيلسوف العلوم كن والبر[٢].

إلا أن فكرة حصر العلم داخل المؤسسة العلمية هو استبداد لا معنىٰ له .

والتصور الصحيح للعلم والعقل هو التصور الذي يستوعب كل معرفة تلامس احتياجاتنا، ولا يتعارض مع خبراتنا الثابتة، ومراعاة قيد"عدم التعارض" هو أقل المطلوب، وإلا فغاية المطلوب هو التكامل، لا مجرد عدم التعارض .

يقول فيرابند: " العلم ليس تقليدًا موحدًا، ولا هو أفضل التقاليد الموجودة، إلا بالنسبة لأولئك الذين اعتادوا حضوره، وجربوا منافعه ومساوئه. **في أي نظام ديموقراطي، ينبغي فصل العلم الطبيعي عن الدولة مثلما تُفصل الكنيسة عن الدولة... إن الفكرة التي تقول: إن المعرفة في العلم الطبيعي هي بطريقة أو**

---

(١) مجموع الفتاوىٰ ٩-١٧٤.

(2) Wilber, K., Of Shadows and Symbols, p.20.

بأخرىٰ معرفة مميزة علىٰ نحو خاص، وأنها متحررة من اختلاف وجهات النظر، هي فكرة واهمة لا سبيل لتحقيقها" [١].

إن قابلية العلم لأن يتحول إلىٰ أُسطورة أو أيديولوجية أمر تجاوز القابلية الآن وصار حقيقة واقعة.

تشظي المعرفة التجريبية

جُل العلم الطبيعي مركب من أوضاع معرفية مكتسبة ومتغيرة، فهو ليس كتلة معرفية صلدة موحدة monolithic، بل هو يعاني من انقسامات وتعتريه انشطارات، وتنتابه أزمات وينطوي علىٰ ثغرات متعددة، سواءًا علىٰ مستوىٰ المنهج أو علىٰ الممارسة الفعلية لآحاد المؤسسات العلمية أو علىٰ مستوىٰ النظريات أو علىٰ مستوىٰ تطوره من منظور تاريخي، من هذا المنطلق يمكن أن يحدث التعارض بين الوضع المعرفي المنتمي للعلم الطبيعي والوضع المعرفي المنتمي لبقية العلوم، ولذا قفزت المدرسة الظاهراتية التي تحدثنا عنها في بداية المقال لانتشال الخبرة البشرية من براثن العلم الطبيعي. حتىٰ تتم إعادة الإعتبار للمنطلق الأخلاقي والخبرة البشرية والوجدان والفطرة.

يقول عالم الأحياء التطوري الشهير هنري جي Henri Gee وأحد كبار المحررين في مجلة Nature الشهيرة يقول: " من الأخطاء التي يقع فيها الناس، وأنا أضع العلماء والصحفيين ضمن كلمة ناس لأنني هكذا أكون مُحسنًا، من الأخطاء التي يقعون فيها اعتقادهم أن العلم الطبيعي كله معنيّ باكتشاف الحق، بل يذهب العالم الملحد ديفيد سلون David Sloan إلىٰ أبعد من هذا فيصف

---

(١) Feyerrabend, P. (2010) Against Method, p.249, 253.

العلم بأنه دين يجعل مطلبه إلهًا، ولكن العلم ليس شيئًا من هذا القبيل، والوصول للحقائق مفهوم يُفضل تركه لعلماء اللاهوت والفلاسفة. فمن الأفضل النظر إلىٰ العلم ليس علىٰ أنه دين وإنما علىٰ أنه عملية عقلية، ليس هدفها البحث عن الحق وإنما هدفها قياس كمية الشك"(١).

ويقرر الملحد ديفيد سلون أن الإلحاد أيضًا تحول إلىٰ دين، ويرىٰ أن المرء العاقل "سيكون مُغفّلاً إذا ما افترض أن الإلحاد يكافئ العقل الخالص لمجرد أنه لا يستدعي الإيمان بأية آلهة"(٢).

نعود للعلم موضوع المقال ونقول: العلم يؤدلَج ويؤدلِج؛ لأنه يرتبط بأشخاص، وليس مرتبطًا بمُثل أفلاطونية، والعلم أسير المرحلة واللحظة التي تهيمن علىٰ سياقه التاريخي، وبالتالي أوضاعه المعرفية عرضة للإخفاق والظن والمغالطات والتخمينات والأساطير والخرافات ما يداني القدر الذي نقموا جنسه علىٰ أنواع الملل والديانات.

يُحكىٰ أن سيجموند فرويد بعث رسالة خاصة إلىٰ أينشتاين يسأله فيها عما إذا كان يمكن للنظريات العلمية أن تُصبح أساطير من حيث لا نشعر. ويعلق الفيلسوف الموسوعي إدغار موران علىٰ هذه الحادثة بقوله: "هذا التساؤل يستحق أن يُطرح. صحيح النظريات العلمية في سماتها المفتوحة والدنيوية هي الطرف النقيض للأُسطورة، ولكن في نواتها منطقة معتمة تستطيع أن تحوي

(1) Gee, H. (2012) Different Kinds of Truth, the Guardian, Friday 31 August 2012.

(2) Sloan, D. (2012) Atheism as a Stealth Religion ; Hoffpost, Posted 12/14/07.

خميرة تحول الفكرة التي أصبحت سائدة إلىٰ أُسطورة؛ وهكذا أصبحت أفكار غاليليو ولابلاس ونيوتن عن النظام الرياضي للعالم أساطير"[١].

لكن المُربك حقًّا أنه لو تحولت الأصول العلمية إلىٰ أساطير فإن وعي الكثيرين لن يستوعب ذلك وستتعرض الأفكار الجديدة لمحاربات من قِبل المجتمع العلمي.

مثلاً ظل نموذج بطليموس قرونًا طويلة سائدًا، وكلما اتسعت الاكتشافات يتم تكييف التفاصيل حتىٰ تنضبط مع النموذج المعياري المهيمن لبطليموس-الأرض مركز الكون-، ويمكن في أي لحظة أن تعود النظرية للثبوتية فليس بمقدورنا أن نتيقن من هذا أو خلافه إلا برصد الظاهرة في علاقتها بالنظام برمته وهو متعذر.

المهم أن للعلم دجاجلته كما للوثنيات كهنتها؛ فبين وهم الفلوجستون phlogiston وكذبة البلتداون piltdown وأُحجية البانسبرميا panspermia وتزييف أرنست هيكل Ernest Haeckel وشطحة تيكتاليك tiktaalik وتخرصات لورانس كرواس، بين كل هذا يبقع العلم معترفًا بوجود كهنة مكرة في كنيسته وشمامسة أغبياء يروجون ويكرزون للسخافة بلا وعي.

يقول كارل بوبر علميًّا: "أبدًا لن نتيقن تمامًا من أننا لم نقع في الخطأ، وهذا يعني أننا لن نتأكد تمامًا أننا لم نُخطئ حتىٰ لو اتخذنا أقصىٰ قدر من الحذر"[٢].

---

(١) المنهج، ص٢١٣.

(٢) كارل بوبر، بحثًا عن عالم أفضل، ترجمة: د. أحمد المستجير، ص١٤-١٥.

يقول الفيلسوف نورمان كامبل: " العلم درس فكري خالص، غايته تلبية حاجة العقل لا حاجة البدن، إنه لا يروق لشيء كما يروق للفضول النزيه للإنسان"[١].

فهنا كامبل يستبعد مسائل كالأخلاق والقيمة عن العلم وهو الحق الذي لا مرية فيه، والعلم هو مجرد خبرة مجتزأة من الخبرة الإنسانية، لا يجوز أن يخرج علىٰ هذا السياق ولا أن يتضخم.

يقول نورمان كامبل: " يستحق رجال العلم الطبيعي القدر الأكبر من اللوم إزاء التخليط الذي نعترض عليه. لقد اعتادوا إلىٰ حدٍّ بعيد فرض استنتاجاتهم علىٰ مجتمع العوام والمترددين، إلىٰ درجة أنهم مُعرَّضون لتخطي حدود ميدانهم الخاص، إنهم ينسون أحيانًا أنهم لم يعودوا خبراء فور مغادرتهم لمختبراتهم، وأنهم فيما يتعلق بالأسئلة الأجنبية علىٰ العلم لا يستحقون أن يحظوا باهتمام يفوق ذلك القدر الذي يستحقه غيرهم"[٢].

إن التداعيات التي خلفها المنهج ما بعد البنائي post-structuralist علىٰ التصور المألوف للعلم، والدرس الذي أعطاه لدعاة موضوعية العلم التجريبي لن يُنسىٰ؛ فقد أكد المنهج ما بعد البنائي أن العلم يمتنع عليه سمة التفرد التي يدعيها في تحصيل المعرفة، فالعلم يقوم علىٰ فرضيات منهجية ووظيفية ودلائلية ونطاقية بحيث تجعل هذه الفرضيات من العلم شبحي المُعطىٰ لا يحق له الاستبداد tyranny بالمعطىٰ المعرفي، أو ممارسة أي

---

(١) Norman C. What is Science, p.1.

(٢) Norman C. What is Science, p.163.

صورة من صور القوة، فيصدق عليه أنه مروية arbitrary narrative كسائر المرويات التي يؤلفها الإنسان عبر الأزمان(١).

ويتكئ كل مُنظري العلم الطبيعي علىٰ النجاحات المحلية Parochial التي حققها العلم في نطاق وجودي محدود limited ontological sphere، مما يجعل من اعتقادهم بموضوعية العلم مجرد دوغما واهمة، من أجل ذلك نادىٰ جورج كونغليم Georges Canguilhem فيلسوف البيولوجيا الفرنسي إلىٰ ضرورة إدخال مفردة" **أيديولوجيا العلم**" إلىٰ معاجمنا(٢).

---

(1) Lakoff, G. & Johnson, M.(1999) Philosoohy in the Flesh, p.467.

(2) Lakoff, G. & Johnson, M.(1999) Philosoohy in the Flesh, p.44.

الخاتمة

فالعلم لا يُغطي إلا جانب ضيق جدًّا من حقل المعرفة، وهو ليس موضوعي وإنما ذاتي يخضع للرؤية البشرية وتحلله القدرة البشرية، فعلىٰ العلم أن يُنشئ ممارسته الخاصة وطريقة تواصله الخاصة ومجتمعه الخاص وجماعته الخاصة، لا أن يحتكر جميع الأوضاع المعرفية، ثم يدعي الموضوعية، وبل ويصِم غيره بالحدسية الغير منضبطه والغير معرفية! لذا فمطلب الألفية الثالثة هو عزل العلم عن الدولة.

فالخبرة العلمية قاصرة بقصور الإنسان وعاجزة عن استكناه ذاتها قبل غيرها، وغايتها الرصد وليس اختراق المرصود أو الحلول فيه لتبينه، لذا فمحاولة إصدار أحكام شمولية universalist- absolutist هو تصرف لا مبرر له، فمِن أين للإنسان البرهان الضروري علىٰ أن خبرته هي الأساس في فهم الأشياء؟

لذا يعبر القرآن الكريم علىٰ هذا الشعور الوهمي بقدرة الخبرة البشرية علىٰ إعطاء أحكام مطلقة يعبر عنه بلفظ السلطان authority ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ ﴾[1]، فهذا التخويل المقترن بذلك السلطان يُمنح من سلطان يتجاوزنا، وليس شيئًا نمتلكه، ﴿ أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ

(١) سورة غافر: الآية (٣٥).

يُشۡرِكُونَ ﴾[١]، فمجموع قيم هذا العالم لا تجد معناها إلا خارج هذا العالم لا داخله، لأنها في ذواتها أشياء اتفاقية -غير مقصودة-، والاتفاقي لا يبرر ذاته بذاته[٢].

إذن اتفقنا علىٰ أن أحد أُسس الإلحاد الغربي تقوم علىٰ أن العقلانية لا ينتجها إلا العلم، وهذه كما قرّرنا مصادرة أو شطب علىٰ الأنماط الممكنة للعقل التي لا تنزل علىٰ شروط العقل الغربي، ولا تنزل علىٰ طرائقه ومنهجيته، بل إن مدارس ما بعد الحداثة التي نشأت في الغرب خاصةً بعد ظهور فلسفة اللايقين بشقها العلمي- مبدأ عدم اليقين لهايزنبرج-، ساهمت في الاعتراف بقصور قدرات العلم علىٰ معرفة الأسئلة الكلية والأكثر شغلاً للذهن البشري، ولعل هذا يفسر اتجاه فيزيائيين كبار أمثال ديفيد بومDavid Bohm -رفيق اينشتاين-، وفلاسفة كبار أمثال كن والبر، وملاحدة كبار أمثال سام هاريس؛ نحو فلسفات شرقية للبحث عن أجوبة.

بل إن واقع البنية المعرفية للعلم الطبيعي أثبت أن لها قدرة ذاتية فائقة علىٰ تغريب الإنسان، وبؤسه العقلي، وإبعاده عن يقينيات العالم الموضوعي، فظهر السجن الحديدي عن زيميل والقفص الحديدي عند ماكس فيبر والإنسان ذو البُعد الواحد عند ماركوز، وتم تفكيك الإنسان وظهرت فلسفات الاغتراب والعدمية والعبثية.

(١) سورة الروم: الآية (٣٥).

(٢) هذا المقال الهام والرائع من وحي كتاب ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان، لدكتورنا الحبيب عبد الله بن سعيد الشهري -حفظه الله-، مركز نماء للبحوث والدراسات، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٤ بكثير من التصرف.

ولذا لما سأل دير شبيغل هايدغر عما إذا كان في مقدرة الانسان الوصول للأفضل والأكمل عبر مساعيه وأبحاثه قال:" الله فقط يمكن أن ينقذنا"[١].

فكل ما حققه العلم الطبيعي هو في الخارج المادي الجاف البارد، في حين يُبدي عجز تام وصمت مُطبق إزاء حاجات النفس وسؤالات الذات، بل إنه يُلحق الضرر بطريقة غير مقصودة بالنفس حين يقوم بتحليلها أو محاولة الاقتراب منها.

ولذا لم يكن غريبًا أن يُطلق شرودينغر أبو ميكانيك الكم تصريحه العجيب؛ حين اعتبر أن العلم التجريبي عندما يتحدث عن القيمة الأخلاقية أو القيمة الجمالية فهو أراجوز، نستمع له لنضحك لا لنأخذ كلامه علىٰ محمل الجد.![٢].

ومع كل هذا يظل نفس العناد متأصل عند المؤمنين بسلطان العلم الطبيعي، فعندهم الدليل الظني العلمي مهما ضعفت دلالته مُقدم علىٰ الدليل القطعي الديني حتىٰ لو كان قطعي الثبوت والدلالة، وهذا تجرؤ آخر علىٰ وظيفة عقلية وبديهية آخرىٰ تؤمِّن مسلكًا صحيحًا لتلقي العلم الضروري .

وما لا يعرفه الملحد أن مسالك العقل التي رضيت بالدليل الحسي التجريبي، هي نفسها التي رضيت بطرائقية ومنهجية النقل الديني، فمصدر المعرفة في العلم التجريبي الوضعي هو العمل العقلي في مُدخلات الحس والمشاهدة والتجريب، وفي واقع الأمر رفض الملحد للمنهجية الدينية وتشكيكه في النص الديني في حال ثبوته بأدلة وثوقية عالية –درجات الإسناد في

---

(1) Only God Can Save Us, Heidegger, The Man and The Thinker, p.45.

(٢) شرودنغر في كتابه الطبيعة والإغريق nature and the greeks.

نقل الخبر النبوي مثالاً- فإن الملحد في هذه الحال معاند لا أكثر، لأنه يقبل النص التاريخي ذو الدرجات الوثوقية الأدنىٰ بكثير من النص الديني مادام مصدر النص التاريخي خارج التأريخ الديني ولا يدعمه، وهذا تعنت غير مقبول، ومحض تحكم. بل إن الملحد يقبل النص التاريخي بنفس درجات الإستقراء وأدوات الثبوتية التي يقوم عليها المحدثون –نقلة الحديث الشريف- في حال مناقشته لشبهة من شبهات الدين، في المقابل يرفض نصوصًا أعلىٰ وثوقية تُثبت المعجزة، إنه كما قلنا تحكم لا أكثر.

نعود مرةً أخرىٰ لحدود العلم الطبيعي، لنقرر أن العلم التجريبي الرصدي غايته الأساسية: تحليل الظواهر بغية تفسيرها، وإلا فهو لن يعطي معنىٰ ولا تحليل للقيمة ولا الحس الجمالي ولا الحس الأخلاقي، يقول الملحد الداروينى المتعصب ريتشارد داوكينز " أنا ضد الداروينية ولا أُطيقها حين يتعلق الأمر بحياتنا"[١].

وللإنسان أن يتسائل: إذا كنّا أبناء الطبيعة الخُلَّص فكيف نتمرد علىٰ الطبيعة التي نشأنا منها، ولا نقبل بقوانينها؟

في واقع الأمر وفي التحليل الأخير: يبقىٰ للعلم الطبيعي حدوده التي لا يتجاوزها، ويبقىٰ للإنسان مجاله الرحب الذي يمارس فيه قيمه ومبادئه ولا ينتظر الإنسان من العلم أن يعطي رأيًا في إنسانيته من حيث هو إنسان.

إذن العلم ذاتي نسبوي مهما تجشم المتجشمون، وله حدوده مهما غرق الحالمون في التوقعات.

---

(١) اللقاء الذي أجرته قناة الجزيرة انجليزي مع ريتشارد داوكينز دقيقة ٤٢.

لكن لماذا لا نكون أكثر انفتاحًا وأملاً ونتتظر من العلم في العصور القادمة ما لم يُتحه لنا في عصرنا؟

في الحقيقة جائت نتائج ميكانيك الكم لتحول هذا الحلم إلىٰ هشيم تذروه الرياح .

ففي عام ١٩٢٧ وضع عالِم الفيزياء الألماني [فيرنر هايزنبرج] Werner Heisenberg مبدأ عدم اليقين أو مبدأ الريبة uncertainty principle، وهو مبدأ فيزيائي من المبادئ التي تحكم الكون، ويُعَدُّ أحد أهم أُسس الفيزياء الحديثة.

يَنُص مبدأ عدم اليقين علىٰ أنه: "يستحيل تحديد موقع وسُرعة الإلكترون electron في وقتٍ واحد " فنحن ممنوعون من معرفة موقع وسُرعة الجسيم في آنٍ واحد، وليس لنا أنْ نختار إلا نِصف الحقيقة، إما السُرعة أو الموقع، أما الحقيقة الكاملة فنحن ممنوعون من معرفتها.

يُعَدُّ مبدأ عدم اليقين قانونـًا صارمـًا من قوانين الطبيعة، ولا يرتبط بأي شكل من الأشكال ببعض القصور الموجود في أجهزتنا، أو بقدراتنا علىٰ الرصد، بل هو قانون كوني، وطِبقـًا للقانون لا يمكن تحديد خاصيتين مُقاسَتين من خواص جملة كمومية quanta، إلا ضِمن حدود مُعينة من الدِقة، أي أن تحديد أحد الخاصيّتين يستتبع عدم تأكد كبير في قياس الخاصية الأخرىٰ، وبالتالي هو مبدأ يُعلِّمنا أنه ليس في وسع الإنسان إلا المعرفة الجُزئية، أما المعرفة الكُلية فهذه حكمة لم يُسمح لنا أن نَطَّلِع عليها.

ولذا فهذا المبدأ من أعظم المبادئ أثراً في تاريخ العلم الحديث، حيث إنه يضع حدًّا لقُدرة الإنسان علىٰ قياس الأشياء، وكان لهذا المبدأ تأثيرٌ فلسفيٌّ

عميقُ الأثر علىٰ العقل العِلمي، يقول الفيزيائي النمساوي [شرودينجر] Schrödinger "لقد تم الحصول علىٰ صورة معتدلة لهذا العالم، بتكاليف باهظة، ولم يحدث هذا إلا بعد أن انتزعنا أنفسنا خارج الصورة، وتراجعنا إلىٰ موقع المراقبين الذين لا مصلحة لهم".

وبالتالي فالفيزياء التجريبية أكَّدت لنا أنه بالتجربة توجد حُدود مُحرَّمة علىٰ العلم، كما أثبتت الرياضيات نفسَ الأمر فيما يُعرف بمبرهنة جودل Gödel Incompleteness Theorem، وتنُص مبرهنة جودل علىٰ أنه: "ما من نظام رياضي متناسق إلا ويحوىٰ عبارة رياضية واحدة علىٰ الأقل صحيحة، ولكن لا يمكن برهنة صِحتها بدءاً من مُسلمات النظام الرياضي".

وعلىٰ هذا، فحَسَب مُبرهنة جودل، لا يوجد نظامٌ رياضي كامل إذا كان متناسقًا، وقد أربكت مبرهنة جودل مَن يجعلون الحقيقة حِكرًا علىٰ ما يُقاس في المعمل أو ما يُستنتج رياضيًّا، فالتجريد الرياضي مع أنه أكثر العلوم البشرية إتقانًا ونظامًا، لم يَعُدْ نظاما مُغلقا، ولم يبق في الإمكان البرهنة عليه من داخله.

إذن العلم لا يقبل أن يكون الحَكمَ الأخيرَ علىٰ القضية الكُلية في الوجود؛ لأنه بذلك يكون مثل لابس ثوبي زور، وكالمُتلبس بما لم يُعط، والذي يَطلُب من العلم أن يُجيب عن الأسئلة الكُلية في الوجود، يكون قد قرَّر مُسبقًا أن يقف في صدام مع العقل والعلم معًا.

إذن غاية ما نصبو إليه هو مجرد معرفة نصف حقيقة ما حولنا – طبقًا لقيود مبدأ عدم اليقين الذي يحرمنا من نصف الحقيقة الآخر- وليس حقيقتنا نحن، ثم إن هذا النصف مُدنس بالذاتية والنسبية.

ولم تمر علىٰ الجنس البشري إلا عقود قليلة بعد صدمة مبدأ عدم اليقين، حتىٰ ظهرت في ستينيات القرن الماضي نظرية جديدة، تدمر كل ما بقي لنا من أمل في تحصيل معرفة موضوعية متكاملة عن هذا النصف من العالم الخارجي، إنها نظرية تأثير الفراشة.

تأثير الفراشة

Butterfly Effect

إنها نظرية لا تُشبه أية نظرية أُخرىٰ قرأتَ عنها، إنها الصيغة المدهشة لكوننا والضربة الأقوىٰ للقائلين بالحتمية، إنها تأثير الفراشة أو نظرية الفوضي أو الشواش أو الكايوس Chaos.

ونظرية تأثير الفراشة تعني أن رفة جناح فراشة فوق أحد سهول سيبريا قد تؤدي إلىٰ أعاصير مدمرة بأمريكا؛ فتغيرات أولية طفيفة تقلب النتائج رأسًا علىٰ عقب[١].

قد يبدو الأمر مبالغًا فيه، ولكنَّه منطقي وعلمي فأحداث صغيرة من شأنها أنْ تنتج كوارثَ كبيرةً غير متوقعة.

تبدأ نظرية تأثير الفراشة من الحدود التي يتوقف عندها العلم التقليدي ويعجز، فمنذ شرع العلم في حل ألغاز الكون، عانىٰ دومًا من اللامُتوقع والمفاجآت التي تقلب الطاولة، وفي سبعينيات القرن الماضي تألفت كوكبة من علماء الفيزياء والرياضيات والأحياء والكيمياء ووضعت نصب أعينها تحليل مُعطيات نظرية تأثير الفراشة وكانت النتيجة أن اللامتوقع هو مبدأ كوني، وأصبحت نظرية الكايوس هي الثورة العلمية الثالثة الكبرىٰ في القرن العشرين- بعد ثورتي النظرية النسبية والنظرية الكمومية (Quantum Mechanics)[١].

---

(١)http://en.wikipedia.org/wiki/Butterfly_effect.

(١) نظرية الفوضىٰ ... علم اللامتوقع، جايمس غليك James Gleick، ترجمة: أحمد مغربي، دار الساقي لبنان ص١٩.

ومنذ بدايات القرن العشرين لاحظ فيزيائيو الكوانتم Quantum Mechanics أن فهم قوانين الطبيعة عبر فيزياء الجسيمات، لا يحمل الإجابة الكاملة لتصرفات تلك الجسيمات، وتجلت ضرورة ظهور علم جديد لسدة الثغرة بين الحسابات والنتائج، فكان الكايوس Chaos، الذي راج أولاً في أوساط خبراء الطقس عبر جملة" أثر جناح الفراشة".

وكان عالم المناخ إدوارد لورينز Edward Lorenz من أوائل الذين اشتغلوا علىٰ هذه النظرية بدءًا من عام ١٩٦٢عبر استنتاجاته لأحوال الطقس التي تحمل نكهة اللاتوقع باستمرار بما تعجز عن ضبطه لغة الإحصاءات والحسابات، وكان لورينز يظن في البداية أن كل شيء حوله يدور بحتمية نيوتينية The inevitability of Newton - الحتمية النيوتينية هي ذلك التصور الكوني الذي يقتضي أنه يكفي فهم القوانين لكي تستوعب العالم، فالعالم طبقًا لهذا المفهوم هو عالم يسير علىٰ طريق محتم ومرسوم بدقة وهو ما يُسمىٰ أيضًا بحتمية لابلاس The inevitability of Laplace-، وبدا أن هذا التصور الحتمي للوجود مجرد وهم لا أكثر، وباتت فكرة الحتمية في وضع المنهار، فطبقًا للنظرية الجديدة فإن ثورة بركان في نجم بأحد المجرات، يمكن أن يؤثر علىٰ حسابات حركة كرة البلياردو في أحد صالات اللعب، هكذا أصبحت الدقة التقريبية التي يقوم عليها العلم الحديث في جميع حساباته يمكن أن تنهار في أي لحظة.

إن سقوط ورقة شجر يُفترض ألا يؤدي إلىٰ عواصف وأعاصير في دولة أُخرىٰ، لكن التجربة مع نظام المعادلات في كمبيوتر الطقس الذي اخترعه إدوارد لورينز أثبتت أن سقوط ورقة الشجر يمكن أن تؤدي إلىٰ نتائج كارثية، وأحس لورنز بفرحة عارمة لهذه المعطيات لأن شيئًا ما خرج عن التفكير

النمطي وفلسفته وهذا يعني ميلاد نظرية جديدة، وبالفعل كانت هذه النظرية هي الفوضىٰ أو الشواش[١].

إن أقل متغير أولي كان يضيفه لورينز علىٰ برنامج الطقس في حاسوبه، يؤدي إلىٰ فيضانات في الصحراء وأعاصير في قلب عواصم العالم، وهكذا أدرك لورنز أن العلم أمام ثورة جديدة.

وفي الواقع فإن حسابات هنري بوانكريه Henri Poincaré آخر عمالقة علم الرياضيات ممن يستطيعون صوغ خيال هندسي عن قوانين الحركة في الفيزياء تنبأت بظهور نظرية الفوضىٰ حيث تضمنت كتاباته إشارات كثيرة إلىٰ استحالة التنبؤ علىٰ المدىٰ الطويل بالنسبة لنظم تغيرات المعطيات الأولية[٢].

إذ لم يعد مُمكنًا حساب كل شيء بالورقة والقلم فمع أقل متغير يمكن أن ينهار كل شيء.

تَعبر نظرية الفوضىٰ الإختصاصات العلمية وصولاً إلىٰ تحليل الظواهر الإجتماعية نفسها، فلا تقتصر علىٰ التأثير المادي المجرد علىٰ الظواهر الطبيعية أو الكونية بل تمتد للحياة العادية للإنسان، ويمكن تقصىٰ فكرة تأثير الفراشة من أغنية شعبية أمريكية تقول:

بسبب مسمار سقطت حدوة الحصان.

وبسبب الحدوة تعثر الحصان.

وبسبب الحصان فُقد الفارس.

---

(١) المصدر السابق ص٣٢.

(٢) http://home.earthlink.net/~srrobin/chaos.html.

وبسبب الفارس خسرنا المعركة.

وبسبب المعركة سقطت المملكة.

فالاعتماد الحساس علىٰ الأوضاع الأولية يقلب كل شيء بعد ذلك، ويمكن تقريب المسألة علىٰ واقعنا الاجتماعي كالتالي:

محمد البوعزيزي يقوم بإحراق نفسه في تونس- مثال علىٰ رفة جناح الفراشة-، بعدها ثورات تكتسح البلاد العربية وسقوط آلاف القتلىٰ والجرحىٰ- مثال علىٰ إعصار في منطقة آخرىٰ من العالم-.

مقتل ولي عهد النمسا في سراييفو، بعدها بشهور قيام الحرب العالمية الأولىٰ ومقتل٢٪ من سكان العالم.

مشكلة في فرامل أحدث موديلات المرسيدس، بعدها بشهور انهيار الاقتصاد العالمي وتشريد عشرات الملايين.

فلم يعد تأثير الفراشة قاصرًا علىٰ الحقل العلمي بل تجاوز ذلك إلىٰ تحليل الكثير من الظواهر الاجتماعية والسياسية، وأضحت النظرية أحد أكبر قضايا العلم الحديث وكُتبت فيها آلاف الكتب، وتُعيد الآن صياغة رؤيتنا للوجود بأسره.

قد يظن البعض أن تأثير الفراشة هو مجرد تغيرات أولية في المعطيات تؤدي إلىٰ تغير في النتائج، وهذا تصور سطحي في فهم النظرية لأن تلك الصياغة معروفة منذ زمن نيوتن Isaac Newton فيما يعرف بالمدار الثالث متعذر

التنبؤ[١]، لكن نظرية تأثير الفراشة يمكن تمثيلها بكرة متدحرجة علىٰ جبل، والتغيرات الأولية هي ما يحدث أثناء التدحرج حيث تكون متعذرة التنبؤ بالنتائج، وحين تصل إلىٰ قمة الجبل وتتدحرج من الناحية المقابلة حينها تنقلب كل المعطيات وكل النتائج المتوقعة ويصبح التوقع مستحيلاً، هذا هو تأثير الفراشة المقصود؛ فالشواش متعلق بوصول الكرة إلىٰ قمة الجبل والتي يمكن أن تصل لها في أي لحظة حيث التغير المفاجيء في مسار الكرة في اتجاه آخر تمامًا، وهنا تنهار كل المعطيات العلمية ونعود للصفر توقع .

فعلميًّا التنبؤ بالمتغير الأولي قبل وقوعه بعيد sensitive dependency on initial condition ورصده بعد الوقوع صعب، وفي حال الرصد من المستحيل التنبؤ بالنتائج المترتبة علىٰ هذا المتغير، هذا هو الشواش، فالقضية لم تعد رصدية ولم يعد الكون نيوتينيًا[٢].

إذن نظرية الفوضىٰ ليست فجوة معرفية أو قصور علمي كما قد يتبادر إلىٰ الذهن، وإنما هي أصل أصيل من معطيات عالمنا وطبيعته؛ فمعرفة النتائج بحتمية، اليقين المعرفي، التسليم للمعطيات، الرصد الكلي؛ كل هذه الأمور أصبحت أوهامًا وعاد الإنسان إلىٰ شاطيء البحر يلعب مرةً أخرىٰ علىٰ الرمال ويرسم ويحلم فلم يعد يملك غير ذلك!

---

(١)http://en.wikipedia.org/wiki/Newton27٪s_theorem_of_revolving_orbits.

(٢)http://www.princeton.edu/~achaney/tmve/wiki100k/docs/Butterfly_effect.html.

ولذا قال رب الفراش ورب العالمين: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾[1]، فسقوط ورقة شجر قد يُسقط مملكة ويُنهي حضارة؛ فلابد من ضبط كلي خارجي وإلا لانهار كل شيء قبل أن يبدأ، فالمدبر والفاعل الأوحد والمهيمن علىٰ كل شيء وعلىٰ كل التوقعات هو الله، وقرارك الذي تتخذه يُغير كل شيء في الوجود، وهكذا يُعاد تشكيل المصائر والنتائج وكل شيء حولك في كل لحظة طبقًا لقرار أنت تتخذه أو قيمة تُقدمها لهذا العالم أو خطأ ترتكبه، والله وحده هو المهيمن وهو ضابط الكل وهو القيوم علىٰ السماوات والأرض وهو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا لأن زوالهما احتمال شواشي كاوسي قائم في كل لحظة.

ومعصية واحدة تُغير كل شيء حولك وتُغير صورة الوجود بأكمله، ومن الرائعَ حقًّا أن نستشعر هنا أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

وهكذا أصبح الإنسان ممزق في عالم لن يصبو فيه إلىٰ الحقيقة يومًا ما، وعاد الإنسان إلىٰ الإنسان يستكشف داخل كنهه حقيقته الكلية، ويستسلم لمجالات العقل الرحبة التي تقبل بالحس الأخلاقي والحس الجمالي والحس الفطري والحس الوجداني والحس القيمي والحس الديني، وتقبل بالتسليم لمعطيات المعنىٰ والقيمة والدين طالما جاءت بطرق عقلية سليمة، وهكذا يعود الإنسان إنسانًا مرةً أخرىٰ كما بدأ رحلة صراعه الأولىٰ مع طموحه البروميثيوسي وتطلعه لتحديد قدَره بيده هو لا بيد خالقه.

---

(١) سورة الأنعام: الآية (٥٩).

إن هذه الملحمة الكبرىٰ تُذكرنا بالقصة القديمة لذلك الرحالة الذي رأىٰ رؤيا أنه سيجد كنزًا عظيمًا يومًا ما تحت الأرض، وظل الرجل يجوب البلاد ويقطع الوديان ويخرق الفجاج باحثًا عن كنزه، وبعد أن مضت السنوات عابثًا في سعيه وبعد أن أرهقته الأيام عاد إلىٰ بيته منكسرًا مهمومًا حزينًا يصارع العبثية والشؤم والحسرة، والضياع واللامعنىٰ واللاغاية، وبينما هو كذلك إذ سقط القدح من يده علىٰ الأرض فأحدث رنَّة عظيمة، فحفر بيده ليجد كنوزًا من ذهب لا أول لها في قعر بيته، إن كنز الإنسان يوجد داخل ذاته، وخارج ذاته في العالم المادي لن يجد إلا ما هو مادي، لن يجد إلا غذاء جسده، أما غذاء روحه فليس من هذا العالم، ولن يصبح الإنسان إنسانًا ولن يؤسس لقيمته ومبادئه وأخلاقياته إلا في ظلال القيمة والمعنىٰ والتي لا تمت إلىٰ هذا العالم بصلةٍ، إننا لو كنّا أبناء هذا العالم الخُلص، لما شعرنا بالمعاناة ولا الاغتراب ولا كان لهذه الكلمات معنًىٰ، إننا لو كنّا أبناء هذا العالم لما بدا فيه شيء نجس أو طاهر، إن وجودنا يستمد معناه من عالم آخر، إننا دخلنا هذا العالم برأس مال قيمي معرفي أخلاقي مبدئي هائل، وليس في هذا العالم ما يحلل شيئًا من ذلك، ولا يبرر شيئًا من ذلك، إننا أبناء عالم آخر نقتبس منه المعنىٰ والقيمة والهدف والغاية، ونرد إليه مطلقاتنا التي نؤمن بها ولا نجد لها صدًىٰ في عالمنا الخارجي، إن الصراع الأزلي بين الضمير والمصلحة، هذا الصراع لا يوجد في هذا العالم المادي ما يبرره، فلا يعرف العالم المادي الخارجي سوىٰ المصلحة، أما الضمير فهو خاصية محايثة للإنسان، كما أن القيمة خاصية حصرية للروح، إن معنىٰ الإنسان الحقيقي لا وجود له في هذا العالم، ولا معنىٰ له إلا بمقدمة سماوية؛ هذا هو التنظير الأخير لظاهرة وجودنا، إن الإحالة إلىٰ الما وراء هي مصدر اقتباس وتحليل وتعريف وتفسير الوجود الإنساني كله.

الباب الثاني

ظهور الإلحاد

كيفية ظهور الإلحاد

كيف ظهر الإلحاد، ومتى ظهر؟

لا يوجد تاريخ محدد يمكن من خلاله إثبات بداية زمنية للإلحاد، فهو ظاهرة طفيلية عبر الزمان لا توجد لها جذور حتىٰ عند السوفسطائيين اليونانيين القُدامىٰ، وحتىٰ [أبيقور] مؤسس مذهب المُتعة ومؤسس المدرسة الأبيقورية المُنحلة عاش عيشة متقشفة، وكان رواقيًّا ساميًا في أخلاقه، عاش ومات علىٰ مذهب أهل الأديان في تبني الأخلاق، وترَك الانغماس في الملذات واتخذ زوجة ومزرعة وعاش بما تُدره عليه دروس العلم التي كان يُلقيها لتلامذته، وفولتير أول المُلحدين والأب الروحي للإلحاد –كما يُسميه ول ديورانت صاحب قصة الحضارة مع أن لم يكن ملحدًا بالمعنىٰ المعاصر وإنما كان ربوبيًّا- كان يشرح فلسفته الإلحادية لزملائه، وفي نفس الوقت كان يشرح الأخلاق في إطار الدين لخدامه ويخشىٰ علىٰ خدامه من الإلحاد، وكان يدفعهم إلىٰ الإيمان بالأخلاق في إطار ديني، وكان يقول كلمته الشهيرة:" لو لم يكن هناك إله لخانتني زوجتي وسرقني خادمي" ، بل قام فولتير الملحد في أواخر حياته ببناء كنيسة بالقرب من قصره نقش علىٰ مدخلها "يا رب اذكر عبدك فولتير"، وادعىٰ أنها الكنيسة الوحيدة المخصصة لله وحده علىٰ هذه الأرض، أما الكنائس الأخرىٰ فهي مخصصة للقديسين وكان يرسل خدمه إلىٰ الكنيسة بانتظام ويدفع أجور تعليم أبنائهم قواعد الديانة[1].

---

(١) قصة الحضارة ول ديورانت المجلد ٣٨ صفحة ٢١٤.

فالإلحاد كفلسفة مُستقلة لا توجد له جذورعبر كل التاريخ ولذا يقول المؤرخ الإغريقي [بلوتارك]: "لقد وجدت في التاريخ مدن بلا حصون، ومدن بلا قصور، ومدن بلا مدارس، ولكن لم توجد أبداً مدن بلا معابد".

ويقول[ول ديورانت]في كتابه "قصة الحضارة": "ولا يزال الاعتقاد القديم بأن الدين ظاهرة تعم البشر جميعًا اعتقادًا سليمًا، وهذه في رأي الفيلسوف حقيقة من الحقائق التاريخية والنفسية"(١).

أما في بلادنا الإسلامية فلم يوجد ملحد واحد في تاريخ الإسلام كله، أما ما يُروىٰ عن ابن الراوندي وابن المقفع وابن سينا وأبو حيان التوحيدي وغيرهم فعلىٰ قلتهم الشديدة لم يكونوا ملحدين الإلحاد الاصطلاحي المعاصر، وإنما كانوا أتباع فلسفات باطنية كما أوضحنا فيما سبق.

وفي عصرنا الحديث يصعب بشدة ضبط تاريخ محدد لظهور الإلحاد المُعاصر، لكن أغلب المؤرخين الغربيين يؤرخون لبداية الإلحاد في أعقاب هدم سجن الباستيل سنة ١٧٨٩م مع بداية الثورة الفرنسية، ولم يظهر الإلحاد فعليًّا علىٰ الساحة العالمية إلا بوصول البلاشفة للحكم في روسيا في أعقاب ثورة ١٩١٧ م، وقد حارب البلاشفة الدين حربًا شعواء، وتبعًا لمجلة التايم في عددها الصادر يوم ١-١-١٩٥٦ فإن: "عدد الكنائس تقلص في الاتحاد السوفيتي من ٤٦ ألف كنيسة سنة ١٩١٧ إلىٰ ٤ آلاف كنيسة سنة١٩٥٦"، إلا أن البلاشفة الشيوعيين لم يكن إلحادهم إلحادًا علميًّا أو فلسفيًّا أو فكريًّا بقدر ما كان إلحادًا سياسيًّا، فالدين من منظور ماركسي هو أحد البنىٰ الفوقية بما في ذلك الفِكر

---

(١) قصة الحضارة م١ ص ٩٩.

والاجتماع والسياسة والتقاليد والقيم، بينما الاقتصاد هو البنية التحتية الوحيدة للمجتمع الماركسي، وكل البنىٰ الفوقية هي انعكاس لهذا البناء التحتي، ولا توجد بنية فوقية واحدة مُستقلة، وهذا يعني أن الدين عامل عارض يتم إزالته في مرحلة لاحقة حتىٰ ينفرد العامل الاقتصادي بإدارة الأمة الماركسية، ولذا فأغلب إحصاءات أعداد الملحدين حول العالم هي إحصاءات مزيفة وغير دقيقة بالمرة؛ لأن أي دولة تُعلن الحُكم الاشتراكي يتم تحويل عدد سكانها في جداول البيانات من خانة الدين إلىٰ خانة الإلحاد، وهذا ما ذهب إليه [صامويل هنتنجتون] في كتابه صدام الحضارات إذ يقول في ص١٠٨" يُشكل الصينيون حوالي ٩٢٪ من الملحدين حول العالم فمع مجيء الشيوعية إلىٰ الصين تم تحويل كل أصحاب الديانات الأرضية إلىٰ لادينيين، في كل الدراسات الإحصائية لأصحاب الأديان في العالم ". وهذا تحويل قسري غير موضوعي بالمرة.

الشاهد أن إلحاد هذه الأمم هو إلحاد سياسي لا أكثر

ولذا يرىٰ المؤرخون أن الإلحاد انتهىٰ بصورته المؤسسية من العالم مع انهيار الإتحاد السوفيتي سنة ١٩٨٩ م، فالفترة بين عامي ١٧٨٩ م و١٩٨٩ م يمكن اعتبارها العصر الذهبي للإلحاد The Twilight of Atheism ،إذن الإلحاد في الأصل فلسفة طفيلية بلا جذور أغلب أبعاده سياسية مجردة، ولذا فالملحدون إلىٰ الآن يتم تصنيفهم في أمريكا علىٰ أنهم أكثر الطوائف تعرضًا للاضطهاد، وبحسب بحث استقصائي علىٰ مدار عامين قامت به جامعة

مانيسوتا الأمريكية فإن الملحدين هم الأكثر اضطهادًا في أمريكا، ويفوقون في ذلك الشواذ جنسيا والمسلمين المتطرفين(١).

وأمريكا أقوىٰ دولة علمية في العالم ما زالت تصنف الملاحدة علىٰ أنهم غير مقبولين في المجتمع الأمريكي، وكان هذا واضحًا جدًّا في الكلمة التي قالها [جورج بوش] الأب حين سألة صحفي أمريكي في عام ١٩٨٧ " هل يمكن اعتبار الملحد الأمريكي متساويا في الجنسية والمواطنة مع غيره من الأمريكان، وأصبح رد السيد بوش مشهورا حين قال: " لا أعرف إذا كان من الممكن اعتبار أن الملحدين مواطنون أو حتىٰ اعتبارهم محبين للوطن هذه أمة موحدة تحت راية الله ". Atheist cannot be considered as patriotic citizen.

وطبقًا للواشنطون بوست في بحث آخر مستقل:" فإنه علىٰ الرغم من حصول الشواذ جنسيًا علىٰ بعض الحقوق، ونالوا بعض الاحترام من المجتمع الأمريكي ما زال الملحدون الأمريكيون يمثلون أكثر فئات أمريكا احتقارًا وكراهية بسبب ما يبدونه من انعدام للأخلاق وعدم الثقة ورعونة في مبادئهم فإن المجتمع الأمريكي سريعًا ما يلفظهم، ويتردد كثيرًا الأمريكيون في إقامة علاقة مع ملحد أو مجرد تولي منصب وظيفي أو حتىٰ المشاركة في فرق الكشافة الشبابية خاصًة لما يبدونه من صفات عدم تحمل الأمانة في اختبارات التأهيل العسكري الذي تُجريه المؤسسات النفسية العسكرية بأمريكا "(٢).

---

(1) http://newsjunkiepost.com/2009/09/19/research-finds-that-atheists-are-most-hated-and-distrusted-minority.

(2) http://www.washingtonpost.com/opinions/why -do- americans -still-dislike atheists /18/02/2011AFqgnwGF _story_1.html.

ولذا يرىٰ [جون لوك] مؤسس الدولة المدنية في رسالته في التسامح أن الملحد غير مقبول في المجتمع المدني يقول: " لا يمكن التسامح علىٰ الإطلاق مع الذين ينكرون وجود الله .. فالوعد والعهد والقسم من حيث هي روابط المجتمع البشري ليس لها قيمة بالنسبة الىٰ الملحد، فإنكار الله حتىٰ لو كان بالفكر فقط يفكك جميع الأشياء "(١).

فالإلحاد شذوذ فكري طارئ لا تقبله النفوس السوية ولا العقول السليمة.

عدائية الإلحاد الجديد

مما سبق يتضح أن الاستعداد الإدراكي العام والسجل الأحفوري المتطاول لبني الإنسان يؤكدان أن الإلحاد ظاهرة طارئة، ولا شيء يشفع للوجود الإلحادي بطابعه التكريزي- التبشيري- الذي نشهده اليوم عند دعاته.

إن الإلحاد الجديد أصبح يحمل هم التبشير بالدوغما الجديدة، وجدول دعاة الإلحاد الجديد مليء بالزيارات الدعوية التكريزية في كل مكان، وصار الإلحاد الجديد الدين الخفي الأحدث!

ومقولة أن الإلحاد دين متخفٍّ؛ أصبحت حقيقة واقعة كما يقرر الملحد التطوري ديفيد سلون David Sloan، فالإلحاد طبقًا له "يملك كل سمات الدين المتخفي، بما في ذلك حالة الاستقطاب التي تُشخص نظامه الاعتقادي، بالإضافة إلىٰ سلطة قادته المتعالية علىٰ النقد"(٢).

---

(١) جون لوك، رسالة في التسامح ص٥٧.

(2) Sloan, D. (2012) Atheism as a Stealth Religion; Hoff-post, Posted 12/14/07.

فالإلحاد لديه رسالة تتجاوز الاشتغال بالعلم فقط إلىٰ الاشتغال ببلورة رؤية تجاه الحياة وعلاقة الانسان بها.

ومع بداية الإلحاد علىٰ يد جاك هربرت وجاك كلود بيرنارد بعد الثورة الفرنسية شجع هؤلاء الهربرتيون- كما كانوا يُسمون- علىٰ تحويل كنائس فرنسا بعد تدنيسها والاعتداء العنيف علىٰ آبائها وتمزيق رموزها إلىٰ تحويلها لما كان يُعرف بمعابد العقل Temples of Reason، وقال توماس باين Thomas Paine في فترة لاحقة بعد أن كفر بالإله: "عقلي هو كنيستي".

فالإلحاد أصبح دين متكامل يقدم أجوبة كليشية جاهزة لكل الأسئلة.

بل إن الإلحاد الجديد تجاوز حاجز التكريز-التبشير- وأظهر عدائية صريحة أمام كل ما هو ديني، بل أمام دعاة الأديان أنفسهم، بل أمام كل المؤمنين علىٰ الإطلاق.

ويدعو الملحد الشهير سام هاريس - أكثر الملحدين حديثًا عن الأخلاق في كتاباته وأحد فرسان الإلحاد الأربعة كما يُسمىٰ في الغرب-، إلىٰ ضرب المسلمين بقنبلة نووية تستأصل شأفتهم إلىٰ الأبد، إذا تطلب الأمر ذلك[1].

ويدعي ملحد آخر -الصحفي الهالك كريستوفر هيتشنز- أن الدين يسمم كل شيء؛ مع أن أدنىٰ اعتبار للتاريخ يحوّل هذا الادعاء إلىٰ هشيم تذروه الرياح، بل إن ظهور النظام الرأسمالي الذي يفخر به دعاة الإلحاد الجدد كان علىٰ يد الحركة البروتستانتية الدينية.

---

(1) Harris, S. (2006) the End of Faith, the Free Press, P.129.

ولم يكن انحسار العصور المظلمة في أوربا إلا علىٰ يد الإسلام كما يقول بيتر أوبراين Peter O`Brien في مقال يحمل نفس الاسم[(١)].

وبينما كان القضاء الغربي يتوصل لأحكام الإدانة والبراءة للمتهمين من خلال تعريض المتهم لألوان من الإبتلاء الفظيع trial by ordial ، فإن اجتازها حكموا ببراءته وإن أخفق أدانوه. كان للمسلمين نظام قانوني فقهي منقطع النظير، ولذا يقرر مارسيل أ. بويسارد Marcel A. Boisard في دراسة مستقلة أن أصول القانون الدولي الحديث مستمدة بالأساس من دواوين الفقه الإسلامي،، وتشريع نابليون (Napoleonic Code) French civil code مُستمد من الفقه المالكي.

وخلق لا يُحصون عاشوا لله وبه وأسسوا لأعظم الحضارات والمثل، وجميع صناع البشرية كانوا من المؤمنين بالقدر.

بل إن الدين، بإجماع مَن يُعتد برأيه من علماء الأنثروبولوجيا اللاهوت والاجتماع والتاريخ وفلسفة العلم، أصل حضاري أساسي.

وفي واقع الأمر فإن الذي يُسمم كل شيء هو الإلحاد لا الدين، ووالدة كريستوفر هيتشنز ماتت منتحرة مع عشيقها، وأخاه مات منتحرًا بسبب بعدهم عن الدين، فالذي سمَّم كل شيء في حياة عائلة هيتشنز نفسه هو البُعد عن الدين – فسبحان الله–.

لكن رؤية دعاة الإلحاد الجديد هي رؤية دوغمائية حاقدة علىٰ كل دين غير محايدة علىٰ الإطلاق مع نفسها قبل أن تكون مع غيرها، يقول كلٌ من ويل

---

(١) نُشر في دورية The Medieval History رقم ٢ ص ٣٨٧.

وإريل ديورانت " حتىٰ المؤرخ المتشكك لديه احترام متواضع للدين، ذلك أنه يراه مؤديًا لوظيفته، وأنه لا غنىٰ عنه في كل أرضٍ وجيل"[١].

بل إن تشارلز داروين نفسه يقرر أن الدين قضية عقلية محترمة يتبعها عقلاء ومفكرين عبر كل العصور فيقول: "أما وجود حاكم للكون فهذا مما دانت به جموع من أعظم العقول التي وُجدت علىٰ الإطلاق"[٢].

فقد كان داروين أفضل حالاً بكثير من تلامذته، وقد اعتزم كما نقل التطوري ستيفن جاي جولد، الكف عن الخوض في الدين وأسئلة الغاية وقرر التفرغ للعلم الطبيعي فقط.

بينما نرىٰ دعاة الإلحاد الجديد أمثال داوكنز يتحدثون في كل شيء وينتقدون كل شيء، يقول الناقد البريطاني الكبير تيري إيغلتون Terry Eagleton:"ريتشارد داوكينز أحد علماء اللاهوت الإلحادي يسهب في الحديث عن علم البيولوجيا ومبلغه فيه لا يتجاوز ما ورد في (كتاب الطيور البريطانية)"[٣].

وفي مناظرة ريتشارد داوكنز الشهيرة مع ديباك شوبرا –المترجمة للعربية والموجودة علىٰ اليوتيوب–يتحدث عن كونه هو العلم والعلم هو .

---

(1) Will & Ariel Durant, The lesson of history p.43.

(2) Darwin, Charles (1902) The Descent of Man, p.131.

(3) Terry Eagleton, Lunging, Flailing, and Mispunching, (2006) Vol.28, No.20.

إنها عجرفة الإلحاد الجديد المعهودة، مع أن ديباك شوبرا أعلىٰ منه قدمًا علىٰ المستوىٰ الوظيفي.

فنحن أمام إفراز إلحادي متوقع طمعًا في الوصول بالانحلال إلىٰ محطته الأخيرة[١].

(١) بعض الفقرات من وحي كتاب ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان، د. عبد الله بن سعيد الشهري، مركز نماء للبحوث والدراسات، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٤.

تعريف الإلحاد

لكن ما هو تعريف الإلحاد؟

الإلحاد هو رؤية دينية متكاملة للحياة والكون والوجود.

لكن لماذا نقول: "**دينية**"؟ لأنه يرتكن في رؤيته للكون والوجود إلىٰ أدلة ميتافزيقية غير مدعومة بمنطق أو عقل أو حُجة أو سند علمي، فهو يزعم أن اللاشيء انضاف إلىٰ اللاشيء فصار شيئًا عظيمًا من أروع ما يكون وبمنتهىٰ المعايرة الدقيقة، وأن العشوائية أنتجت حياة، بينما العقل المادي في قمة جبروته الآن لا يستطيع أن يُنتج أبسط صور الحياة، وأن كل القيم الأخلاقية والتأصيلات القيمية التي نُسلم بصحتها والتي يسير أغلبها في اتجاه مضاد للمادة تمامًا هي من معطيات المادة ومنتوجاتها.

إن الإلحاد بمنتهىٰ الدقة هو اتجاه أعمىٰ يبحث في غرفة مظلمة عن قطة سوداء لا وجود لها، ظلمات بعضها فوق بعض.

إن القضية هي سفسطة أخطأت طريقها فأنتجت دينًا جديدًا يسمىٰ إلحاد، فالإلحاد هو محاولة فاشلة للوصول بطرق ملتوية إلىٰ أشياء لا داعي للوصول إليها، ولذا ظهر كهنة الإلحاد الجدد، ممن يبررون الشيء ونقيضه، وصار للإلحاد اليوم سماسرة مكرة وشمامسة أغبياء يكرزون به في كل مكان، وقمامصة يلوون عنق كل معطىٰ علمي جديد يتناقض مع رؤيتهم الدينية فظهرت مؤتمرات تثبيت العقيدة الإلحادية، وندوات الدفاع عن الداروينية، وتنطع آبائهم الكهنة إلىٰ بحث قضايا الوجود بغير وسيلة منهجية مناسبة له، فحاربوا قانونًا كونيًّا مثل قانون السببية بأدلة سفسطية حتىٰ تستقيم لهم دوغما الإلحاد، وحاربوا أدلة النظام والغائية والقصد والعناية، وتجاهلوا القضايا

العقلية الكبرىٰ مثل الإيجاد من اللازمان واللامكان، ودليل الحدوث، ومعجزة خلق الحياة، والنبوات والدين والفطرة والأخلاق، والمعايرة الدقيقة لحظة الخلق الأولىٰ لكل الموجودات، والمعايرة الدقيقة لحظة خلق الكون، والمعايرة الدقيقة في كل شيء حولنا وداخلنا ومعضلة الخير واستيعاب الخير والشعور بالامتنان وما لا يمكن حصره من الأدلة، وصار الإلحاد انتحار متواصل للعقل البشري، ويتطلب من أتباعه باستمرار إنكار بديهيات عقلية ومنطقية أقسىٰ من أشد الديانات إغراقًا في الوثنية.

وصارت القضية الإلحادية اليوم حُبلىٰ بالإشكاليات المعرفية والنظرية والمادية ومليئة بالتناقضات العقلية وصارت تُبرر المستحيل العقلي –إيجاد الزمان والمكان والعالم بمنتهىٰ المعايرة الدقيقة من اللازمان واللامكان، وإيجاد الحياة من اللاحياة– كل هذا من أجل تسويغ وجودها الدوغمائي.

هذا كان مجرد تعريف مختصر للإلحاد الجديد الذي نبت في الغرب، بدواعي سياسية حينًا كما حدث في الإتحاد السوفيتي السابق، وبدواعٍ انتقامية حينًا آخر كما حدث إبان الثورة الفرنسية، ولم يظهر إطلاقًا كمبرر عقلي مستقل لأية قضية علمية أو فكرية أو مُعطىٰ عقلي، وألحد علىٰ صيته الساذج هذا بعض الشباب؛ وأصبح الإلحاد اليوم أكلشيهًا جاهزًا لأي شاب يمر بأزمة نفسية أو مادية أو شبهة وقتية، وصار الإلحاد يولد باستمرار من رحم حُب الظهور والسخط علىٰ الوضع الإجتماعي أو السياسي أو المستوىٰ المادي أو العلمي للدول العربية، وصارت القضية نفسية في المقام الأول والأخير بحاجة إلىٰ حلول نفسية ومنطقية وإعادة تأهيل قبل كونها بحاجة إلىٰ حشد حجج أو أدلة أو سياقات معرفية عقلية.

فالإلحاد حالة إدراكية لم تتمتع بأي رسوخ نوعي في الوعي الجمعي الإنساني، فهي حالة تعاود الظهور كزعانف سمك القرش وسط بحر الدين الهادر-تعبير دكتورنا الشهري-؛ دعونا نستفتي الواقع فنسأل: لو كنّا حقًّا أبناء الطبيعة الخُلّص، وأحفاد الكون الشرعيين المنحدرين من صلبه، هل كان سيفتقر خيار الإلحاد إلىٰ مكابدة؟ وهل كنّا سنجد في طرد فكرة الإيمان أدنىٰ عناء؟

إن الإلحاد ظاهرة طفيلية وقتية، والسبب الرئيس في عدم رسوخه في الأرض ليس لخطأ أدلته فما أكثر الوثنيات الخاطئة، ولكن لعدم وجود أدلة أصلاً .

ولو كان الإلحاد ينفع الناس أو يملك أجوبة لمكث في الأرض، ولكنه يبدأ دائمًا وينتهي تحت بند الحقد علىٰ الدين أو ترك الدين لا أكثر ... من خلال لعبة عقلية تجري علىٰ مستوىٰ قشرة الدماغ الcortex وسفسطة إنكارية سالبة .

فالإلحاد لا يقدم أي حل لظاهرة الوجود الإنساني ولا يستوعب الظاهرة الإنسانية المعقدة.

فالإلحاد شذوذ فكري طارئ لا تقبله الأنفس ولا العقول، ولا يقدم تحليلاً للوجود الإنساني أو يبرر لأي معنىٰ إنساني، ولذا ظل الإلحاد وسيظل شذوذًا طارئًا بلا معنىٰ لا يستحق حشد أدلة ولا سرد بديهيات؛ لأن تبني الإلحاد في الأصل فكرة نفسية وليست عقلية.

وقد شقَّت العجرفة الغربية بطبيعتها الاستعمارية المتطلعة إلىٰ حيازة كل شيء شقت تلك العجفرة أخدودًا عظيما في ضمير العقل الغربي وما الالحاد الجديد إلا نتوء يسير داخل هذا الاخدود الهائل لكنه نتوء أعمق قليلاً

واكتشف الانسان في نهاية مشروعه الحضاري أنه يبني تابوتـًا لا صرحـًا، وكلما زاد ابتعادًا عن الدين تفاقمت أزمة الحضارة بشكل متسارع، بحسب ريتشارد هاينبرغ" الأُسس التي تقوم عليها حضارتنا فاسدة ومفسدة"[1].

لقد أفرزت تلك الصورة ذات انسانية سريعة التقلب وشديدة التفلت. لم يعد للمعنىٰ قرار ولا للقيمة مرتكز، في عالم كهذا يحط الالحاد رحاله ويستقر، فعندما تدرك أنك جئت صدفة وبلا غاية يصيبك الدوار والغضب الشديد وتتملكك الرغبة في تحطيم كل شيء حولك[2].

هذا هو التحليل الأقرب للظاهرة الإلحادية، وظاهرة انتشارها في أصقاع العالم!

---

(1) Heinberg, R. (2005) Memories and Visions of Paradise, p.196.

(٢) أساتذة اليأس: النزعة العدمية في الأدب الاوربي، تأيف: نانسي هيوستن، ترجمة: وليد السويركي، دار كلمة، ص ٤١.

هل بالفعل للإلحاد أسباب نفسية؟

هذا أمر بديهي، فالإلحاد فكرة متبلورة كأية فكرة أُخرىٰ يدخل في تشكيلها عوامل موضوعية وذاتية ونفسية لا حصر لها.

وهنا يمكن قدح زناد العقل لتحرير عدد لا نهائي من الأسباب النفسية للإلحاد، لكن الحقيقة التي لا ننازع فيها هي أسبقية الرؤية الإلحادية علىٰ معطيات العلم الخام حيث تُسلط الأولىٰ علىٰ الثانية، فظهر التوظيف المؤدلج للعلم علىٰ يد دعاة الإلحاد الجديد.

أيضًا يمكن قدح زناد العقل مرةً أُخرىٰ لتحرير حقيقة أن دعاة الإلحاد الجديد تنكروا لأصول إلحادهم في سبيل الدعوة إلىٰ الكهنوت الإلحادي فأدخلوا في الإلحاد مستنقع من المصطلحات الجديدة مثل: الإنسانية- الإرادة البشرية- الخير للجميع- المثالية- الفردوس الأرضي- السعادة الإنسانية-؛ وهذه كلها مصطلحات تسبح في حقول دلالية ومجالات تداولية منفلتة .

في علم إدارة المشاريع يحذر الخبراء مما يسمونه "مشكلة تفلت النطاق scope creep " فهذه مصطلحات منفلتة يكتنفها غموض شديد عند التحديق والتحقيق، حيث أنها تظل في حالة تماس مع مضامين ميتافيزيقية، ولطالما حذّر أرباب الإلحاد الجديد أنفسهم من إنشاء أي صلة بهذا العالم الميتافيزيقي.

فكلمة إنسانية هي كلمة ملوثة ميتافيزيقيًّا وهذا ينطبق علىٰ بقية المصطلحات - وفي مقالي بمجلة براهين العدد الثاني قمت بتفنيد هذه المصطلحات من منظور مادي في مقال "الهيومانية كبديل عن الدين"[(١)] .

---

(١) مقال الهيومانية بديلاً عن الدين، د: هيثم طلعت، مجلة براهين، العدد الثاني.

فواقع الأمر أن دعوىٰ الإلحاد ليست دعوىٰ للخير وليست دعوىٰ إنسانية وإنما هي مجرد نزعة الإنسان البروميثية وتحرير ذاته، تلك النزعة الموجوده منذ بدء الخليقة ولم تكن أول معصية وأكل الشجرة إلا تحرير لهذه النزعة، بل وكل معصية للمتكبرين في القرآن هي في هذا الباب، فقوم عاد اغتروا بقوتهم وقارون بعلمه وفرعون بثروته وبني إسرائيل ببقرتهم، فأصل الكفر والإلحاد هو محاربة الله لا الكفر بوجوده ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾[1].

و هذا الاستعداد يزداد كلما شعر الكافر أن بإمكانه تغيير مسار التاريخ، ظنًا منه أنه سيجعل من التاريخ شيئًا آخر غير الذي في علم الله.

إن الإلحاد هو مشروع فاوستي قديم، مشروع سوق التاريخ نحو تحرر الانسان كليًّا من كل إرادة تُكبل إرادته الأبولونية الديونيسية- إرادة القوة والخلود والسيطرة والعلم الكلي.

وبالتالي نعود إلىٰ تقرير حقيقة تقدم تأثير الإرادة علىٰ الدليل، فأصل الأمر أن الإلحاد مبني علىٰ اعتقد ثم استدل، وليس العكس.

فبنية الإلحاد معتمدة علىٰ نمط من التجانس الثقافي المسبق علىٰ المعطىٰ العلمي أو المعطىٰ المادي أو حتىٰ المعطىٰ الشبهاتي، وليس فساد الدين مرتكزًا للإلحاد -كما يحاول البعض الترويج لذلك[2].

---

(١) سورة الفرقان: الآية (٥٥).

(٢) للأسف يروج حتىٰ بعض الإعلاميين السذج لمقولة أن فساد الدين سبب في الإلحاد، مع أن الواقع العملي يؤكد خطأ تلك المسألة، فأغلب الملحدين هم من الطبقة المترفة التي لم تطلع أصلاً علىٰ الدين ولا تعرف عنه شيئًا.

ولذا فالإلحاد ليست مشكلته مع الجزء الفاسد من الدين وإنما مع الدين ككل، ومن نافلة القول أن فساد الدين مهما تضخم فهو مُستوعب داخل إطار ثقافي ومحتوىٰ مجتمعي يهضمه ويعيد ضبطه أو يلفظه ويتبرأ منه.

فالإلحاد طبقًا لهذا الإطار يظهر كأي منتج ثقافي وثني مستقل بناه الانسان عبر التاريخ.

وفي هذا الإطار نستطيع نحن المؤمنين تحليل فكرة تجاهل الإلحاد لكل الأسئلة الوجودية الكبرىٰ التي لا يملك في جعبته أجوبة عليها؛ يقول داوكينز مثلاً: أن الغاية من وجودنا مجرد سؤال تافه بلا قيمة، هذا هو إلحاد الشفافية الفجة، وقد وصل الإلحاد الآن لمرحلة يُستبعد أن تدوم طويلاً، إذ من شأن المشروع القادر علىٰ إلقاء جميع أوراقه في وقت وجيز ألا يدوم طويلاً، ثم مَن يملك حق التمييز بين الأسئلة الوجودية المشروعة والأسئلة التافهة؟ هل كون الإلحاد عاجز عن الإجابة يصبح السؤال تافهًا بلا معنىٰ؟

لكن يبقىٰ تحليل آخر عصي علىٰ الفهم وهو: كيف يتمرس الملحد علىٰ مقاومة شعوره للمعاني الجمالية والقيم المطلقة والأخلاق اللامادية، والسعي الحثيث نحو التوفيق بين الضمير والمصلحة في كل لحظة من حياته؟

كيف يستطيع الملحد ومِن أين له جرأة إخراس الأسئلة الوجودية الكبرىٰ الأهم والأعظم في حياته؟

إن الإلحاد ليس فطريًّا وإنما يقتضي تقدير وتفكير من جنس تقدير الوليد بن المغيرة ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾[1]، ويقتضي بحث عن الاستقلال النفسي ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ

(١) سورة المدثر: الآية (١٨).

﴿رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[1]، وهنا تخرج الفطرة عن طورها إلىٰ حالة صناعية بقدر ما يعتري المرء من تكلف ومعالجة، واستثناء للعامل العاطفي الوجداني من العقل وتجريده من أحد أهم خصائصه، وبعد ذلك إفساده بحالة صناعية تقديرية؛ ليخرج من كل هذا بفكرته الإلحادية.

وفي حقيقة الأمر فقرار الإلحاد نفعي مصلحي في المقام الأول، وهذا يعرفه من سبر الإلحاد وتعمق في أغوار نفس الملحد ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

بل وأصل الإلحاد في الواقع هو ذا مرتكز نفسي لا يعدو أن يكون لا أدرية أو لادينية ضحلة تتشح بزي الإلحاد. هذه حقيقة يعرفها الملحد في نفسه!

فهو إلحاد ناشئ عن شعور بالتفكك المعرفي، وضياع الهوية، والشعور بالعدمية – تآكل الشخصية Corrosion of Character –، حيث يوجد عجز مطبق عن سبك تبرير منهجي متكامل للإلحاد.

في الواقع أحد مبررات الإلحاد أيضًا أنه يؤمِّن للملحد عضوية الانضمام للمجتمعات والفئات المتحررة، وبالتالي يوفر نوع من الانتماء لثقافة جديدة يظنها أكثر رحابة أو اتساع أفق[3].

---

(١) سورة غافر: الآية (٨٣).

(٢) سورة النحل: الآية (١٠٧).

(٣) من وحي كتاب ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان، د. عبد الله بن سعيد الشهري، مركز نماء للبحوث والدراسات، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٤.

إذا كان الإلحاد صحيحًا فهو غير صحيح!

الذي يزعم أن الإلحاد هو فلسفة عقلية هو أجهل الناس بالعقل، لأن لازم قوله بإلحاده هو تطوره عن كائنات أدنىٰ وبالتالي ليس لعقله ثقة ولا لمعرفته قيمة، يقرر ذلك تشارلز داروين فيقول: " ولكن هنا يراودني الشك الآتي: هل يمكن أن يكون عقل الإنسان، والذي أؤمن إيمانًا جازمًا أنه تطور عن عقل كذاك الذي تمتلكه أدنىٰ الكائنات، محلاً لثقتنا وهو يُدلي بتلك الاستنتاجات العظيمة"[١].

إذ لو كان إلحادك صحيحًا فهو غير صحيح ولن تستوعبه أصلاً، فضلاً عن أن تكرز – تُبشر – به!

وقد قال داروين في موضع آخر: " ينتابني دائمًا شك فظيع حول ما إذا كانت قناعات عقل الإنسان، والذي بدوره تطور من عقول كائنات أدنىٰ، تتمتع بأي قيمة أو تستحق أدنىٰ ثقة"[٢].

وبالتالي فلا يكون العقل عقلاً إلا بإثبات الخالق، بمعنىٰ أدق العاقل الوحيد هو المؤمن، وغير المؤمن بلا عقل باعترافه هو وبلازم إلحاده، ففي واقع الأمر التطور أصم أبكم أعمىٰ غير آبه بالقيمة المعنوية للعقل، ولا بالأحكام التي يُصدرها العقل، ولا يلزم منه أن يعطي العقل قيمًا لها أحكام مطلقية، وهذا يلزم

(1) Charles Darwin to W. Graham, the Life and Letters of Charles Darwin, vol.1, p.282.

(2) Charles Darwin to W. Graham, the Life and Letters of Charles Darwin, vol.1, p.285.

عنه ألا يستمسك ملحد ولا يثق بأيٍ من أحكامه العقلية، بل كل حكم عقلي أو تقييم معرفي يراه يجب أن يفترض أنه لغو فارغ بلا معنىٰ.

وكل حُكم قيمي أو أخلاقي أو معرفي أو منطقي يدعمه أو ينتقده يجب أن يوقن أنه مجرد وهم وهلاوس غير واقعية.

وكما يقول المفكر الأيرلندي سي اس لويس C. S. Lewis: "لنفترض أنها مجرد ذرات داخل جمجمتي تُعطي ناتجًا ثانويًّا يسمىٰ فكرًا، إذا كان الأمر كذلك كيف أثق أن تفكيري صحيح؟ إنه مثل إبريق الحليب الذي عندما تخضه تأمل أن الطريقة التي تتناثر فيها بقع الحليب ستعطيك ذاتها خريطة لمدينة لندن، ولكن إذا لم أستطع أن أثق بتفكيري ولا أستطيع أن أثق في الحجج التي تؤدي إلىٰ الإلحاد، وبالتالي لا يوجد سبب لأكون ملحدًا أو أي شيء آخر، إلا إذا كنت أؤمن بالله، لا أستطيع أن أؤمن في الفكر: بحيث لا يمكن أبدًا أن أستخدم الفكر لعدم الإيمان بالله".

فلن يُلحد الإنسان إلا إذا قرر مسبقًا أنه مخلوقٌ لله، وأن عقله يُصدر أحكامًا مُطلقية، في هذه اللحظة فحسب يمكنه أن يثق في أحكام عقله وما يصدر عن هذه الأحكام.

والبشر يتملكهم شعور اضطراري بأنه يجب عليهم أن يثقوا في قيمة أحكامهم ولا يتأتىٰ ذلك إلا بافتراض تميز موقعهم الإدراكي من أصله، يقول الناقد الأيرلندي الشهير كليف لويس C. S. Lewis " لا يمكن لاقتناعنا بأن

الطبيعة تعكس نظامًا أن يكون أهلاً لثقتنا إلا إذا اعتبرنا نوعًا خاصًا من الميتافيزيقيا صحيحًا"[١].

وهذا ما عناه إدموند هوسرل حين قال: " ما المانع أن تكون القوانين المنطقية سمة عارضة للعقل البشري، وأنها فقط صارت كذلك في سياق التطور". وبالتالي خطأ كل معرفة تنبني عليها[٢].

إذن لازم قول الإلحاد هو عدم العقل، وبالتالي خطأ الإلحاد، والذي يزعم أنه ملحد فإنه يقرر سلفًا أنه مخلوق لله، ولذا فالإلحاد بهذه الصياغة ليس صحيحًا لو كان صحيحًا ﴿وَقَالُوا۟ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[٣][٤].

---

(1) Nathan, N. M. L. , Naturalism and Self-Defeat, p.135.

(٢) إدموند هوسرل، فكرة الفينومينولوجيا، ترجمة: د.فتحي إنقزو، ٥٤.

(٣) سورة الملك: الآية (١٠).

(٤) بعض الاقتباسات الواردة هنا من كتاب ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان، د. عبد الله بن سعيد الشهري، مركز نماء للبحوث والدراسات، الطبعة الأولى ٢٠١٤.

متناقضة الإلحاد

Atheism Paradox

إذا كان الإلحاد يملك أجوبة عن الأسئلة الكلية، الأسئلة الوجودية الكبرىٰ- أسئلة النشأة، الغاية، الحكمة، المعنىٰ.-، فهو دين متكامل الأركان، وننتظر من الملحد أن يخبرنا عن سنده الميتافيزيقي.

وإذا كان الإلحاد لا يملك أجوبة عن الأسئلة الكلية، فهو لا يصلح بحال للإنسان، ولا يعنىٰ بتحليل ظاهرة الوجود الإنساني وبالتالي لا معنىٰ لاعتناقه عقلاً ولا منطقًا.

يقول الفيزيائي الملحد ستيفن واينبرج: " مهما تقدمنا في العلم، سوف نظل مع سؤال لماذا- سؤال الغاية-؛ يظهر أن هناك معضلة متأصلة لن يتمكن العلم من اجتثاثها"[١].

يقول أُستاذنا عبد الله الشهري: "في الواقع الأسئلة الوجودية الكبرىٰ تعني البشر جميعًا؛ لأنها أسئلة مشروعة وطبيعية، ناشئة عن العلاقة التلقائية بين الوعي ومطلق الوجود، لذا أنا أقول دائمًا أن: الإيمان هو ردة فعل تلقائية تجاه الكون والحياة، أما الإلحاد فهو ردة فعل غير تلقائية تجاه التدين، فضلاً عن أن يكون ردة فعل غير تلقائية تجاه الكون والحياة، فضلاً عن أن يكون ردة فعل تلقائية تجاه الكون والحياة، لكن محاولات الإلحاد الجديد تجعله يبدو تلقائيًّا

---

(١) Weinberg, S. (1999) A Designer University? Vol.46, No.16.

مع أن أبسط التحليلات للقضية الإلحادية تبين مدىٰ المعاناة والمعالجة والتجشم التي يعانيها الملحد حتىٰ يستطيع أن يهضم الإلحاد"[١].

الإلحاد يعاني من صمت مطبق وجهل كلي أمام أسئلة الوجود الكبرىٰ المنبثقة عن وعي الإنسان ومكانه في العالم، مثل: لماذا نحن هنا؟ ما الغاية من الوجود؟

هذا الصمت المطبق والجهل الكلي لا يعني عدم أهمية الأسئلة- كما يحاول الكاهن ريتشارد دواكنز أن يبرر جهل الإلحاد بالأجوبة- بل خطأ الأصل الفلسفي الذي نحاول أن نستقي منه الأجوبة، والأصل الفلسفي هنا هو الإلحاد.

الدين يحدد بالضبط مكان كل فرد منّا في هذا العالم، بينما ينتهي الإلحاد بالعجز عن تفسير حتىٰ ذاته والعجز عن تفسير المعنىٰ وذوبان الهوية وانهيار الانسان، وكل ما يفعله الإلحاد بالضبط هو تكثير المفاهيم حول الأصول والثوابت حتىٰ يُربك الهوية ويشل القدرة علىٰ تحديد البديهة العقلية والرؤية الأفضل للعالم، وهذا مدخله الأشهر علىٰ السُّذَّج، فالإلحاد لا يصلح لكائن مثل الإنسان، ولا يحمل ولا يُعنىٰ بحمل أية أجوبة، هذه حقيقة لا علاقة لها بكونك مؤمن أو ملحد، عندما تصل إلىٰ هذه الحقيقة تكون قد قطعت نصف الطريق نحو الإنسان- نحو الإيمان-.

---

(١) ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان، د. عبد الله بن سعيد الشهري، مركز نماء للبحوث والدراسات، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٤، ص ١٠٣ بتصرف.

التوظيف الإلحادي للمعطى المادي

من المعلوم للباحثين أن داروين كان لا يطيق الإلحاد وكبار منظري التطور أمثال فرانسيس كولينز ومايكل دنتن كلهم يرون أن التطور سُنة الخالق السببية في إخراج أشكال الحياة من العدم إلىٰ الوجود[١].

وللبعض أن يوظف مسألة فيزياء الكم توظيف إلحادي في مقابل أفذاذ العلماء ممن يوظفونها توظيف إيماني يُستدل به علىٰ عظيمة علم الله ودقيق صنعه وابهار خلقه، وضعف الادراك البشري وقصوره وتحجمه، فما أعمق الهوة بين العقل وبين الأشياء في الخارج كما يقول كانط، بل إن مؤسس نظرية الكم ماكس بلانك كان من أكثر الناس تدينا ومن كلماته: "المكون الديني شيء جوهري ليعيش الانسان في تناغم مع ذاته"[٢].

وللبعض أن يوظف مسألة الخير والشر توظيفًا إلحاديًّا فنقول له: "هذا توظيف أملاه عليك موقفك الانفعالي وليس موقفك العقلاني، وإلا فقد وظفها آخرون توظيفًا إيمانيًّا، ورأوا أسرارًا أخلاقية بعيدة الغور ودروسًا من الحكمة تُعطي تجليات نورانية للعقل والروح".

وللبعض أن يوظف الاستدلال بالسببية علىٰ بواطن عالم الغيب توظيفًا إلحاديًّا، مع أن عالم الشهادة المادي لا يحكم علىٰ عالم غيبي لا نعرف عن قوانينه شيئًا.

فالتوظيف شيء والحقيقة في ذاتها شيء آخر تمامًا.

---

(١) (ثلاث رسائل، ص ٦٧ م. س).

(2) Planck, Max (2001) the Mystery of Being, p.161.

مهما كانت الهيئة التي يمكن أن نتخيلها للوجود المادي، فإنه لا دليل فيها علىٰ عدم وجود خالق، بل ما دام للوجود المادي هيئة تستحث الإدراك وتتيح نفسها للفهم بطريقة محددة، فالأصل في ميزان الخبرة البشرية أنها دالة علىٰ خالق يعلم ويفعل لا العكس، هذا ما يقضي به المنطق الطبيعي، وهو المتسق تمام الاتساق مع إملاءات خبرتنا، إذ لسنا مُكلفين لا قدرًا ولا شرعًا، بأكثر مما تأذن به خبرتنا، فما الباعث علىٰ التنكر لها؟ ولِم التعنت في إبطال دلالتها؟

حقًّا: الأصل في الاستصحاب بقاء ما كان علىٰ ما كان، قاعدة أُصولية رائعة طبقها الملحد فافترض بناءًا علىٰ شرطه في النظر ألا خالق حتىٰ يكون الدليل علىٰ وجود الخالق، ونُطبقها نحن فنستصحب أن هيئة الوجود معنىٰ زائد علىٰ مجرد الوجود، وأن هذا المعنىٰ الزائد أصل دليلنا علىٰ خالق مريد حتىٰ يرد الدليل علىٰ انتفاء ذلك الأصل. الموقف الثاني – الديني- أسلم وأحكم وأعلم؛ لأن المثبت مقدم علىٰ النافي، لأن المثبت معه زيادة علم؛ فلله ما أروع أصولنا وقواعدنا وما أمتن ديننا![١].

لكن ما الذي يجعل الالحاد يعاود الظهور ويقاوم الضمور علىٰ نحوٍ لم يسبق له مثيل في سالف العصور، علىٰ رغم هشاشته تلك؟

الإلحاد كل حججه علىٰ الإطلاق حمالة أوجه ولا تفضي بمجموعها فضلاً عن آحادها إلىٰ الإلحاد.

كل حججه توظيفية لا واقعية!

وبالتالي تقدم تأثير الإرادة علىٰ الدليل، وهذا ليس لنا عليه سبيل!

---

(١) (ثلاث رسائل، ص٧٠-٧١ م. س).

لكن ما هو الفرق بين الدين والإلحاد اصطلاحًا؟

الدين: منظومة معرفية مثقلة بمضامين غيبية، تدعي الشمولية وامتلاك الحق، تتسم بنظام قيمي واضح المعالم، وتأبىٰ تقديم التنازلات في الفروع المستقرة فضلاً عن الأصول والثوابت.

والإسلام –**كأصل للأديان**– يأبىٰ تقديم التنازلات ولا يعني ذلك أنه في حالة انفصام عن السياسة أو الحرية أو التملك وإنما في حالة مواجهة مع صور معينة من تلك الانظمة.

في المقابل يميل الإلحاد بطبيعته إلىٰ تكثير المفاهيم حول الأصول والثوابت حتىٰ يُربك الهوية ويشل القدرة علىٰ تحديد البديهة العقلية والرؤية الأفضل للعالم، وهذا مدخله الأشهر علىٰ الشباب الصغار.

وهنا نجد أن الإسلام يتميز بصرامة توحيدية شديدة، وتصور واضح لسمو الذات الإلهية، كما يقول المؤرخ أرنولد توينبي، فالإسلام هو أنقىٰ أديان التوحيد.

بينما نجد أن الإلحاد بصيغته العربية مثلاً هو رضوخ كامل للمناخ الثقافي المتغلب وهو الآن المناخ الغربي التقاني وبالتالي نحن أمام ردة فعل مغلوبة مسحورة لا فعل ناشئ عن استقلال بصر وحسن تقدير للامور وحس نقدي متوازن.

الإلحاد هو وعي طارئ مرهون بفرضيات صاغتها شروط ثقافية وحضارية طارئة، فهو ظاهرة تتمدد وتنكمش وغول يصحو ويغفو، في حين يبقىٰ الدين جزء لا يتجزأ من التكوين النفسي العام.

الدين مبني علىٰ عقيدة الأمل والنجاة، بينما الإلحاد ينبني علىٰ عقيدة الغرور والاكتفاء، الدين يُطمئن كل فرد علىٰ موقعه من هذا العالم، بينما يقوم الالحاد علىٰ شهوة مسبقة لدىٰ البشر لحب التملك والسيطرة ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1].

إنه فقط شعور بالاقتدار وخفوت الشعور بالافتقار، ومصدر هذا الشعور الحادث الجديد هو السيطرة التقنية علىٰ العالم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

يتصور الملحد أن الدين نشأ نتيجة الخوف والحاجة وأن ما توصلنا له اليوم من علم وتقانة وصناعة يعني أن شمس الدين قد غربت، في الواقع: لو كانت القضية حاجة وخوف فإنسان العصر الصناعي أشد حاجة وخوف من أية فترة مضت في التاريخ البشري، إن الإنسان المعاصر يشكو أمراضًا حسية ومعنوية لم تكن ظهرت بهذه الصورة في أيٍ من أسلافنا.

فقد ذابت الهوية وتفككت الصلات الاجتماعية وظهرت أنماط جديدة من التحكم والسيطرة، وارتفعت معدلات الفساد والبطالة والفقر والتلوث والجريمة والاكتئاب ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3].

---

(١) سورة الأحزاب: الآية (٧٢).

(٢) سورة يونس: الآية (٢٤).

(٣) سورة الروم: الآية (٤١).

ولذا فالدين قضية مرتبطة بالإنسان أيًّا كان وضعه في هذا العالم، وأيًّا كان مستوىٰ معدلات الرفاهة التي وصل لها، تقول كارين أرمسترونغ" العالم يشهد صحوات دينية، خلافًا للتوقعات العلمانية الواثقة في منتصف القرن العشرين، الدين لن يذهب"[١].

إن الإلحاد الجديد أثر لسياق ثقافي حضاري نفسي خاص وسيزول بزوال الشروط التي أنتجت ذلك السياق، بل وأتوقع عودة عالمية جامحة للدين ولكن بعد حدث حضاري يزلزل الإلحاد.

يقول دانييل بل في كتابه "التناقضات الثقافية للرأسمالية": " بعد بسط الإنسان قوته علىٰ الطبيعة، ما الأشياء التي تهدي سلوك الانسان؟ لا يمكن أن تكون في الطبيعة، إذ أنها مجموعة من القيود الفيزيائية في طرف ما، ومجموعة من الأسئلة الوجودية في الطرف الآخر، يسلك الإنسان سبيله خلالها من غير خريطة.

لم يبق إلا الجواب التقليدي وغير المحبذ: الدين، فهو مفهوم متعالٍ خارج الانسان وفي الوقت ذاته يصل الانسان بما وراء نفسه"[٢].

الإلحاد هو محل قابل لسياق ثقافي مترع بالتناقضات (أسئلة المعنىٰ والخير والشر)، ولامركزيات (أسئلة السلطة والحرية)، وتعدديات (أسئلة الهوية والتعايش) وهنا ينجذب المحل القابل لذلك السياق المتناقض فينشأ الالحاد.

---

(1) Armstrong, Karen (2009) The Case for God, p.9.

(2) Bell, D. (1996) The Cultural Contradictions of Capitalism, p.166. (ثلاث رسائل، م. س)

فالإلحاد ينشأ كنتيجة لإشكاليات معرفية وليس كموقف فطري تلقائي تجاه الحياة والكون، فهو أشبه بالشخص الذي يتم إغراؤه باستمرار بالتدخين، فالتدخين ليس حاجة فطرية، أو حاجة يمليها سياق بذاته، وإلا لكانت حاجتنا للدخان كحاجتنا للأوكسجين، ولكنه يفعل لأنه اكتسب باختياره للتدخين قابلية- استعداد نفسي- بسلوك التدخين، وبالتالي اختياره هو المتسبب في صنع حالة اللاتكافؤ بين حالته قبل التدخين وبعد التدخين، وهنا يظهر الإلحاد كحالة مكتسبة للنفس الإنسانية فيها كثير من التجشم والمعالجة وليست حالة تلقائية فطرية بديهية!.

ولو أراد الإنسان أن يُقلع عن الإلحاد، عليه أن يبحث عن عروةٍ وثقىٰ تجيب عن كل أسئلته الوجودية، وتجمع شتات الفكر والوجدان علىٰ مطلب كلي واحد، تمامًا كما يأمل الفيزيائيون اليوم في الوصول إلىٰ نظرية كلية واحدة TOE، لن يكون للنفس بعد ذلك التفات للمتشابه علىٰ حساب المحكم، ولن يخلط بين وسيلةٍ وغاية، فلا شيء أكثر جناية علىٰ الملحد من غروره وافتراضه المسبق بعدم وجود عروة وثقىٰ!

يقول باسكال روبنز: " لا شيء يتهدد إنسان الغرب سوىٰ اعتداده بنفسه- غروره- ولذا يتعين وضع حد لشهواته الأكثر إفراطًا، والحيلولة دون التحول إلىٰ رضيع نهم مشاكس"[1].

ولا أشد خطورة علىٰ العقل من جناية خلل البديهيات ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[2].

---

(١) بؤس الرفاهية، باسكال روبنز، ترجمة: عبد الله السيد ولد أباه، ص١٨٠. (ثلاث رسائل، م. س).

(٢) سورة الأنعام: الآية (١١٠).

لكن لماذا ألحدوا؟ ما الذي حدث بالضبط؟

ما حدث ببساطة هو تضخم العقلانية الأداتية الشكليةinstrumental علىٰ حساب العقلانية الموضوعية الغائية substantive وتم تهميش سائر العقلانيات.

ولا تعود أمراض الغرب في الأصل إلىٰ العقلانية ولكن إلىٰ تأليه العقلنة- وحصر العقلنة-[1].

والإنسان الحديث آخذ في الاختفاء وراء الأدوات التي يستخدمها كما يقول ماكس هوركهايمر، حيث تقود العقلية الشكلية الأداتية إلىٰ النظرة اللحظية الآنية في كل فعل، في المقابل يقوم العقل الغائي برؤية أبعد فالمؤمن يفعل الخير راجيًا الثواب من الله.

مشكلة العالم أن الغرب يتخيل أن عقلانيته هي الأفضل والأقرب للمنطق، وبقية العالم يصدقون ذلك ويسيرون خلفه، يقول كبير فلاسفة فرنسا إدغار موران" معظم الغربيين يعتقدون أن العقلانية امتياز يخصهم وأمر يستأثرون به"[2].

وما الإلحاد الجديد إلىٰ عرض من أعراض ذلك العقل الذي يُراد فرضه بشتىٰ الحيل علىٰ العالم.

---

(١) إدغار موران، ثقافة أوربا وبربريتها، ترجمة: محمد الهلالي، دار توبقال، ص٣١ (ثلاث رسائل، م. س).

(٢) ثقافة أوربا وبربريتها، إدغار موران، ترجمة: محمد الهلالي، دار توبقال، ص٣٢.

وهذا العقل هو عرض من أعراض رغبة متعاظمة في التحرر والاستقلال عن الله.

لا ننكر أن هذا العقل أجاب عن أسئلة الوجود الخاص أجوبة وافية، لكنه يعاني من صمت مطبق وجهل كلي أمام أسئلة الوجود الكبرىٰ المنبثقة عن وعي الإنسان ومكانه في العالم، مثل: لماذا نحن هنا؟ ما الغاية من الوجود؟ وكذلك أسئلة النشأة، الغاية، الحكمة، المعنىٰ.

لذا يقول الفيزيائي الملحد ستيفن واينبرج: " مهما تقدمنا في العلم، سوف نظل مع سؤال لماذا؛ يظهر أن هناك معضلة متأصلة لن يتمكن العلم من اجتثاثها"[(١)].

مشكلة العقل الأداتي الشكلي أنه يقوم باختزال الأسئلة الوجودية الكبرىٰ إلىٰ الأسئلة الوجودية الصغرىٰ، ليس لأن هذا حل عقلي أو علمي، بل لأنه الحل الأوحد الذي تتيحه المادة، فلا تملك المادة تحرير جواب عن الأسئلة الوجودية الكبرىٰ.

لكن في الواقع: الأسئلة الوجودية الكبرىٰ هذه تعني البشر جميعًا؛ لأنها أسئلة مشروعة وطبيعية، ناشئة عن العلاقة التلقائية بين الوعي ومطلق الوجود، ولا تُتاح الإجابة علىٰ تلك الأسئلة إلا باستقاء من الما وراء.

إن النزعة التي يتيحها العقل الغربي هي نزعة تجعل كل شيء حصري علىٰ المادة، وهذا سبب شقاء العقل وبؤس المعرفة وعقم الأجوبة، وأصبح الإلحاد

---

(1) Weinberg, S. (1999) A Designer University? Vol.46, No.16.

نتيجة لا سبب لتلك النزعة، أما سائر الملحدين العرب فحالهم كما يقول إيليا أبو ماضي: أبصرت قدامي طريقًا فمشيت[١].

ما بعد الإلحاد

السياق الذي ينشأ فيه الإلحاد يكون سياق مترع بالتناقضات ومناهض للمركزيات ومعزِز للنسبيات، وهذا يؤكد أن السياق الإلحادي هو سياق هروبي وليس سياق فكري مستقل إيجابي.

لا يوجد ما يميز الانسان بسبب إلحاده ولا ما يميز الإلحاد بسبب الانسان، بل العكس هو الحاصل دومـًا علىٰ المستوىٰ الفردي وعلىٰ مستوىٰ الأمم التي طبقت الالحاد ودمرت العالم.

ولذا ظهرت نزعة ما بعد الحداثة وهي نزعة تتربص بأي فكرة شمولية فتمزقها إربًا، فهي تقوم علىٰ تدمير السرديات العلمانية الكبرىٰ، ولذا هي ليست أقل خطرًا علىٰ الإلحاد الجديد من الدين، حيث أن الإلحاد الجديد ذو سردية مستقلة متكاملة تنزع نحو علمنة المجتمعات ودعم الليبراليات. لكن الطرح ما بعد الحداثي يقوض تماسك تلك المنظومة ويفرغها من مضمونها الشمولي بتأكيده علىٰ التعددية الثقافية ومعيار النفعية.

فالمشروع ما بعد الحداثي يعامل أطروحة الالحاد التي تدّعي التماسك والتكامل معاملة النصوص المتخمة المليئة بالرموز والإشارات، حيث يلزم من مقتضىٰ الالحاد انفصال الدالة عن مدلولها وتعدد التأويل وتفكك المعنىٰ، وبالتالي انتصار فلسفة ما بعد الحداثة علىٰ الالحاد، فتسود العدمية واللاغائية

(١) من وحي كتاب ثلاث رسائل، م. س.

بديلاً عن الإلحاد المتخم بالنصوص والرموز الكاذبة التي لا تتوافق وفلسفته، وهنا يُجتث الالحاد إذا وافق علىٰ نصوصه ورموزه وتقعيداته التي يبرر بها وجوده ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾[١][٢].

الربوبية

وهنا نود أن ننتقل للحديث عن الربوبية- الإيمان بالخالق مع إنكار الديانات-، ونحن نعلم قطعًا، الموافق منا والمخالف، أن العلماء الناظرين في الطبيعة وقوانين الكون لم يخطر ببالهم قط أية خرافة أرضية عن آلهة وثنية، وإنما إله واحد عليم قدير، الإله الذي قال عنه داروين " أما وجود حاكم للكون فهذا مما دانت به جموع من أعظم العقول التي وُجدت علىٰ الإطلاق"[٣].

ثم إن آثار صنع الخالق هي موضوع النظر العقلي. هذه حقيقة يجب أن نتفق عليها أولاً، وأن هناك ضرورة علمية متحصلة من النظر في تلك الآثار، وواجب عقلي معرفي متحصل مثل اتصاف الخالق بالقدرة والعلم والإرادة والاختيار.

والقول بأن إمكان العلم بالخالق ممتنع عقلاً هو باطل عقلاً وباطل واقعًا، وما جماهير الربوبيين إلا دليلٌ علىٰ ذلك.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية (٢٦).

(٢) من وحي كتاب ثلاث رسائل، م. س.

(3) Darwin, Charles (1902) The Descent of Man, p.131.

فالربوبية في أصلها توكيد سامق علىٰ أن العقل يُسلِّم مستقلًّا بوجود الخالق الصانع القدير، لكن العقل بلا وحي يُجيز كل الممكنات والمحالات علىٰ الخالق، وتستوي عنده الفهوم، لكن مع الوحي يلزمه تصحيح التصور وأن يعتقد ما طابق الوحي! وهناك صفات للخالق وأفعال للخالق لا يستقل العقل بإيجابها كالاستواء والعلو ومباينة المخلوقات.

و الفرق بين الربوبي والمؤمن أن الربوبي يفترض في الخالق الخلق وإيداع القوانين ثم ترْك الكون، بينما المؤمن يرىٰ أن الخالق لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض والخالق كل يومٍ هو في شأن، والخالق هو الدهر يُقلب الليل والنهار، والخالق يجيب دعوة المضطر ويكشف السوء، وما من دابة إلا هو آخذٌ بناصيتها، وهو سبحانه ما من ورقة تسقط إلا يعلمها.

إن الرؤية الربوبية هي تمسك بالنماذج الميكانيكية لعقلانية عصر التنوير، وكأن الكون شيء آلي تركه الله يعمل من غير أن يتدخل فيه، فهو معرِض عنه بالكلية، وبائن عنه أبدًا متعالٍ عنه وكائن ورائه.

إن القضية هنا هي سيطرة النموذج الميكانيكي علىٰ العقل حيث تبرد مشاعر الحب، وحيث تروج خرافة انفصال العاطفة عن الفكر–التي نقدناها فيما سبق–، وحيث يرون المادة شيء مستحقر أرضي بينما الروح شيء متسامي ولا يوجد بينهما اتصال أو تنازل. لكن في واقع الأمر: الله خلق العالم المادي ورآه حسنًا– **كما ورد في توراة بني إسرائيل**–، وأننا نُحشر بأجسادنا المادية يوم القيامة، وأيضًا الله قال في كتابه: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾[1]، – فالاقتراب بالجسد

(١) سورة العلق: الآية (١٩).

والروح-، فالرؤية المغلوطة تسببت في عقيدة مغلوطة، ولذا عندما جائت الحركة الرومانسية في قلب أوربا انهارت المدرسة الربوبية الجافة، وقال توماس كارليل Thomas Carlyle كلمته الشهيرة: " إله الربوبيين إله غائب، يقعد بلا عمل، منذ السبت الأول، خارج أطراف كونه، ليراه يعمل"[١].

إن تصور الربوبية هو تصور يعتمد علىٰ فيزياء نيوتن، وحتميات فيزيائية لم يعد لها وجود واقعي اليوم، أو بمعنىٰ أدق ظهرت رؤىٰ أوسع لعالم تحكمه احتمالات لا متناهية مثل نظرية النسبية والكوانتم ونظرية تأثير الفراشة، وهنا تظهر قيومية الله في كل آن .

لكن هنا نؤكد علىٰ أن بنية العقل لا تتبدل بتبدل التصور، وإلا لاستحال علينا العودة إليها واستعادتها، الذي يحدث هو أن التصور الخاطئ عن العقل يحجز عناصر تلك البنية عن العمل في تناغم.

ولذا يناشد ماكس بلانك العقلاء أن يعترفوا بالمكوِّن الديني في حياتهم حتىٰ يعيشوا في تناغم واتزان[٢].

فنجاح الإنسان الحقيقي عند ماكس بلانك مؤسس النظرية الكمية هو في إحياء المكون الديني داخله وليس المحاولات المستميتة لوأده.

فالدعوة الربوبية هي دعوة مستميتة استبدادية بلا مستند، فإما أن نُثبت خالق عليم قدير معنيّ بما خلق، وإما أن نُثبت وجوده ثم نقرر أن ننفي صلته بما خلق

---

(1)Thiselton, A., A Concise Encyclopedia of the Philosophy and Religion, p.61. (ثلاث رسائل، م.س)

(2)Planck, Max (2001) The Mystery of Being, p.161.

وهذا لعمري يحتاج إلىٰ دليل أكبر من الدليل الذي يحتاجه الملحد ليثبت صحة إلحاده.

وعندما يأخذ العقل حقه كاملاً؛ الفطري والطبيعي فلن يتحول إلىٰ الربوبية، فالربوبية هي تحييد واختزال للعقل.

فالعقل أخلاقيmoral أدبي ethical عاطفي emotional قيميvalue-oriented غائي teleological إنساني anthropic جمالي aesthetic كوني cosmic، وليس عقل منطقي logical حاسوبي computational رياضي mathematical آلي mechanical تجريبي empirical فقط[1].

فالتصور الأوفق للعقل يؤسس لمطالب منطقية logical وعملية pragmatic ونفعية utilitarian وأخلاقية moral . وفي هذه اللحظة سيدرك الربوبي أن كفره مُسيّس –من سياسية- بمكاسب نفعية تؤدي إلىٰ اختزال الجوانب الأُخرىٰ للعقل وتحييدها وتجاهلها بالكلية، وفي هذه الحالة مشكلته مع عقله وهو حلبة الصراع الأكبر.

وأكبر دلائل حيازة العقل علىٰ كل ما سبق أن الذي يتوسع قليلاً في استخدام الجوانب الأُخرىٰ من عقله يتجه نحو الربوبية، مع عدم المستند النقلي، والذي يتوسع أكثر ويتبنىٰ الاستخدام الأمثل والأكمل لعقله يدخل الآفاق الرحبة للدين.

---

(١) ثلاث رسائل، م. س.

وفي واقع الأمر فإن ظهور المدارس الربوبية في قلب قلعة الإلحاد، يؤكد أن العقل ليس نفعي كله وإلا لامتنع إمكان المذهب الربوبي، فالخالق ليس فكرة أو فلتة للعقل وإنما جزء لا يتجزأ من تمام إنسانيتنا، ومن تمام استخدامنا لعقولنا، فوجود الإله حاجة نفسية عقلية أصيلة يترع حبها باستمرار أنواع لا تحصىٰ من العقول عبر كل التاريخ وكل المكان.

ثم إن الحاجة العقلية لوجود الخالق ليست من تلفيقنا أو صنعنا، بل إن الحاجة إليه دليل عليه، ويجب أن تُرىٰ أدلة وشواهد عظمة الخالق مجتمعة لا منفردة، فنحن نُطلق علىٰ مجموعة الأعواد حزمة ولا نطلق علىٰ العود الواحد لفظة حزمة لذا التعامل مع شواهد عظمة الخالق باستقلالية لا يفيد المطلوب وسيؤدي للمماحكة، فباجتماع الأدلة تكتسب هيئة معنوية ومرتبة دلالية لا يدل عليها كل دليل علىٰ انفراده.

وباجتماع الأدلة وبالخضوع لطرائق العقل السوية المختلفة يُسلِّم العقل يقينًا بصحة القضية الدينية.

لكن أصل قضية الربوبيين أنهم ينكرون قيومية الله علىٰ كل شيء، فأنكروا صفاته وأفعاله فكانوا كمن يؤمن بالعدم.

وهم يفترضون في الإله أنه يخلق دون سبب أو غاية، فهم لا يعرفون من أمرهم شيئًا.

بينما مَن يعمل شيئًا دون سبب اعتبرناه أبله، فكيف يصفون إلههم بهذه الصفة؟

صراحةً لا ندري. ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[١].

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[٢].

بل إن الباحث المنصف يُرحب بأي عون يأتيه، فما بالنا بالربوبي الذي يرفض العون كل العون في الرسالات السماوية ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾[٣].

فإذا كنا هنا لغاية فما المانع أن نُوجّه إليها عن طريق رسالة سماوية؟

إن إنكار الدين يُفرغ الألوهية من جوهرها، ولا يستطيع العقل أن يصل إلى حقائق الوجود دون معونة من رسالاتٍ سماوية.

وحريٌّ بي عند هذه النقطة؛ أن أنقل مناظرة حول قدرة العقل على الاستقلال بالفهم، دارت بيني وبين أحد الربوبيين على منتدى التوحيد، وأنا أنقلها هنا ببعض الضبط الذي يُناسب النشر.

---

(١) سورة المؤمنون: الآية (١١٥).

(٢) سورة ص: الآية (٢٧).

(٣) سورة الأنعام: الآية (٧٧).

المناظرة حول الربوبية
بين د.هيثم طلعت
و الزميل الربوبي
«هكذا مُعرِّفه في منتدى التوحيد»

مداخلة د. هيثم طلعت الأولى

باسم اللهّ والحمد للهّ؛

ما زلت بانتظار الربوبي

وأرجو عدم الحيدة

هل إلهك يفكر .. أُريد أي دليل عقلي.

مداخلة الربوبي

السؤال يبدو لي فخًّا، ولكن سأجتهد لإجابته

وبشكل عام فأنا أفهم التفكير علىٰ أنه عملية عقلية يتم من خلالها معالجة المدخلات للوصول لاستنتاجات أو قرارات، وهذا لا يجوز علىٰ الله ... فالله يعرف كل شئ يقيناً، فهو خالق كل شيء وبالتالي وبالمنطق هو مطلع علىٰ كل شيء ... الله علمه أزلي، وقدراته لا محدودة، وهذا يتنافىٰ مع وصفه بأنه يفكر ... فالذي يفكر هو ينقصه علم اليقين بخصوص شيء ما مما يدفعه للتفكير به، وهذا يتنافىٰ مع صفات الله

هذا مجرد تصور مبدئي خاص بي (وللأسف لم ينزل علينا نحن الربوبيون كتاب ليبين لنا هذه المسائل) ... وعلىٰ كل حال أنا لم أفهم قصد الزميل بالسؤال وما وراءه ... ويهمني أكثر أن أعرف ما وراءه

نحن الربوبيين يكفينا أن يوصلنا العقل للإيمان بوجود خالق، (بغض النظر عن أي من خصائص هذا الخالق، حتىٰ لو وافقتك جدلاً بأنه قد مات، وحتىٰ لو كان إلهـًا شريراً) ... وأن يوصلنا هذا العقل أيضـًا لعدم صحة الأديان بسبب تناقضها مع العقل والمنطق ... عندها ستكون الربوبية علىٰ حق (ما لم تستطيع إسقاط أحد ركنيها) .... خصائص هذا الخالق وصفاته هي إما أن تكون قابلة للإثبات بالعقل والمنطق وعندها سوف أؤمن بها

وأضمها لمذهبي الربوبي، أو لا يكون في الإمكان إثباتها عقلاً، وعندها سوف أصبح لا أدريًّا بخصوص هذه الصفة

في هذه النقطة بالذات أعتقد أن لدىٰ الزميل سوء فهم للربوبية ... الربوبية هي بإختصار لا يجب ولا يمكن أن تتعارض مع العقل ... وفيما لا يمكن إستخدام العقل فيه يصبح الربوبي "لا أدريًّا" ... مثلاً أنا لا أدري فيما يتعلق بمسألة غاية الله من خلق الكون والإنسان ...

وبناءاً علىٰ ذلك إذا أثبت لي بالعقل فساد جزء من الإعتقاد الربوبي، فسأقول لك شكراً جزيلاً، وبكل بساطة سأتبنىٰ وجهة نظرك وتصبح جزء من عقيدتي وإيماني ... يعني بإختصار الربوبية التي أعتنقها أنا غير قابلة للنقض، إلا إذا أثبت لي أحد شيئن، إذا أثبت لي أن أحد الأديان صحيح (عنها سوف أعتنقه ولن اصبح ربوبيـًا) أو أثبت لي بأن الله غير موجود (وعندها سوف أصبح ملحداً)

والربوبية عمومـًا تسقط النقل كوسيلة للحصول علىٰ المعرفة ... يعني أنتم لديكم يأتي أولاً النقل (النص المقدس)، ثم يأتي بعد ذلك العقل (الاستحسان ولحد ما الاجتهاد والقياس) .... أما نحن، فلدينا وسيلة واحدة فقط هي العقل ... لذا أنتم تواجهون أحيانـًا مشكلة تعارض العقل مع النقل، وعندها إما تتهمون العقل بالقصور أو تسارعون في تأويل النقل (كما حدث في مسألة العرش) .... أما نحن فمن الإستحالة أن نواجه هذه المشكلة، ويستحيل أن تضع الربوبية في مأزق فكري إلا إذا أثبت بالعقل والمنطق صحة ديانتك أو أثبت عدم وجود الله

تحياتي

مداخلة د. هيثم طلعت الأولى

أيها الربوبي هل إلهك يفكر- هذا هو سؤالي-؟

بالمناسبة: إذا قام الربوبي بطرح أدلته العقلية علىٰ أن الإله يفكر – وهذا صراحةً ما انتظرته– تكون المناظرة قد انتهت فالتفكير يتنافي مع كلية العلم والقُدرة والإحاطة والتدبير والحكمة، وهنا يكون الربوبي قد أوقع نفسه في فخٍ كبير لن يستطيع الخروج منه، فمن مقتضيات التفكير قصور الفهم وقصور الإدراك وقصور المعرفة وقصور الإحاطة وقصور العلم، ولا يكون التفكير إلا لتدارك هذا القصور ومحاولة الإرتقاء في الفهم – وهذا لا يتناسب مع خالق الكون المُحكم –وهكذا يكون الربوبي قد شتم إلهه وسبه كعادة أصحاب الديانات الكافرة التي لا تنبني علىٰ نور الوحي .

الآن زميلنا الربوبي تبين أنه أكثر جرأة على إلهه، وأكثر تطرفًا في نظراته يقول الربوبي:

"نحن الربوبيين يكفينا أن يوصلنا العقل للإيمان بوجود خالق، (بغض النظر عن أي من خصائص هذا الخالق، حتىٰ لو وافقتك جدلاً بأنه قد مات، وحتىٰ لو كان إلهـًا شريراً) ".

وظن الربوبي أنه سينجو من الفخ لكنه أوقع نفسه في فخ أكبر فهو يقول:

"الله علمه أزلي، وقدراته لا محدودة، وهذا يتنافىٰ مع وصفه بأنه يفكر ... فالذي يفكر هو ينقصه علم اليقين بخصوص شئ ما مما يدفعه للتفكير به، وهذا يتنافىٰ مع صفات الله"

والآن أُريد الدليل العقلي علىٰ أن إلهك علمه أزلي!

إما أن تُحضر دليلاً عقليًّا علىٰ علم إلهك الأزلي أو تعترف بقصور العقل في تبيّن خصائص الإله وبالتالي انهيار اللادينية!

أرجو الإجابة مباشرةً دون التطرق لمواضيع جانبية.

بالمناسبة هناك مليارات البشر يستخدمون أيضًا الدليل العقلي للتأكيد علىٰ أن الرب يفكر ويتدبر ويعيد حساباته، وتوجد بالكتاب المقدس نصوص كاملة تؤكد أن الرب يفكر ويتدبر ويعيد حساباته.

كما ورد في سفر التكوين الإصحاح الثامن والتاسع، فبعد أن هلك الهالكون بطوفان نوح ندم الرب علىٰ ذلك وقال: "وقال الرب في قلبه: لا أعود ألعن الأرض أيضًا من أجل الإنسان لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته . ولا أعود أيضا أميت كل حي كما فعلت" [**سفر التكوين: الإصحاح الثامن العدد ٢٢**].

وحتىٰ لا ينسىٰ الرب فقد صنع قوس قزح، فمتىٰ أراد أن يُهلك الناس بطوفان، يرىٰ قوس قزح فيتذكر الطوفان الأول فلا يهلكهم، يقول الكتاب المقدس: "وقال الله: هذه علامة الميثاق الذي أنا واضعه بيني وبينكم وبين كل ذوات الأنفس الحية التي معكم الىٰ أجيال الدهر . وضعت قوسي في السحاب فتكون علامة ميثاق بيني وبين الأرض فيكون متىٰ أنشر سحابا علىٰ الأرض وتظهر القوس في السحاب ، أني أذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم فلا تكون أيضا المياه طوفانا .. فمتىٰ كان القوس في السحاب أبصرهم لأذكر ميثاقا أبديا بين الله وبين كل نفس حية في كل جسد علىٰ الأرض". [**سفر التكوين الإصحاح التاسع**].

يوجد الآن مليارات من البشر يستخدمون الدليل العقلي لتبرير هذا الكلام في الكتاب المقدس .. و لا تُحدثني عن سخافة عقول هؤلاء؛ لأنهم يستخدمون نفس الدليل العقلي الذي تستخدمونه تمامًا .. أم تعتبرون أن الدليل العقلي حصري علىٰ الربوبيين؟

وهكذا تشترك الديانات الكفرية والمذاهب الربوبية في سب الإله وشتمه فالعقل الذي يُنزه هو العقل الذي يُوثن، فالعقل قاصر إلىٰ حدٍّ بعيد، **ولابد من نور الوحي ولابد من النقل لإثبات صفات الكمال لله عز وجل** ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[1].

سبحانه كلي العلم والإحاطة ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[2].

فالله هو المحيط بكل شيء بعلمه سبحانه وتعالىٰ: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾[3].

الآن! إما أن تُحضر دليلاً عقليًّا على أن علم إلهك أزلي!!!

أو تعترف بانهيار اللادينية في أهم أصل من أصولها، وهو اعتماد العقل في تحديد صفات الإله.

---

(١) سورة يونس: الآية (٦١).

(٢) سورة الأنعام: الآية (٥٩).

(٣) سورة الطلاق: الآية (١٢).

الآن نأتي للفخ الذي وقع فيه الزميل الربوبي

الآن الزميل الربوبي تبين أنه أكثر ذكاءًا من كثيرٍ من الربوبيين، وبالتالي فالزميل الربوبي لم يقع في فخ إثبات أن الإله يُفكر وحتمًا هناك داخل المذهب الربوبي من هو أكثر ذكاءًا من زميلنا الربوبي، وبالتالي ستتغير صفات الإله عنده حسب قدراته العقليه ومنهجه الاستنباطي، وحتمًا أيضًا أنه يوجد داخل المذهب الربوبي من هو أقل ذكاءًا بكثير من زميلنا الربوبي، وهذا بداهة ستختلف صفات الإله عنده اختلافًا جذريًّا عن زملاءه الباقين، وسيُجيز علىٰ الإله ما لا يُجيزه الباقين - وربما يجيز علىٰ إلهه أن يكون من حجر عظيم يليق بعظمته مثلاً- .

الآن نحن أمامنا عقول ربوبية متباينة؛ عقل الزميل الأقل ذكاءًا من الربوبي وعقل الزميل الربوبي وعقل الزميل الأكثر ذكاءًا من الربوبي، وبالتالي أمامنا نسخ متباينة عن صفات الإله تختلف كل نسخة منها اختلافًا جذريًّا عن النسخة الأُخرىٰ، - وأنا أعترف أنه ربما تصل نسخة منهم إلىٰ حد الكمال فعليًّا لكن حتمًا ستوجد نُسخ تصل إلىٰ حد الوثنية والصنمية -، لكن المشكلة الفعلية هي أي نسخة سيتم اعتمادها في المذهب الربوبي، وبأية حُجة سيتم إقناع أتباع المذهب باعتماد هذه النسخة بديلًا عن نسخ أُخرىٰ؟

وماذا لو ظهرت في المستقبل نُسخًا أكثر رقيًا هل سيتم اعتمادها واعتبار أن المؤمنين بالنسخ السابقة كانوا لا يعرفون الإله الحقيقي؟

وكيف يتم إقناع أتباع المذهب بوجود نسخة حصرية وعقل حصري استطاع أن يعرف صفات الإله الحقيقية؟

أليس من الممكن أن يحدث تمرد عام داخل المذهب الربوبي؟ لأن فكرة العقل الحصري والنسخة الحصرية هي فكرة لا يمكن استيعابها إلا في إطار وحي ورسالات! وبالتالي انهيار كامل لأصل الأصول في الربوبية!

ثم ما الذي يجعل هذه النسخة أفضل من نُسخ أخرىٰ لا نهائية يفترضها العقل الواحد بمرور السنين والتجارب والنمو الفكري والعقل الأداتي؟

إذن يجب تأجيل طرح النسخة للإيمان الذاتي إلىٰ حين قبل الموت بلحظات بحيث لا تبقىٰ فرصة لطرح نُسخ أعلىٰ رقيًا وأكثر تهذبًا.

مما سبق يتبين استحالة - استحالة - استحالة اعتبار العقل معيارًا لتحديد صفات الإله واستحالة - استحالة اعتبار النُسخ العقلية التي يفترضها لتحديد صفات الإله هي نسخ حصرية، ومن هنا يتبين انهيار الربوبية في أعظم أصل من أُصولها وهو استخدام العقل في تحديد صفات الإله .

وعليه يستحيل أن تكون الربوبية هي ما يريده الله منا، أو تكون هي المنهج الذي يرتضيه الله لعباده!

لقد انهارت الربوبية في أصل أصولها وانهار معها حلم جديد، لإعادة الوثنية بصورة أكثر عقلية وأكثر حكمة ومنطقية في الظاهر لكن في الباطن لا تختلف الربوبية في منهجها الإستدلالي عن أحط الديانات إغراقًا في الوثنية والمادية، لأن العقل الذي يؤله هو العقل الذي يوثن، وعليه تكون الربوبية هي أحد المذاهب الكُفرية التي لا تختلف كثيرًا عن الإلحاد والوثنية والفلسفات المادية، ويعود الربوبي مرةً أخرىٰ ليكتشف أنه من أكفر الخلق وأبعدهم عن الله والحق، في الوقت الذي كان يظن أنه العبقري الذي أتىٰ بما لم يأت به الأوائل! ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ

بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنًا﴾[1].

الآن زميلنا الربوبي مُطالب بـ:

أولاً: الخروج من الفخ الكفيل بابتلاع المذهب اللاديني الربوبي بأكمله، حيث ظن زميلنا الربوبي أنه خرج من الفخ فوجد نفسه أمام هوةٍ سحيقة.

ثانيًا: نريد أن نعرف تفسيرًا عقليًّا لهذه النسخ اللانهائية من تصورات الإله داخل المذهب الربوبي.

ثالثًا: كيف يُحكَم العقل في أعظم شيء في الوجود وكيف يتنهي التحكيم العقلي إلىٰ هذه المأساة من النُّسخ اللانهائية لتصورات العقيدة الإلهية فهل يوجد مذهب عبر القرون بهذه الهشاشة والضعف والتعددية ؟

- **صدقني الوثنية أكثر عقلانية من مذهب تتعدد أصوله بعدد أتباعه..!!**

رابعًا: أنت مُطالب بالإجابة عن السؤال الرئيسي وهو إحضار دليل عقلي علىٰ أن علم إلهك أزلي، أو تعترف بانهيار اللادينية في أهم أصل من أصولها وهو اعتماد العقل في تحديد صفات الإله.

---

(١) سورة الكهف: الآية (١٠٣-١٠٥).

مداخلة الربوبي

الزميل الفاضل... سأرد علىٰ طلبك هذا من خلال النقاط التالية:

أولاً: إثبات صحة الربوبية لا يتطلب الإقرار بإله ذو مواصفات معينة، يتطلب فقط الاعتقاد بأن هناك خالقًا للكون وبأن الوجود لم ينشأ عن طريق الصدفة... بغض النظر عن صفات هذا الخالق، وبالتالي نجاح أو فشل الربوبيون في إجابة سؤالك هذا لا يؤثر علىٰ مدىٰ صحة الربوبية، ومسألة أن علم الله أزلي أو غير أزلي لا يمكن أن تؤدي لانهيار الربوبية.

- فيمكن أن أكون ربوبيًّا أؤمن بوجود خالق للكون، وأعتقد أن علمه أزلي..... (إذا كانت أزلية علمه هي الأقرب لمنطقي وعقلي الخاص).
- ويمكن أن أكون ربوبيًّا أيضًا، أؤمن بوجود خالق للكون، ولكن أعتقد بأن علمه ليس أزليًّا... (إذا كانت عدم أزلية علم الله هي الأقرب لمنطقي وعقلي الخاص)...

في الحالتين أزلية أو عدم أزلية علم الله لن تؤثر في ربوبيتي طالما كانت الصفة منطقية وعقلانية بالنسبة لي.

ثانياً: الاعتقاد بإمكانية إثبات الكمال الإلهي (بما ذلك أزلية العلم الإلهي) عن طريق العقل هو موقف يجد الكثير من التأييد من الكثير من المصادر الإسلامية المعتبرة.

وجدت هذا الموقف لدىٰ المحاورين في المنتدىٰ... كما في الاقتباس أدناه:

«إذا أقررنا بوجود خالق للكون فمن السهل معرفة صفاته، فالذي يخلق الكون فلا بد أن يكون أعظم منه والذي يخلق الذرة و الخلية لابد أنه يدرك كل

الأمور صغيرة و كبيرها، والذي يخلق الأحلام لابد أنه عالم بما في النفوس و الذي جعل لكل داء دواء لابد أنه يشفي من كل شيء، والذي يهلك الناس بأنواع الموت لابد أنه جبار، والذي خلق الرحمة بين الأم و رضيعها لابد أنه أرحم الراحمين، والذي كتب الموت علىٰ الحجر و الشجر و البشر لابد أنه أقوىٰ من الجميع، والذي خلق عقل الإنسان لابد أنه عليم حكيم، والذي أبدع الكون لابد أنه بديع، والذي خلق الجميع من عدم لابد أنه الأول والآخر، و الذي خلق الإنسان و جعله العاقل الوحيد بين الخلائق و سلطه عليها لابد أنه ميّزه و فضله عليها جميعا، والذي فضّل الأرض علىٰ جميع الكواكب لابد أنه ميّزها عن غيرها».

ووجدت هذا الموقف في أحد أهم المواقع الإسلامية التي تصف العقيدة الإسلامية (الموسوعة العقدية بموقع الدرر السنية)[1]، حيث قالت الموسوعة: «العقل يدرك بأن الرب لابد أن يكون كامل الصفات، ولكن هذا لا يعني أن العقل يثبت كل صفة بعينها أو ينفيها لكن يثبت أو ينفي علىٰ سبيل العموم الرب لابد أن يكون كامل الصفات سالماً من النقص فمثلاً: يدرك بأنه لا بد أن يكون الرب سميعاً بصيراً».

ووجدت هذا الموقف عند محاوري أيضًا... حين قال: (وأنا أعترف أنه ربما تصل

---

(1) http://www.dorar.net/enc/aqadia/1244...

نسخة منهم (من النسخ المتعددة للعقيدة الربوبية إلىٰ حد الكمال فعليا).

ثالثاً: بالمنطق البسيط وبدون إجتهاد يمكن تصور الكمال الإلهي وأزلية العلم الإلهي...

بالنسبة لي تحديداً، أقول: إنني أميل للظن (ولا أجزم) بأن الله علمه أزلي، وبأنه لا يفكر... فلجزم في صفة من صفات الله شيء لا يميل له الربوبيين عمومـًا يعتبرونه تجديفـًا وتجاوزاً للحدود (إلا إذا كان المنطق الواضح والبسيط يؤكد صحة هذه الصفة)... بعكس الأديان التي كثيراً ما تقع نصوصها في التشبيه في صفات الله (بسبب دخولها في بعض تفاصيل طبيعة الذات الإلهية)؛ ليأتي التأويل بعد ذلك (وهو نوع من استخدام العقل بشكل مضاد للنص) لنفي ذلك التشبيه الذي جاء به النص.

أما عن سبب ميلي للظن بأن الله ذو علم أزلي... فبالمنطق البسيط طالما أقررت بأن الله قد خلق كل شيء من العدم، وأنه مطلق القدرة، فهو بالضرورة سيكون عليمـًا بكل شيء... تصور معىٰ الحال لو كان علم الله غير أزلي... في هذه الحالة ستوجد بعض الأشياء خلقها الله، ولكنه يجهل بعض الحقائق عنها... وهذا لا يستقيم منطقـًا، فالأولىٰ بالخالق أن يعرف صفات مخلوقاته... ومن ناحية أخرىٰ فإن المعرفة أو الحقائق أو القوانين هي في حد ذاتها مخلوقات إلهية... فكيف يخلقها الله ثم لا يعرفها!!!... والكون يسير وفق خطة محكمة (كما تشير كل حقائق الكون) هذه الخطة وضعها الله فكيف يكون جاهلاً بها... وقدرة الله غير محدودة باقصىٰ ما يمكننا نحن البشر تصوره (كما يشهد بذلك خلق الكون)، فلا بد إذا أن يكون علمه غير محدود بنفس الحدود... فالقدرة والعلم متلازمان بالضرورة، ولو أردت التبسيط، قم بسؤال أي شخص يقابلك نفس هذا السؤال (هل علم الله أزلي أم حادث؟)، فسيُجيبك هذا الشخص من عقله وبمنطقه البسيط، ولن يجيبك بنص ديني ،،،

لن يقول لك بأن علم الله أزلي؛ لأن هناك آية كذا تقول كذا، بل سيقول لك بأن علم الله أزلي؛ لأنه بالمنطق البسيط كذا كذا كذا.... ونفس الشيء يتكرر في صفات الكمال الإلهي الأخرىٰ التي ننسبها له، والتي يسهل اشتقاقها من المنطق البسيط، الموضوع لا يحتاج ذكاء ولا عبقرية، الموضوع تقريباً بديهي.

الخلاصة:

كل ما تقدم يجعلني أستنتج بارتياح بأن إدراك الكمال الإلهي (بما في ذلك أزلية العلم الإلهي) هو شيء يمكن استنتاجه عقلاً، وبقدر من اليسر والبداهة... ولا يصح أبداً أن نقول: بأن هناك من لا يصل للحق ويضل إذا فالحق هلامي وغير واضح ولا يمكن الوصول للحق عقلاً، ولو صح ذلك لأمكن إعتبار أن الـ٩٠٪ من البشر ممن لا يؤمنون بالإسلام علىٰ نهج الكتاب والسنة الصحيح هم بمثابة حجة تثبت ضبابية الإسلام وعدم وضوحه وتثبت بأن من غير الممكن الوصول لقناعة بصحة الإسلام عن طريق العقل فقط.

أما قولك: (بالمناسبة هناك مليارات البشر يستخدمون أيضًا الدليل العقلي للتأكيد علىٰ أن الرب يفكر ويتدبر ويعيد حساباته وتوجد بالكتاب المقدس نصوص كاملة تؤكد أن الرب يفكر ويتدبر ويعيد حساباته...كما ورد في سفر التكوين الإصحاح الثامن والتاسع فبعد أن هلك الهالكون بطوفان نوح ندم الرب علىٰ ذلك وقال: " وقال الرب في قلبه: لا أعود ألعن الأرض أيضًا من أجل الإنسان؛ لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته، ولا أعود أيضًا أميت كل حي كما فعلت " [**سفر التكوين الإصحاح الثامن العدد ٢٢**].

يوجد الآن مليارات من البشر يستخدمون الدليل العقلي لتبرير هذا الكلام في

الكتاب المقدس.. و لا تُحدثني عن سخافة عقول هؤلاء؛ لأنهم يستخدمون نفس الدليل العقلي الذي تستخدمونه تماما.. أم تعتبرون أن الدليل العقلي حصري علىٰ الربوبيون؟

وهكذا تشترك الديانات الكفرية والمذاهب الربوبية في سب الإله وشتمه فالعقل الذي يُنزه هو العقل الذي يُوثن فالعقل قاصر إلىٰ حد بعيد ولابد من نور الوحي ولابد من النقل لإثبات صفات الكمال لله عز وجل").

أستاذىٰ الفاضل... أرىٰ منطقك غريب بعض الشيء في هذه المسألة.... أنت تقول بأن الكتاب المقدس فيه آيات تشير إلىٰ أن الله يفكر ويعيد حساباته... والمؤمنين بالكتاب المقدس يستخدمون العقل لتبرير ذلك الشيء... إذا استخدام العقل يمكن أن يؤدي للاعتقاد بأن الله يفكر!

يا سيدي الكتب "المقدسة"، والتي هي مقدسة فقط عند من يقدسها... هذه الكتب لا مجال فيها للعقل... الكتاب المقدس يقول أشياء كثيرة تنافي أبسط قواعد العقل والمنطق وأنت تعرف ذلك جيداً... وبالطبع المؤمنين بها يلجأون لنفس الأساليب التي يستخدمها جميع المؤمنين لتحقيق التواءم الصعب بين العقل والنقل... فهم:

- أما أن يتهموا العقل بالقصور.
- أو يلجئوا لتأويل النص.

ولكنهم مع ذلك (أعني المسيحيين واليهود) يستحيل أن يقبلوا في عقيدتهم شيء هم يقرون بأنه شيء لا عقلاني أو لا منطقي... فهذا يهدم أساس عقيدتهم... وأنا بدون أن أرجع

لأي مصدر وبدون أن أبحث كنت متأكداً بأنهم يؤلون هذه الفقرة التوراتية لينفوا عن الله صفة التفكير أو الندم، وفعلاً كانت تقديري صحيحاً عندما بحثت في المصادر المسيحية، فوجدت ذلك تماماً[1].

ومن ناحية أخرى وبنفس قياسك، فإن القرآن نفسه فيه من الآيات التي يمكن أن يفهم من ظاهرها بأن الله يفكر ويتراجع عن قراراته، وما أكثر الآيات القرآنية الناسخة لآيات أخرى والتي لا يمكن تبريرها بضرورة التدرج في إنزال الأحكام، وما أكثر الآيات والأحاديث التي تصف انفعالات إلهية (حزن، ضحك، فرح، الخ) وكل هذه الانفعالات تناقض علم الله الأزلي لو أخذنا بظاهر النصوص بدون تأويل.

أعلم أنه مع التأويل كل شيء يمكن أن يفسر لإزالة هذا التناقض، ولكن لماذا تتحامل على التوراة إذا وتتهمها بأنها تتهم الإله بأنه يفكر ويعيد حساباته... أيحق لكم فقط التأويل ولا يحق لهم ذلك؟!!!

الخلاصة:

باختصار شديد، المشكلة تكمن فقط في ظنك الخاطئ بأن النصارى يدعون بأن الله يفكر... وهذا غير صحيح... النصارى يؤولون النص الذي سقته أنت لينفوا عن الله صفة التفكير والحيرة والندم... تمامًا كما يؤول كل المؤمنين نصوصهم حين تعارض العقل... وتأويل النصارى لهذا النص يثبت بأن العقل والتفكير السليم يتعارضان مع فكرة أن الإله يفكر أو يغير رأية... لذا لما رأى النصارى تعارض هذه الفقرة التوراتية مع العقل قاموا

(1) **http://www.gotquestions.org/Arabic/Arabic-God-change-mind.html.**

بتأويلها... يعني الدليل هو ضدك وليس في صالحك، فهو يثبت بداهة فكرة أزلية علم الله الأزلي وتوافقها مع العقل (مثلها مثل صفات الكمال الإلهي الأخرىٰ).

مداخلة د. هيثم طلعت الأولى

نهاية الربوبية كمذهب باعتراف الزميل الربوبي المحاور:

هو يقول: (فيمكن أن أكون ربوبي أؤمن بوجود خالق للكون، وأعتقد أن علمه أزلي..... (إذا كانت أزلية علمه هي الأقرب لمنطقي وعقلي الخاص) ويمكن أن أكون ربوبي أيضًا، أؤمن بوجود خالق للكون، ولكن أعتقد بأن علمه ليس أزليًّا... (إذا كانت عدم أزلية علم الله هي الأقرب لمنطقي وعقلي الخاص، في الحالتين أزلية أو عدم أزلية علم الله لن تؤثر في ربوبيتي طالما كانت الصفة منطقية وعقلانية بالنسبة لي).

تقول القاعدة المعرفية يا زميلنا: (**لا يمكن التفكير في النسبي إلىٰ بما هو نسبي ولا يمكن التفكير في المُطلق إلا بما هو مُطلق**).

بتطبيق هذه القاعدة علىٰ كلام الربوبي السابق والتالي: "الجزم في صفة من صفات الله شئ لا يميل له الربوبيين عمومًا يعتبرونه تجديفًا وتجاوزاً للحدود".

يكون الناتج: الرب في المذهب الربوبي هو نسبي وليس مُطلق.

انتهى الحوار

انتهت الربوبية

انتهت المناظرة.

في الواقع هذا ربوبي لا يملك الحد الأدني من احترام إلهه، وهذا ناتج الربوبية" شتم الإله".

إلهكم نسبي أيها الربوبيون! الزميل يقول أن الربوبيين يُجمعون علىٰ نسبية الإله - نسبية صفاته - فلا يمكن الجزم بوجود صفاته من عدمها " ربما يكون علم الإله أزلي وربما لا يكون كذلك "

الإيمان بنسبية الإله = الإيمان بالعدم = الإيمان بالحجر = الإيمان بآلهة بشرية عديدة = الإيمان بالشيء ونقيضه في آنٍ واحد.

إنها نهاية الربوبية كمذهب.

هل يُعقل أن تكون سرعة الضوء مطلقة وقوانين الثرموديناميك مطلقة وثوابت الكون مُطلقة وخالقها نسبي ؟

هل يُعقل أن يسمح الله لنا بتحديد سرعة الضوء بالملليلمتر في مسافات تبلغ آلاف الكيلومترات في الثانية الواحدة، ولا يسمح لنا أن نعرف صفات خالق الأكوان؟ ويتركنا أمام عبث عقلي ساذج لا يستطيع محاوري أن يثبت صفة من صفات الله، ويجزم أن جميع الربوبيين كذلك حيارىٰ تائهين.

يقول الربوبي: (الجزم في صفة من صفات الله شيء لا يميل له الربوبيين عمومـاً يعتبرونه تجديفـاً وتجاوزاً للحدود).

كفاكم شتمًا للإله يا رجل!

كفاكم سبًّا لمن تؤمنون بوجوده!

أنت تعترف أن العقل قاصر في معرفة صفات الإله ويمكن أن تجزم بصفة من صفاته وفي نفس النفس يمكن أن تجزم بنفيها.. العقل الذي يجزم هو العقل الذي ينفي.

هل ما زلت ربوبيًّا يا رجل؟

ماذا بقي يا رجل؟

ألا تتفق معي الآن أن: حتمية النقل-الدين- يفرضها العقل وإلا لظل في حيرة أبد الدهر؟

أنت تقول: (الاعتقاد بإمكانية إثبات الكمال الإلهي (بما ذلك أزلية العلم الإلهي) عن طريق العقل هو موقف يجد الكثير من التأييد من الكثير من المصادر الإسلامية المعتبرة).

ما دخلك أنت بالمسلمين أو بالمصادر الإسلامية المعتبرة ؟!!

لماذا كلما ضاقت بكم السبل أو ضيقنا عليكم المسالك تذهبون إلىٰ عقيدتنا؟

لماذا ٩٥٪ من المداخلات في منتدياتكم الإلحادية والربوبية مخصصة للحديث عن الإسلام؟!!

لماذا تعجزون عن تكملة حوار من أوله لآخره في عقيدتكم ومذهبكم دون

التطرق لعقيدة الآخر؟!!

الآن ما دخل العقيدة الإسلامية بالحوار؟

أما أن تُعطينا حججك علىٰ مذهبك دون التطرق للآخر أو تُسلم بإفلاس المذهب وعقم العقل.

هذا الحوار مخصص للحديث عن صفات الإله في اللادينية، إذا كانت لك أدلتك المستقله فحيهلا.. إذا كنت لا تناقش إلا بناءًا علىٰ ما عند الآخر، فقد حكمت علىٰ مذهبك بالضياع والانحلال الذاتي.

أما قولك: (أما عن سبب ميلي للظن بأن الله ذو علم أزلي).

ميلك وللظن؟ تميل وتظن؟ يعني زميلك ربوبي آخر لا يميل لذلك ولا يظن، ويرىٰ أن علم الإله غير أزلي ؟

هل أيقنت الآن أن هناك نسخا لا نهائية من تصورات الإله داخل المذهب الربوبي، وتتعدد بتعدد أفراد المذهب وتتعدد بتعدد التجارب الشخصية والخبرات لكل عضو ؟

هل أيقنت الآن أن العقل الذي يؤله هو العقل الذي يوثن، وهذا يُسقط أصل أصول المذهب الربوبي؟

هل يُعقل أن يترك خالق الأكوان العقل داخل هذه المتاهة الفكرية والظنيات

والتخمينات، أو بتعبيرك الظن والميل؟

هل يُعقل أن يسمح الله للإنسان بتحديد ثوابت الكون بجزء من مليار جزء بمنتهىٰ الضبط والإتقان، ويترك أهم شيء في الوجود بدون شاهد و يترك معرفته للظن والميل والهوىٰ؟

لكن زميلنا الربوبي أحضر لنا الدليل العقلي علىٰ علم الإله الأزلي، أخيرًا أجاب عن السؤال!

الربوبي يقول: (تصور معىٰ الحال لو كان علم الله غير أزلي... في هذه الحالة ستوجد بعض الأشياء خلقها الله، ولكنه يجهل بعض الحقائق عنها... وهذا لا يستقيم منطقـًا، فالأولىٰ بالخالق أن يعرف صفات مخلوقاته..).

يا رجل معقول ؟ هل هذا هو الدليل العقلي على علم الإله الأزلي ؟!!

طيب تصور لو كان علم مبرمج الكمبيوتر غير أزلي.. في هذه الحالة ستوجد بعض الأشياء داخل الداوئر الإلكترونية للكمبيوتر يجهل بعض الحقائق عنها.. إذن علم مبرمج الكمبيوتر أزلي ؟

هل تصدق أن أينشتاين وضع في معادلاته الثابت الكوني لامبدا Λ ولم يكن يعرف فائدته وبعد ٨٥ سنة تم اكتشاف فائدة الثابت الكوني ؟

إذن من الجائز عقلاً أن يصنع الصانع ما لا يعرف كل أبعاده..!!

ثم عندما تقول: (تصور معىٰ الحال لو كان علم الله غير أزلي... في هذه الحالة

ستوجد بعض الأشياء خلقها الله، ولكنه يجهل بعض الحقائق عنها).

هذا لا يثبت عقليًّا أن علم إلهك أزلي.. أين هو الدليل العقلي علىٰ أن علم إلهك أزلي ؟

هل الدليل العقلي علىٰ أن علم إلهك أزلي هو أن هذا يجيز أن توجد بعض الأشياء يجهل بعض الحقائق عنها ؟ هل هذا هو الدليل العقلي يا رجل ؟

صانع شاشات البلازما يجهل كيفية تناسق الإلكترونات داخل الشاشة بحيث لا تترك ثغرات غير ممتلئة، وبالتالي ثقوب مظلمة، ولا يعرف كيف تتواصل الإلكترونات فيما بينها لتصل لهذا التناسق البديع، ومع ذلك يصنع الشاشات وينتجها بكميات مليونية، فمسألة تناسق الإلكترونات داخل شاشات البلازما هي مسألة غير معروفة - مجهوله فيزيائيًّا - ولا أحد يعرف كيف يحدث التواصل بين الإلكترونات، ومع ذلك يتم تصنيع شاشات البلازما بكميات مليونية، فالجهل بهذه الأمور لم يمنع من تصنيعها.

ما زالت الإجابة فارغة!

إذا لم تملك دليلاً عقليًّا واحدًا علىٰ أن علم إلهك أزلي، تنهار الربوبية في أصل أصولها وهو اعتماد العقل في تحديد صفات الإله والإيمان به.

أما قولك: (ومن ناحية أخرىٰ وبنفس قياسك، فإن القرآن نفسه فيه من الآيات التي يمكن أن يفهم من ظاهرها بأن الله يفكر ويتراجع عن قراراته).

يا رجل ما دخلك أنت بالقرآن؟

عندما يكون هناك حوار حول القرآن أطرح أدلتك العبقرية التي لم يكتشفها جهابذة الأمة!

هذا الشريط مخصص للحوار حول صفات الإله في المذهب الربوبي.

عندك المقدرة علىٰ الدفاع عن مذهبك، دون التطرق لعقيدة الأخر علىٰ الرحب والسعة.

عاجز ومفلس ومذهبك لا يسعفك ومذهبك يوقعك في حرج شديد لبطلانه عقليًّا باعترافك، لا بأس أن تنسحب.

أما اللف والدوران ومحاولة التملص فلن يجدي في الدفاع عن مذهبك.

يا صاح!

الوثنية تمثل أكبر ضربة للمذهب الربوبي:

سيظل يوجد المليارات من البشر –الوثنيين– يؤمنون بتصورات خاطئة للعقيدة الإلهية معتمدين في ذلك أيضًا علىٰ أدلة عقلية، وبنفس الثقة التي يتحدث بها الربوبيون عن الذات الإلهية، فإن كان العقل مصدر خلل وتشويش ومصدر الإعتقاد بالشيء ونقيضه في آنٍ واحد، فكيف يُسلمنا الإله للعقل في هذه القضية الخطيرة للغاية، بل هي أخطر شيء في الوجود.. كيف يُسلمنا لهذا

التشويش والإرباك دون نقل-ديني- يحسم القضية ؟ هل يُعقل أن يجعلنا نصل لليقين في مسائل فيزيائية مادية ومعادلات قاصرة الفائدة ولا نصل لليقين في أصل الوجود وغاية كل البشرية ؟

صدقني أنتم أكبر شتامين للإله ولدتهم البشرية..!!

هل ما زلت تُماري في ضرورية النقل؟

الآن:

ما الفرق بين الربوبي وبين الشيطان ؟

ألا يمكن اعتبار الشيطان ربوبيًّا صالحًا والعكس صحيح ؟!

أليس الشيطان مؤمنًا بوجود الله ؟ هل تنكر ذلك ؟

أليس يستوي عندكم الراهب والفاجر؟ ألستم تجهلون غاية الوجود ؟ إذن هنيئًا للشيطان بمذهبكم الرائع!

المذهب الذي يجد فيه الشيطان ما يبرر ضلالاته هو حتمًا مذهب شيطاني.

ما الفرق بين الربوبي وبين عُباد المال والجنس ؟

عُباد المال والجنس يؤمنون بوجود الله وليس عندهم الوقت ولا الاهتمام الكافي بتكاليف شرائع الدين.

وبما أنه يستوي في مذهبكم أفجر الناس وأرهب الناس للذات الإلهية إذن

من الحماقة عقليًّا تضييع الوقت في مماحكات ميتافيزيقية، وكما يقول المفكر الإنجليزي جون لوك: "إذا كان كُل أمل الإنسان قاصرًا علىٰ هذا العالم، وإذا كنّا نستمتع بالحياة هنا في هذه الدنيا فحسب، فليس غريبًا ولا مجافيًا للمنطق أن نبحث عن السعادة ولو علىٰ حساب الآباء والأبناء".

هل يوجد مذهب علىٰ وجه الأرض يؤمن بوجود الله وفي نفس الوقت يكون الإيمان بوجود الله كعدمه ؟

ما الفرق بين الربوبي والملحد ؟

ظاهريًّا الربوبي والملحد مختلفان في أصل الأصول، وبينهما أودية وأنهار ومفاوز لا أول لها..!!

لكن في الواقع هذا الفرق الشديد لا أثر له في العمل، وهذا من أعجب العجب، أن يكون الفريقان علىٰ عقيدتين متعارضتين وفىٰ نفس الوقت علىٰ نفس العمل، أحدهما يعتقد بعدم وجود إله والآخر يعتقد فىٰ وجود إله.. ورغم ذلك فهم لا يتميزون فىٰ السلوك والعمل إلا من باب الذائقة الشخصية! فما هذا الإله الذي وجوده كعدمه؟

في النهاية أنت ما زلت داخل الفخ!

والفخ الذي وقعت فيه هو اعترافك ضمنيًّا بوجود نسخ لانهائية من تصورات الإله داخل المذهب الربوبي، حيث تتعدد النسخ بتعدد أتباع المذهب وبتعدد

قدراتهم العقلية والتغيرات المزاجية والنمو الفكري لكل فردٍ منهم... كيف بالله عليك يُحكَم العقل في أعظم شيء في الوجود، وكيف يتنهي التحكيم العقلي إلىٰ هذه المأساة من النُّسخ اللانهائية لتصورات العقيدة الإلهية، فهل يوجد مذهب عبر القرون بهذه الهشاشة والضعف والتعددية ؟ أليست الوثنية أكثر عقلانية من مذهب تتعدد أصوله بعدد أتباعه ؟

الآن الزميل الربوبي مطالب بـ:

١ - الإجابة عن السؤال الرئيسي الذي لم نجد له جوابًا حتىٰ الآن.

٢- الخروج من الفخ الذي أوقع نفسه فيه.

٣- هل يوجد فرق بين الربوبي والشيطان في العقيدة والعمل أم في النهاية المحصلة واحدة؟

٤- هل يوجد فرق بين الربوبي وعُباد المال والجنس، أم أيضًا في النهاية المحصلة واحدة؟

٥- هل يوجد فرق بين الربوبي والملحد، أم مرةً أخرىٰ في النهاية ستكون المحصلة واحدة؟

مداخلة الربوبي

عن جد يا دكتور، إسلوبك في الحوار عجيب... أنت تفهم كلامي بالطريقة التي تروق لك ثم تبني عليه إستنتاجات خاطئة، ومستعجل جداً لإعلان أنتصار وإنهاء المناظرة!!

يمكنني أن أستعمل نفس طريقتك وأعتمد علىٰ قولك: (أمامنا أربعة نسخ عن صفات الإله تختلف كل نسخة اختلافا جذريا عن النسخة الأخرىٰ. وأنا أعترف أنه ربما تصل نسخة منهم إلىٰ حد الكمال فعليا).

ثم أقول لك بأن المناظرة أنتهت، فهذا الإقرار الذي قدمته أنت كافي جداً بالنسبة لي لإثبات صحة عقيدتي الربوبية (بالطبع ما لم ينقض أحد ركنيها عبر إثبات صحة أحد الأديان أو إثبات عدم وجود إله)

ووجود فهم خاطئ بين الربوبيون لطبيعة وخصائص الذات الإلهية (بفرض وجوده) لا يضير الربوبية... فلا يضير أي حقيقة في هذا الكون وجود من يحيد عنها ويعجز عن إستيعابها... والإسلام مثلاً تدرك صحته بالعقل، ولكن هناك ٩٠٪ من البشر ممن لم يصلوا لقناعة عقلية بصحة الإسلام "بشكله السلفي الأمثل"، فهل يضير ذلك الإسلام أو يدفعنا للقول بأن تفاوت أفهام البشر يعني ضبابية الإسلام وعدم وضوحه واستحالة الوصول لقناعة بصحتة عن طريق العقل ؟؟؟

ملحوظة: يمكنك أن تجعل هذه المناظرة نزهة عقلية جميلة وذات فائدة جمة لي ولك ولكل من يتابعها، ويمكنك أن تجعلها غير ذلك، والخيار متروك لك... ولعلك تعرف أن سياسية الصوت العالي في المناظرات تأتي دائمـًا بنتائج عكسية.

مداخلاتك المتعددة... (٦ أو ٧ مداخلات) كلها تدور حول نفس الأفكار... ولو أخذت في الاعتبار النقاط التالية التي سأسردها، ستجد فيها رداً شافيـًا علىٰ كل ما طرحته... فأرجو تأمل هذه النقاط بعمق... وأرجو أن يكون ردك القادم مبنيًّا علىٰ هذه النقاط فقط، فهي تلخص الاختلاف بيننا... **وإليك بتلك النقاط:**

١- الربوبية تقوم علىٰ الاعتقاد بوجود خالق للكون (بغض النظر عن طبيعة هذا الخالق) ونفي صحة الأديان الحالية... فقط لا غير.... ويمكن في هذا الصدد فهم الربوبية كخط متصل (يبدأ من نقطة رفض الإلحاد وينتهي في نقطة رفض الأديان) وفي هذا الخط عدد لا نهائي من النقاط، بعض هذه النقاط (داخل الطيف الربوبي) تنظر لصفات الإله نظرة "لاأدرية" فترفض إلصاق كل أو بعض الصفات به، وبعض هذه النقاط تتعدىٰ مسألة وصف الإله بالكمال لتفترض نوعـًا من التدخل من هذا الإله في حياة البشر وفي سير الكون... وكل هذه النقاط هي مرحب بها ومعترف بها داخل إطار التنوع الربوبي (طالما لم تتجاوز حدي ذلك الخط).

٢- من وجهة نظر ربوبية فإن الإله لا يطالب البشر بأن يدركوا خصائصه علىٰ الوجه الأكمل ويعرفوا صفاته علىٰ حقيقتها (كما في الإسلام) فليس هناك نار مثلاً تنتظر من يخطئ في وصف الإله بوصوف الكمال... ولو كان الإله يأبه بذلك فعلاً أو يريد أن يعرفه البشر حق المعرفة ويدركوا صفاته الحقيقية (حسب المعتقد الربوبي) لقام الله بإلقاء هذه المعرفة في قلوب البشر جميعـًا، أو جعل من صفاته حقائق بديهية واضحة لا يختلف فيها اثنان، كما يختلف اثنان حول أن لون اللبن أبيض تقريبـًا وأن الشمس حارة نسبيًّا...

٣- من ناحية أخرىٰ فالربوبية لا تلزم معتنقيها بمعتقد رسمي محدد، والربوبيون يبنون قناعاتهم كلا علىٰ حدة، فليس لديهم نص مقدس ولا رجال دين.... الربوبية تدعو أتباعها فقط للالتزام بمقتضيات العقل والمنطق والمنهج الصحيح في الوصول

للمعرفة، وإتباع منهج صحيح في البحث والتفكير، دون التقيد بنص "مقدس" أو خوف من مكر الله أو من كيد الشيطان، أو خوف من التعرض لشبهة بحجة أنها توهن الهمة، ودون حجب العقل خوفاً من شك يودي للطرد من رحمة الله وخلود في النار، (بالعكس الشك عندنا مرحب به ومحمود).

٤- الربوبيون في الواقع معظمهم يؤمنون بالكمال الإلهي وإتصاف الذات الإلهية بصفات الكمال، أنا أؤمن بذلك، والزميل عيسىٰ الربوبي يؤمن بذلك، وأحسب أن كل من مر بهذا المنتدىٰ من الربوبيين يؤمن بذلك... وفكرة الكمال الإلهي عموماً هي الفكرة السائدة داخل التيار الربوبي.

٥- بعض الربوبيين يفضلون تبني موقف "لا أدري" فيما يتعلق ببعض أو كل صفات الخالق، انطلاقاً من قناعتهم بأن العقل البشري عاجز تمامًا عن إدراك حقيقة الإله... ولكن لا يوجد ربوبي واحد ينفي صفة من صفات الكمال عن الله... ومن يتخذون موقفاً لا أدريًّا بالنسبة لصفات الذات الإلهية يفعلون ذلك من منطلق صعوبة استيعاب صفات الله عن طريق العقل، ومن منطلق أن تلك الصفات هي وصوف بشرية مصنوعة بواسطة العقل البشري ووفق التصورات البشرية التي قد لا تصلح في التعبير عن حقيقة الذات الإلهية... وليس من منطلق وجود شك في امتلاك الإله لصفة من صفات الكمال.

٦- العقل البشري ووفقاً لمعطياته الحالية قادر علىٰ إدراك حقيقة إتصاف الله بصفات الكمال... يؤمن بذلك معظم الربوبين ويؤمن بذلك أيضًا الكثير من المسلمين،

وغيرهم من البشر... والقرآن يشير لذلك ضمناً (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)... حتىٰ النصارىٰ الذين تتعارض نصوصهم بوضوح مع حقيقة إتصاف الله بصفات الكمال، قاموا بتأويل النصوص لإثبات صفة الكمال الإلهي؛ لأنها الاقرب للعقل والمنطق.

٧- عدم قدرة البعض علىٰ إدراك حقيقة ما (إذا كانت هذه الحقيقة علىٰ درجة كافية من الوضوح) بسبب ضعف في منهج البحث أو خطأ المعطيات أو بسبب قلة الإطلاع) هو شيء لا يضير تلك الحقيقة، ولا يبرر القول بأن تفاوت الناس في قدرتهم علىٰ إدراك تلك الحقيقة يستوجب إستعمال وسيلة أخرىٰ غير العقل لإدراكها... ولو كان حيد البعض (أو حتىٰ الغالبية) عن إدراك الحقائق والتزام الحق يعد عيباً ونقصاً يحسب علىٰ هذا الحق، لكان الأولىٰ هو إتهام الإسلام الذي لم يؤمن به في شكله السلفي الصحيح إلا أقل من ١٠٪ من البشر، فهل يصح القول بأن الإسلام غامض وضبابي وأنه يستحيل معرفة الدين الصحيح بإستخدام العقل.

هذه خلاصة ما أريد شرحه وإيصاله عن المذهب الربوبي، وهو كافٍ في نظري لدحض كل ادعاءاتك، وفي المداخلة القادمة سأقوم بالربط بين هذه النقاط وبين ما ورد في مداخلاتك من هجوم علىٰ الربوبية، لأبين لك كيف أن هجومك هو قائم بالأساس نتيجة لعدم فهمك لهذه النقاط أو إهمالك لها.

مداخلة د. هيثم طلعت الأولى

الربوبي يقول: (عن جد يا دكتور، أسلوبك في الحوار عجيب... أنت تفهم كلامي بالطريقة التي تروق لك، ثم تبني عليه استنتاجات خاطئة، ومستعجل جدًّا لإعلان انتصار وإنهاء المناظرة!!).

المناظرة انتهت يا زميل باعترافك أنت وبأدلتك العقلية أنت

الآن ركز معي قليلاً حتىٰ أُريك كيف أنك أنت الذي أجهزت علىٰ المذهب وأصبح المذهب باعترافك مجرد فخ كبير!

الآن رجاءًا ركز قليلاً في الكلام.

عندما سألتك هل إلهك يفكر أنت قلت: (السؤال يبدو لي فخًّا، ولكن سأجتهد لإجابته، وبشكل عام فأنا أفهم التفكير علىٰ أنه عملية عقلية يتم من خلالها معالجة المدخلات للوصول لاستنتاجات أو قرارات، وهذا لا يجوز علىٰ الله... فالله يعرف كل شيء يقينًا، فهو خالق كل شيء، وبالتالي وبالمنطق هو مطلع علىٰ كل شيء... الله علمه أزلي، وقدراته لا محدودة، وهذا يتنافىٰ مع وصفه بأنه يفكر... فالذي يفكر هو ينقصه علم اليقين بخصوص شيء ما مما يدفعه للتفكير به، وهذا يتنافىٰ مع صفات الله).

وبالفعل السؤال كان فخًّا فلو قلت: إن الإله يفكر. إذن انتهت الربوبية، وانتهىٰ المذهب، وانتهت المناظرة كما فصلنا من قبل.

وبعدها بمداخلتين بالضبط؛ وقعت أنت في نفس الفخ - سبحان الله - واعترفت أن المذهب الربوبي يقول بنسبية صفات الإله - احتمال الشيء

ونقيضه علىٰ الإله -، عدم الجزم بصفات للإله، احتمال يكون علم الإله أزلي واحتمال يكون علم الإله غير أزلي، وكلتا الحالتين وكلا التصورين عن الإله كلاهما يقول بهما المذهب وكلاهما صحيح المذهب وهذا باعترافك أنت حيث قلت: (وفي هذا الخط عدد لا نهائي من النقاط، بعض هذه النقاط (داخل الطيف الربوبي) تنظر لصفات الإله نظرة "لاأدرية" فترفض إلصاق كل أو بعض الصفات به، وبعض هذه النقاط تتعدىٰ مسألة وصف الإله بالكمال لتفترض نوعـًا من التدخل من هذا الإله في حياة البشر وفي سير الكون... وكل هذه النقاط هي مرحب بها ومعترف بها داخل إطار التنوع الربوبي).

إذن لاحظ الكلمة (داخل الطيف الربوبي) أي أن النسخ اللانهائية لتصور الإله في المذهب الربوبي ليست خطأً في المذهب، وليست خروجًا علىٰ المذهب وليست تمردًا علىٰ المذهب، وإنما هي أصل المذهب.

إذن القول بالشيء ونقيضه هو أمر من مسلمات المذهب.

إذن أنت وقعت في الفخ الأول - الذي كنت تحذر منه - وانتهت المناظرة.

لقد كنت تحذر أن تقع في الفخ، وتحذر أن تقول: إن الرب يفكر. ثم أتيت بعد مداخلتين بالضبط لتقول بالنسبية علىٰ الإله داخل المذهب، وتقول بجواز القول بالشيء ونقيضه، وتقول بوجود نُسخ لا نهائية لتصورات الإله داخل المذهب.

إذن يجوز القول بأن الإله يفكر داخل المذهب.

بالفعل أنت أنقذت نفسك من الوقوع في الفخ لكنك أوقعت المذهب بأكمله داخل الفخ!

ونحن هنا لا نتناظر حول معتقدك أنت يا زميل ولا يعنيني تصورك الشخصي للإله فمناظرتنا حول المذهب إجمالاً، وحول ما يقول به المذهب وليس حول تصورك الشخصي.

إذن ماذا تبقى يا زميل؟

لقد انتهت المناظرة.

انتهت الربوبية.

الآن نأتي لتفنيد مداخلة زميلنا الربوبي حيث أوقع نفسه في مغالطات منطقية كثيرة.

الفخ الجديد الذي وقع فيه زميلنا الربوبي حين قال: (ووجود فهم خاطئ بين الربوبيين لطبيعة وخصائص الذات الإلهية (بفرض وجوده) لا يضير الربوبية... فلا يضير أي حقيقة في هذا الكون وجود من يحيد عنها ويعجز عن استيعابها... والإسلام مثلاً تدرك صحته بالعقل، ولكن هناك ٩٠٪ من البشر ممن لم يصلوا لقناعة عقلية بصحة الإسلام "بشكله السلفي الأمثل"، فهل يضير ذلك الإسلام أو يدفعنا للقول بأن تفاوت أفهام البشر يعني ضبابية الإسلام وعدم وضوحه واستحالة الوصول لقناعة بصحتة عن طريق العقل ؟؟؟).

هل النسخ اللانهائية لتصور الإله في المذهب الربوبي هي خطأ في المذهب وخروج على روح المذهب أم أنها أصل المذهب؟

السؤال بصيغة أخرى:

هل التصورات اللانهائية للذات الإلهية والقول بالشيء ونقيضه كما اعترفت أنت وقلت: (يجوز أن يكون علم الإله أزليًّا ويجوز أن يكون غير ذلك).

هل هذه التصورات اللانهائية المتناقضة هي تمرد على المذهب وكفر بالمذهب، أم أنها أطياف المذهب المتنوعة ووجوهه الكثيرة ؟

السؤال بصيغة ثالثة:

هل الأطياف اللانهائية لوصف الإله داخل المذهب الربوبي، هي ما يقول به المذهب وكلها تحت خط المذهب أم أنها تمثل ربوبية غير سليمة ؟

الآن إجابتك مشكورة موجودة داخل مداخلتك: (وفي هذا الخط عدد لا نهائي من النقاط، بعض هذه النقاط (داخل الطيف الربوبي) تنظر لصفات الإله نظرة "لاأدرية" فترفض إلصاق كل أو بعض الصفات به، وبعض هذه النقاط تتعدى مسألة وصف الإله بالكمال لتفترض نوعـًا من التدخل من هذا الإله في حياة البشر وفي سير الكون... وكل هذه النقاط هي مرحب بها ومعترف بها داخل إطار التنوع الربوبي «طالما لم تتجاوز حدي ذلك الخط»).

إذن الآن هل اتضح لك مما سبق أنه لا يوجد شيء اسمه: (وجود فهم خاطئ بين الربوبيين لطبيعة وخصائص الذات الإلهية).

لأن أي فهم خاطئ للذات الإلهية، سيقع ضمن الخط الربوبي وضمن المذهب الربوبي وداخل الحظيرة الربوبية!

بل إن كلمة فهم خاطئ للذات الإلهية هذه الكلمة تدل علىٰ أنك لا تفهم أي شيء عن الربوبية!

لأن كُل فهم للذات الإلهية داخل المذهب الربوبي هو فهم صحيح وسليم طالما كان بالأدلة العقلية.

فمن أين لك بوجود فهم خا ـئ داخل المذهب الربوبي؟!؟

كل فهم داخل المذهب الربوبي حتمًا هو فهم صحيح، ولذا يوجد عدد لا نهائي من التصورت للإله داخل المذهب الربوبي، وهذا ما اعترفت أنت به بل وأكدّت عليه، إذن هذه الأفهام اللانهائية للذات الإلهية لا تمثل خطأ في المذهب أو تمردًا علىٰ المذهب أو هرطقة في المذهب بل هي أصل المذهب.

هل أدركت الآن خطأك الجسيم في فهم الربوبية ؟ هل أدركت الآن أنك لا تستوعب أبعاد المذهب الربوبي ؟

هل أدركت الآن عمق الفخ الذي أوقعت نفسك فيه؟

كل فهم داخل المذهب الربوبي حتمًا هو فهم صحيح، ولذا يوجد عدد لا نهائي من التصورت للإله داخل المذهب الربوبي، وهذا ما اعترفت أنت به، بل وأكدت عليه إذن هذه الأفهام اللانهائية للذات الإلهية لا تمثل خطأ في المذهب

أو تمردًا علىٰ المذهب أو هرطقة في المذهب بل هي أصل المذهب.

هل أدركت الآن خطأك الجسيم في فهم الربوبية ؟ هل أدركت الآن أنك لا تستوعب أبعاد المذهب الربوبي حين قلت: (وجود فهم خاطئ بين الربوبيين لطبيعة وخصائص الذات الإلهية).

لأن هذه العبارة تنسف كل فهمك للربوبية وكل أصول المذهب الربوبي..؛ لأنه مذهب يقوم علىٰ التعددية الفهمية وليس حصريًّا لعقل دون عقل ولا لفهم دون فهم.

أما قولك: (وفي هذا الخط عدد لا نهائي من النقاط، بعض هذه النقاط (داخل الطيف الربوبي) تنظر لصفات الإله نظرة "اللاأدرية" فترفض إلصاق كل أو بعض الصفات به، وبعض هذه النقاط تتعدىٰ مسألة وصف الإله بالكمال لتفترض نوعـًا من التدخل من هذا الإله في حياة البشر وفي سير الكون... وكل هذه النقاط هي مرحب بها ومعترف بها داخل إطار التنوع الربوبي).

إذن أنا كلامي صحيح

إذن هناك نسخ لا نهائية من تصور الذات الإلهية داخل المذهب الربوبي.

طيب أنت الآن تطرح المشكلة؟

أين الحل؟

أم أن هذا أمر مفرح بالنسبة لك حتىٰ تذكره علىٰ سبيل العرض لا التفنيد؟

هذه كارثة...

لذا نقول أن الربوبية هي انتحار للعقل!

هل يُعقل أن يسمح الله لنا بتحديد قوانين الكون بدقة تبلغ جزء من مليار المليار من الجزء، ولا يسمح لنا أن نعرف صفاته وغايته من خليقته ؟

هل يُعقل أن يرزقنا الله بهرمونات لو اختلت بمقدار جزء من مليون جزء من المللليليتر لتحولت حياة الإنسان إلىٰ جحيم، ثم لا يرزقنا معرفة الغاية من خلقنا والتي هي أهم من كل نعم الدنيا.

فمعرفة الغاية من وجودنا هي أهم من كل علوم الدنيا وكل نعم الدنيا.

هل يعقل أن يسمح لنا بمعرفة أعمق علوم المادة والطبيعة التي نستطيع أن نستغني عنها شاكرين، ولا يسمح لنا بمعرفة أعظم ما يشغل الذهن الإنساني عبر كل العصور، بل ويتركنا أمام عقل عابث قاصر - باعترافك - ؟ عقل يفترض صور لا نهائية للذات الإلهية.. عقل يفترض الشيء ونقيضة.. عقل يفترض العدم والكمال ولا يستطيع أن يؤكد أيهما الأصح.. وأنت علىٰ سبيل المثال كأحد العقول داخل المذهب الربوبي لم تستطع أن تثبت أن علم إلهك أزلي، وبالتالي لن تستطيع أن تثبت أي صفة للذات الإلهية، وبالتالي لو ألزمتك عقلاً أنك تعبد العدم لن تستطيع تفنيد أدلتي العقلية.. فهل يعقل أن الذي خلق الأكوان والأفلاك بهذا الإحكام وهذه الدهشة والرهبة يتركنا أمام عقول حائرة

قاصرة تفترض وتقترح وتضع عدد لا نهائي من الاحتمالات بخصوص أهم ما في الوجود ؟

أليس هذا شتمًا مباشرًا لإلهك يا زميل يا ربوبي ؟ ألست بذلك تنسف مذهبك وتصفه بالعقم اللانهائي والسخف الشديد؟

أما قولك: (من وجهة نظر ربوبية فإن الإله لا يطالب البشر بأن يدركوا خصائصه علىٰ الوجه الأكمل، ويعرفوا صفاته علىٰ حقيقتها (كما في الإسلام)، فليس هناك نار مثلاً تنتظر من يخطئ في وصف الإله بوصوف الكمال... ولو كان الإله يأبه بذلك فعلاً أو يريد أن يعرفه البشر حق المعرفة ويدركوا صفاته الحقيقية (حسب المعتقد الربوبي) لقام الله بإلقاء هذه المعرفة في قلوب البشر جميعـًا، أو جعل من صفاته حقائق بديهية واضحة لا يختلف فيها اثنان، كما يختلف اثنان حول أن لون اللبن أبيض تقريبـًا وأن الشمس حارة نسبيًّا).

لا يا زميل ليس الأمر بهذه البساطة!

عندما تعرف صفات الإله ساعتها ستعرف الغاية من وجودك أنت، والغاية من كل شيءٍ حولك وتعرف ما بعد الموت، وتعرف الحكمة والغاية والهدف وتحدد المسار وتعرف الاتجاه..!!

فليست معرفة صفات الإله مجرد لغو كلامي، ولا معرفة نظرية مجردة بل ينبني عليها تصورك لكل شيء في الوجود من حولك.

بل إن معرفة صفات الإله تجيب عن كل الأسئلة التي تحير كل العقول

البشرية، وتجد من خلالها الأجوبة مباشرةً، فمعرفة صفات الإله هي المعرفة الكلية.

وقد كان أندريه جيد المفكر الفرنسي الشهير أكثر ذكاءًا منك، فعندما طلب منه طه حسين يومًا أن يسمح له بترجمة أعماله إلىٰ العربية.. فرد عليه أندريه جيد مندهشًا وقال: "يدهشني اقتراحك.. الإنسان المسلم يحمل من الأجوبة أكثر مما يثير من أسئلة".

فالعقل الذي يعرف صفات الإله يعرف أنه وجد الطريق وانتهت المسألة بالنسبة له، بينما الذي ينكر النقل هو باعترافك أنت يطرح نسخ لا نهائية للذات الإلهية – أي يستحيل أن ينجو ضمنيًّا –. لذا يقول الدكتور عبد الحليم محمود -رحمه الله- شيخ الازهر السابق: « **فالدين سفينة والعقل لوح خشب وقلّ من نجا بلوح خشب**».

أما عن كون الإله كان من المفترض أن يضع معرفة صفاته في كل قلب، فالإله أرسل رسله وجعل الإيمان بهم مناط التكليف علىٰ العباد، وأجرىٰ علىٰ ألسنتهم ما يريد من العباد وأخبرهم بصفاته وذاته، فمن شاء آمن وعرف الطريق وسلِم، ومن شاء أنكر النقل ودخل متاهة النَّسخ اللانهائية من الاحتمالات بخصوص الذات الإلهية والغاية الوجودية وساعتها لا يلومن إلا نفسه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا

حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[1].

أما قولك: (الشك عندنا مرحب به ومحمود).

الشك محمود؟

درس في ذم الشك:

الشك مرحلة ساذجة وسطحية وأولية في كل علوم الدنيا وفلسفاتها، ولابد للشاك أن يوقن بذلك وإلا لاعتبر الشك هو الغاية، وتوقف عند الشك وامتدح نفسه أنه شاك، وجميع المذاهب الإلحادية والربوبية تعتبر الشك هو الغاية، لذا هي لم تتقدم خطوة منذ أول ملحد وأول ربوبي، فالآلية العقلية لإنتاج الشك أسهل بكثير من آليات إنتاج اليقين.

والشك يغلب على الحدث وقليل العلم، بينما اليقين يحتاج صاحبه إلى إعمال العقل ليغالب الشك.. فإنتاج الشك أسهل وأيسر من إنتاج اليقين.

ولذا لا يمكننا استيعاب أن يكون الشك هو موقف حياتي دائم.. بمعنى أدق

---

(١) سورة النحل: الآية (٣٥-٣٦).

يمكن أن يُفهم هذا الموقف الحياتي كموقف عارض أو مرحلي، فمعنىٰ أن يعيش الإنسان ويموت تحت هذا العنوان (شـاك) هذا مُخالف لطبيعة الإنسان البشرية، فلو كان الشك وعدم الفهم والرفض حالة مُريحة ومُمتعة ما حصل تقدم في حياة البشر... فبما أنه يوجد تقدم في حياة البشر إذن البديهة المُركبة في البشر هي الوصول للحقائق والاستقرار عليها، إذن النسبية والتذبذب مُخالفة للوجود بأسره...

ثم يأتي من يحمد الشك ويفرح به.!!

بل ويتبجح به.

فعلًا نحن أمام عجائب المخلوقات..!!

أما قولك: (الربوبيون في الواقع معظمهم يؤمنون بالكمال الإلهي واتصاف الذات الإلهية بصفات الكمال، أنا أؤمن بذلك، والزميل عيسىٰ الربوبي يؤمن بذلك، وأحسب أن كل من مر بهذا المنتدىٰ من الربوبيين يؤمن بذلك... وفكرة الكمال الإلهي عمومـًا هي الفكرة السائدة داخل التيار الربوبي).

يا رجل هل أنت تعي ما تقول؟

هل نحن مشكلتنا ومشكلة حوارنا هي نظرتكم إلىٰ الذات الإلهية أم في دليلكم الذي من خلاله اقتبستم تلك النظرة؟

قلتم لنا: دليلنا العقل!

قلنا: سلمنا لكم بذلك.

الآن ما هو دليلكم العقلي علىٰ ذلك؟

يا رجل لقد كررت هذا السؤال قرابة العشر مرات " أما أن تُحضر دليلاً عقليًا علىٰ أن علم إلهك أزلي أو تعترف بانهيار اللادينية في أهم أصل من أصولها، وهو اعتماد العقل في تحديد صفات الإله " وإذا لم تحضر دليلًا عقليًّا علىٰ أزلية العلم الإلهي، فلن تستطيع أن تُحضر أي دليل علىٰ أية صفة أخرىٰ.

ومع ذلك إلىٰ الآن لم تحضر لنا دليلاً عقليًّا، وما زال الجواب متروكًا.

إذن مشكلتم هي مع العقل وليست معنا نحن، ومناظرتنا هذه هي فقط لتسليمك إلىٰ العقل.

هل نحن أنكرنا عليكم تصوركم أم فقط طالبناكم بالدليل والمصدر ؟

هل أنت تعي أن الفرق بيننا وبينكم هو أننا نحأول أن نلزمكم بالعقل الذي سلمتم له وأن مشكلتكم هي مع العقل وليست معنا نحن ولا مع تصورنا أو تصوركم للذات الإلهية؟

هل تعي أن كل حواراتنا فقط لإعادتكم إلىٰ العقل الذي أنطلقتم منه؟

ما هذا الإله الذي وجوده كعدمه ؟

أما قولك: (هذه خلاصة ما أريد شرحه وإيصاله عن المذهب الربوبي، وهو كافي في

نظري لدحض كل ادعاءاتك، وفي المداخلة القادمة سأقوم بالربط بين هذه النقاط وبين ما ورد في مداخلاتك من هجوم علىٰ الربوبية، لأبين لك كيف أن هجومك هو قائم بالأساس نتيجة لعدم فهمك لهذه النقاط أو إهمالك لها).

دحض ادعاءاتي؟!!

دحض ؟!!

يا زميلنا الربوبي أرفق بنفسك قليلًا!

هل أنت أجبت عن السؤال الرئيسي - ما هو دليلك العقلي علىٰ علم الإله الأزلي- ؟

هل أنت استطعت الخروج من فخ النسخ اللانهائية للصفات الإلهية داخل مذهبك؟

دحض ماذا يا زميل؟

أنت في هذه المداخلة أسهبت وأطنبت وبحبة خردل ما أتيت، ثم تقول دحض.

يا زميلنا الربوبي صدقني لو كتبت ألف مداخلة لن تتحول صفات الإله في مذهبك من صفات نسبية إلىٰ صفات مطلقة لها كل الكمال.

لو كتبت ألف مداخلة لن تستطيع أن تحضر دليلاً عقليًّا واحدًا علىٰ علم

إلهك الأزلي.. وبالتالي لن تستطيع أن تُثبت بالعقل أية صفة من صفات الإله وبالتالي أنتهت الربوبية.

لو كتبت ألف مداخلة لن تستطيع أن تبرر وجود نسخ لا نهائية لتصورات الإله داخل مذهبك وكلها صحيحة.

لو كتبت ألف مداخلة لن تستطيع أن تُفرق بين الربوبي والشيطان؛ لأن كليهما ربوبيٌّ صالح، وطالما لا قيمة للعمل إذن الشيطان أفضل من ملء الأرض من الربوبيين.

والمذهب الذي يُسوي بين الشيطان والإنسان هو حتمًا مذهب شيطاني.

لو كتبت ألف مداخلة لن تستطيع أن تحضر فرقًا واحدًا بين الملحد والربوبي في العمل فما هذا الإله الذي وجوده كعدمه.

إذن يا زميل صدقني وسامحني مداخلاتك مجرد لغو فارغ لا قيمة لها، مضيعة للوقت مجرد نزهة عقلية، وأنت تريدها كذلك، ألم تُخبرني بذلك ؟

لا يا زميل هذه مناظرة وليست نزهة عقلية.

ومناظرة مباشرة لا تقبل الحيدة أو التشتيت.

عفوا انتهت المناظرة..

انتهت بفشل ذريع للمذهب الربوبي في كل شيء..

فشل في التعرف علىٰ الذات الإلهية بالعقل المجرد.

فشل في معرفة الغاية من الوجود وأهم ما يشغل الذهن البشري داخل المذهب.

فشل في تنزيه الإله.

فشل في صياغة تصور شمولي للمذهب له أركانه ومفرداته، بل لقد تبين إن أهم سمات المذهب وأهم ما يميزه هو السماح بالتناقض والقول بالشيء وخلافه داخل المذهب، فالتناقض والتعددية هما أهم سمات المذهب - لكن الذي أعرفه أن الحق لا يتعدد - وهل يوجد أحق من الحق سبحانه وتعالىٰ؟

فشل في إفراز ميثاق أخلاقي أو معرفي أو قيمي يمثل مستندًا مرجعيًّا لأتباع المذهب، لذا لا فرق داخل المذهب بين أصلح ربوبي وبين الشيطان، لا فرق بين من يؤمن بالإله ومن يكفر به.. لا فرق بين الظالم والمظلوم.. عبث في عبث هذا هو عنوان نظرة المذهب للغاية من الوجود الإنساني ولا أعرف ما هذا الإله الذي وجوده كعدمه.

فشل في كل شيء... إن الربوبية هي طليعة الفاشلين.

يستحيل أن تكون الربوبية هي المذهب الذي يريده الله منا.

يستحيل أن تكون الربوبية هي الغاية من وجودنا أو هي ما يرتضيه الله لعباده.

يستحيل أن تسكن الربوبية داخل عقل يحترم ذاته، أو يحترم إلهه أو يحترم أي ذرة من ذرات هذا الوجود.

في النهاية أنا أدعو الزميل وأدعو كل ربوبي محترم إلىٰ شهادة النجاة شهادة العقل شهادة الخلاص والإخلاص لله، شهادة السلام والتسليم لله، شهادة الحكم والتحكيم لله، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

اللهم اجعلنا هداةً مهتدين غير ضالين ولا مضلين.. اللهم آمين.

انتهت مناظرتي مع الربوبي بفضل الله وتوفيقه.
والآن ننتقل للفرع الثالث من فروع الإلحاد ألا وهو اللاأدرية.

تعريف اللاأدرية

اللاأدرية:

اللاأدرية هي مرحلة منتصف الطريق، إذ لم تجزم بوجود خالق ولم تنفِ وجوده، بل تجعل كل الاحتمالات قائمة، وإذا كان التأزم النفسي الشديد قد يؤدي إلىٰ الإلحاد تخلصًا من الدين، أو يؤدي إلىٰ الدين تخلصًا من الإلحاد، فإن اللاأدرية تحبس صاحبها في قلب حالة التأزم.

وهي بذلك أشبه ما تكون بمرحلة عارضة طارئة، ولذا فهي أقل الفرق الإلحادية الثلاث أتباعًا، إذ أن البديهية المُركبة في البشر هي الوصول إلىٰ الحقائق والاستقرار عليها، وإلا ما حدث تقدم في حياة البشر، أما اللاأدرية فهي تفترض حالة من حالات منتصف الطريق، ولذا فهي غير مستساغة ولا توجد لها ركائز داخل النفس، ولا يقبل الإنسان السوي أن يحيا ويموت تحت هذا المُسمىٰ " لا أدري".

وفي الحديث الصحيح أن رسول الله – صلىٰ الله عليه وسلم- قال: «**إن العبد الكافر ... يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان له: من هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فينادي منادٍ من السماء أن كذب فافرشوا له من النار وافتحوا له بابًا إلىٰ النار. فيأتيه من حرها وسمومها**»[1].

---

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داوود وصححه الألباني في أحكام الجنائز ص ١٥٦.

والشاهد من الحديث أن هذا حال اللاأدري في قبره، نعوذ بالله من عذاب القبر!

والآن نأتي لمناقشة اللاأدرية:

مَن الذي عليه عبء الإثبات؟

مناقشة اللاأدرية

مَن الذي عليه عبء الإثبات؟ Burden of Proof

في البداية علينا أن نقول: إن القضية الوجودية الكبرىٰ لا تحتمل الركون في منتصف الطريق ولا تحتمل عدم الوصول، فالأمر جد وليس بالهزل: مِن أين جئنا؟ وإلىٰ أين نحن ذاهبون؟!

والذي لا خلاف عليه بين المؤمن والملحد واللاأدري: أن كل متع الدنيا وكل شهوات العالم لا تكفي إنسانًا يعلم أنه وُلد ليموت!

فالقضية الوجودية الكبرىٰ هي أعظم القضايا علىٰ الإطلاق، ولذا لا تحتمل أنصاف الحلول-كما تقتضي اللاأدرية-، أو التأجيل للمستقبل لعل العلم يُخبرنا شيئًا- كما يقتضي الإلحاد فيما يُعرف بفجوات المستقبل المعرفية-.

الذي يؤمن بوجود الله والذي يُنكر وجوده، مُطالب بمنتهىٰ البساطة بطرح منطقي متكامل، وبما أن ادعاء وجود الله له من الوجاهة والأدلة والقرائن الشيء الكثير مثل: السببية والعناية والقصد والغاية والإيجاد من اللازمان واللامكان، ودليل الحدوث، ومعجزة خلق الحياة، والنبوات والدين والفطرة والأخلاق، والمعايرة الدقيقة لحظة الخلق الأولىٰ لكل الموجودات، والمعايرة الدقيقة لحظة خلق الكون، والمعايرة الدقيقة في كل شيء حولك وداخلك ومعضلة الخير واستيعاب الخير والشعور بالامتنان وما لا يمكن حصره من الأدلة.

وبناءًا علىٰ ذلك فإن عبء الدليل ينتقل إلىٰ المنكر -منكر وجود الله-!

وهذا ما يفعله القاضي المنصف حين يطلب دليل نفي من المتهم، خاصةً لو كانت تحت يديه عدة إثباتات أو حتىٰ قرائن.

فمثلاً في قصة سيدنا يوسف مع امرأة العزيز التي راودته عن نفسه، شهد شاهد من أهلها وجاء بقرينة تدل علىٰ أنها هي التي راودته عن نفسه، وبالتالي انتقل عبء الدليل ليكون علىٰ المنكر.

وبالمثل نقول إن قرائن كبرىٰ عقلية كالتي ذكرناها تجعل عبء الدليل في الحقيقة علىٰ المُنكِر.

لكن صراحةً كانت جميع ردود مفكري اللاأدرية والإلحاد من السذاجة والسماجة بمكان، فمثلاً يقول برتراند راسل أحد مفكري اللاأدرية أنه لا يستطيع إثبات وجود الله كما لا يستطيع نفي وجود إبريق شاي يدور حول كوكب زحل، وكما يقول الملحد المعاصر ريتشارد داوكنز أنه لا يستطيع إثبات وجود وحش سباجيتي طائر أو نفي وجوده، ويقول آخر: لا نستطيع إثبات وجود تنين قابع في جراج. وهذ الأمثلة يستخدمها الملحد العربي كثيرًا بنفس القدر من السذاجة والغباء. ولا ندري ما وجاهة هذه الأمثلة الساذجة التي لا تمت بأي صلة للعلل والمعلولات والأسباب والنتائج؟

هل إبريق الشاي له صلة بالسببية أو الغائية أو الضبط؟

هل إبريق الشاي معلول" مخلوق" ، أم عِلة "خالق"؟

هل إبريق الشاي سبب أم نتيجة؟

هذه الأمثلة الساذجة توضح أن كبار مفكري اللاأدرية والإلحاد علىٰ قدر مدهش من السذاجة، فهذا تناقض جوهري لا يفرق بين المعلول والعلة أو

السبب والنتيجة، فنحن نتحدث عن علة أولىٰ- خالق-، ولا نتحدث عن معلول- مخلوق-، نحن نتحدث عن سبب لا نتيجة.

هذا التناقض المُركب Paradox في الطرح يؤكد عدم استطاعة كبار مفكري اللاأدرية والإلحاد مجاراة المتدينين في وجاهة الأدلة وكثرة القرائن وحضور المنطق في الطرح!

فلم يبق لهم إلا الإفلاس المعرفي والطرح المتناقض الذي يعبر عن عدم استيعاب المسألة أو استيعابها لكن مع الفشل والخيبة في مجاراة أدلة المؤمن.

وبذلك يصبح عبء الإثبات Burden of Proof إشكالية حصرية بالإلحاد لم تتم الإجابة عنها ولو بصورة ساذجة أو بسيطة منذ آلاف السنين وحتىٰ الساعة، ويظل موقف المتدين هو الأكثر عقلانية ومنطقية خاصةً مع تكامل فلسفته ورؤيته للحياة والوجود من حوله!

فالشيء المقبول الممتلئ بكل هذه الأدلة والقرائن، لو أردت أن تنفيه فيجب عليك أن تخرج علينا بأدلة أقوىٰ حتىٰ نؤمن بما تقول، وحتىٰ تفعل ذلك- ولن تفعل- يبقىٰ التفسير الديني هو التفسير الوحيدالمنطقي المقبول .

وعلىٰ قِلة أتباع اللاأدرية فقد انقسمت بدورها إلىٰ طوائف شتىٰ.

الفرق والمذاهب اللاأدرية المعاصرة:

١ - اللاأدرية القوية المغلقة Strong Agnosticism

٢- اللاأدرية الضعيفة Weak Agnosticism

٣- اللاأدرية البرجماتية Apathetic Agnosticism

٤ - اللاأدرية الملحدة Agnostic atheism

٥- اللاأدرية المؤمنة Agnostic Theism

ولو سلمنا بصحة نظرة اللاأدرية علىٰ العموم للأمور، لتحولت المعرفة والعلوم الإنسانية المتراكمة عبر العصور إلىٰ خبرات عبثية لا موضوعية لا يُعتد بها.

تحتج اللاأدرية بمنطق أن خبرتنا لا موضوعية، وبالتالي يستحيل الإجابة عن مسألة وجود الله -سبحانه وتعالىٰ- وكأنهم يُعرفونها مسبقًا بأنها موضوعية، فمن الذي قال: إنها موضوعية أو غير موضوعية. ومَن أدراهم أنها مسألة مستقلة وليس كمثلها شيء؟

ثم إنهم لا يضعون احتمال وصول معرفة الله إلىٰ وجداننا بطريقة نعلمها أو لا نعلمها!

ثم إن عدم معرفة جوهر الشيء لا تعني انتفاء وجوده، فنحن لم نعرف جوهر المادة ذاتها حتىٰ الآن! والإنسان يستطيع الإيمان بالأشياء المجردة والمطلقة دون القدرة علىٰ الإحاطة التامة بها، فالعقل الإنساني يستطيع أن يصل إلىٰ حتمية وجود قوة إلهية خارجة عن أبعاد الكون التي يعهدها، وأغلب البشر يؤمنون بالله تبعًا للفطرة الداخلية دون إعمال كثير عقل ويتبعون الدين السائد والله يفصل بينهم يوم القيامة، ومن الناس مَن يُعمل عقله فيهتدي أو ينحرف حسب درجة البحث ومصداقيته.

وخارج كل هذا تربض اللاأدرية بلا مستند ولا ركيزة ولا معنىٰ![١].

---

(١) جرت أكثر من مناظرة بيني وبين اللاأدريين وقد جمعت هذه المناظرات في كتاب يحمل مناظرة اللاأدريين، وهو متاح علىٰ هذا الرابط لمن أراد مراجعته:
http://laelhad.com/index.php?p=8-0-93

بعد حديثنا عن الفرق الإلحادية الثلاث

"الإلحاد- الربوبية- اللاأدرية"

جاء وقت تعطير صفحات الكتاب بنسائم

من دلائل النبوة

ويعقبها لمحة من آيات اللّه في خلقه!

دلائل النبوة

من أدلة نبوته صلى الله عليه وسلم:

(١) حادث "طُعمة"؛ وطُعمة كان رجل مسلم مسكين، سرق درع من جاره وخبأها عند يهودي، فوجد الناس الدرع عند اليهودي، فتحركت العصبية وقال اليهود: إن المسلم "طعمة" هو سارق الدرع. وقال المسلمون: إنها مكيدة يهودية للإسلام. فنزل الوحي بكشف طعمة وتبرئة اليهودي، فاستسلم طعمة واعترف ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[1]، فالذي كسب الخطيئة هو طعمة، والبريء هو اليهودي.

(٢) حادث حاطب ابن أبي بلتعة؛ الذي أرسل إلىٰ قريش قبل فتح مكة يُخبرهم بأمر النبي صلىٰ الله عليه وسلم، حتىٰ يؤمنه المشركون علىٰ أهله بمكة، وأرسل الرسالة مع امرأة، فأخبر الله نبيه، فأمر النبي صلىٰ الله عليه وسلم عليًّا والزبير والمقداد أن ينطلقوا حتىٰ يأتوا مكان يدعىٰ"روضة خاخ" فإذا به امرأة معها كتاب وليأخذوه منها، فحدث ما أخبر به صلىٰ الله عليه وسلم. وسجَّل الله هذا الحادث في كتابه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ

(١) سورة النساء: الآية (١١٢، ١١٣).

خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[1].

(٣) إسلام أهل اليمن بسبب معجزة واحدة: وذلك أن كسرىٰ مزَّق رسالة النبي صلىٰ الله عليه وسلم، وأمر باذان حاكمه علىٰ اليمن أن يخبر النبي صلىٰ الله عليه وسلم بهذا الرد وهو تمزيق الرسالة، فبعث باذان رسولين إلىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم يخبراه بالرد، فرأىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم الرسولين قد أطالا شواربهما وحلقا لحيتهما فقال لهما: " مَن أمركما بذلك؟". قالا: ربنا.وكانا يسميان الحاكم الفارسىٰ "كسرىٰ"ربًّا.

فقال لهما النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «**أخبِرا الذي أرسلكما-باذان-: إن ربي قتل ربه الليلة**».

فقد انتقم الله لرسوله من كسرىٰ وقتله في تلك الليلة، فعاد الرجلان إلىٰ باذان يخبرانه بالأمر، فعجب جدًّا وانتظر الخبر من بلاد الفرس، فجاء الخبر بمقتل كسرىٰ في تلك الليلة التي حددها النبي –صلىٰ الله عليه وسلم –فعلاً، فأسلم أهل اليمن وأسلم باذان وجنده، وجاء وفد من أهل اليمن يتعلمون الإسلام وأرسل فيهم رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم معاذ بن جبل، وأمر النبي صلىٰ الله عليه وسلم ببناء جامع في بستان باذان وحدد قبلته بالضبط، وسبحان الله نكتشف اليوم بالأقمار الصناعية أن القبلة التي حددها النبي صلىٰ الله عليه وسلم من بُعد قرابة ألف كيلو متر هي القبلة المثالية للجامع، فتصير معجزة

---

(١) سورة النساء: الآية (١١٢، ١١٣).

جديدة كبرىٰ نشهدها اليوم ويشهدها أهل اليمن إلىٰ قيام الساعة، وهذا الفيديو يشرح معجزة القبلة بتفصيلها[١].

(٤) أخبر النبي صلىٰ الله عليه وسلم أن التمكين قادم للإسلام في الأرض، وأنها ستعمر بعبادة الله فقال: «**إن الله زوىٰ لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض**». ولم يمض جيلٌ من الناس حتىٰ كان الإسلام جناحاه بين أفغانستان شرقًا والأندلس غربًا.

(٥) إخباره صلىٰ الله عليه وسلم بتقارب الزمان والمكان، وبالفعل ظهرت الوسائل السريعة للإتصال والنقل والتي جعلت أجزاء الأرض متقاربة، كما أخبر النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «**لا تقوم الساعة حتىٰ يتقارب الزمان وتزوىٰ الأرض زيًّا**». أي: تُطوىٰ ويضم بعضها إلىٰ بعض.

(٦) إخباره صلىٰ الله عليه وسلم بأننا لن نعود في حاجة إلىٰ الجِمال بعد ظهور وسائل جديدة فقال صلىٰ الله عليه وسلم في أحاديث آخر الزمان: «**ولتُتركن القلاص فلا يُسعىٰ إليها**». القلاص: الجِمال.

لمحة عن السُّحب

السحاب عبارة عن سيول عملاقة تطير في جو السماء، وينزل ليُشكل الأنهار والمياه الجوفية والآبار.

وكان القدماء يظنون أن المياه الجوفية تتكون نتيجة فجوة في قلب الأرض تنقل مياه المحيط إليها – الطرح الأرسطي –، بينما يقول القرآن خلاصة ما

(١)http://www.youtube.com/watch?v=H99ycqm9q_I .

توصل له العلم منذ عقود قليلة فقط، وهو أن المياه الجوفية مصدرها مياه الأمطار ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾(١).

فمصدر المياه الجوفيه هو الينابيع المتكونة من الأمطار، وليس فجوة أرسطو التي في عمق القارة.

ويتكون السحاب نتيجة تبخر الماء وصعوده إلىٰ مستوىٰ يتجاوز أعلىٰ قمم الجبال غالبًا، حتىٰ لا تصير الجبال عائقًا لحركة السحب إلىٰ أواسط القارات ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾(٢).

ومن العجيب أن برودة الجو في الطبقات العليا سبب رئيس في عدم مغادرة السحاب لجو الأرض إلىٰ ما بين الكواكب فيضيع الماء وبالتالي تخرب الأرض و تتوقف الحياة ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾(٣).

فذهاب الماء المتصاعد أولىٰ فيزيائيًا من تجمعه ثم نزوله مرةً أخرىٰ، ولذا امتنّ الله علينا بحفظه.

وعندما يصعد بخار الماء الخفيف نتيجة عمليات البخر، تتحرك الرياح المحملة بذرات الغبار فتتجمع حول ذرات الغبار جزيئات بخار الماء، ثم تتضخم تلك الجزيئات فتصير سحابًا عملاقًا به مليارات الجالونات من المياه

---

(١) سورة الزمر: الآية (٢١).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٥٧).

(٣) سورة المؤمنون: الآية (١٨).

محمولة في جو السماء ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ ﴾[١].

والآية صريحة في أن الرياح هي التي تُثير السحاب وإلا ما تجمع بخار الماء علىٰ شكل سحب، ولظل بخار الماء تائهًا في طبقات جو الأرض الفسيحة.

وهذه الرياح لها منظومة من ثلاث درجات بحيث تضبط حركة السحب وتنقلها وترفعها وتثيرها دون تداخل بين هذه الدرجات، فهناك درجة الرياح العادية وهي الملاصقة للأرض حتىٰ ارتفاع ٥ أميال ثم تأتي درجة التيار النفاث وهي رياح بسرعة ٢٠٠ ميل في الساعة ولو نزلت إلىٰ الارض لدمرت كل شيء، وليست الأعاصير المدمرة بسرعة ٧٥ ميل إلا عبرة، وتأتي الدرجة الثالثة وهي عند مستوىٰ ٨ أميال فوق مستوىٰ سطح البحر وهي منطقة بلا ريح.

المهم بعد أن تتشكل السُحب بإثارة الريح لها، ينزل الماء من السحب بمنظومة أعجب-منظومة القطرات لا السكب المفاجئ-، وتسلك تلك القطرات في الأرض دون أن تتعفن ولا تركد علىٰ ظهر الأرض فتعيق الحركة، ولا تغوص في باطن الأرض فلا ننتفع بها، بل تظل قريبةً من سطح الأرض في متناولنا، ويظل ماؤها نابعًا ومعينًا؛ و لو افترضنا أن مسامية الصخور التي ينزل ماء المطر بين عروقها زادت فقط للضعف لغار الماء في بطن الارض وما استطعنا إليه سبيلاً ولانهارت منظومة المياه الجوفية التي يعيش عليها ٤٠٪ من البشر- أي يعيشون علىٰ نعمة أن مسام الصخور بهذا الحد الذي يتيح حفظ الماء وليس غوره بعيداً في قلب الأرض-، والله فقط يُذكرنا بهذه النعمة التي

(١) سورة الروم: الآية (٤٨).

ربما لا نلتفت لها فيقول سبحانه ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾[1].

لكن هنا السؤال الهام: كيف ضبط القرآن الكريم هذه المفاهيم العلمية الصحيحة لكيفية تكون السحب ونزولها وطريقة تشكل المياه الجوفية ونعمة عدم غَور الماء؟

ثم كيف نفترض أن الطبيعة العمياء قدّرت لنا هذه النعم بهذا الضبط التي لو اختلت منها منظومة واحدة لما كنّا هنا لنكتب أصلًا؟

نعود لتكملة دلائل النبوة:

(٧) الجلد مصدر الإحساس وأغلب مراكز الإحساس في الجلد فحسب، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[2].

فكلما نضجت جلودهم ظنوا أنهم استراحوا من عذاب النار، ويخبرنا سبحانه أنه سيبدلهم جلودًا غيرها، فكيف علم النبي صلىٰ الله عليه وسلم أن قضية الإحساس جلدية في المقام الأول؟

كيف علم النبي صلىٰ الله عليه وسلم أن الحرق من الدرجة الثالثة – أشد أنواع الحروق– غير مؤلم بالمرة The most fatal burns are painless، فالحرق الذي يؤدي إلىٰ الوفاة غير مؤلم بالمرة، حيث أن نضج الجلد يوقف الألم، ففي الدرجة الثالثة ينتهي عمل عصب الإحساس تمامًا .. ولذا فالحرق

---

(١) سورة الملك: الآية (٣٠).

(٢) سورة النساء: الآية (٥٦).

المؤلم هي حرق الجلد فحسب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا أعاذنا الله من نار الدنيا والآخرة .

(٨) حتىٰ عام ١٩٠٠ كانت فكرة وجود أمواج عميقة غير مطروحة، إلىٰ أن لاحظ العلماء الإسكندنافيون في أوائل عام ١٩٠٠ أمواج تحت سطح الماء، تقذف الغواصات علىٰ أبعاد عميقة ﴿**أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞ**﴾[٢].

(٩) هل تعلم أن أصل كل وقود العالم وكل طاقة العالم هو عُضية اليخضور-الكلوروفيل- في النبات والتي تُغذي الحيوان بالطاقة وتغذي الإنسان بالطاقة، وإذا انطرمت تحولت إلىٰ فحم وإذا انطمر الحيوان الذي تغذىٰ عليها تحول إلىٰ بترول، فأصل كل وقود العالم هو الشجر الأخضر ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ﴾[٣].

(١٠) المعيار الجوهري في التسليم بصحة الرسالة هو صدق النبي صلىٰ الله عليه وسلم، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رائعته ثبوت النبوات: «ليست المعجزة هي الشرط الأوحد للنبوة، **فمُدعي النبوة إما أن يكون أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين ولا يُلبس هذا بهذا إلا علىٰ أجهل الجاهلين**، وقد أسلم السابقون الأولون أمثال أبي بكر الصديق وخديجة والمُبشَّرون قبل انشقاق القمر والإخبار بالغيب والتحدي بالقرآن، ....و كثير من الناس يعلم

---

(١) سورة النساء: الآية (٥٦).

(٢) سورة النور: الآية (٤٠).

(٣) سورة يس: الآية (٨٠).

صدق المُخبر بلا آية البتة، وموسىٰ ابن عمران لما جاء إلىٰ مصر وقال لهم إن الله أرسلني علموا صدقه قبل أن يُظهر لهم الآيات، وكذلك النبي لما ذكر حاله لخديجة وذهبت به إلىٰ ورقة ابن نوفل قال هذا هو الناموس الذي أتي موسىٰ، وكذلك النجاشي، وأبو بكر علموا صدقه علمًا ضروريًّا لما أخبرهم بما جاء به وما يعرفون من صدقه وأمانته مع غير ذلك من القرائن يوجب علمًا ضروريًّا بأنه صادق، وخبر الواحد المجهول من آحاد الناس قد تقترن به قرائن يُعرف بها صدقه بالضرورة، فكيف بمن عُرف بصدقه وأمانته وأخبر بمثل هذا الأمر الذي لا يقوله إلا مَن هو أصدق الناس أو أكذبهم، وهم يعلمون أنه من الصنف الأول دون الثاني»(١).

(١١) موافقة صفة النبي الخاتم واسمه ونعته لما يجده أهل الكتاب موصوفًا في كُتبهم، ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾(٢).

وبسفر نشيد الإنشاد في التوراة إلىٰ اليوم إسم محمد –صلىٰ الله عليه وسلم– بالعبرية .. الذي يترجمه النصارىٰ في الترجمة العربية إلىٰ مشتهىٰ الأمم، محمد نطقًا وكتابةً في ترجمة The KJV Old Testament Hebrew Lexicon Original Word من اليمين إلىٰ الشمال: dmxm وبالنطق اللاتيني تتطابق مع "محمد" Transliterated Word Machmad 'Phonetic Spelling…. makh-mawd

---

(١) ثبوت النبوات، لابن تيمية، ص٥٧٣.

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٥٧).

وفي الإنجيل إلىٰ اليوم الباركليتوس القادم الذي بشَّر به المسيح والذي معناه باليونانية أفعل تفضيل من الحمد أي أحمد، والباراكليتوس ليس هو الروح القدس كما يُروج أحبار النصارىٰ؛ لأن الباركليتوس لن يأتي حتىٰ يذهب المسيح، والروح القدس نزل علىٰ المسيح علي هيئة حمامة قبل هذا الحوار الذي تنبأ فيه بقدوم أحمد بسنوات.

(١٢) جاء في كتاب أدروا فيدم-الكتاب المقدس لدىٰ الهندوس- وصف النبي صلىٰ الله عليه وسلم بإسمه ونعته: "أيها الناس اسمعوا، يُبعث محمد بين أظهر الناس، وعظمته تُحمد حتىٰ في الجنة"[١].

وجاء في بهوشي برانم: "في ذلك الحين يُبعث محمد أُستاذ العالم، مُطهر بالخمس المطهرة- الصلوات الخمس-"[٢].

(١٣) وما زالت كتب الهندوس إلىٰ اليوم تحمل البشارة بالنبي صلىٰ الله عليه وسلم[٣].

The Sanskrit text and translation of Verse 5 of Bhavishya Puran, Prati Sarg Parv III: 3, 3 are given below. (The boxed area in the Sanskrit text identifies the word Mahamad or Mohammad).

---

(١) الجزء ٢٠، فصل١٢٧، فقرة٧٠، عبارات ١-٣.

(٢) الجزء ٢ الفصل ٣ عبارات ٣ وما بعدها.

(3) **Bhavishya puran: prati sarg, part lll: 3, 3, 5**.
PROPHET MUHAMMAD IN HINDU SCRIPTURES.
http://www.cyberistan.org/islamic/prophhs.html.

A malechha (belonging to a foreign country and speaking foreign language) spiritual teacher will appear with his companions. His name will be Mahamad...

The translation of Verses 5-27 (Sanskrit text of the Puranas, Prati Sarg Parv III: 3, 3) is presented below from the work of Dr. Vidyarthi.

“A malechha (belonging to a foreign country and speaking foreign language) spiritual teacher will appear with his companions. His name will be Mahamad. Raja (Bhoj) after giving this Mahadev Arab (of angelic disposition) a bath in the 'Panchgavya' and the Ganges water, (i.e. purging him of all sins) offered him the presents of his sincere devotion and showing him all reverence said, 'I make obeisance to thee.' 'O Ye! the pride of mankind, the dweller in Arabia, Ye have collected a great force to kill the Devil and you yourself have been protected from the malechha opponents (idol worshipers, pagans).' ‘O Ye! the image of the Most Pious God the biggest Lord, I am a slave to thee, take me as one lying on thy feet.'

“The Malechhas have spoiled the well-known land of the Arabs. Arya Dharma is not to be found in that country. Before also there appeared a misguided fiend whom I had killed [note: e.g., Abraha Al-Ashram, the Abyssinian viceroy of Yemen, who attacked Mecca]; he has now again appeared being sent by a powerful enemy. To show these enemies the right path and to give them guidance the well-known Mahamad (Mohammad), who has been given by me the epithet of Brahma is busy in bringing the Pishachas to the right path. O Raja! You need not go to the land of the foolish Pishachas, you will be purified through my kindness even where you are. At night, he of the angelic disposition, the shrewd man, in the guise of a Pishacha said to Raja Bhoj, "O Raja! Your Arya Dharma has been made to prevail over all religions, but according to the commandments of ‘Ashwar Parmatma (God, Supreme Spirit), I shall enforce the strong creed of the meat-eaters. My follower will be a man circumcised, without a tail (on his head), keeping beard, creating a revolution, announcing call for prayer and will be eating all lawful things. He will eat all sorts of animals except swine. They will not seek purification

from the holy shrubs, but will be purified through warfare. Because of their fighting the irreligious nations, they will be known as Musalmans (Muslims). I shall be the originator of this religion of the meat-eating nation".

النبوءة الكبرى

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

لقد كان النبي صلىٰ الله عليه وسلم يتنبأ بانتصار المهزوم –الروم– الذي يكاد يستسلم لخصمه، ويحدد موعداً دقيقاً لهذا النصر الذي ما من شيء أبعد في تحققه منه.

اشتدت المعارك بين الروم والفرس خلال الفترة التي كان فيها المسلمون في مكة يعانون الأمرين من المشركين فقد كان أبرويز قد قاد حملة فارسية سنة ٦١١ توِّجت بانتصار كاسح علىٰ الروم في معركة أنطاكية – قرب البحر الميت – سنة ٦١٤ وكان هذا الخبر قد أحزن الرسول –صلىٰ الله عليه وسلم– وأفرح المشركين .

---

(١) سورة الروم: الآية (٢-٦).

فجاء القرآن الكريم بتحديات غيبية معجزة وعجيبة :

(١) أن الروم غُلبت في أدنىٰ الأرض – أي أخفض منطقة بالعالم وبالفعل هذه المنطقة تقع قرب البحر الميت وهي التي وقعت المعركة قريبًا منها[١] .

(٢) يقرر القرآن الكريم في وعد عظيم ومدهش أن الروم بعد هزيمتهم سينتصرون في بضع سنين وهذا وعد الله لا يخلف الله وعده .

وهو ما دفع أبو بكر الصديق –رضي الله عنه– للرهان مع أهل قريش أن الروم ستنتصر في بضع سنين من ٣-٩ سنوات .

الآن نعود لمعركة أنطاكية وبعد هذه المعركة التي حدثت كما ذكرنا عام ٦١٤ م وطيلة تسع سنوات لم تكن الروم تقف في وجه الجيوش الفارسية، بل كانت المدن تتوالىٰ ساقطةً واحدة تلو أخرىٰ وكان أبرويز يحرق الكنائس ويذبح الآلاف، حتىٰ يروىٰ أنه في القدس وحدها قتل تسعون ألفًا من المسيحيين، ثم انتزع منها أقدس رمز ديني عند الروم وهو صليب الصلبوت، وكانت هذه علامة علىٰ نهاية الروم.

الآن لا يوجد أدنىٰ بصيص أمل في الأنتصار مجددًا وإلىٰ عام ٦١٦ كان الفرس لهم الزعامة في العالم وانتزعوا الإسكندرية عام ٦١٦ م ووصلنا الآن إلىٰ العام ٦١٩ م والفرس ينتصرون ويسحقون الروم سحقًا، ولم يبق علىٰ انتهاء المهلة التي حددها القرآن إلا أربع سنوات وفي هذه الفترة كان هرقل ملك الروم غارقًا في اللهو والخمر ومعاقرة النساء، وتتساقط منه الدول والمدن بلدًا بعد

---

(١) اخفض منطقة بالعالم قرب البحر الميت.

http://en.wikipediaorg/wiki/extretremes-on-earth

الآخر وقد سقطت منه مصر في تلك الأثناء وصارت تابعة للفرس .. ثم فجأةً تحدث اليقظة المفاجأة لهرقل – علىٰ حد تعبير كتّاب التاريخ - فيهجر ليالي الملذات ويركب الفرس ويمتشق السلاح**!!**.

ثم في المقابل أيضًا حدثت ظاهرة مماثلة لكنها معكوسة، إذ نجد أبرويز يتوقف فجأةً عن القيادة، وينغمس في اللهو علىٰ نحوٍ مفرط، حيث سيعتزل في قصر بدستجرد لينغمس في الملذات، وكان شغله الشاغل هو تحفيز النحاتين علىٰ نحت تمثال لشيرين أجمل زوجاته اللاتي بلغ عددهن ثلاثة آلاف**!!**.

وبدأت المناوشات بين الروم والفرس تصب في صالح الروم لأول مرة وظلت المناوشات تزداد يومًا بعد يوم في صالح الروم إلىٰ أن حدثت المعركة بين الروم والفرس عام ٦٢٣ واسترد الروم ليس أنطاكية فحسب بل كل بلاد الشام من الفرس أي بعد الهزيمة بتسع سنوات تمامًا كما تنبأ القرآن، و سنة ٦٢٤ م كان طرد الفرس من سوريا يوم نصر بدر . و ظل هرقل زاحفًا حتىٰ احتل عاصمة فارس واسترجع منها صليب الصلبوت .

ما الذي يدفع القرآن للحديث عن نبوءة كهذه؟ لو لم تقع ولو استمر هرقل غارقًا في ملذاته لسقطت الدعوة ...!!

لكن القرآن تحدث عن ذلك وتحققت نبوئته، فكان أول انتصار للروم من بعد هزائمهم المتتالية بعد تسع سنوات بالضبط من هزيمتهم في أنطاكية.

يقول المؤرخ إدوار جِبن Edward Gibbon : "في ذلك الوقت، حين تنبأ القرآن بهذه النبوءة، لم تكن أية نبوءةٍ أبعدَ منها وقوعـًا؛ لأن السنين العشر الأولىٰ من حكومة هرقل كانت تؤذن بانتهاء الامبرطورية الرومانية"[(١)].

۞ **ملحوظة**: بعض الفقرات وتواريخ المعارك مأخوذة من مقالات د.الطيب بو عزة علىٰ منتدىٰ التوحيد .

نعود لتكملة دلائل النبوة:

(١٤) موافقة ما جاء في الرسالة لبديهيات العقل ومتطلبات النفس وحاجة الخلق، فأشبع الإسلام جوعنا الروحي وتألقنا الذهني، وانسابت مبادئه إلىٰ القلوب من تلقاء نفسها انسياب البديهيات!

(١٥) الإسلام الدين التوحيدي الأنقىٰ، الدين الشمولي الأوسع والأشمل، الدين الإيماني الروحي العملي المادي، الدين الذي يدخل في كل صغيرة وكبيرة في حياتك حتىٰ يكون أمرك كله لله.

(١٦) الإسلام الذي يوافق في عقيدته عقيدة جميع أنبياء العهد القديم فالإسلام هو تصحيح لمسار الديانات التي انحرفت، وإعادة لنهج أنبياء العهد القديم من لدن آدم إلىٰ نوح وصالح وأيوب وهود وإبراهيم وموسىٰ وداوود ويونس وهارون وعيسىٰ .. فعقيدة هؤلاء جميعـًا هي عقيدة الرب إلهنا رب واحد بلفظ التوارة والإنجيل .. هذه العقيدة التي لا تعرف تثليث ولا أقانيم ولا موت آلهة منتحرة ولا انتزاع آلهة من آلهة أخرىٰ - انتزاع الروح القدس من

---

(١) تاريخ انحدار وسقوط الإمبراطورية الرومانية، المجلد ٥ ص٧٤، طبعة جيه دي موريس.

الآب – ولا آلهة قومية .. يقول تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[١].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[٢].

إذن فالإسلام ليس ديانة كالديانات، وإنما هو أصل الديانات وتصحيح للخلل الذي أصاب الديانات، وبالأخص اليهودية والمسيحية في نسختيهما العهد القديم والجديد.

---

(١) سورة الشورى: الآية (١٣).

(٢) سورة النساء: الآية (١٦٣).

(ألم تر إلى ربك كيف مد الظل)

يقول دكتور محجوب عبيد –رحمه الله– عالم الفضاء السوداني بناسا، والذي توفي في أوائل عام ٢٠١٤.

عندما قال الله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾[1].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾

والمعني هنا واضح: ألم تنظر إلىٰ بديع صنع الله وقدرته، كيف بسط الظل ومده؟!! والإشارة إلىٰ وقت النهار ابتداءً من الزوال، او منتصف النهار، وهو وقت زيادة طول الظلال .

والتأمل المطلوب في كيفية مد الظل يقود للتفكير في سببه. فنجد أن سببه دوران الأرض حول نفسها في اتجاه الشرق والغرب.

ما وجدنا له سببًا سوىٰ إرادة الله سبحانه وتعالي، ذلك أن أجرامًا سماوية كثيرة لا تدور حول نفسها، وهي إن دارت حول نفسها تدور في اتجاهات عفوية، فليس مما يناقض أي قانون طبيعي أن يكون دوران الأرض علي غير ما هو عليه، ولذلك جاءت الجملة اعتراضية: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ﴾.

وهو إنما يكون ساكنًا في حالتين فقط: في حالة سكون الأرض آو في حالة دورانها حول نفسها جنوبًا وشمالاً . ويكون معني الجملة الاعتراضية: لو شاء الله لجعل الأرض ساكنة أو جعل دورانها شمالاً وجنوبًا وإذن لما اختلت

(١) سورة الفرقان: الآية (٤٥-٤٧).

الظلال بل صارت ساكنة في نصف الأرض الذي يواجه الشمس، ولتكدرت حياة الإنسان بالحر الدائم علي هذا النصف والبرد الدائم علي النصف الأخر. ولا يكون في ذلك ما يناقض ما يعلم الإنسان من القوانين الطبيعية .

ولقد راجعت استعمال التعبير ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ في القران الكريم فوجدت في كل الحالات إن ما يرد بعد التعبير يكون مما لا يناقض حدوثه شيئًا مما نعلم من السنن والقوانين، ولكنه لا يحدث في الواقع بسبب إرادة الله .

من أمثلة ذلك:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[1]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[2]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾[3]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[4]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾[5]، إلىٰ أخر الآيات وهي كثيرة . بعد هذه الجملة الإعتراضية:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾

﴿ثُمَّ﴾ هنا تفيد الترتيب والتوقيت، أي: بعد أن يكتمل مد الظل تحت أعيننا، تكون الشمس دليلنا عليه، وذلك قبيل الغروب بقليل بعد أن يتعذر علي الناس متابعة امتداد الظلال إذ تطول وتبعد وتخفت وتتداخل، فيكون موضع الشمس دليلنا عليها، وبالنظر للشمس وتحديد موضعها نستطيع أن نحسب

---

(١) سورة المائدة: الآية (٤٨).

(٢) سورة الأنعام: الآية (٣٥).

(٣) سورة البقرة: الآية (٢٥٣).

(٤) سورة يونس: الآية (٩٩).

(٥) سورة النساء: الآية (٩٠).

طول الظل واتجاهه وحدوده مما كان متيسراً بالقياس المباشر من وقت الزوال حتىٰ هذا الحين قبيل الغروب .

وتستمر الشمس دليلنا علي الظلال حتىٰ ارتفاعها بعد الشروق قدراً يمكن الإنسان من متابعة الظل علي وجه الأرض بالقياس المباشر، فيراه الآن ينحسر ويتضاءل، ولذلك جاءت الآية:

﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾

ونلاحظ ﴿ثُمَّ﴾ مرة أخرىٰ لمقتضىٰ الترتيب والتوقيت . ويستمر انحسار الظل حتىٰ وقت الزوال، فنكون قد أكملنا يومـًا كاملاً من الزوال إلىٰ الزوال، أي دورة كاملة من دورات الأرض حول نفسها شرقـًا وغربـًا . وهذا الدوران يحقق امتداد الظلال وانحسارها، ويحقق أيضا الليل والنهار . لذلك جاءت الآية:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾

أي: جعل دوران الأرض أيضا سببـًا في الليل والنهار، وبهما تستقيم الحياة، إذ في الليل ستر وراحة للأبدان بالنوم وفي النهار انتشار الناس ومعايشهم .

ولكن نتساءل هل كل الدوران شرقـًا وغربـًا للأرض حول نفسها يحقق المعيشة الطيبة المستقرة بتعاقب الليل والنهار؟ الإجابة أن لمعدل الدوران أهمية قصوىٰ في هذا، إذ هو الذي يحدد طول الليل وطول النهار . ولا يعرف الإنسان قانونـًا طبيعيًّا يمنع أن تدور الأرض حول نفسها بمعدل عالٍ جدًّا . ففي السماء أجرام معلومة تدور حول نفسها بمعدل ثلاثين مرة في الثانية الواحدة.

ولكن تدبير الله سبحانه وتعالي جعل الأرض تدور حول نفسها بمعدل معين، مكن من تعاقب الليل و النهار بحيث تحققت راحة الأبدان ليلاً

وتحصيل المقاصد والمعايش نهاراً . ولقد أشار لذلك بغاية البيان والتبيان، في لفظ: ﴿يَسِيرًا﴾ في الآية:

﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾

أي: جعل الظل ينحسر شيئًا فشيئًا في تدرج ويسر وتأنٍّ . تبارك الله أحسن الخالقين .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝٤٥ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ۝٤٦ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾[1].

والله أعلم بمراده

---

(١) سورة الفرقان: الآية (٤٥-٤٧).

نعود لتكملة دلائل النبوة:

(١٧) كيف لرجل يرعىٰ الغنم علىٰ قراريط لأهل مكة أن يضع دستورًا يستمد منه الأولون والآخرون موادهم وقوانينهم؟

يقرر مارسيل أ. بويسارد Marcel A. Boisard في دراسة مستقلة أن أصول القانون الدولي الحديث مستمدة بالأساس من دواوين الفقه الإسلامي.

وتشريع نابليون Napoleonic Code , French civil code مُستمد من الفقه المالكي.

بل وتم الاعتراف بالشريعة الإسلامية كمصدر عالمي للتشريع والقانون في عدد من المؤتمرات الدولية العلمية منذ عام (١٩٣٢م) منها:

١ - القانون المقارن الدولي في لاهاي عام ١٩٣٢م.

٢- مؤتمر لاهاي المنعقد في عام ١٩٣٧م.

٣- مؤتمر القانون المقارن في لاهاي ١٩٣٨م.

٤ - المؤتمر الدولي عام ١٩٤٥م بواشنطن.

٥- شعبة الحقوق بالمجمع الدولي للقانون المقارن ١٩٥١م بباريس.

وقد صدرت عن هذه المؤتمرة قرارات هامة هي:

أ- اعتبار التشريع الإسلامي مصدرًا رابعًا لمقارنة الشرائع.

ب- الشريعة الإسلامية قائمة بذاتها لا تمت إلىٰ القانون الروماني أو إلىٰ أي شريعة أخرىٰ.

ج- صلاحية الفقه الإسلامي لجميع الأزمنة والأمكنة.

د- تمثيل الشريعة الإسلامية في القضاء الدولي ومحكمة العدل الدولية.

(١٨) كيف يعلم رجل يرعىٰ الغنم علىٰ قراريط لأهل مكة أن الجبال أوتادًا؟ ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾[١].

يقول الدكتور André Cailleux في كتابه "تشريح الأرض":

The mountains, like pegs, have deep roots embedded in the ground, These roots are deeply embedded in the ground, thus, a mountain have a shape like peg.

الترجمة: الجبال تشبه الأوتاد فهي تملك جذوراً عميقة في الأرض، هذه الجذور ممتدة بعمق في الأرض ولذلك فإن شكل الجبل يشبه الوتد.

ما هذه الدقة الجيولوجية العجيبة؟

(١٩) كيف يتنبأ –صلىٰ الله عليه وسلم– أن أمته ستكثر ثم ستتداعىٰ عليها الأُمم؟ قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «**يوشك أن تداعىٰ عليكم الأمم من كل أفق كما تداعىٰ الأكلة علىٰ قصعتها**». قال: قلنا: يا رسول الله أمن قلة بنا يومئذ؟ **قال:** «**أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل، ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن**». قال: قلنا: وما الوهن؟ **قال:** «**حب الحياة وكراهية الموت**». صححه الألباني.

(٢٠) أخبر النبي – صلىٰ الله عليه وسلم – **أن أسرع أزواجه لحوقًا به أطولهن يدًا**، فكانت زينب رضي الله عنها لطول يدها بالصدقة [٢].

---

(١) سورة النبأ: الآية (٧).

(٢) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

(٢١) كيف يضع صلىٰ الله عليه وسلم كتابًا يتحدىٰ به العرب في صنف ما يتقنونه – اللغة –، ثم يرىٰ هؤلاء العرب أن تجميع الجيوش وتحزيب الأحزاب وتأليب القبائل لمحاربة رسول الله أهون وأيسر من معارضة القرآن وقبول التحدي ..فكانوا يؤلبون القبائل من ناحية ويقولون لا تسمعوا لهذا القرآن من ناحيةٍ أخرىٰ، فهذا بالغ جهدهم لمعارضة الدين الجديد .. ثم إنهم كانوا يختبئون فرادىٰ يستمعون القرآن من فرط انجذابهم لسحره حتىٰ إذا تقابلوا قرب الفجر أجمعوا ألا يعودوا لمثلها وهكذا .

(٢٢) كيف له –صلىٰ الله عليه وسلم– أن يتنبأ بأن الحفاة العراة رعاة الغنم في الخليج سيتطاولون في البنيان؟

برج خليفة في الإمارات الأطول في العالم، وتبني السعودية في جدة برجًا أطول منه؟! بل وتُصنف مدن الخليج الآن في المعايير العالمية أنها ظواهر خرسانية عملاقة!

ففي حديث جبريل المعروف عندما سأل النبيَّ صلىٰ الله عليه وسلم عن الساعة وقال: أخبرني عن أمارتها. فقال صلىٰ الله عليه وسلم: «**أن تلد الأمة ربتها، وأن ترىٰ الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان**». رواه مسلم.

(٢٣) أخبر صلىٰ الله عليه وسلم أم حرام بنت ملحان **أن أُناسًا من أمته سيركبون البحر غزاةً في سبيل الله، وستكون هي أول الشهداء في غزاة البحر وقد كان**[١].

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

(٢٤) أخبر صلىٰ الله عليه وسلم أننا سنقاتل الترك صغار الأعين حمر الوجوه ذلف الأنوف كأن وجوههم المجال المطرقة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهؤلاء الطوائف كلها قاتلهم المسلمون وهؤلاء هم التتار وهذه هي صفتهم»[1].

(٢٥) إخباره صلىٰ الله عليه وسلم بحدوث الردة، مع أن هذا كان مستبعدًا تمامًا في عصره، وكان الناس يأتون للدين أفواجًا وتُسلخ ظهورهم لتركه فما يزيدهم هذا إلا تمسكًا وقد كان.

(٢٦) أخبر الله رسوله أنه سيرده إلىٰ معاد أي مكة، ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[2]، بعد أن خرج منها مهاجراً بدينه إلىٰ المدينة وقد تم.

(٢٧) وأخبره أنه سيدخل المسجد الحرام وصحابته محلقين رؤوسهم ومقصرين وقد تم ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾[3].

(٢٨) وأخبره أنه بعد دخول المسجد الحرام سيكون فتح آخر وهو فتح خيبر وقد تم ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[4].

---

(١) الجواب الصحيح، ٢/ ٨١.
(٢) سورة القصص: الآية (٨٥).
(٣) سورة الفتح: الآية (٢٧).
(٤) سورة الفتح: الآية (٢٧).

(٢٩) أخبر الله تعالىٰ أنه سوف يغني قريشًا وقد تم ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾(١).

(٣٠) تحدىٰ القرآن اليهود أن يتمنوا الموت بأن يقولوا: نحن نتمنىٰ الموت. فخافوا لأنهم يعلمون أن من تمنىٰ الموت في تلك الساعة فهو حتمًا سيموت، مع أن التحدىٰ لو أجابوا له وظلوا أحياء، لسقطت الدعوة قال ابن عباس لو تمنىٰ اليهود الموت لماتوا .. فما تمنوه علىٰ حرصهم الشديد علىٰ تكذيبه. ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٢).

(٣١) أخبر القرآن أن الوليد ابن المغيره سيموت علىٰ الكفر وسيصلىٰ سقر، وقد كان ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾(٣).

(٣٢) وأخبر أنه – الوليد ابن المغيرة– رُزق ببنين كثيرين ويطمع في الزيادة لكن كلا ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴾(٤)، ولو رُزق ببنين آخرين، أو أسلم لانتهت الدعوة ..!!

---

(١) سورة التوبة: الآية (٢٨).

(٢) سورة البقرة: الآية (٩٤، ٩٥).

(٣) سورة المدثر: الآية (٢٦).

(٤) سورة المدثر: الآية (١٦).

(٣٣) تحدث القرآن الكريم عن مثيل للفلك المشحون ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾[1].

فما هو مثيله إن لم تكن نبوءة عن وسائل أُخرىٰ للمواصلات؟

(٣٤) يقول تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[2].

والسماء هنا هي مادة الأفلاك وما حولها من فضاء ... فهل الفضاء مبني عند علماء الفيزياء؟؟؟؟ في عام ١٩١٦ لخص اينشتاين نظريته العامة في بحث نشر في مجلة annalen derphysic بيّن في أقل من ٦٠ صفحة أن الفضاء ليس مجرد ستار تتجلىٰ عليه الحوادث، بل هو نفسه بنية أساسيه تتأثر بطاقة الأجسام التي يحويها وبكتلتها، وقد علق ماكس برون علىٰ النظرية بقوله: " تبدو لي النظرية أنها أعظم إنجاز حققه الفكر البشري عن الطبيعة، وأنها أعظم تركيب مذهل يجمع بين النظرة الفلسفية الثاقبة والإلهام الفيزيائي والمهارة الرياضية".

أما باقي الآية الكريمة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ فمعجزة سارت بها الركبان، فمن أهم الاكتشافات الفلكية فى القرن الماضىٰ هو توسع الكون، ولا نحتاج لعناء كبير فىٰ فهم مدلول ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ و التىٰ تفيد التوسع الكونىٰ Expanding universe منذ خُلق الكون وحتىٰ وقتنا هذا، وهذا ما بيّنه العلم وأصبح من أهم بل هو أهم منجزات الفيزياء في القرن الماضي حيث عن طريق إثبات توسع الكون تم إثبات بداية الوجود، وتم اكتشاف الثابت الكوني.

---

(١) سورة يس: الآية (٤١-٤٢).

(٢) سورة الذاريات: الآية (٤٧).

(٣٥) طبقا للمبدأ البوكيلي Bucaillism - وهو مبدأ علمي محايد - القرآن هو الكتاب المقدس الوحيد الذي لا يوجد به خطأ علمي واحد رغم أن عمره ١٤٠٠ عام، وهذا مستحيل علميًّا لأنه طبقـًا لنفس المبدأ، فقد كتب أرسطو ثلاثة كتب علمية في الطبيعيات .. في السماوات .. في الأرض هذه الكتب الثلاثة لا توجد اليوم فيها جملة واحدة صحيحة علميًّا .

(٣٦) إعجاز القرآن البلاغي: فقد نزل القرآن في أعظم الأقوام فصاحة وبلاغة وكانت تُعقد الأسواق للتبارز بالفصاحة واللغة، فجاء القرآن في درجة من البلاغة لم يُعهد مثلها في تراكيب العرب، يقول د.الطيب بو عزة: «وكانت فصاحة العرب أكثرها في وصف المشاهدات والغزل والتغني بالأمجاد، وكان الشاعر الذي يتقن المديح يضعف عند غيره والقرآن جاء فصيحًا في كل فن، علىٰ نفس المستوىٰ والنسق وجاء القرآن للتأسيس لمنهج حياة في الإقتصاد والسياسة والعبادة وما يُحسن الدين والدنيا دون أن يخرج عن قالبه البلاغي، وأعلن في هذه اللحظة عن تحدي هؤلاء أن يأتوا بمثله فرأىٰ هؤلاء أن تجميع الجيوش وتحزيب الأحزاب وتأليب القبائل لمحاربة رسول الله أهون وأيسر من معارضة القرآن وقبول التحدي ..فكانوا يؤلبون القبائل من ناحية ويقولون لا تسمعوا لهذا القرآن من ناحية أخرىٰ فهذا بالغ جهدهم لمعارضة الدين الجديد .. ثم إنهم كانوا يختبئون فرادىٰ يستمعون القرآن من فرط انجذابهم لسحره حتىٰ إذا تقابلوا قرب الفجر اجمعوا ألا يعودوا لمثلها وهكذا، ولذا اجتمعت كلمة وفود العرب علىٰ ألا يسمعوا للقرآن ولا يُسمعوه أهليهم واعتبروا أن هذا هو

السبيل الوحيد لمقاومة التحدي بمثل هذا القرآن ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[١].

(٣٧) كيف يتنبأ النبي صلىٰ الله عليه وسلم ويخبر بشهادة عمرَ وعثمانَ وعلي وطلحة والزبير، رضي الله عنهم أجمعين، وأن موتهم سيكون شهادة، وأنهم لن يموتوا علىٰ فُرُشِهم أو سواه مما يموت به الناس.

وقد صعد رسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم- علىٰ حراء، هو وأبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ وطلحةُ والزبيرُ، فتحركت الصخرة، فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «**اهدأ، فما عليك إلا نبيٌّ أو صِدِّيقٌ أو شهيد**»[٢].

فشهد صلىٰ الله عليه وسلم لنفسه بالنبوة، ولأبي بكر بالصديقية، ولعثمانَ وعليٍّ وطلحةَ بالشهادة وقد كان.

وذات يوم مرِض علي رضي الله عنه مرضـًا شديداً، فزاره أبو سنان الدؤلي، فقال له: لقد تخوفنا عليك يا أمير المؤمنين في شكواك هذه.

فقال له علي: لكني والله ما تخوفتُ علىٰ نفسي منه، لأني سمعتُ رسولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم الصادقَ المصدوقَ يقول: «**إنك ستُضرب ضربةً هاهنا، وضربةً هاهنا** - وأشار إلىٰ صُدغَيه - **فيسيل دمها حتىٰ تختضب لحيتُك، ويكونَ صاحبها أشقاها، كما كان عاقر الناقة أشقىٰ ثمود**»[٣].

---

(١) سورة فصلت: الآية (٢٦).

(٢) رواه مسلم، ٢٧١٤.

(٣) رواه الحاكم (٣/ ١٢٢)، والطبراني في الكبير ح (١٧٣). قال الهيثمي: إسناده حسن.

(٣٨) وتقبل فاطمة بنت النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- تمشي، فيقول لها أبوها: «**مرحبًا بابنتي**». تقول أم المؤمنين عائشة: ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم أسرَّ إليهـا حديثـًا، فبكت، ثم أسرَّ إليها حديثـًا فضحكتْ.

فقلت لها: ما رأيتُ كاليوم فرحـًا أقرب من حزن، فسألتُها عما قال؟ فقالت: ما كنت لأُفشي سِرَّ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم

فلما قُبِض النبيُّ صلىٰ الله عليه وسلم سألتُها، فقالت: أسرَّ إلي: **"إن جبريل كان يعارضني القرآن كلَّ سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي، وإنك أولُ أهلِ بيتي لحاقـًا بي". فبكيتُ، فقال صلىٰ الله عليه وسلم: "أما ترضَينَ أن تكوني سيدةَ نساء أهل الجنة أو نساءِ المؤمنين"**. فضحكتُ لذلك[1].

(٣٩) وأيضـًا، من دلائل نبوته وأعلام صدقه صلىٰ الله عليه وسلم ؛ إخبارُه أم المؤمنين ميمونةَ أنها لا تموت في مكة، فقد مرضت ميمونة في مكة، واشتد عليها المرض، فقالت لمن عندَها: أخرجوني من مكة، فإني لا أموتُ بها، إن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أخبرني أني لا أموت بمكة.

فحملوها حتىٰ أتوا بها سَرِف، إلىٰ الشجرة التي بنىٰ بها رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم تحتها في موضع الفَيئة .فماتت هناك ودفنت، وقبرها معروف اليوم في ضاحية النوارية بمكة، فكانت وفاتُها خارجـًا عن مكة، كما أخبر الذي لا ينطق عن الهوىٰ.

---

(١) هذا الحديث في أعلىٰ درجات الصحة رواه البخاري ح (٣٦٢٤)، ومسلم ح (٢٤٥٠).

(٤٠) ومن هؤلاء الذين تحدث النبي صلىٰ الله عليه وسلم عن وفاتهم، سِبطُه الحسين بن علي ريحانة أهل الجنة، فقد قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم لإحدىٰ أزواجه: «**لقد دخل عليّ البيت ملَك لم يدخل عليَّ قبلها فقال لي: إن ابنك هذا حسين مقتول، وإن شئت أريتُك من تربة الأرض التي يقتل بها. قال: فأخرج تربة حمراء**»[1].

(٤١) ومن دلائل نبوته صلىٰ الله عليه وسلم إخبارُه عن موت النجاشي في أرض الحبشة في يوم وفاته، وهذا خبر تحمله الركبان يومذاك في شهر، يقول أبو هريرة -رضي الله عنه-: «**نعىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم النجاشي في اليوم الذي مات فيه، خرج إلىٰ المصلىٰ، فصف بهم، وكبر أربعـًا**»[2].

(٤٢) وفي اليوم السابق ليوم بدر، تفقد رسول الله أرض المعركة المرتقبة، وجعل يشير إلىٰ مواضع مقتل المشركين فيها، ويقول: «**هذا مصرع فلان**».

قال أنس: ويضع يده علىٰ الأرض هاهنا هاهنا. فما ماطَ أحدهم عن موضع يد رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم[3].

(٤٣) ومثله في الدلالة علىٰ النبوة إخباره صلىٰ الله عليه وسلم عن سوء خاتمة رجل قاتل مع المسلمين فأحسن البلاء والجلاد، يقول أبو هريرة رضي الله عنه: شهدنا مع رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فقال لرجل ممن يدعي الإسلام: «**هذا من أهل النار**».

---

(١) السلسلة الصحيحة ٨٨٢.

(٢) رواه البخاري ح ١٢٥٤.

(٣) رواه مسلم ح ١٧٧٩.

يقول أبو هريرة: فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالاً شديداً، فأصابته جراحة، فقيل: يا رسول الله، الذي قلتَ له: إنه من أهل النار؛ فإنه قد قاتل اليوم قتالاً شديداً، وقد مات! فقال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «**إلىٰ النار**».

قال أبو هريرة: فكاد بعض الناس أن يرتاب. فبينما هم علىٰ ذلك إذ قيل: إنه لم يمت، ولكن به جراحـًا شديداً.

فلما كان من الليل لم يصبر علىٰ الجراح، فقتل نفسه، فأُخبر النبي صلىٰ الله عليه وسلم بذلك، فقال: «**الله أكبر، أشهد أني عبدُ الله ورسولُه**». ثم أمر بلالاً فنادىٰ بالناس: «**إنه لا يدخلُ الجنة إلا نفسٌ مسلمة، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجلِ الفاجر**»[1].

(٤٤) ثبت في البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أن الماء نبع من بين أصابعه الشريفة حتىٰ توضأ منه زهاء ثلاثمائة رجل .. وهذا حديث في أعلىٰ درجات الصحة، شهده جمعٌ غفير من الصحابة.

(٤٥) ردّ عين قتادة بعد تدليها علىٰ وجنته؛ فردها - صلىٰ الله عليه وسلم- بيده الشريفة فبرئت علىٰ الفور وكانت أحسن من قبل.. والصحابي الذي كُسِرَت ساقه فبرئت بمسح النبي صلىٰ الله عليه وسلم عليها .. وبصقه-صلىٰ الله عليه وسلم- في عين علي رضي الله عنه فبرئت في الحال والأحاديث كلها في الصحيحين .

---

(١) رواه البخاري ح ٣٦٠٢.

(٤٦) حديث الرجل الذي ارتد علىٰ عهد النبي صلىٰ الله عليه وسلم فقال - صلىٰ الله عليه وسلم-: «**إن الأرض لا تقبله**». **فمات الرجل، فكلما دفنه الناس لفِظته الأرض ولم تقبله.**

(٤٧) تكثير القليل من الطعام بين يديه- صلىٰ الله عليه وسلم- حتىٰ كان يأكل منه الجيش، وتبقىٰ منه بقية والأحاديث في ذلك في الصحيحين وغيرهما، و أشهرها حديث جابر بن عبد الله في غزوة الخندق .

(٤٨) حديث عبد الله بن مسعود: « **كنت أمشي في مكة فأرىٰ حجراً أعرفه ما مرَّ عليه- رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم- مرة إلا وسمعته بأذني يقول السلام عليك يا رسول الله**»..، وهذا الحجر العجيب قال عنه رسول الله- صلىٰ الله عليه وسلم-: «**إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن**». والحديث رواه مسلم من طريق جابر بن سمرة .

(٤٩) أما إخباره صلىٰ الله عليه وسلم بالمُغيبات فأكثر من أن يُحصىٰ، منه إخباره عن عير قريش ضمن تحدي أهل مكة له لإثبات معجزة الإسراء والمعراج، ومنه إخباره بقتل أُمية بن خلف.. وكلها أحاديث في أعلىٰ درجات الصحة .

(٥٠) أما إجابة الدعاء في الحال فالأحاديث في الباب كثيرة ومنها الرجل الذي رفض الأكل بيده اليمنىٰ محتجًا أنه لا يستطيع، فقال-صلىٰ الله عليه وسلم-: «**لا استطعت**». فما رفعه إلىٰ فيه والحديث رواه مسلم . وحديث نزول المطر في تبوك وغيره .

(٥١) بل إن أحاديث تسبيح الحصىٰ بين يديه الكريمتين وحنين الجذع وعصمته من الناس - كما في غزوة ذات الرقاع -، وشرب ١٤٠٠ من بئر لا ماءَ فيه في أعلىٰ درجات الصحة .

(٥٢) قال البخاري رحمه الله: حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال: "إذا هلك كسرىٰ فلا كسرىٰ بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله". فأي دليل أعظم من هذا الدليل علىٰ أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم يحدث بالوحي الذي لا يعلمه إلا الله، فإنه لم يكن يتصور أحد أن دولة الأكاسرة التي استمرت نحو ألف عام يكون سقوطها وزوالها بأيدي المسلمين، وأن الأكاسرة لا يستطيعون، وإلىٰ قيام الساعة أن يعيدوا ملكهم مرةً ثانية.

(٥٣) والحديث الآخر: بينا النبي صلىٰ الله عليه وسلم يخطب جاء الحسن فقال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «**ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين**»[١].

وسُمي العام الذي أصلح الله فيه بين المسلمين علىٰ يد الحسن بن علي عام الجماعة -٤٠ هجرية-، فكيف لرجل أن يرهن دعوته كلها بمصير طفل صغير؟ ثم تتحقق النبوءة علىٰ نحوٍ عجيب، إلا أن يكون ذلك وحيٌ يوحىٰ!.

(٥٤) لماذا مع الترهيب لا يتوقف رسول الله - صلىٰ الله عليه وسلم- عن دعوته؟ فضربه الصبيان في الطائف حتىٰ أُدمي رأسه ورجله الشريفة، ودخل مكة

---

(١) رواه البخاري ح ٦٦٩٢.

في جوار مطعم بن عدي ثم رد جواره، ورُمي أمعاء الجزور عليه، وعانىٰ وأتباعه الجوع والحصار لمدة ثلاث سنوات في شعاب مكة حتىٰ أنه كان يربط الحجرين علىٰ بطنه من شدة الجوع، حتىٰ قال صلىٰ الله عليه وسلم -بأبي وأمي ونفسي-: «**لقد أُخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذىٰ أحد، ولقد أتت علي ثلاثون من بين ليلة ويوم، وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد، إلا شيء يواريه إبط بلال**». رواه الترمذي.

كل هذا يجري في الوقت الذي يعرض عليه الكفار الرياسة والمال، لا مقابل أن يتنازل عن دعوته، بل مقابل أن يتركهم وآلهتهم وألا يُسفه عقيدتهم! لكن دعوته كانت وحيٌ يوحىٰ ليست مِن قِبل نفسه حتىٰ يتركها لأفضل العروض المتاحة!

هذه كانت حلقة من آلاف الحلقات من أدلة نبوته صلى الله عليه وسلم
وإذا أكثرت النظر في هذا الباب يحصل لك العلم الضروري
بكونه صلى الله عليه وسلم على أعلى درجات النبوة

والآن ننتقل لمسك ختام الباب الثاني
ولمحة من آيات الله في خلقه

آيات الله في خلقه

قبل أن أبدأ في سرد لمحة من آيات الله في خلقه، أود أن أنقل لكم إحدىٰ مداخلاتي حين طلب مني أحد الملحدين دليلاً قاطعًا مباشرًا علىٰ وجود الخالق العليم القادر.

فكانت مداخلتي كالتالي:

دليل مباشر علىٰ وجود الخالق

أيها الملحد! إذا أعطيتك الآن مجلد –كتاب– به كل مواصفاتك "طولك ولون عينيك ووظائف أعضائك، ونوع شعرك وكمية البروتين التي تحتاجها عضلاتك، والقوانين التي تحكم أجهزة جسدك وسرعة النبضة الكهربية في أعصابك، ومعدلات ضخ الدم في قلبك، ومعدلات إفراز الهرمونات في غددك؛ إلىٰ جانب كل ذلك تفصيل دقيق لكل وظائفك الحيوية وطريقة تصنيع كرات دمك وأنظمة الهضم والإخراج والأيض، وكل ما يختص بالوظائف البيولوجية لجسدك.

ويوجد في الكتاب فصل كامل خاص بحالات الطواريء، مثل التعرض لنزيف حاد والذي يستدعي عمل جلطة تغلق مخارج الدم وانكماش شديد للطحال لضخ الدم المتخزن فيه لتعويض الفاقد، ومنظومة معقدة من عدة مراحل لعمل إنكماش في أوعيتك حتىٰ لا يحدث هبوط قاتل لضغط الدم لحظة النزيف.

أيضًا يوجد في الكتاب فصل كامل يتعلق بالتجهيزات اللازمة لحظة التعرض لمخاطر كبرىٰ مثل الأوبئة، فالكتاب يحتوي علىٰ طريقة تصنيع الجسم الدفاعي G أو IGG الذي يسمىٰ "كتيبة المشاة والمدرعات

والمدفعية"، وطريقة تصنيع الجسم الدفاعي A أو IGA صاحب المهام الخاصة، وكل شيء عن التنظيمات الدفاعية التي لن تظهر مهامها إلا لحظات الخطر.

أيضا الكتاب يحدد متىٰ تبدأ شرايينك التاجية في الضيق وعقلك في الهذيان وجلدك في التجعد وشعرك في المشيب، ويصف الكتاب بالضبط طريقة حدوث ذلك بمنتهىٰ الدقة.

الكتاب ضخم ويحوي كل شيء عنك.

هذا الكتاب هو محتوىٰ معلوماتي، لاحظ العبارة.

الكتاب محتوىٰ معلوماتي يخزن معلوماتك كلها.

أضف إلىٰ ذلك؛ أن هذه المعلومات توجد بنظام "ترميز" coding وحين يتم فك الترميز decode تظهر المعلومات السابقة.

الآن هذا الكتاب هل يشك عاقل أو بهيمة أو جماد في أن واضعه موجود وعاقل وقادر وعليم وحكيم؟

أما علمت يا زميلنا الملحد! أن جميع الكائنات علىٰ وجه الأرض يسبق ظهورها كتاب –كتالوج– توجد به معلومات ظهورها مشفرة وتم ترميزها مسبقًا داخل هذا الكتاب– الكتالوج–، وهذا شرط أي كائن حي علىٰ الإطلاق.

ونظام التشفير يوجد داخل جينوم أي كائن حي علىٰ وجه الارض، فلا يخلو كائن حي من جينوم تُشفر داخله معلوماته، ولا معنىٰ للكائن بدون نظام تشفير مُسبق.

وهذه القضية هي التي جعلت فرانسيس كولينز الملحد مدير مشروع الجينوم البشري أن يتدبر ثم يعترف بالخالق القدير العليم ويضع كتابه لغة الإله The Language of God .

وأول كائن علىٰ وجه الارض علىٰ الإطلاق- السيانوباكتريا- طبقًا للداروينية نفسها، توجد معلوماته مشفرة داخل الجينوم الخاص به منذ البدء، ولا معنىٰ للكائن أصلاً بلا تشفير مسبق للمعلومات التي سيحتاجها.

والجينوم - الكتاب- الخاص بالإنسان يملأ ١٠٠٠ مجلد بواقع ٥٠٠ صفحة لكل مجلد - ٣ مليار حرف - كلها موجودة في مساحة ١ علىٰ ١٠٠٠ من الملليمتر مُلتف علىٰ نفسه ١٠٠ ألف لفة داخل نواة الخلية.

والجينوم الذي في حجم رأس الدبوس يحمل معلومات تفوق في سعتها بليون مرة فلاشة ٤ جيجا.

وجميع المعلومات داخل هذا الكتاب مُشفرة بنظام تشفير رباعي C G T A .

واضع المعلومات الرقمية- ٣ بليون معلومة بمنتهىٰ الضبط والدقة-، التي ستُستخدم لاحقًا، خالق عليم قدير، هل هذه المعلومة بحاجة إلىٰ ضبط عقلي لتحريرها؟

فسبحان الخالق الحكيم العليم القادر المصور ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1].

---

(١) سورة الحشر، الآية: (٢٤).

هل ما زلت تجادل في خالقك يا زميلنا الملحد؟ ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾[1].

الآن نعود لإلقاء لمحة على آيات الله في خلقه:

(١) تخيل أن الإلكترون يدور حول النواة بسرعة ألف كيلو متر في الثانية وإلا لسقط داخل النواة بفعل قوة التجاذب مع النواة الموجبة ولانهار الكون قبل أن يبدأ، وهذه هي السرعة المثالية لتشكل الذرة.

-زميلك الملحد سيفترض الصدفوية في الأمر، مع أن شرطي الصدفة هما الزمان والمكان، والوجود جاء من اللازمان واللامكان-.

فصارت الصدفة مفهوم يستعمله الملحد كي لا يفكر؛ وأكلشيه جاهز لكل معضلة.

(٢) تخيل أن كل الإلكترونات بنفس الشكل والكتلة ومع ذلك لكل الكترون مدار منفصل ومستقل مُسخر داخله تماماً لا يتخطاه ولا يتمرد عليه ويدور بسرعة منتظمة ألف كيلومتر في الثانية، تخيل الآن كل جزء من جسدك به مليارات الإلكترونات التي تجري بمنتهىٰ الكفاءة وبلا أدنىٰ ضوضاء وملايين الإلكترونات لا تملأ النقطة التي في نهاية الجُملة تلك.

(٣) تخيل أن البروتون والنيوترون قررا أن يتحدا داخل نواة الذرة، مع أن كثافتهما تقع في الخط الفاصل بين الوجود واللاوجود، إننا أمام عملية واعية ومُوجَّهة بشكل فائق، وإلا ما تشكلت الذرة ولا ظهرت من الأساس، بل إن العالم تحت الذري يقتضي احتمالات لا نهائية، ولذا يقول الدكتور محمد باسل

---

(١) سورة الكهف، الآية: (٥٤).

الطائي أستاذ فيزياء الكونيات بجامعة اليرموك: " طبقا لميكانيك الكم فإن العالم دون الذري يحتاج حتمًا إلىٰ مُدبِّر ومُحرك وقيوم في كل لحظة Operator formulation of quantum mechanics إن ميكانيك الكم يثبت أن الله قيوم .. أي قائم بالكون في كل آن .. وفي كل لحظة".

البروفيسور محمد باسل الطائي .. محاضرة الله والكون والإنسان، علىٰ اليوتيوب.

فلا يضمن استمرارية الكون وضبطه ومعياريته وشروطه الأولية إلا قيوم عليه، لا تأخذه سِنة ولا نوم، وإلا لانهار الكون وتفتت؛ فانهياره احتمال كوانتي قائم في كل وقت، أيضًا خروجه بصيغ لا نهائية احتمال كوانتي قائم كل لحظة، فسبحان ضابط الكل قيوم السماوات والأرض Operator formulation of quantum mechanics .

(٤) لابد في لحظة الخلق الأولىٰ أن تتساوىٰ أعداد الإلكترونات والبروتونات في تلك اللحظة المثالية، وإلا لما تشكلت الذرة. في حين لو تساوىٰ عدد الإلكترونات والبوزيترونات فإن الناتج طاقة مجردة وساعتها يتحول الكون إلىٰ مجرد ظاهرة طاقوية جوفاء.

(٥) أيضًا لابد أن يكون الجسيم بنسبة أعلىٰ من الجسيم المضاد حتىٰ لا يتحول الكون إلىٰ ظاهرة إشعاعية سرابية مجردة .

(٦) كيف قررت الجسيمات ماهية الذرات التي سوف تُكونها وبأية كميات؟

لماذا لم تقم كل البروتونات والنيوترونات بتكوين ذرة هيدروجين واحدة وانتهىٰ الأمر؟

إذن الخلق لابد أن يستتبعه إعداد بعناية Fine Tuning وهذه الكلمة Fine Tuning دخلت إلىٰ الفيزياء عن طريق الفيزياء وليس عن طريق الدين .

(٧) إن قوانين الفيزياء التي ظهرت في أول ثانية من نشأة الكون هي نفسها التي تحكم عالمنا اليوم، هذه القوانين تم ضبطها بعناية وإلا فإن أي خلل أو أي تغيير في أيٍ من الثوابت الكونية سيفرز كونـاً مُجهضًا -بيضة كونية cosmic (egg).

(٨) ولو تغيرت كمية أي جُسيم يظهر، فإنه سيتم تدمير مستوىٰ الطاقة الذي يحدده ذلك الجسيم، ويمنع تحول الطاقة إلىٰ مادة، ويتوقف الكون أيضًا عند البيضة الكونية Cosmic egg .

(٩) أيضًا لو زاد عدد البوزيترونات عن عدد الإلكترونات فإن الذرة لن تظهر ويتوقف الكون .

(١٠) اكتشف العلماء أن النسبة بين الإلكترون والبروتون هي ١: ١٠ أس٣٧، وهذا يشبه كمية من الدولارات توضع فوق بعضها البعض من هنا إلىٰ القمر ملايين المرات ودولار واحد فقط هو الذي يتيح الاختيار الصحيح، وأي اختيار آخر سيؤدي إلىٰ توقف الكون قبل أن يبدأ، فهذه النسبة هي النسبة الوحيدة التي تسمح بتشكيل الذرة وبالتالي ظهور الكون .

(١١) ظهور الكون اختياري وليس حتمي كما تقرر ميكانيك الكم، وهذا يعني قيومية الخالق.

(١٢) أيضا كلاً من الإلكترون والبروتون يحمل شُحنة كهربية وفقـًا لخصائصه، وهذه حقيقة ظهرت بعد الثانية الأولىٰ من خلق الكون، وهي حقيقة اختيارية احتمالية وليست واجبة الوجود، وأدنىٰ تغيير في شدة هذه الشُحنة من

شأنه أن يؤدي إلىٰ انطلاق الإلكترونات بعيدًا عن النواة أو وقوعها داخلها، وفي كلتا الحالتين سيؤدي ذلك إلىٰ استحالة وجود الذرة وبالتالي استحالة وجود الكون، ومع ذلك فمنذ الثانية الأولىٰ من خلق الكون قامت البروتونات بجذب الإلكترونات بالقوة المطلوبة بالضبط لتكوين الذرة .

إذن خروج الكون هو خروج اختياري ثم كان علىٰ أعلىٰ درجات الإعداد بعناية .

ولذا يرىٰ [ليونارد سوسكايند] أستاذ الفيزياء النظرية بجامعة ستافورد والمؤسس لنظرية الأوتار الفائقة أن مُعطياتنا عن الثوابت الكونية – مثل النسبة بين الإلكترون والبروتون –، تقف كلها علىٰ حافة سكين وكلها مُستقلة عن بعضها البعض، وفي الوقت نفسه تتلاقىٰ لتسمح فقط بإحداث الحياة، وتغيُّرُ أيِّ مُعطىٰ من هذه المعطيات التي نشأت مستقلة لم يكن يسمح لها بالتلاقي فضلاً عن إمكانية إيجاد حياة أو حتىٰ منظومة كونية[1].

(١٣) ما نراه من تنوّع الألوان والمواد والعناصر، وبل كل طاقة وتفاعل يجري في الكون، هو مُجرد تغير في مستوىٰ الإلكترون، وفي سريانه، وفي شكل الذرة وارتباطها بغيرها من الذرات، لتشكيل جُزيئات ومُركَّبات، من خلال الارتباطات الأيونية Ionic bonds أو الكيميائية Chemical bonds أو التساهمية Covalent bonds، تُجرَي خلالها أنواعًا من المُقايضة علىٰ الإلكترونات بين الذرات المتعاقدة، أو تتقاسمها في أغلفتها الخارجية، من أجل القَبول بالترابط مع الذرات الأُخرىٰ.

---

(1) http://www.edge.org/3rd_culture/smolin_susskind04/smolin_susskind.html.

وحتىٰ اليوم يواجِه العلم هذه الترابطات بتعميمية شديدة؛ لأنه لم يعرف بعد: لماذا تسلك الذرات هذا السلوك العقلاني الرشيد؟

ولماذا تتقيد الذرات بهذا المبدأ التعاقدي الصارم لمقايضة الإلكترونات، أو تقاسمها؟

ولماذا تقبل الذرة هذا التعاقد، وترفض تعاقدًا آخر؟

بل ويتحدث العلم عن مُعجزة الرفض، حيث ترفض الذرة أن تتعاقد مع ذرّةٍ ما، في حين تقبل التعاقد مع أُخرىٰ .

(١٤) ورفض الذرات لمقايضة الإلكترونات معجزة كبرىٰ في حد ذاتها، إذ لولا هذا الرفض لأصبحت الحياة مستحيلة؛ لأن الذرة لو قَبِلت كل تعاقد فإن مادة أصابعك ستتفاعل مع لوحة المفاتيح وستلتصق بها، وسيظهر مُركبٌ جديد منهما، ومادة الماء ستتفاعل مع الكوب ويظهر جُزيء جديد، ومادة مكتبك ستتفاعل مع السيراميك وتنشأ مادة جديدة، وهكذا إلىٰ ما لا نهاية، وهذا يعني استحالة الحياة، فرفض التعاقد يُعادل في إعجازه قَبول التعاقد .

-زميلك الملحد هو الشخص الوحيد في هذا العالم الذي يرفض الشواهد إذا تعلق الأمر بالخالق، ويثبت الشواهد بعد ذلك في كل شيء- ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[1] .

(١٥) وإذا جال الإنسان بناظره إلىٰ صيغة العقد بين الذرات، لتكوين المُركَّبات والجُزيئات، سيكتشف أنَّ التعاقد يكون إلىٰ أجَلٍ مُحدد، فمثلاً: التعاقد بين الهيدروجين والأوكسجين لتكوين جُزيء الماء، هو تعاقد

(١) سورة الملك: الآية (١٠).

هيدروجيني Hydrogen Bonding، حيث يتفكك هذا التعاقد ثم يترابط مُجدداً مليارات المرات في الثانية الواحدة، مما يُتيح الخاصية السائلة العجيبة للماء، فعُمر التعاقد بين الأوكسجين والهيدروجين يجب أن يستمر جزء من مائة بليون جزء من الثانية، ثم ينحل ثم يعود للتعاقد فوراً، وهذا يجعل من الماء سائلاً .

(١٦) صيغة الترابط الهيدروجيني في جزيئات الماء سريعة التحلل وبالتالي تُحقق معجزة أُخرىٰ في البحار والمحيطات، حيث تتيح هذه الصيغة من الترابط للماء أنْ يُصبح أكثر لزوجة في الحالة السائلة، فإذا تحوَّل إلىٰ الحالة الصلبة، قلَّت لزوجته، وطفا لأعلىٰ وأتاح لملايين الأحياء بأسفله أن تعيش في أمان .

(١٧) هل تفكرّت يومـًا وأنت تأكل الفاكهة اللذيذة ثم ترمي البذرة الجافة اليابسة عديمة الطعم بعيدًا عنك، أنك بذلك تخضع لعقل مدبر يحكم الكون كله، يسمح لتلك الفاكهة أن تضحك عليك وتُمرر جيناتها لكل مكان في الأرض حيث تمنحك طعمـًا لذيذاً وتُخفي جيناتها أصل حياتها في قلب بذرة جافة ملساء غير مغرية ما أن تلتص بالأرض حتىٰ تبدأ تتفتق بهدوء إلىٰ فروع وجذور فتنبت وبذلك تكون الأم قد نجحت في تمرير جيناتها للأبناء، كل هذا يحدث في نباتات لا تعي شيئا.

مَن الذي ضبط المعلومة لتلك الفاكهة البكماء الصماء، وضَبط كمية السُّكر بها بحيث تروق لك؟

مَن الذي جعل البذرة غير مقبولة وغير مُستساغة، حتىٰ تزهد فيها وتلقيها بعيدًا؟

مَن الذي شحن البذرة بالمعلومات الوراثية الكافية لتخليق نبتة جديدة بكل تفاصيلها ووظائفها؟

(١٨) تتجه البراعم بعد الإنبات مباشرةً نحو مصدر الضوء وتتجه الجذور نحو الأسفل حيث تتمتع البراعم بحساسية مفرطة للضوء .. وكل المعلومات التي تحتاجها للقيام بوظيفتها توجد مُشفرة داخل البذرة .. وهناك هرمونات تتحكم في النمو العلوي والجانبي للنبتة وفي اتجاه الجذور وكلها أيضـًا مشفرة داخل البذرة .

(١٩) جذور النبات من أكبر أعاجيب الطبيعة فالشجرة التي تزن عشرة اطنان تقف عمودية بفضل تشبث جذورها بالتربة دون انهيار التربة نفسها أو تفتتها أو سقوط الشجرة، مع أن الجذور عمياء بلا بوصلة لا عقل . . وتقوم الجذور بدور جوهري في سحب الماء والغذاء اللازم للشجرة من التربة، وداخل الشجرة توجد أنظمة لسحب الماء من الأرض للأعلىٰ ضد الجاذبية، ويختار الجذر العناصر المطلوبة من التربة والأيونات ليس بطريقة فرق التركيز بل ربما يكون تركيز بعض الأيونات في الجذر ألف مرة تركيزه خارجه ومع ذلك يستمر في سحب تلك الأيونات بمنتهىٰ التخصصية والدقة، للوصول إلىٰ الكمية المطلوبة للنبات .

فالنبات يحتاج إلىٰ ماغنسيوم وفوسفور وكبريت ونيروجين وكالسيوم وعناصر نادرة من تربة الارض ويحصل بكل الحيل علىٰ المطلوب.

القليل منا والذي يمتلك ثقافة عالية يستطيع معرفة المعادن والفيتامينات اللازمة لجسده بينما النبات يفعل هذا الأمر وبمنتهىٰ الضبط منذ البدء .

إذا ما زلت تتصور أن النبتة العمياء التي بلا عقل قامت بذلك من تلقاء ذاتها فراجع عقلك!.

(٢٠) البذور مُحاطة بأغلفة خشبية قاسية للغاية لمقاومة الماء والرطوبة وعدم دخول الأمراض وتكون بلا طعم أو ذات طعم مُر حتىٰ لا يطمع فيها أحد، فهي تحمل المورثات الكاملة لتنقلها للأجيال التالية . ويوجد كتالوج شفرتها داخل ذلك الجدار الخشبي ومُحاطه بتغذية كاملة تكفيها حتىٰ الإنبات .

(٢١) بعض النباتات تستخدم أقل احكتاك لها لتنثر بذورها في الأرض وبالتالي الإنبات .. بعض البذور مزودة بأجنحة ومع أقل نسمة تقطع البذور مسافات طويلة .. بعض البذور تكون ذات قشرة جافة جدًّا ولكنها محاطة من الداخل بالكثير من البندق مما يجعلها مطمعـًا للحيوانات آكلة البندق فما أن يأكل الحيوان بعض البندق حتىٰ يترك الباقي والبذرة، فتنبت شجرة جديدة بكل سهولة فسبحان مُدبر أرزاق خلقه بحكمته وعلمه .

بعض البذور مثل بذر الترمس تبقىٰ مئات السنين إلىٰ أن تجد البيئة المناسبة للإنبات فتنبت .

والنبات الذي لا يستطيع أن يضع بذوره تحت الأرض بنفسه فإنه يستخدم النمل في هذه الغاية .. وفي هذه الحالة يُغطي البذر نفسه بأغطية زيتية تُغري النمل فما أن يأخذها النمل إلىٰ باطن الأرض ويأكل الغلاف الزيتي حتىٰ يترك اللب الذي لا طعم له والذي يحمل كل المورثات الكافية لإنبات شجرة عملاقة .

لا مجال للجدال بأن هناك عقلاً عظيمًا وراء هذه العلاقات التبادلية فسبحان مُلهم الكائنات كيفية حفظ نسلها .

(٢٢) تغليف البذور وضبط كمية المعادن داخل السائل الموجود فيها ونضج البذور . كل هذا يجب أن يظهر في نفس الوقت وهذا هو نوع من التعقيد الغير قابل للاختزال أو التطور .

(٢٣) يَعرف طحلب السيانو باكتريا – أول الكائنات ظهوراً علىٰ الأرض علىٰ الإطلاق طبقًا للرواية الداروينية – طريقة التمثيل الضوئي بكل كفاءة، فجميع المعلومات مُسجلة في شريط الـDNA الخاص به ويعرف كيف يتكاثر وكيف يتغذىٰ، ومستوىٰ ورائحته وطعمه ومقدار السكر فيه، وكيفية قيامه بالتمثيل الضوئي ومقدار استفادته من ثاني أُوكسيد الكربون الموجود بالجو .. وتوجد أيضـًا داخله شفرات التكاثر التي سمحت له أن يملأ محيطات الأرض .. ويقوم بتعبئة المواليد الجدد بالجينات بشكل مثالي .

(٢٤) أوراق النبات عريضة ومسطحة ورقيقة جدًّا وهذه هي كلمة السر في البناء الضوئي المثالي الذي يقوم به النبات .

(٢٥) مسام تبادل ثاني أوكسيد الكربون في الجو مع الأوكسجين في ورقة النبات توجد تلك المسام أسفل الورقة وليس أعلاها؛ لأنها لو كانت أعلاها فإن تأثير أشعة الشمس الضار سيبخر الماء بسرعة ويموت النبات، وهذه المسام تفتح وتغلق حسب الحاجة .

ما يريده التطوريون بالضبط هو كالتالي :

بالصدفة اتجهت الجذور نحو الارض والسوق نحو الأعلىٰ

بالصدفة تكونت البلاستيدة الخضراء

بالصدفة ظهرت المسام علىٰ الطبقة السفلية لورقة النبات

بالصدفة جاءت أنظمة رفع الماء إلىٰ أعلىٰ ضد الجاذبية

لكن الذي لا يريدون التركيز عليه كثيرًا هو أن هذه الأنظمة إما تأتي سويةً أو لا تأتي نهائيًّا، ففقدان نظام واحد من تلك الأنظمة لن ينتج نباتًا فإما تأتي الأنظمة مكتملة أو لا تأتي .

(٢٦) حبيبة اليخضور – الكلوروفيل – يبلغ حجمها واحد بالألف من الملليمتر – ويبلغ جدارها واحد بالمائة مليون من المتر ومع ذلك يمثل رئة العالم أجمع ! وداخل حبيبة اليخضور توجد الإنزيمات والريبوسومات والمواد الكيميائية الكفيلة بإتمام عملية البناء الضوئي حيث تجري سلسلة طويلة من التفاعلات الكيميائية في زمن قياسي خلال جزء من الألف من الثانية .

مَن الذي وضع الآلية لمثل هذا التخطيط الذي لا يُضاهىٰ في منطقة مجهرية صغيرة جدًّا ؟

(٢٧) يوجد قرابة ١٠٠ عنصر ضروري لعملية التمثيل الضوئي ولن يفيد التمثيل الضوئي في واحد منها فقط .

فمن المستحيل أن تنشأ جميع المستويات دفعة واحدة .. ولا معنىٰ لها إن ظهرت فرادىٰ .

(٢٨) هل تعلم أنه يزداد انتاج الأرض من البرتقال الغني بفيتامين سي كلما زادت برودة الجو وقلت مناعة الإنسان وزادت حاجته لفيتامين سي؟

غبار الطلع "حبوب اللقاح" :

غبار الطلع –حبوب اللقاح – يبلغ في أكبر أحجامه خُمس ملليمتر، وهو يحمل تعبئة كاملة للجينات بشكل مثالي، وهو مُحصن بقوة لحماية هذه الجينات ومُحاط بأقوىٰ مادة عضوية طبيعية علىٰ الإطلاق وهي الأكسين، وهذه المادة تتحمل الحرارة والضغط والسفر البعيد .

لكن كيف يحمل الهواء مادة صلبة بهذا الشكل ويسافر بها بعيدًا لتصل إلىٰ الأنابيب الدقيقة في نبات آخر يقطن بعيدا ليحدث التلقيح؟

هذا السؤال يمثل لغزاً ما زال محيراً لعلماء النبات، ولا تكمن الإجابة عليه في ضخ كميات كبيرة من غبار الطلع؛ لأنها مهما كثرت ستظل خواصها تمنعها من الطيران فوق النبات، فكيف بنباتات تقع علىٰ بعد مئات الأمتار عن بعضها البعض، وكيف بأشجار تقع علىٰ بعد عشرات الكيلومترات عن قريناتها؟

يحاول العلم تقديم تفسير جزئي من خلال خاصية التركيب الديناميكي الهوائي لشكل حبة اللقاح، وأيضـًا من خلال كون مخاريط الإناث أكثر اتساعـًا من مخاريط الذكور وشكلها المخروطي يُسهل عملية دخول غبار الطلع ..

لكن أيضًا سيبقىٰ السؤال: كيف تصل كل حبة غبار طلع إلىٰ فصيلتها نفسها دون غيرها علىٰ الرغم من وجود عدد ضخم من حبات غبار الطلع في الهواء؟

ولا ندري كيف للمصادفة أن تؤسس لمنظومة تزاوجية بهذا التعقيد الذي ما زال يحير العلماء، ثم كيف يحدث التواصل بينهم.. ثم كيف تنشأ أنظمة ذكورية وأنثوية وريح وغبار طلع في نفس الوقت؟

ومن الهام أن نعلم أن المخاريط ظهرت بشكلها فجأةً في الطبيعة كما تقرر الداروينية نفسها فحتىٰ المتحجرات لا تقبل فكرة التدرج الداروينية الباهتة .

(٢٩) بعض حبات غبار الطلع مُزودة بجيوب هوائية تتيح لها أن تسافر ٣٠٠ كيلو متر في الهواء وحولها آلاف الأنواع من حبات غبار الطلع لنباتات أخرىٰ مُختلفة لكن دون أن تحدث أية فوضىٰ بينها ... ﴿ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ [(١)] .

---

(١) سورة الحجر: الآية (٢٢).

(٣٠) يطرح العالم سنويًّا قرابة ١٥٠ بليون طن ثاني أوكسيد كربون من خلال تنفس الكائنات الحية ومن الوقود الذي يستخدمه البشر في المصانع والسيارات، والمطلوب من حبيبات اليخضور المجهرية تحمُّل عبء ١٥٠ بليون طن ثاني أوكسيد كربون سنويًّا وإنتاج الغذاء أيضًا .

(٣١) صُمم لون ومذاق ورائحة العنب خصيصًا كي يعجب الإنسان، وإذا دقّ النبات جمعه الله لك في سنابل كالقمح والشعير وإذا تضخم جعله متفرقًا.

(٣٢) تُرىٰ ما هي العلاقة التي تسمح للحيوان أن يكون مسئول مباشر عن تلقيح النبات؟ وكيف نشأت هذه العلاقة؟ وكيف استفاد منها النبات؟ وما هو الثمن الذي يدفعه للحفاظ علىٰ مورثاته التي ينقلها إلىٰ الأجيال التالية؟

(٣٣) لقد اتبعت النباتات منذ البدء استراتيجيات مثالية لتوجيه الحيوانات التي تحمل غبار طلعها-حبوب اللقاح-، فالإشارات اللونية للنبات تدل الحيوانات علىٰ الثمرات الناضجة كما ترتبط كمية الرحيق بجاهزيتها للتخصيب .. ويعرف النبات الكائن الحيواني الأصلح للتلقيح فيُفرز روائح عطرية تجذب هذا النوع من الكائنات .. والنباتات التي يتواجد فيها غبار الطلع في المركز فإنها تجذب الحشرات بلونها وتربط استعمالهم لرحيقها بدخولهم في مركز الزهرة حتىٰ تستخدمهم في نقل غبار الطلع الخاص بها.

(٣٤) تحصل الحشرة علىٰ الرحيق ولا تعلم بالدور الهام الذي تقوم به – التلقيح –، لكن الزهرة أيضًا كائن غير عاقل فكيف لها عمل هذه المقايضة، وكيف لها معرفة ما تطلبه الحشرة بالضبط وتزيين نفسها بألوان جذابة لتجذب الحشرة إليها إذا كانت غير عطرية؟

لا إجابة صدفوية ولا عشوائية في الأمر، إنها قدرة الخالق العظيم الذي بث في الأرض من كل دابة وأودع فيها طريقة كسب رزقها وقوام حياتها وحفظ نسلها، فسبحان الخالق البارئ المصور سبحان الله العظيم ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1].

(٣٥) بعض الزهور مثل زهرة الأوركيدا تتخذ صورة تطابق تماماً أُنثىٰ النحل فيأتي ذكر النحل محاولاً الإقتراب من أُنثاه ولا يعرف أنها زهرة، فتلتصق حبات غُبار الطلع في رأسه ويقوم بالعملية نفسها في أوركيدا أخرىٰ فيقوم بالتلقيح المثالي دون أن يدري .. ولا يمكن بحال الحديث عن عامل التدرج أو الداروينية في الأمر .

(٣٦) بل إن الأكثر إثارة لكل عاقل أن زهرة الأوركيدا تُفرز نفس الرائحة الخاصة بأُنثىٰ النحل – فيرميون أُنثىٰ النحل – وليس شكلها فقط، كل هذا وهي كائن لا يعي من أمره شيئًا ولا يُدبر من أمره شيئًا، ورغم هذا التحدي المبهر في زهرة الأوركيدا فإنها تعيش في توازن بيئي مثالي مع غيرها من الكائنات، فلا تطغىٰ عليهم ولا يطغون عليها، فسبحان فاطر الخلق مودع عجيب الصنع في كل شيء .

(٣٧) بعض الزهور تأخذ شكل أُنثىٰ الدبور تمامًا كبديل للرحيق الجاذب للذكور .. هذه الأمور تناقض منطق التطور ذاته، القائم علىٰ التدرج، فهذه الزهور إما تظهر فجأةً ومعها الدبابير ولها نفس شكل أُنثىٰ الدبور أو لا تظهر .

---

(١) سورة الحشر، الآية: (٢٤).

مع ملاحظة أن خواص الفكر والإدراك واتخاذ قرار هي خواص في قمة العقلانية، ولكن لو افترضنا أن هذه الزهور تدرك وتعقل فلن تُغير من أمر شكلها ولا رائحتها شيئًا، فما بالنا بحساب الزمن – زمن التلقيح – والشكل والحجم الخاص بالحشرة التي ستُقلد شكلها، وإنتاج غبار طلع بالكمية الكافية وحساب خاصية التصاقه بجسد الحشرة، وضغط كل المورثات في حبة غبار الطلع وتحصينها بجدار سميك مع خفة الوزن في نفس الوقت .. كل هذه الحسابات هي آيات للعاقل يخشع بسببها للخالق العظيم المُبدع ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

(٣٨) لقد ظهرت هذه الكائنات منسجمة في علاقات تبادلية مع بعضها البعض منذ البدء، أو لن تظهر.

(٣٩) كيف نشأ التكاثر الجنسي؟

(٤٠) كيف نشأ الكائن المتطفل الذي يحتاج إلىٰ أكثر من عائل؟ بعض المتطفلات تحتاج لأكثر من ٣ كائنات، وفي حال فُقد كائن واحد تهلك هذه المتطفلات –كالبلهارسيا– فكيف تم التنسيق؟ بل إن ١٠٪ من الكائنات الحية تعيش متطفلة، وباقي الكائنات تعيش في علاقات حتمية بين بعضها البعض!.

---

(١) سورة البقرة، الآية: (١٦٤).

(٤١) كيف قدَّر الخالق هذه المنظومة المتكاملة من ملايين الكائنات الحية، وكيف قدَّر أقواتها وضبط العلاقات بينها، وقدَّر رزقها وعلاقاتها بغيرها وأعدها لتُفيد وتستفيد في منظومة تبهر العقول وتأخذ بالألباب.

(٤٢) تخيل إنسانًا بلا عظام؟ إنها كومة لحم لا تتحرك حتىٰ تموت.

(٤٣) تخيل إنسانًا بلا مفاصل! إنه كومة أيضًا لا تتحرك ولا تُحرك شيئًا من جسدها.

(٤٤) كل مفصل في جسدك وكل عظمة تتيح لك الحركة بقدرها، والمفاصل ملساء تتيح لك الحركة بلا احتكاك بين العظام ولا تآكل، وبها سائل كالشحم الذي يوضع في مفاصل الآلات المعدنية، وتغطيها عضلات تتيح لها الحركة المتناسقة.

(٤٥) صمامات معدتك لئلا يرجع الطعام إلىٰ فمك فتتأذىٰ.

(٤٦) صمامات الإخراج لئلا تتأذىٰ ثيابك في كل لحظة. مع أن هذا أمر لا قيمة تطورية له، لكنه الأليق بمخلوق من مخلوقات الله.

(٤٧) هرمونات تُفرز حسب الطلب والحاجة، بمعايرة دقيقة للغاية وحسابات حساسة لأبعد حد.

(٤٨) إنزيمات بالآلاف في قمة التخصصية من فك الشفرات داخل أنوية الخلايا إلىٰ هضم الطعام إلىٰ تخليق البروتين في سيتوبلازم الخلية بمنتهىٰ الكفاءة والضبط.

(٤٩) تُرزق وأنت في بطن أُمك بما يقوتك ويُنمي أنسجتك بلا نقص ولا زيادة وأنت لا حول لك ولا قوة.

(٥٠) عظام جمجمتك لا تلتحم حتىٰ تنزل من بطن أُمك آمنـًا بسهولةٍ ويُسر، ولا يكتمل نموها حتىٰ يكتمل نمو مخك.

(٥١) في لحظة نزولك من بطن أُمك يُعاد تهيئة جسدك بأكمله لحياةٍ جديدة لا حول لك فيها ولا قوة، فتنطلق جلطة لتُغلق ما بين الأُذينين، وجلطة لتُغلق الحبل السرىٰ، وتتفتح رئتيك، وتُهيأ معدتك لاستقبال الغذاء، وتتحرك غريزة البحث عن الطعام بين شفتيك فتلتقم ثدي أمك تمصه لترتوي بلبنٍ خرج للتو بضبط خاص حسب عمرك وحاجتك، فلا تطغىٰ المواد الدهنية علىٰ المواد النشوية ولا السكريات علىٰ المعادن والفيتامينات، بل ينزل الغذاء ترياقًا من كل داء وبناءًا لعضلات وأنسجة جسدك إلىٰ أن تقوىٰ وتعتمد علىٰ نفسك.

(٥٢) وأُمك نفسها لا حول لها ولا قوة، فهي لا تعرف شيئًا عن مقادير المضادات الحيوية التي يضخها ثديها في أول أربعة أيام والتي تطهر مجاري جسدك كله، ولا تعرف شيئًا عن اللبن الإنتقالي الذي يظهر بعد الأربعة أيام الأولىٰ من الرضاعة ويستمر لعشرة أيام ويتم فيه إعداد معدتك لتقبل الدهون والكازيين، ولا تعرف شيئًا عن خريطة ضبط هرمونات جسدها لتخليق اللبن بل وإنزاله عبر الحلمة لمجرد بكائك حتىٰ وأنت بعيد عنها بأميال، فتعلم أنك جائع وتهرول عائدةً تحملها اللهفة ويحدوها الشوق لتحتضنك، ويتقطع قلبها إذا أصابك مكروه وتفديك بعينها راضيةً قانعة، فقد سخرها الله لك حتىٰ تقوىٰ ويشتد عودك، وما أجمله من تسخير وما وأحلاه علىٰ قلبها.

(٥٣) عدم خُلُوّ لبن أُمك من أيّة مادة غذائية لشهور كاملة هو معجزة تفوق كل ما أنجزته البشرية من علمٍ وفكر.

هل تعلم أن زميلك الملحد يؤمن أن مصدر هذا اللبن هو غدد عرقية تطورت إلىٰ غدد لبنية ومضطر لهذا الإيمان وإلا لكفر بإلحاده؟!!

(٥٤) منذ اللحظة الأولىٰ التي تتفتق فيها أوعية دمك تنطلق جزيئات أوكسيد النيتروجين لتضبط ضغط شعيراتك الدموية وشرايينك وأوردتك فلا تنفجر ولا تلتصق، مع أن جزئيات أوكسيد النيتروجين جزيئات صماء بلا عقل، وتتبدد هذه الجزيئات كل عشر ثوانٍ لينطلق غيرها وهكذا طيلة عمرك وأنت لا تبالي، وربما تموت ولا تعرف عنها شيئًا ومع ذلك هي تقوم بمهمتها علىٰ أحسن وجه، وعندما اكتشف العلماء هذه الجزيئة ووظيفتها العجيبة العظيمة قاموا بإطلاق إسمها علىٰ عام ١٩٩٢ فصار يُسمىٰ عام جزيئة أوكسيد النيتروجين.

هل تعلم أن زميلك الملحد مضطر للتسليم بصدفوية عمل هذه الجزيئة وإلا لكفر بإلحاده؟!! مع أن صدفوية عملها لا يبرر خط سيرها داخل أوعيتك الدموية كل لحظة لضبط ضغط دمك، في حين أنها لا تملك بوصلة ولا وعي!!

(٥٥) تخيل الحد الحرج لهرمون مثل هرمون الألدوستيرون، والذي يتطلب لكل عشرة ملايين نسمة جرام واحد فقط من هذا الهرمون، تخيل حساب مليوني عجيب لهذا الحد، تخيل الشعب المصري كله يعيش علىٰ ٨ جرامات من هرمون الألدوستيرون تملأ طرف ملعقة شاي، أيضًا هرمون الأدرينالين بنفس المعدل تقريبًا، إنه حد حرج لا يستوعبه العقل، لكنه ضروري لتُكمل حياتك متزنًا بصحة وعافية.

(٥٦) في كل وظيفة مما سبق وفي كل هرمون يخرج بضبط وكمية تسمىٰ بالحد الحرج، يتسابق العلماء ليقتفوا مقاييس هذه الوظائف العجيبة وينالوا الجوائز لمجرد الرصد.

هل تعلم أن زميلك الملحد ينبهر بعقول هؤلاء العلماء، وينسىٰ خالق هذه العقول، وينسىٰ خالق هذه الهرومونات بحدودها الحرجة؟!!

(٥٧) هل تتخيل أن التطور يُمكن أن يُفرز وظائف حياتية تمت مُعايرتها بدقة متناهية مثل التواصل العصبي بين الشُّجيرات العصبية، والرسل الكيميائية التي تنقل الرسائل بين العصب والعضلة، فتجعلك تتحرك وتمشي وتكتب وتهز رأسك وتثني ظهرك وتُحرك لسانك وتبلع طعامك، وتتفادي الخطر؛ كل هذا في أجزاء من الثانية منذ لحظة وصول الإشارة إلىٰ تحليلها إلىٰ إعطاء القرار السليم إلىٰ تنفيذه، وأي تباطؤ يعني وقوف الطعام في بلعومك وبالتالي الاختناق والموت، أو الانتظار حتىٰ تأكل النار أجزاء من الجسد قبل اتخاذ القرار! لقد خلقك الله بمعايرة دقيقة لكل وظيفة وكل حركة وكل نشاط ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[1].

- هل تعلم أن زميلك الملحد يعترف أن كل علماء العالم الآن لا يستطيعون بكل ما امتلكوا من جامعات عملاقة ومكائن جبارة أن يرفعوا درجة الوعي لأي شيء يصنعونه فوق حاجر الصفر ٠.٠٠، في حين يضطر الملحد في نفس اللحظة للتسليم بأن العشوائية العقيمة في بيئة الأرض الأولىٰ أنتجت الوعي والحياة والإنسان؟!!

(٥٨) هل تفكرت يوماً ماذا لو اختل هرمون واحد من عشرات الهرمونات التي تجري داخل دمك بمقدار جزء من المليون من الملليليتر، ماذا لو اختلت نيوكليوتيدة من أصل ثلاثة مليارات نيوكليوتيدة في كل خلية من خلاياك؟!!

(١) سورة النمل: الآية (٨٨).

(٥٩) تخيل كل محاور أعصابك والتي تنقل الإشارات الكهربية مُغطاه بطبقة عازلة –كما نفعل نحن الآن مع الأسلاك الكهربية –منذ البدء؛ لئلا تشرد الإشارة الكهربية أو تضيع أو تسبب لك إزعاجًا.

(٦٠) تخيل لكي تؤدي حركة واحدة بسيطة بإصبعك فإنك بحاجة لمنظومة هائلة من التواصلات العصبية الكهربية، ثم الإفراز الكيميائي في نهاية كل وصلة والذي ينقل الإشارة كيميائيًّا لشجيرات العصب التالي، ثم تتحول الإشارة إلىٰ إشارة كهربية علىٰ طول المحور العصبي التي بدورها تعود إشارة كيميائية لحظة تبدل المحاور، وهكذا إلىٰ أن تصل الإشارة إلىٰ العضلة التي تريد قبضها أو بسطها فتخرج بنفس القدر والقوة والإتجاه المناسبين، ثم يعاد ضبط إيقاع العضلات لو كان الأمر مُركب، كل هذا في أجزاء من الألف من الثانية.

(٦١) شبكية العين البشرية بها ١٣٠ مليون عُصية ومخروط –١٣٠ مليون مستقبل ضوئي –، وحجمها ملليمتر وربع الملليمتر، للتمييز بين ٨ مليون لون، وفي العين مادة مضادة للتجمد ولذا لا تتجمد وإلا لأُصيب بالعمىٰ أهل المناطق المتجمدة.

(٦٢) أما القرنية التي تُشكل أنقىٰ وأدق عدسة في العالم بالاشتراك مع عدسة العين، فإنها لا تحمل أية أوعية دموية لتغذيتها حتىٰ لا تؤثر علىٰ الرؤية، وإنما تتغذىٰ من دموع العين، وتحصل علىٰ الأوكسجين من الهواء مباشرةً.

(٦٣) مينا الأسنان ثاني أقوىٰ عنصر في الأرض، وإلا لتآكل خلال أيام من ظهوره.

(٦٤) كرات الدم الحمراء تأخذ شكل كروي حتىٰ تسرع حركتها في مجرىٰ الدم، وتقوم بتفريغ نفسها من كل العضيات وتفريغ نفسها حتىٰ من النواة –

وهذا يعني أن الحياة لا علاقة لها بالنواة- لتتفرغ فقط لحمل الأوكسجين وبذلك تتسع الكرية الواحدة ل ٢٨٠ مليون جزيئة هيموجلوبين، لو قلَّ عدد الكرات الحمراء إلىٰ النصف فقط يموت الكائن الحي، ولو اتخذت أي شكل بخلاف الشكل الكروي فإن الإنسان يعاني من الأنيميا الحادة مدىٰ الحياة.

(٦٥) خلايا الكيراتين تتخذ شكل مُعين ثم تقوم فجأةً بمهمة انتحارية وتقرر أن تموت لتُشكل الشعر والأظافر.

(٦٦) ما المبرر لتتجمع ملايين الخلايا لتكوين صمام مخرج الجهاز الهضمي؟ مع أنه ليس قضية حياتية، ولو كان الأمر عفويًّا فصمام كهذا لا معنىٰ له، فكل ما سيحصل هو أن الكائن لن يتحكم في خروج الفضلات ولكنة لن يموت. ثم إن هذا الصمام يتمتع بميزة من أعجب ما يكون إذ ينقل للمخ إحساس يختلف بحسب المادة الموجودة خلفه، فيعرف الإنسان ما يحتبس بداخله هل هو ريح أم براز، فيقرر التصرف الأنسب بطريقة تليق بكائن خُلق في أحسن تقويم.

(٦٧) لو تصورنا مثلاً أن للإنسان حاسة شم مثل الكلب فإنه كان سيعيش أسوأ وأتعس لحظات حياته بمجرد وجود رذاذ من البول علىٰ صنبور عربة إطفاء علىٰ بعد مئات الياردات عنه، فكل شيء موجود بقَدر ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[1].

(٦٨) تخيل لو كانت الشمس من الفحم، فإن عمرها لن يتجاوز ٣٠٠ عام.

(١) سورة القمر: الآية (٤٩).

(٦٩) وقدَّر العلماء ثمن كمية الطاقة التي تصل للأرض يوميًّا من الشمس بـ ٦٨٠ مليار جنيه يوميًّا، أي أن كل الثروات التي جمعتها البشرية عبر تاريخها كله لا تكفي نعمة طاقة الشمس في شهرٍ واحدٍ فقط، فتبارك الذي أنعم علينا بهذا السراج ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾[1].

(٧٠) الأرض تسير حول الشمس بزاوية ميل ٢٣ درجة وهي التي تكفل الفصول الاربعة (الصيف، والخريف، والشتاء، والربيع)، وتمنع بذلك تحول وسط الأرض إلىٰ صحراء تحترق في صيف دائم ودفن شمالها وجنوبها تحت ركام من الثلج، ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[2].

(٧١) وتعاقب الليل والنهار بنظام ثابت متقارب مناسب لبنية الإنسان هو آية عجيبة، فلو كان النهار عشرة أيام كبعض الكواكب لاحترق كل شيء علىٰ الارض فترة النهار، ولتجمد كل شيء علىٰ الأرض فترة الليل.

(٧٢) الكون جاء بنظام دقيق ممكن الاستيعاب وبفضل هذا النظام الذي قام علىٰ ميزان دقيق يستطيع الإنسان البحث والتدبر والاستفادة بهذه الظواهر في الحِل والترحال ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[3].

بل إن الفلكيين عرفوا كواكب قبل رصدها المباشر، مثل كوكب بلوتو الذي تم تحديد سرعته ووجهته وكثافته قبل رصده بفضل ميزان الخلق الدقيق.

---

(١) سورة الفرقان: الآية (٦١).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٩٠).

(٣) سورة الأنعام: الآية (٧٩).

(٧٣) تخيل لو لم يتم تذليل المخلوقات لنا كالحصان والحمار والجمال!

لو لم تُذلل لنا لما قامت حضارة ولا انتقلت ثقافة ولا توسع عمران، فالمخلوقات الضخمة كالجمال والخيل تستسلم لنا وتنقاد لتذليل الله لها.

حاول أن تُذلل قطة أو فأرًا أو حشرة!

إن تذليل الكائنات نعمة من الله.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

(٧٤) تخيل لو لم تُسخر لنا البحار وكان موجها أعنف فقط بنسبة الضعف؟

لما تجاوزت البشرية حدودها ولما حصلنا علىٰ الثروة السمكية العملاقة، ولانحصرت البشرية في بقعة من الأرض لا تتجاوزها.

هذه كانت لمحة سريعة لآية من آيات خلق الله

﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

(١) سورة النحل: الآية (٧).

الباب الثالث

ادعاءات الملحدين

ادعاءات الملحدين

في هذا الباب سنتحدث عن ادعاءات الملحدين، وفزلكاتهم وشيءٍ كثيرٍ من سفسطاتهم.

وسنُطيل النَفس مع كثرة الإدعاءات حتى نخرج في النهاية بنتيجة أن: الإلحاد خبط عشواء ومغالطة منطقية، وليس بنية فكرية أو معرفية فضلاً عن عقلية.

(١) يدعي الملحد أن الكون ضخم، فما معنىٰ أن يهتم الخالق بكرة الأرض الصغيرة تلك؟

الرد:

يُشغل الملاحدة كثيرًا بمسألة ضخامة حجم الكون وحقارة حجم الأرض وبالتالي حجم الإنسان، لكن هذا الكلام يشتمل علىٰ افتراض جدلي وهو أن ضخامة حجم الشيء أو ضآلته مؤثر في المسألة، وهو فرض مجرد عن أي دليل.

ثم إنه مثلاً ليست العبرة بالحجم الحسي للإنسان، وإنما بالحجم المعنوي لأشياء بلا حجم كالأخلاق والصدق والأمانة، ولو كان للحجم في ميزان الله أدنىٰ اعتبار لكانت السماوات والأرض أولىٰ بحمل الأمانة، ثم إن الحيتان أضخم من الميكروبات بمليارات المرات، فهل هذا يعني أن الحيتان أهم من الميكروبات؟ وما معنىٰ كلمة أهم هنا؟ وما القيمة الجدلية لهذه الكلمة "أهم"؟

وهل الله يهتم بالكائن الضخم لضخامته ولا يهتم بالكائن الصغير؟ أم أنه كفل للجميع الرزق والنظام الأنسب؟

ثم إن السماوات والارض مصدرهما نقطة أصغر من رأس الدبوس –أصغر من بروتون الذرة بمليارات مليارات المرات–، أليس كذلك يزعم كل فيزيائيي العالم طبقًا للبيج بانج؟

أيضًا الحجم نسبي ولو تحولت المجموعة الشمسية كلها إلىٰ ثقب أسود فلن تتجاوز كيس شيبس صغير- حجم الأرض ٠.٩ سنتيمتر مكعب-.

إذن القضية ليست بالأحجام ولا الحكم علىٰ الأشياء يكون بالأحجام والأوزان والأثقال ..

القضية هي إدراك هذه الأشياء واستيعابها، والآن هل ثمة شيء يستوعب هذه العلاقات بين الأحجام إلا الإنسان؟ هل ثمة شيء يدرك الفوارق إلا الإنسان؟ هل ثمة شيء يدرك القوانين وضخامة الأفلاك وعظمة الخلق وروعة الإعداد بعناية إلا الإنسان؟

هل ثمة شيء يدرك أن الوردة حمراء وبديعة التنسيق والجمال غير الإنسان؟ هل ثمة شيء يدرك مدارات الأفلاك وروعة المنظومة الفيزيائية التي تحكم الكون غير الإنسان؟

إذن لا يختلف العلماء علىٰ أن الإنسان مركز الكون إدراكيًّا وسيكولوجيًّا وحديثًا فيزيائيًّا ومنذ الأزل دينيًّا .

(٢) يدعي الملحد أن تأخر ظهور الكون معضلة. فلماذا خلق الله الكون في هذه اللحظة دون غيرها؟

الرد:

الإشكال الأكبر في الفكر الأرسطي والذي تأثر به فلاسفة المسلمين أمثال الفارابي وابن سينا هو استحالة تأخر المعلول" العالم المادي" عن العلة الأولىٰ

"الله سبحانه وتعالىٰ"- استحالة تأخر النتيجة عن السبب-، فقالوا بقِدم العالم، فلو تأخرت النتيجة عن السبب، أو تأخر المعلول عن العلة فلماذا اختار الله أن يؤثِر وقتًا لاحقًا ليوجد فيه العالم، وكيف نقرر بذلك أن إرادته وقدرته صفات قديمة قائمة بالذات؟

هذا السؤال السفسطي أجابه الغزالي منذ قرابة ألف عام في كتابه تهافت الفلاسفة، وانتهىٰ أمره؛ لكن نظرًا لحداثة أسنان الملحدين العرب، فما زالوا ينقلون عن آبائهم كهنة الإلحاد بلا وعي، ويظنون أنها أسئلة حديثة تفتقت عنها أذهان حضرات القمامصة الملحدين، لذا قررنا أن نُحرر جواب الغزالي - رحمه الله- هنا مرَّة أُخرىٰ!

ذهب الإمام الغزالي رحمه الله إلىٰ عدم استحالة تأخر النتيجة عن السبب، فما المانع أن الله أحدث العالم في وقت مُعين بإرادة أزلية؟

فالله ذو قدرة وإرادة أزليتين قديمتين، ولكن آثار تلك الإرادة والقوة تحدث متىٰ شاء!

أما تخصيص الله لوقت لاحق لا شيء فيه؛ لأن الأزمان جميعها متساوية قبل ظهور الأحداث فيها- اللازمان بلغة الفيزياء المعاصرة-.

وقد وافق ابن رشد الغزالي بجواز تأخر المعلول عن العلة، - النتيجة عن السبب-، ولكنه أضاف أن الله لم يؤثر وقت علىٰ وقت، بل آثر خلق العالم علىٰ عدمه!

وتقدم الله علىٰ العالم هو تقدم بالذات - ذاته سبحانه وتعالىٰ- وليست تقدم بالزمان- لأنه خالق الزمان والمكان-، فالله لا يلحقه زمان أصلاً، والله

ليس كمثله شيء ولا أول له، وهذا هو الحل الوحيد الذي يُفسر لنا وجود العالم، وبفضل الله هو جوهر الإسلام وركن عقيدته الأكبر!

(٣) يقول الملحد: إن فكرة الخلق من عدم هي جواب كليشي جاهز يقدمه المؤمن ليريح به ذهنه.

الرد:

لكن كذلك نظرية التطور جواب كليشي جاهز، أيضًا الصدفة تُشكل فراغ تفسيري بامتياز، وبالتالي هذا يلزم الملحد بناءًا علىٰ معنىٰ التفسير الذي قيّد به نفسه، ولا يُلزمنا نحن.

بل ويجب أن يحلل كل ظاهرة وفق أسباب علمية يمكن فهمها وتحليلها لكن لا الصدفة ولا التطور يتيحان التحليل العلمي، فإن كانت فكرة الخلق لا تحمل التفسير ففكرة الصدفة والتطور ينطبق عليهما الأمر بتمامه.

لكن من عجيب الأمر أن الخلق عندنا يدخل في جملة الأسباب، بل إن المعجزة طبقًا لمنهجنا لا تخرج عن مطلق السببية وإن خالفت المعهود، فلم يكن الخلق يومًا من الأيام نفيًا لحقيقة الاسباب.

(٤) يقول الملحد: خبرتنا البشرية ربما تكون نسبية، وبالتالي فكيف نحتكم لمعطياتها؟

الرد:

يتمرد الملحد علىٰ الاحتكام لخبرتنا البشرية وقياسنا، ونحن نقول: بأي دليلٍ من خارجنا نحن مطالبون بالتمرد عليها وعدم الاحتكام إليها؟

أليس هذا من باب الجدل لا أكثر؟ ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾[١].

(٥) يدعي الملحد أن مجموع طاقة الكون= صفر؟

الرد:

مجموع طاقة الكون لا يساوي الصفر، طبقًا لمعطيات الـwmap[٢].

لكن لنفترض أن مجموع طاقة الكون= صفر!

أُخلق لنا قانون (−) + (+)= صفر، أو قُم بتفعيل قانون كهذا.

هل القانون يُسير المنظومة ويستقل بالوجود قبلها؟

أم أن القانون تابع لوجود المنظومة وهو صورة تفاعلات المنظومة، وصيغة عملها؟

هل للقانون وجود مادي حتىٰ نفترض أن معرفة القانون تُبرر الوظيفة؟

هل للقانون وجود أنطولوجي قَبلي، أم هو مُعطىٰ استيعابي لطبيعة التفاعل؟

القانون هو: استيعاب انتظام تفاعلات مادية تعطي نتيجة واحدة مُكررة بصورة ملحوظة يمكن رصدها وفهمها!

ثم إن معرفة القانون لا تُغني عن المُقنن، بل تزيد الأمر وضوحًا وتبيانًا!

فوجود الظاهرة ورصد نمط عملها لا ينفي الحاجة إلىٰ تعليلها، بل يزيد الحاجة لذلك.

---

(١) سورة الكهف: الآية (٥٤).

(2) arxiv.org/pdf/astro-ph0011469/v1.pdf

يقول الدكتور عمرو شريف في كتابه "**وهم الإلحاد**": «هل معرفة قانون الاحتراق الداخلي في السيارة ينفي وجودًا مُقنَّنًا للسيارة ومُسببًا لها وغاية من صنعه لها؟

ألا يكون استبعاد مُقنن السيارة من المنظومة خطأً منطقيًّا ومنهجيًّا؟».

المشكلة أن الملحد العربي يلعب علىٰ وتر جهل القارئ ويتقافز بالمغالطات المنطقية ليبني منظومته التشكيكية، وتمتلئ مقالاته بكلمات مثل: "ظهر وفجأة وحدث وولد وطفا وقفز وبزغ .."، إنها ألفاظ أقرب للسحرة والدجاجلة من العلماء والتجريبيين، فلا تنشغل بدجلهم قبل أن تمتلك ناصية ما يتحدثون عنه.

(٦) يدعي الملحد أن نموذج هاوكنج-هارتل يحلل نشأة الكون من لا شيء.

الرد:

نموذج هاوكنج-هارتل أو النموذج الكمومي للكون، يعتمد علىٰ مفهوم الزمن التخيلي imaginary time وهو تطبيق لمفهوم الرقم التخيلي ويطرحه هاوكنج لأول مرة.

فإذا بحثنا عن الجذر التربيعي لرقم -٤ فلن نجد رقمًا حقيقيًّا، لذلك قام هاوكنج بوضع رمز x ليشير إلىٰ هذا الرقم الذي لا وجود له، وعندما وضع x في معادلاته الخاصة بحساب الزمن نتج زمن تخيلي، عندما استخدمه هاوكنج في حساباته أزال الحاجة إلىٰ موجد أول.

يقرر سير هربرت دنجل Sir Herbert Dingle رئيس الجمعية الفلكية الملكية بانجلترا، أن مفهوم الأرقام التخيلية إذا كان صحيحًا من الناحية

الرياضية، فلا اعتبار له في الناحية التطبيقية، ويستدل علىٰ ذلك بمثال يعرفه كل التلاميذ الدارسين للرياضيات: إذا كان عدد الرجال المطلوبين لوظيفة ما هو x وكان x في بعض المعادلات لها عدد من الاحتمالات موجبة وسالبة، عدد صحيح وكسر وعدد تخيلي، عدد مركب وصفر ولا نهاية، أو أي شكل من الاشكال التي ولدتها عقول الرياضيين، فإننا بالتأكيد سنعتبر x (عدد الموظفين المطلوبين) رقمًا صحيحًا موجبًا، ونرفض باقي الاحتمالات، إن الرياضيات لا تستطيع وحدها الاختيار بين البدائل في المثال السابق وسنعتمد علىٰ المنطق والخبرة والتجربة.

ومن ثَم فإن الزمن التخيلي الذي نشأ عن وضع الأرقام التخيلية في معادلات هاوكنج لا اعتبار له، وسينقلب إلىٰ زمن حقيقي إذا استُبدل الرقم التخيلي برقم حقيقي، عندها ستظهر الحاجة إلىٰ المسبب الأول.

إذن الجذر السالب ليس كمية فيزيائية، وبالتالي ليس له وجود فيزيائي.

ونظرًا لسذاجة نموذج هوكنج-هارتل لم يعد يعول حتىٰ الملاحدة عليه في تفسير نشأة الكون[١].

(٧) يقول أحد الملحدين: الكون منظم جدًّا ومنضبط بقوانين علىٰ المستوىٰ الماكرو - المستوىٰ الكبير- " إذن الله غير موجود؛ لأن القوانين تفسر لنا كل شيء"، بينما يقول ملحد آخر أن: "الكون غير منضبط بتلك القوانين علىٰ مستوىٰ المايكرو - المستوىٰ الصغير تحت الذري-" إذن الله غير موجود؛ لأن هناك عشوائية ".

(١) هذا الرد من كتاب خرافة الإلحاد، د.عمرو شريف، دار الشروق الدولية.

الرد:

هذه خلاصة تضارب الملحد العربي في ظلال العلم، المهم أن يخرج بنتيجة مسبقة دوغمائية تدعم موقفه وإنكاره لوجود الله، حتىٰ ولو كان طرحه العقلي متناقض ويلزم منه الإستحالة العقلية، فتارةً يخرجون علينا بحجة النظام وتارةً يخرجون علينا بحجة اللانظام!

أما بخصوص انضباط الكون علىٰ مستوىٰ الماكرو – المستوىٰ الكبير، مستوىٰ المجرات والكواكب والأفلاك-فوجود القانون هل ينفي وجود مقننه أم يؤكد وجوده وروعة خلقه؟

ثم إن القانون يحتاج إلىٰ زمان ومادة ينطبق عليهما والوجود جاء من اللازمان واللامكان، أم أن الملحد يفترض أسبقية القانون علىٰ الوجود المادي؟

أما بخصوص العشوائية علىٰ مستوىٰ المايكرو – المستوىٰ الصغير، الكوانتي، دون الذري- فلا وجود للعشوائية، فعالم المايكرو الكوانتي يسير وفق معادلات رياضية صارمة لا يحيد عنها مثل معادلة شرودينغر Schrödinger equation ومعادلة هايزنبرج Heisenberg equation ومعادلة بلانك اينشتاين Planck–Einstein equation وكلها تصف حالات كمومية مختلفة.

لكن الواقع في مستوىٰ الميكرو هو التعدد الإحتمالي وليس العشوائي وهنا نخرج بحقيقة قيومية الله سبحانه وتعالىٰ، فالله قيوم السماوات والأرض وكل يومٍ هو في شأن من شئون عباده، فهو سبحانه يمسك السماوات والأرض أن

تزولا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾(١).

لأن زوالهما احتمال كوانتي قائم، فقيوميته عامه وخاصة، ويستحيل أن يخرج الكون بهذا الضبط علىٰ مستوىٰ الماكرو من احتمالات لا نهائية في المجال الكوانتي المايكرو، إلا لأن الله قيوم السماوات والأرض والحافظ لهما في كل وقت يخلق ما يشاء ويختار الأصلح والأنسب لخلقه ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾(٢).

فهو وحده سبحانه الذي يضمن دوام الكون وضبطه إلىٰ أجلٍ مسمىٰ!

(٨) يدعي الملحد أن كل شيء له سبب؛ فلماذا لا ينطبق الأمر علىٰ الخالق ذاته؟

الرد:

أولاً: كل شيء له سبب، وهذا لا يمنع وجود خالق بل يؤكد وجوده، فلماذا يقوم الملحد بترحيل قضية كفره إلىٰ هذا السؤال السفسطي؟ وكأن إلحاده ليس حل في ذاته، وإنما هو موقف وقتي إلىٰ حين إيجاد حل لهذا السؤال.

ثانيًا: كل شيء له سبب، لكن الله ليس كمثله شيء ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾(٣).

---

(١) سورة فاطر: الآية (٤١).

(٢) سورة القصص: الآية (٦٨).

(٣) سورة الشورىٰ: الآية (١١).

ثالثًا: الحل الديني لهذه المسألة ذكي وبسيط ويستوعبه أي عاقل فالخالق غيب ولا ينطبق عليه ما ينطبق علىٰ مخلوقاته، وبالتالي فبديهة أن كل شيء يجب أن يكون له سبب لا تتعارض مع من ليس كمثله شيء.

والخالق خارج حدود الزمان والمكان وموجد الزمان والمكان، فلا تنطبق عليه قوانين موجوداته بداهةً.

رابعًا: الحل الذي يقول بالتسلسل اللانهائي ممتنع عقلاً، ونسوق هنا مثال الجندي و الرصاصه، "لو كان هناك جندي يريد إطلاق رصاصة و لكن يحتاج لأمر من قائد أعلىٰ منه، والقائد يحتاج لأمر من قائد أعلىٰ منه الخ الىٰ ما لانهاية، فلن تنطلق الرصاصه أبدًا ". والمثال يبين كون التسلسل السببي إلىٰ ما لانهايه ممتنع، ويجب وجود سبب أول لا سبب له بدأ السلسلة، هذا واجب عقلي ومنطقي، وعليه فهذا السبب بالتأكيد ليس كمثل أي شيء – ميتافيزيقي–.

خامسًا: الطرح الديني في هذه القضية هو الطرح الأكثر منطقية وعقلانية والأكثر إحكامًا، فوجود خالق ليس من هذا الكون وليس كمثله شيء أزلي موجد للكون وخالق له هو الحل الأقرب للعقل.

(٩) يدعي الملحد أن معرفة القانون تُغني عن وجود المقنن.

الرد:

قمنا بالرد علىٰ هذا الادعاء منذ قليل وقلنا: إن القانون لا يغني عن المقنن، ونُضيف هنا خطأً منطقيًّا في السؤال، فافتراض أن القانون يُغني عن المقنن هذا فيه خلط بين السبب الأول والآلية، هذا يشبه الخلط بين آلية قانون الاحتراق الداخلي للسيارة ومصممها مستر فورد، فهذا خلط بين مستويات مختلفة وليس بين بدائل وهذا يُعرف بالخطأ الطبقي category error .

فالقوانين احتاجت من يكتبها ومَن يُخرجها إلىٰ الوجود ومَن يمدها بفاعليتها واستمراريتها، ثم إن المادة لم تنتجها القوانين بل العكس هو الحاصل.

فالقوانين هي توصيف رياضي لما يمكن أن يحدث تحت ظروف معينة، فالقانون يتبع ظهور المادة، وهو يحتاج إلىٰ ركنين أساسيين: الزمن الذي يطبق فيه القانون فاعليته، والشيء المادي الذي يطبق فيه القانون عمله، والوجود جاء من اللازمان واللامكان، أي لم يكن ثمة قانون سابق.

(١٠) يدعي الملحد أن تفسير كل شيء بنسبته للخالق هو سد ثغرات معرفية لا أكثر.

الرد:

بخصوص فكرة آلهة سد الثغرات المعرفية فمستر فورد لم يكن جزءًا من الآليات الميكانيكية لآلة الاحتراق الداخلي في السيارة، ولم يكن خطوة من خطوات معادلات عملية الاحتراق لكنه المسئول عن وجود الآلية التي تحمل بصمات عقله وعمل يديه!

فالعلم يرينا بصمات الخلق والتصميم والوعي والارادة والإيجاد والضبط والمعايرة الدقيقة.

فالإله الخالق ليس سد ثغرات كما يزعمون، وإنما هو تفسير ما علمناه وما فهمناه وهو تفسير لماذا العلم صار قادرًا علىٰ التفسير؟ ولماذا العلم موجودًا؟ فالإله ليس شرطـًا لما نجهله بل هو شرطٌ لما نعلمه !

(١١) يقول الملحد: حسنًا أُقر بوجود تصميم في الكون وعناية وضبط، لكن لماذا ننسب هذه الأمور لخالق؟

الرد:

أفضل الفرضيات الممكنة بالنسبة لمعطياتنا المعرفية وبعيدًا عن الدين هو وجود الخالق.

بل إن فرضية الخالق هي الأفضل علىٰ كل المستويات النفسية والوجودية معًا، وهي الجواب عن سؤال لماذا، وهي الجواب عن معنىٰ تطلعنا لما وراء الزمان والمكان، وهي الجواب عن الأسئلة الوجودية الكبرىٰ، وإن كان الملحد قادرًا علىٰ إخراس جميع هذه الأسئلة، فهذا ليس جوابًا.

وتَصُوُّر وجود الإله ليس حاجة مشروعة بل حاجة مُلحة، فالعقل هنا لا يبتدع فرضية وإنما يُعبر عن حاجة ضرورية ضرورة الماء والهواء بل أولىٰ منهما، بل إن استيلاء سؤال الخلق علىٰ خواطر الأطفال ما أن يبدءون في النطق والحكي أمرٌ معلوم، فضرورة الصانع مغروزة منذ وقتٍ مبكر جدًّا، قبل تشكل الوعي ذاته.

فالعقل في أقصىٰ درجات فطريته لا ينفك عن سؤال الصانع.

(١٢) يقول الملحد: سأُسلم لك بوجود الخالق نظرًا لوجود الخلق والتصميم في الطبيعة، لكن لماذا تستبعد أن يكتشف العلم أخطاء في التصميم؟

الرد:

ما معنىٰ قولنا بأخطاء التصميم في عالم لا تصميم فيه؟ هل يُتصور الخطأ من دون افتراض قدر صالح من التصميم؟

أليس افتراض وجود خطأ، هو أكبر دليل علىٰ التصميم؟

لو لم يكن كوننا أخلاقي لما كانت لمجازفة الملحد بإلحاده معنىٰ.

ولو لم يكن الكون مُصمم لما كان لافتراض وجود عدم التصميم معنىٰ.

(١٣) يدعي الملحد أننا لا نجد آثارًا لتدخل الخالق.

الرد:

هذا كلام خاطئ جدًّا، فالتدخل الإلهي في كل ثانية، وفي كل جزء من مليار جزء من الثانية - كل فيمتو ثانية بالضبط يحدث تدخل إلهي - وإلا لتوقفت الحياة، والفيمتو ثانية هي الفترة الكافية لحدوث تفاعل كيميائي يمكن رصده.

وأي تفاعل كيميائي يحدث داخل الخلية يسير عكس قانون الديناميكا الحرارية الثاني، فهذا القانون يشترط أن الكون يسير نحو الهدم والتبسيط والتفكك، بينما التفاعل في الخلية يسير نحو البناء والتعقيد، فالحياة تسير عكس قوانينها، وهذا لا يحدث إلا في حالة تدخل إلهي في كل لحظة.

وهذا ينسف أيضًا المذهب الربوبي القائل بالعزلة الالهية - **تعالىٰ الله عما يقولون**.

فالحياة الآن تسير عكس قانون من قوانينها، وهناك مناظرة مع ملحد فيزيائي أميركي قمت بها علىٰ اليوتيوب حول هذه المسالة وبفضل الله انقطع الرجل.. فبالفعل هناك تدخل في كل فيمتو ثانية .. هذا التدخل الإلهي يقتضي أن الله كلي الحكمة وكلي العلم وكلي القدرة، إذ لو لم يكن ثمة تدخل كل لحظة لما كنا موجودين الآن.

وهذه النعم التي نحن فيها والتي نسميها بالفندق العظيم، فالأرض فندق متكامل به من كل الخيرات، كل هذه النعم أيضًا تسير عكس هذا القانون.

هل تتوقع أيها الملحد! أن الله يرزقك ويطعمك ولن يحاسبك؟

هل تتوقع أن الله خلق كل هذه النعم لنموت في النهاية شاكِّين في وجوده أو تدخله؟ هل بهذا نكون قد أرضينا عقولنا، أم أسئنا الأدب وكفرنا بالمُنعم وخسرنا دنيانا وآخرتنا؟ ونعوذ بالله من الخسران!

هذه مناظرتي مع الفيزيائي الامريكي التي جرت منذ فترة حول القانون الثاني للديناميكا الحرارية، وأن الحياة كلها وكل أنظمة التعقيد تسير عكس قانون كوني، مما يوجب تدخلًا إلهيًّا في كل لحظة وإلا لتوقفت الحياة وانهار الكون(١).

(١٤) يدعي الملحد أن مقاومة الباكتريا للمضادات الحيوية -انتقال الجينات أُفقيًّا بين الباكتريا- يدعم فكرة التطور.

الرد:

انتقال الجينات أُفقيًّا والذي كان يُظن حتىٰ وقت قريب أنه تطور في الباكتريا لمقاومة المضادات الحيوية، كان هذا الكشف في بدايته سعيًا نحو الانتصار للداروينية بدليل تجريبي لأول مرة في التاريخ البيولوجي، لكن تبين أنه أكبر هزيمة تتلقاها النظرية! حتىٰ كتب برندن ميهر Brendan A. Maher في دورية the Scientist الشهيرة أن " انتقال الجينات أُفقيًّا يؤدي إلىٰ اجتثاث شجرة داروين ككل "(٢).

فانتقال الجينات أُفقيًّا لا يولد كائن جديد ولا يضيف معلومة وراثية جديدة للمنظومة ككل.

(١٥) يدعي الملحد أن الإنسان اخترع الإله، ويحتج بمقولة فولتير كثيرًا" لو لم يوجد الإله لكان من الضروري اختراعه".

الرد:

---

(1) http://www.youtube.com/watch?v=VoRdhzX3cIc.

(2) The Scientist, No. 16, p.26.

أولاً: فولتير لم يكن ملحدًا الإلحاد الإصطلاحي المعروف هذه الأيام، وإنما كان ربوبيًّا.

ثانيًا: هذه الكلمة جزء من قصيدة قالها فولتير نقدًا للكنيسة، ومن المعلوم أنه كان لا يطيق النظام الكهنوتي المتسلط.

ثالثًا: هذه الكلمة من أبلغ ما قيل في التعبير عن داعي الفطرة، فهذه آية من داخلنا قبل خارجنا علىٰ عناية الخالق، وأننا مُصممون لاستيعاب وجود الخالق، وهذا يعني أن طريق الوصول للخالق ليس بالمنطق وحده أو بالعقل بل بالفطرة والوجدان.

رابعًا: فولتير هنا يقرر حقيقة توصل لها علم النفس المعرفي من فترة قصيرة جدًّا، وهي أنه حتىٰ أطفال ما قبل المدرسة يؤمنون ويستوعبون وجود خالق للأشياء الطبيعية لا المصنوعة بينما يؤمنون أن قدرة غيره تقتصر علىٰ الأشياء المصنوعة لا الطبيعية.

وهذا كلام جاستين باريت عالم النفس المعرفي (ثلاث رسائل، م. س)[1].

خامسًا: إذا كان الخالق فرضية مخترعة، فكيف يكون هذا التمييز الفطري بين الأشياء الطبيعية والمصنوعة ونسبة الطبيعي للخالق فقط؟

وهذا نص القرآن الكريم قبل اكتشاف فولتير وقبل تقرير جاستين باريت ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾[1]، هذا كلام القرآن الذي

(1) Barret, J.L. (2000) Exploring the Natural Foundations of Religion, p.30

(١) سورة لقمان: الآية (١١).

يقرر حقيقة نفسية فطرية للبشر قاله رجل عربي بدوي كان يرعىٰ الغنم علىٰ قراريط لأهل مكة.

سادسًا: هذا الوعي المبكر أفضل مصادقة علىٰ فطرية الإنسان للدين والإيمان.

(١٦) يدعي الملحد أن صفات الخالق في الأديان تشبه صفات المخلوق.

الرد:

صفات المخلوق علىٰ وجهٍ ما تشبه ولا تماثل صفات الخالق وهذا غير ممتنع، فوجود بعض صفات في الفرع تشبه ولا تماثل بعض الصفات في الأصل هذا لا يمنعه عقل ولا دليل.

لكن هنا قد يقول الملحد: أنتم بذلك تُصورون الخالق علىٰ صورتكم لا أكثر!

في الواقع فإن الملحد نفسه لو لم يكن يدرك صفات الإله إدراكًا فطريًّا لما استطاع أن يؤسس لنقده أو يؤسس لإلحاده بناءًا علىٰ ما يراه مخالفًا لما انطبع في فطرته من صفات وأفعال الخالق، فأصل إلحاد الملحد يقوم علىٰ أنه يعرف فطريًّا صفات الإله وطبيعة الإله وأفعال الإله، فعندما يجد ما يخالف ما انطبع في فطرته- ولم يُحط بعلمه- عندما يجد ما يخالف ما يعرف أنه صفات للإله وأفعال للإله من واقع فطرته هو وعقله هو، عندما يجد ما يخالف ذلك فإنه يضيف هذه المخالفات إلىٰ رصيده الإلحادي الذي أسس له؛ إذ لو لم يكن الملحد يعرف الإله حق المعرفة وكل المعرفة ويعرف صفاته وأفعاله فطريًّا، والله ما ألحد! وما استقامت له شبهة ولا استوعب أصلاً الشبهة، فإذا سلك الإله

عكس ما يتوقع الملحد ثارت ثائرته واعتبرها حجة لديه، وهذا يؤكد أنه يستقر في فطرته صفات الخالق وأفعاله.

إذن كلنا يعرف الإله؛ لأن الله ببساطة هو الذي خلقنا ورزقنا العقل الذي نتجاوز به حدود العالم المادي في تفكيرنا وتصوراتنا إلىٰ ما بعد العالم المادي، وكلنا يستقر في فطرته صفات الإله.

وأكفر البشر وأشدهم إغراقًا في الوثنية يعلمون أن لهم خالقًا متجاوزًا وما هذه الوثنيات إلا وسائط لذلك الخالق.

وليست التعديلات اللاهوتية في التثليث المسيحي علىٰ يد توما الإكويني ومحاولات صبغ التثليث بالوحدانية إلا إفراز لمواربة الصدع بين الفطرة التوحيدية والتثليث !

بل إن كل العلماء والفيزيائيين والمفكرين والفلاسفة حين يتفكرون في الخالق لا يستقر في أذهانهم إلا صورة الإله الخالق الواحد المتجاوز ولن يقفز إلىٰ أذهانهم أيَّة صورة وثنية أرضية.

لكن هل بالفعل نحن نُصور الإله علىٰ صورتنا؟

الحقيقة تخالف ذلك تمامًا؛ بيد أن الإسلام يُقرر حقيقة ما انطبع في الفِطر من صفات الخالق، إلا أنه يضع ضابطًا استقر عليه السلف حتىٰ لا تنحرف الأفهام، وتظل علىٰ الصبغة التي صبغ الله الناس عليها، والضابط هو: أننا نُثبت لله الصفات التي وصف بها نفسه في كتابه، أو وصفه بها رسوله صلىٰ الله

عليه وسلم في أحاديثه الصحيحة بلا تأويل، ولا تشبيه ولا تمثيل، ولا تعطيل ولا تكييف، كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1].

ولذا كان الإسلام أنقىٰ ديانات التوحيد علىٰ الإطلاق، وكان المنشور الإسلامي هو منشور الفطرة وهو منشور عقيدة جميع أنبياء العهد القديم وهو منشور الصبغة التي صبغ الله الناس عليها، وكان الكفر بالإسلام هو كفر بالخالق مباشرةً.

ولذا مَن دخل ميدان البحث العلمي والعقلي، ثم خرج منه وهو يزعم أن دينًا أو فلسفةً أو فكرًا غير الإسلام هو الأقرب للعقل والمنطق والفطرة، فهو أكذب الخلق وأفجر الخلق في ادعاؤه مهما زعم من حيادية وعمق في البحث.

(١٧) يدعي الملحد أن هناك ملايين يموتون جوعًا وهذا يخالف قوله تعالىٰ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾[2].

الرد:

هؤلاء الملاحدة قَصَروا مفهوم الرزق علىٰ مجرد الإطعام والمال فقط، وجهلوا أن مفهوم الرزق أوسع وأشمل من مجرد المال والأكل بكثير، فكل ما امتن الله به علىٰ عباده من العطايا هو رزق، فالمال والطعام والصحة والزواج والإنجاب والسمعة الطيبة ومحبة الناس وحُسن الخلق والذكاء والفطنة والنجاح........ إلخ، كلها أرزاق من الله عز وجل.

---

(١) سورة الشورىٰ: الآية (١١).

(٢) سورة هود: الآية (٦).

ولو سايرنا الملحد في افتراضه وتصوره:

١- لوَجَبَ علىٰ الله تعالىٰ أن يُطعم كل عباده فلا يبقىٰ أحداً جائعـًا أو يموت جوعـًا.

٢- لوجب علىٰ الله تعالىٰ أن يرزق كل عباده بالمال فلا يكون منهم فقير

٣- لوجب علىٰ الله تعالىٰ أن يرزق كل خلقه بالزواج رجالاً ونساءاً، فلا يبقىٰ أحد علىٰ وجه الأرض دون زواج

٤- لوجب علىٰ الله تعالىٰ أن يرزق كل عباده بالذرية والأولاد، فلا يكون بين عباده عقيم

٥- لوجب علىٰ الله تعالىٰ أن يرزق كل عباده بالصحة والعافية فلا يُمْرِض منهم أحدًا، وإلا لو منع الله رزقه أو ضَيَّقه علىٰ بعض عباده في هذه الأمور، فمعنىٰ ذلك أنه لم يتكفل بأرزاقهم.

فهل هذا يستقيم عقلاً؟؟!! ... بالطبع لا ... فهو مخالف للعقل وللواقع وللنقل جميعهم!

ولو أعطىٰ الله كل عباده كل شيء ولم يمنعهم أو يضيق عليهم في شيء، لامتنعت سنة ابتلاء الخلق ... ولَناقضنا الجانب الرابع والخامس من جوانب قضية الرزق في القرآن الكريم ... بل ولَمَا كانت هذه دنيا أصلاً، فالرزق الواسع الذي لا ينقطع ولا يمتنع في الجنة فقط لا غير.

تكفل الله تعالىٰ بحفظ الرزق وإيصاله لكل عباده بحيث لا تموت نفس حتىٰ تستكمل رزقها (قليلاً كان أو كثيراً) وأجلها (طويلاً كان أو قصيراً) .... فقد قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ رَوْحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِيَ أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّىٰ تَسْتَكْمِلَ أَجَلَهَا وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا، فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ وَلا**

يَحْمِلَنَّ أَحَدَكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ يَطْلُبَهُ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنَّ اللهَ لا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلا بِطَاعَتِهِ».

ولذا نسأل الملاحدة سؤالاً أخيراً إن كان لديهم بقية باقية من عقل:

هل هؤلاء الذين توفاهم الله تعالىٰ فى مجاعة أو ما شابه قد استكملوا أرزاقهم وآجالهم؟!

أم ماتوا دون أن يستكملوا أرزأقهم وآجالهم؟!

إن أجاب الملاحدة: "نعم قد استوفىٰ هؤلاء أرزاقهم وآجالهم"، فقد نقضوا شبهتهم بأنفسهم، ووافقوا القرآن والسنة فيما جاءا به.

وإن أجاب الملاحدة: "لا لم يستوفوا أرزاقهم ولا آجالهم، فقد ماتوا لأن الله لم يرزقهم أو لأنه قد ضيق عليهم".

فأسألهم والسؤال لهم ولكل عاقل منصف:

وهل كان الرزق الواسع سبباً في منع الموت عن أصحابه؟؟!

هل يموت الشبعَىٰ الذين يأكلون مِلْء بطونهم أم لا؟؟!

هل يموت الأغنياء أصحاب الأموال الطائلة أم لا؟؟!

هل يموت الأصحاء وهم في كامل عافيتهم أم لا؟؟!

يبدو أن المجاعات والموت هما مبلغ الملاحدة من العلم .... وقد صدق فيهم قول المولىٰ عز وجل: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾[1][2].

---

(١) سورة الروم: الآية (٧).

(٢) وهذا الرد علىٰ مجموعة ورينا نفسك علىٰ الفيس بوك.

(١٨) يدعي الملحد أنه لا يوجد ما يثبت الإيمان بالله بنسبة ١٠٠٪.

الرد:

الإيمان لا يمكن إثباته بنسبة ١٠٠٪ وإلا لانتفت فكرة الإيمان من الأصل، والذي يطلب دليلًا يقضي بالإيمان بنسبة ١٠٠٪ لا يعرف شيئًا عن الإيمان، ولا عن القضية الوجودية بأسرها ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾[١].

فوجود أدلة قاطعة تقضي بالإيمان بنسبة ١٠٠٪ هذا لن يكون إيمانًا اختياريًّا، وإنما إيمانًا اضطراريًّا، مثل الإيمان بوجود الشمس، وهذا إيمان لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب؛ لأنه إيمان اضطراري، ولا يطلب أدلة من هذا القبيل إلا أبعد البشر عن العقل والمنطق ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٢].

فقد بيَّن الله تعالىٰ آياته للموقنين؛ فالأيات والقرائن واضحة جلية لمن يريد أن يؤمن ويُسلم لله بالخلق والأمر، أما من يريد العبث فسيجد من المتشابهات التي أوجدها الله سبحانه لتكملة الامتحان ما يبرر له طغيانه وتمرده، لكن من رحمته سبحانه أن هذه المتشابهات لا تطغىٰ علىٰ المُحكم ولا تُضعف قيمته، ولا يتبعها إلا من أراد أن يُشربها ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ

---

(١) سورة الأنعام: الآية (٨).

(٢) سورة البقرة: الآية (١١٨).

وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[١].

هذه هي روعة الامتحان وعظيم الاختبار، فالمحكم الذي هو الأصل في كتاب الله المنظور- الكون-، وهو الأصل في كتاب الله المسطور- القرآن الكريم-، لا ينتقل الإنسان عنه إلىٰ المتشابه في كتاب الله المنظور – في الكون كالأشياء التي لا نحيط بها علمًا لحكمتها- والمتشابه في كتاب الله المسطور – كالحروف المقطعة في أوائل السور-، لا ينتقل الإنسان إلىٰ هذا المتشابه النادر إلا لو أوقف عقله وأوقف حسه ورضي بالكفر فبحث له عن مبررات هي جوهر عملية الامتحان والإختيار ووضع كافة البدائل ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[٢].

فتقييم الإيمان هو تقييم عقلي منطقي ويترتب عليه اتخاذ القرار والاختيار، وهذا ما يفعله كل العقلاء ويتفقون علىٰ صحته وصحة الأخذ بالنسبة الراجحة وجنون الأخذ بالنسبة المرجوحة فيما يُسمىٰ بالـ Decision Theory .

بل إن أصل الإيمان يقوم في بدايته علىٰ الترجيح العقلي، والظن القوي ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾[٣].

فوجود الدليل الإيماني بنسبة ال١٠٠٪ يؤدي إلىٰ انتفاء فكرة الاختبار وانتفاء قضية الإيمان بالغيب التي هو جوهر القضية الدينية.

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٧).

(٢) سورة الملك: الآية (١٠).

(٣) سورة البقرة: الآية (٤٦).

بل إن الإيمان الترجيحي هو الذي يصعد فيه الإنسان المنازل ويترقىٰ وينتقل من الشك إلىٰ الإسلام إلىٰ الإيمان إلىٰ الإحسان إلىٰ علم اليقين إلىٰ عين اليقين، هذا هو مجال الاختبار الواسع والذي يتيح لك استخدام عقلك والترجيح والوصول إلىٰ النتيجة الأقرب للمنطق والأحكم للعقل.

وسيظل الإيمان بالله غيبيًّا منذ البدء وإلىٰ آخر الزمان، حتىٰ يترك مساحة للقلب أن يختار وهذا هو معدن الاختبار.

والذي يجتهد بصدق سيوفقه الله، قال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾[1].

لكن لو اجتهد إنسان ووقع أجله قبل أن يصل! هل سينجو عند الله؟

الإجابة: الأصل أن الله لن يظلم عباده ﴿أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[2].

والأصل أن الله لن يُعذب بدون قيام الحجة الرسالية ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[3].

فالذي اجتهد وهلك قبل وصوله، يفصل الله بينه وبين الحجج يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[4].

---

(١) سورة المائدة: الآية (١١٩).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٨٢).

(٣) سورة الإسراء: الآية (١٥).

(٤) سورة النحل: الآية (١١١).

فيوم القيامة هو المحاكمة الكبرىٰ وهو يوم الفصل وهو يوم الامتحان الحقيقي لمن لم يسعه امتحان الدنيا.

ويوم القيامة هو دار التكليف لمن لم تصله الحجة الرسالية.

وهو تكلمة لامتحان الدنيا لمن وصلته الحجة منقوصة -وأنا أُسميه سن البلوغ لأهل الفترة-، واليوم الأعظم الذي يقدم فيه كل إنسان مواثيقه كاملة.

وهو يوم أطول من عمر البشرية كله – خمسين ألف سنة-.

ومن لا يؤمن دون أن يُجهد نفسه، في البحث عن حقيقة هذا العالم، وما وراءه كمن يمشي في الصحراء فيجد طاولة عليها أنواع وأصناف شتىٰ من المأكولات وكل ما لذ وطاب من الفاكهة، فانكب يأكل منها دون حتىٰ أن يسأل نفسه، مَن الذي جاء بها ليشكره؟ مع أن برهان السببية في عقله ويمكنه استخدامه، والرغبة في الإمتنان في قلبه ويمكنه القيام بها! المهم وهو يأكل ما لذ وطاب قد ينكر أن أحدًا جاء بهذه المائدة العظيمة لمجرد أنه رأىٰ ثمرة معطوبة، وهذا حال الذي يتبع المتشابه، فهنا يفقد قيمة الوصول للحقيقة، ويفقد قيمة الإمتنان لمن جاء بالمائدة، ويفقد قيمة الامتنان لمن جاء به هو إلىٰ هذه الدنيا، وساعتها لا يلومن إلا نفسه علىٰ كفره وجحوده وعناده.

(١٩) يدعي الملحد أن حجج وأدلة النبوات منقولة وليس مرئية، وأنه لم يعاصرها، لذا فهو لن يُسلِّم بها.

الرد:

لا أدري كيف لادعاء بهذا التهافت والهزال أن يظل قائمًا بين الملاحدة، ولا يوجد للعاقل عذر في تبني هذا الادعاء إلا لأنه السبيل الوحيد – الأوحد – للكفر.

وللإنسان أن يتساءل: هل العلم الضروري لا يحصل إلا بالرؤية والمشاهدة المباشرة؟

إن علوم الدنيا وفلسفات الدنيا وثقافات الدنيا وكل معطياتنا العلمية، لم تقع بداهةً عن طريق الرؤية أو المعاصرة وإنما عن طريق المُخبرين – الذين أخبرونا بهذه الأمور دون رؤية مباشرة منا – ومع تكرار الإخبار يحصل عندنا العلم الضروري بصحة ما ينقلونه إلينا.

كم شخص رأىٰ رؤية مباشرة صحة قوانين الفيزياء أو قوانين الكيمياء، أو صحة معادلات أينشتاين والتي تطلبت ربع قرن حتىٰ رآها بضعة أشخاص في أفريقيا -بعثة رذرفورد- وبعدها أثبتوا صحة النسبية العامة، وتلقتها جموع البشر علىٰ وجه الأرض بالقبول مع أن أحدًا غير هؤلاء الآحاد لم يرصد ولم يعاصر صحة النسبية العامة، لكن هؤلاء الآحاد المخبرين -بعثة رذرفورد- أفادوا علمًا يقينيًّا ضروريًّا لا يجد العقل أمامه مماحكة الإنكار.

وهؤلاء المخبرين هم أدلة جميع البشرية في جميع الفلسفات والعلوم.

والآن أنا أستطيع أن أجزم أن كل ملحد أو لا ديني سمع بمعجزة نقلها إليه مجموعة من المخبرين يستحيل تواطؤهم علىٰ الكذب، حصل له علم ضروري ولا ينكر هذه المعجزة إلا من باب المكابرة والمعاندة والكسل المعرفي العقيم في الفحص والتدقيق.

وشروط التواتر التي تُفيد العلم اليقيني الضروري، والتي اتفق عليها العقلاء هي:

١- عددٌ كثير أحالت العادة تواطؤَهم، أو توافُقَهم علىٰ الكذب.

٢- رووا ذلك عن مثلهم من الابتداءِ إلىٰ الانتهاءِ.

٣- وكان مُسْتَنَدُ انْتِهائِهم الحِسَّ.

ومتىٰ تحققت الشروط الثلاثة تحقق التواتر، ولزم منه علم ضروري لا مجال لإنكاره أو لتكذيبه.

فأنت سمعت عن دولة اليابان وحصل لك علم ضروري بوجودها، وأنها تقع شرق آسيا ولا يلزم لإنكارها عدم رؤيتها، فهذا أمر لا يقوله عاقل.

بل إن أصل إلحاد الملحد يقوم علىٰ قواعد ميتافزيقية -إنكار الصانع، أزلية العالم، التطور، مادية الوعي- لم ير شيئًا منها ولم يختبر أو يرصد أصل واحد من أصولها، وبداهةً لا يقرر العلم شيئًا منها، ومع ذلك يعقد عليها قلبه ويُسلِّم لها عقله.

بل إن كل علوم التاريخ وعلوم البدايات، لا تقوم علىٰ الرؤية وإنما علىٰ الشواهد فقط.

ومصدر المعرفة حتىٰ في العلوم التجريبية هو العمل العقلي في مُدخلات الحس والمشاهدة والتجريب، فالتسليم العقلي هو الأصل حتىٰ في المعطىٰ المُباشر.

والآن أدلة نبوة النبي محمد -صلىٰ الله عليه وسلم- تقوم علىٰ جملة كثيرة لا تُحصىٰ من الشواهد ونقل المخبرين - الرواة -، الذين يستحيل تواطؤهم علىٰ الكذب، فيتحقق من جملتها علمًا ضروريًّا يفيد يقينًا معرفيًّا وعقليًّا لا يرتفع بظن ولا شك ولا افتراض.

وشروط التواتر الثلاثة السابقة توجد حصريًّا في دين الإسلام، بينما تُفقد في بقية الأديان، فلا يزعم دين من الأديان علىٰ وجه الأرض تواتر نصوصه، بل يعترفون بوجود الآحاد بل والانقطاع في درجة من الدرجات أثناء النقل، وهو ما يُسقط شرط التواتر.

وجرىٰ نقل القرآن الكريم وكثرة كاثرة من معجزات نبينا محمد -صلىٰ الله عليه وسلم- وأخباره وسيره ونبوءاته، بنقل متواتر باعتراف حتىٰ المستشرقين، وقد قرأت للمستشرق شاخت المتحامل علىٰ الإسلام اعترافه بإنه " ليس هناك من شك في قطعية ثبوت القرآن"، وهو نفس اعتراف المستشرق وليم ميور؛ وقد قال غيرهما: " ليهنأ المسلمون بعلم حديثهم ".

(٢٠) يدعي الملحد أن رسالة الله لم تصل للبشر جميعًا.

الرد:

هذا ليس شرطًا عقليًّا ولا شرعيًّا لصحة الرسالة، فلا يُشترط لصحة الرسالة أن تصل للبشر جميعًا، وإلا لكان المفترض أنه لا يموت النبي صلىٰ الله عليه وسلم إلا وجميع البشر قد اطلعوا علىٰ الاسلام اطلاعًا كاملاً، وهذا لم يحتجَّ به كافر ولا مشرك ولا عاقل، كذلك المفترض طبقًا لهذا التصور ألا يوجد خلاف بين الذين اتبعوا تلك الرسالة، بل يكونوا علىٰ قلب رجلٍ واحد.

هل يقول عاقل: إن هذا شرط لصحة الرسالة أو حتىٰ غاية الرسالة؟

يقول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[1]، فالاختلاف سنة الله الكونية حتىٰ تظهر حقائق الاشياء، فبضدها تتبين الاشياء، وحتىٰ يكون هناك اختبار وتكليف وإغراء وشبهات وشهوات، فالدنيا دار اختبار وبلاء ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[2].

---

(١) سورة هود: الآية (١١٨).

(٢) سورة الملك: الآية (٢).

أما غير المسلمين فهؤلاء منهم مَن وصلته الرسالة وعاند واستكبر، وهذا شأنه!

ومنهم مَن لم تصله الرسالة، وهؤلاء أهل الفترة يمتحنهم الله يوم القيامة، وهو يوم طويل عظيم كخمسين ألف سنة – أي أطول من عمر البشرية كله-، ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[١].

فالرسالة وصلت الجميع، ومَن لم تصله في الدنيا ستصله في الآخرة، فالدنيا والآخرة مسار واحد، ثم جنة أو نار، لا فرق بين الامتحان في الدنيا أو في الآخرة، فالآخرة كما قلنا يمكن تسميتها البلوغ التكليفي لأهل الفترة !!!

إذن أُكرر: ليس من شرط صحة الرسالة أن تصل للجميع، فهذا ليس شرطًا عقليًّا ولا شرعيًّا.

بل إن فرعون -عليه لعنة الله- عاند موسىٰ بسبب هذه النقطة فقال لموسىٰ: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾[٢].

فهنا احتجَّ فرعون لكفره بكفر غيره، وهل هذه حُجة يلقىٰ إنسان بها الله يوم القيامة؟!!

ثم مَن أنت حتىٰ تُملىٰ علىٰ الله إرادته ومشيئه وطريقته في إرسال الرسالات ووصول الحجج؟

ليس لك إلا البحث في صحة الرسالة، وهذا مدار التكليف، والتزامك بما جاء فيها هو غاية وجودك، فالزم!

---

(١) سورة المعارج: الآية (٤).

(٢) سورة طه: الآية (٥١).

واعلم أن الله لن يُعذب أحدًا دون وصول رسالة عباده ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[١].

فهو سبحانه لن يظلم عباده ﴿أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[٢]، فلا تقلق إلا علىٰ نفسك يا مَن وصلته الرسالة.

(٢١) يقول الملحد: للدين فوائد كثيرة وللطقوس الدينية فوائد نفسية جمة وهذا دليل علىٰ أن الإنسان اخترعها.

الرد:

كأن الله لا يجوز له أن يخلق شيء ويجعل فيه فائدة، هذا هو التفكير التحليلي الإلحادي!!!.

(٢٢) يقول الملحد: ما فائدة الإيمان والعبادة؟

الرد:

في واقع الأمر أعظم وأرق صور رحمة الله بنا أنه أمرنا بعبادته؛ لأن العبادة غذاء لأرواحنا، حياة لقلوبنا، سبب لتفريج كروبنا؛ لأن العبادة تقربنا من ربنا تبارك وتعالىٰ.

فالإنسان مخلوق، جسد وروح، وأنت تعطي الجسد ما يشتهية من طعام وشراب وغيره .. فلو لم تعطِ الروح هي الأخرىٰ غذائها، تصرخ الروح في أعماق الجسد تريد هي الأخرىٰ غذاءً وشرابًا ودواءً، ويعرف الكافر قبل المؤمن مدىٰ حاجة الروح إلىٰ غذاء.

---

(١) سورة الإسراء: الآية (١٥).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٨٢).

وغذاء الروح لا يعلم حقيقته إلا من خلق الروح؛ فالروح لا تقاس بالترمومتر، ولا توزن بالجرام، ولا توضع في بوتقة التجارب في المعامل، ومن هنا يقول ربنا سبحانه: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1].

فالعبادة هي غذاء الروح، وأنت لاتستطيع أن تحصل علىٰ هذا الغذاء إلا عن طريق الرسل، وكيف لك أن تعرف غذاء روحك إلا عن طريق الأنبياء المبلغين لرسالات الله عز وجل ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[2].

إذن العبادة غذاء لهذا الشق الآخر في الجسد وهو الروح؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يعيش حياةً سويةً مستقيمة بحياة البدن فحسب، لابد أن يحيا بالروح والبدن معـًا، فهل علمت الآن لماذا أمرنا الله بعبادته ... وهو غنيٌّ عنّا.

(٢٣) يدعي الملحد أنه مطمئن وسعيد بإلحاده.

الرد:

حقيقة الأمر أن الإلحاد بالفعل يوصل للاطمئنان كما الإيمان تمامًا، وهذا ما نُسلِّم به للملحد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴾[3].

وهذا من باب استدراج الكافر جراء عمله فيطمئن لكفره، إلىٰ أن يلقىٰ الله وقد خسر الخسران العظيم.

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٨٥).

(٢) سورة الملك: الآية (١٤).

(٣) سورة يونس: الآية (٧).

ثم إن الإحساس بالسعادة قد يكون خادعًا، وهو في جميع الأحوال ليس بالمقياس الذي يجب أن نقيس عليه، فالإنسان قد يتعاطىٰ مادة سامة أو مُخدرًا لسنوات طويلة ويكون سعيدًا بذلك، فالعبرة بالنتائج لا المقدمات.

ثم كيف يسعد مَن يعلم أن الموت نهاية المطاف، وأن الفراق النهائي هو نتيجة حتمية بعد سنوات أو لحظات؟

(٢٤) يدعي الملحد أن الكفر كالإيمان قضية لا تؤثر علىٰ تصرفاتك وقراراتك.

الرد:

الكفر يؤثر علىٰ حياتك كلها ويجعلها بلا معنىٰ ولا هدف ولا غاية، ويصور الوجود كله علىٰ أنه حالة عبثية وضياع واغتراب وهذا مدعاة لخراب البلاد والأمم وتقويض أركان الأخلاق.

فالكفر يؤدي إلىٰ القلق الدائم والسخط واضطراب نفسي لا يُحتمل، ففي غياب الإله تفقد الأشياء معناها وتميزها .

والكفر يجعل كل الأشياء مباحة، وهذا له أضراره الاجتماعية والنفسية والسلوكية التي لا تحصىٰ، فيكون السبق لتحقيق الشهوة والرغبة لا الحق والعدل، ويُعجب كل ذي رأيٍ برأيه.

بينما الإيمان يولد الاطمئنان والرضا، والاستقرار النفسي.

(٢٥) يدعي الملحد أن قوام إلحاده تجربة شخصية محضة، لم تتأثر بقيادات فكرية ولا بأصدقاء سوء.

الرد:

هذا ادعاء كاذب، فالذي يشهد له الجميع أن الإلحاد ليس مستثنىٰ من السُّنة القرآنية الاجتماعية التاريخية التي تؤكد علىٰ أن كل رؤية يُراد تعميمها علىٰ الحياة لها؛ **أولًا**: أئمة يؤسسون لها ويدعون لها، ويصبرون من أجلها. **ثانيًا**: أتباع لم يتبنوا فحوىٰ تلك الرؤية ويستجيبوا لها لولا بيان ودعوة أولئك الأئمة.

وهذا قول الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾[1]، ودومًا المقلدون هم القاعدة[2].

لذا عندما ينكسر أحد أئمة الإلحاد في إحدىٰ المناظرات ترىٰ الأتباع ينفضون من حوله ويعودون للدين، فالقضية الإلحادية لها أبعاد نفسية لا تنفك عنها كما أية قضية فكرية.

(٢٦) يدعي الملحد أن نتيجة إلحاده توصل لها بقناعات كبرىٰ.

الرد:

في علم النفس قاعدة تقول: مَن يصنع الإطار يحكم النتيجة، الملحد يضع إطار التفكير ويخرج منه بنتيجة إلحاده، وهو إطار ضيق خانق مليء بالفروض والتحميلات والاستنتاجات القاصرة، بينما الإطار الديني إطار رحب متسع، مبني علىٰ بديهيات وليس فروض، حقائق راسخة وليس تحميلات، واستنتاجات كلية عقلية سليمة.

فالملحد عمِد إلىٰ مطلق الوجود فاختزله في مبلغه من العلم بالوجود وظن أن هذه هي القناعات الكبرىٰ.

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٧١).

(٢) (ثلاث رسائل، م. س).

واضطر الملحد بناءًا علىٰ ذلك إلىٰ تضييق نطاق المعرفة وحصْر طرق العلم فيما يلائم وجوده الخاص، ثم اضطر إلىٰ وضع قواعد خاصة بالبحث والنظر أضرت العلم والمعرفة، مثل المنهج المنطقي الوضعي logical positivism والذي كان بمثابة تضييق الخناق علىٰ كل مقولة تربك الالحاد المادي physicalism .

فصار أصل قناعات الإلحاد مبنيًّا علىٰ فروض ضيقة خانقة.

علينا أن ندرك أن إطلاق حكم إثباتي وجودي substantive ontological assertion بحجم نفي وجود صانع وخالق للكون، هو محض تحكم لا دليل عليه، لا من جنس الأدلة التي يؤمن بها الملحد ولا من غيرها.

فهو حكم تأليفي synthetic judgments ، حكم زائف لا يستند علىٰ حجة؛ لأن أدلة الملحد في أصلها مؤلفة من عناصر النظام الذي يحكمها- الوضعية التجريبية-، فالملحد هنا أمام دائرة مفرغة vicious circle، من تأمل هذه الدائرة المفرغة يعلم يقينًا سذاجة قوام الفكر الإلحادي ككل.

ونحن نريد برهنة تُضفي المشروعية علىٰ أجناس أدلة الملحد وطرق استدلاله، ولا يتأتىٰ هذا إلا باستجداء اعتماد خارجي external validation من خارج النطاق الحالي، وهذا بداهةً غير متاح داخل النسق التجريبي الوضعي، بينما الخالق يقع خارج إطار النسق التجريبي الوضعي، وهذا يؤكد أن

قناعات الملحد مبنية علىٰ فروض ضيقة رسمها لنفسه ووضع نفسه ومعتقده الإلحادي داخلها فحَجَر علىٰ العقل والفكر[١].

(٢٧) يقول الملحد: الغرب متفلت من الدين، ونحن لن نتقدم إلا لو تفلتنا من الدين.

الرد:

حقيقة الأمر نحن لا نبخس سعي الغرب في الجملة للتفلت من عقال الدين، فليس من الإنصاف أن نغض الطرف عن جملة العوامل الموضوعية التي برّرت لهذا التفلت، فبالنظر لطبيعة النصرانية واستبداد الكنيسة وإشكالات الكتاب المقدس والعقيدة الثالوثية بما فيها من استحالات عقلية -وليس مُحارات عقلية-، وبالنظر للإرث الأفلاطوني الأرسطي وما أحدثه من انحرافات في البنية المعرفية للعقل الغربي والجدل الإسكولائي الفارغ، أمام كل ذلك كانت ردة فعل الغرب متوقعة.

إن الغرب الآن يعيش حالة نفسية تجاه الدين لا ننكر دوافعها-وإن كُنَّا نعترف بمبالغتهم- وأصبحوا الآن يعانون عقدة مبهمة من الدين كالفرد الذي لدغه حنش فصار يخاف من الحبل، إن هؤلاء ربما يكونون مُحِقِّين في الخوف من دينهم، لكن نحن ما ذنبنا وقد جنينا من الدين أطيب الثمر؟

بل وكما يقول الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله- لم يكن لنا ولا لأُمتنا ذكر لولا هذا الدين الذي خلق من الهباء أُمةً عظيمة، واستبقىٰ علىٰ القرون جيلاً من

---

(١) هذا الرد من وحي كتاب: ثلاث رسائل، م. س.

الناس ما كانوا ليدخلوا التاريخ لولا نهوض هذا الدين بهم ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾[1].

(٢٨) يقول الملحد: لماذا لا توجد دولة واحدة مسلمة متقدمة؟ أين هي خير أُمة أُخرجت للناس؟

الرد:

هذا الكلام يصدر عن إنسان المفترض أنه عاش في بلاد المسلمين، والمفترض أنه درس شيئًا من تاريخ الإسلام لكنه بهذا السؤال يُثبت فشل التعليم في بلادنا.

فأطول حضارة في تاريخ البشرية هي الحضارة الإسلامية، وتم فيها مباشرةً تطبيق مشروع الإسلام السياسي، وظلت الحضارة الإسلامية ١٢٠٠ عام تقود العام وتتربع علىٰ عرش العالم بأكبر جيش وأكبر قائمة من العلماء والمفكرين، وأكبر وحدة سياسية واقتصادية ودينية عرفها التاريخ .

ألا تعلم أيها الملحد أن كل العلوم التجريبية وضع أصولها المسلمون؟

فالصيدلة علم عربي والفلك والطب والميكانيكا والرياضيات والطبيعة والجغرافيا ما تزال تحمل الأسماء العربية الفصحىٰ إلىٰ اليوم، وكان العلم تجارة رائجة، والمسجدرسة وهو التحام المسجد بالمدرسة من أيام الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثاني الخلفاء الراشدين، وابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرىٰ مُصنَّف في طبقات الشافعية، والبيروني أعلن أن الأرض تدور حول محورها أمام الشمس، وأساس علم الفلك في أوربا قام

---

(١) سورة الزخرف: الآية (٤٤).

علىٰ مصنفات الإمام ابراهيم الزركلي، وابن باجه المصنف المشهور اكتشف أن مدارات الكواكب بيضاوية وليست دائرية، وجابر بن حيان واضع أصول المنهج التجريبي في الكيمياء ويُعد أول من استخدم الكيمياء عمليًّا في التاريخ، وتُسمىٰ باسمه فيقال: "علم جابر"، ويُقصد به الكيمياء، وله في الكيمياء ما لأرسطو في المنطق، وهو أول من اكتشف الأحماض والقلويات وأطلق عليها هذا الاسم الذي ما زالت تعرف به في الغرب والشرق alkali .

هكذا ساد الروح العلمي الأمة العربية يقول ديورانت في "تاريخ الحضارة": "ربما ملك الصاحب ابن عباد من الكتب في القرن العاشر ما يُقدر بما كان في مكتبات أوربا مجتمعةً، وكنت تجد في المساجد من قرطبة إلىٰ سمرقند علماء لا يحصيهم عدد".

ولم نبتعد عن قيادة العالم، إلا بقدر ابتعادنا عن الإسلام ومنهجه، ولن نعود للخلافة وقيادة العالم إلا بعد عودتنا إلىٰ ما صلح به سلفنا ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾[1].

يقول المستشرق [سبنسر فاميري]: "لا يستطيع عالم واحد أن يتأمل القبة الزرقاء دون أن يلفظ اسمًا عربيًّا، ولا يستطيع عالم طبيعي أن يحلل ورقة من الشجر أو يفحص صخرة من الصخور دون أن يتذكر درسًا عربيًّا، ولا يقدر أي قاضٍ أن يبت اليوم في خلاف دون أن يستدعي مبدأ أملته العرب، ولا يسع أي

(١) سورة النور: الآية (٥٥).

طبيب أن يتأمل دائرة أحد الأمراض المعروفة منذ القدم دون أن يهمس بآراء طبيب عربي".

بل إن الجامعات الأوربية عاشت ٦٠٠ عام علىٰ ترجمات العرب كما يقول [جوستاف لوبون] .

بل إن الأمل الآن معقود علىٰ ثورة فكرية إسلامية خضراء تُزيح الترهلات التي أصابت العلم من جراء كهنة الإلحاد، وسدنة المادية، فالعلم الطبيعي عِلمُنا، ونحن مَن وضع أصوله الأولىٰ، ونحن مَن سيُرجع الأمر فيه إلىٰ نصابه متىٰ شاء الله .

(٢٩) يدعي الملحد أن الليبرالية قرينة بالتقدم.

الرد:

بتسوانا وناميبيا وجامبيا وموريشيوس والسنغال كلها دول أفريقية تُدار بأنظمة ليبرالية علمانية رأسمالية ديموقراطية تمامًا منذ عشرات السنين، لكن بما أنها من أفقر وأحقر دول العالم، لذا لن يذكرها الملحد العربي، بل سيتعامل مع هذه الدول وكأنها غير موجودة.

دولة ليبريا الأفريقية، تعمل بالدستور الأمريكي مباشرةً، وعملتها الدولار، وبها مجلس شيوخ ومجلس نواب منذ أكثر من نصف قرن من الزمان، وهي علمانية ليبرالية عتيقة، وأهلها ليبراليون جدًّا - يرقصون الشارلستون ويأكلون لبان تشكلس ويرتدون أحذية نايكي- ومع ذلك دولة ليبريا مُصنفة كأفقر دول العالم علىٰ الإطلاق.

بل إن دولة ليبريا العام الماضي، لم يدخل بها طالب واحد إلىٰ الجامعة علىٰ الإطلاق حيث فشل جميع الطلبة في اجتياز اختبار دخول الجامعة. تخيل دولة لم ينجح أحد[1].

الملحد العربي أيضـًا سيتجاهل هذه الدولة.

الملحد العربي لن يُقدِّم لك إلا بعض النماذج الغربية التي يرىٰ أن صورتها مشرقة دائمـًا، وطبعًا لابد أن تكون مشرقة دائمًا؛ لأن ثرواتها جاءت نتيجة ٥٠٠ عام من الاستعمار، و٥٠ عام من صندوق النقد الدولي.

ولا ننسىٰ أن المسروقات التي سرقتها انجلترا من الهند تفوق كل ما أنتجته انجلترا منذ الثورة الصناعية .. بل حتىٰ الماسة التي تُرصع التاج البريطاني مسروقه من البنجاب بالهند .

ولذا يرىٰ المفكر الكبير روجيه جارودي أن " علىٰ دول العالم الثالث أن ترفض جماعيًّا سداد الديون المزعومة لصندوق النقد الدولي فعلىٰ الغرب للعالم الثالث دين رهيب فمن الذي يعيد لبيرو ١٨٥ ألف كيلوجرام من الذهب والـ ١٦ مليون كيلوجرام من الفضة والذي اعترف بيت العقود التجارية لإشبيلية بنزحها ما بين عامي ١٥٠٣ و١٦٦٠، مَن الذي يعوض الهند ملايين أطنان القطن المنهوبة بأسعار بخسة، من الذي يعيد لأفريقيا حياة الملايين من أبنائها الأشداء الذين نُقلوا عبيدًا للأمريكتين ليعملوا بالمزارع الشاسعة، فتراكم الثروات في الغرب هو تراكم امبريالي – استعماري – وليس تراكم رأسمالي".

---

(1)http://www.bbc.co.uk/arabic/worldnews/130826/08/2013_liberia_education.shtml.

(٣٠) يدعي الملحد أن الدين يُعيق العلم.

الرد:

في الواقع التجريبي فإن خلق لا يُحصون عاشوا لله وبه؛ وأسسوا لأعظم الحضارات والمثل، وجميع صناع البشرية كانوا من المؤمنين بالقدر.

ولم يكن انحسار العصور المظلمة في أوربا إلا على يد الإسلام كما يقول بيتر أوبراين Peter O`Brien.

بل إن الدين، بإجماع مَن يُعتد برأيه من علماء الأنثروبولوجيا واللاهوت والاجتماع والتاريخ وفلسفة العلم، أصل حضاري أساسي.

ولذا يقول تشارلز داروين: "أما وجود حاكم للكون فهذا مما دانت به جموع من أعظم العقول التي وُجدت على الإطلاق"[1].

فالدين لم يكن يومًا ما عائقًا لعلم أو حضارة، إلا بمقدار ما فيه من إلحاد ووثنية.

بل إننا نزعم أن الإلحاد هو الإعاقة الحتمية للعلم، انظر إلى تصور العشوائية في الكائنات - الإلحاد- وانظر إلى تصور التصميم في الكائنات- الدين-؛ واربط بين كلا التصورين لحظة اكتشاف الدنا الخردةjunk DNA هنا سيتوقف أصحاب التصور الأول -الإلحاد- عن البحث وسيظل خردة مدى الحياة؛ لأن العشوائية شيء متوقع، بينما أصحاب التصور الثاني -الدين- لن يتوقفوا حتى يعرفوا مغزى الدنا الخردة؛ لأن الله لم يخلق شيئًا عبثًا، وبالفعل انتصرت الأبحاث العلمية مؤخرًا لصالح أصحاب التصور الثاني وتبين أنه لا

(1) Darwin, Charles (1902) The Descent of Man, p131.

حياة للإنسان بدون الدنا الخردة إذ أنه المسئول مباشرةً عن توجيه عمل الجينات، حتىٰ ظهر مؤخرًا علم جديد مستقل علىٰ وظائف junk DNA يسمىٰ علم التحكم في الجينات Epigenetics، وهذا دليل مباشر علىٰ أن الدين يدفع نحو العلم والبحث بينما الإلحاد يدفع نحو الجهل والتخلف والتوقف عن البحث العلمي.

إن الإلحاد الجديد يضعنا أمام خيار الإيمان بالله وفهم الكون، أو التخلي عن الإيمان والتخلي معه عن فهم الحياة والكون، ولو كان العقل نتاج مادة فكيف نثق في معطياته؟

وهذا يعني توقف العلم بالكلية، وانهيار الثقة في معطياته![1].

(٣١) يقول الملحد: لكن نحن لا نجد مَن يمثل الإسلام هذه الأيام إلا النموذج الأفغاني والصومالي!

الرد:

ومَن قال: إن أفغانستان التي خرجت من حروب نصف قرن واستهلاك كامل لكل الموارد، وكانت أول ميزانية لها ٢٠٠ مليون دولار، تخيل ميزانية دولة كاملة ٢٠٠ مليون دولار –تعادل ميزانية مستشفىٰ متوسط الحجم بأمريكا–، وأمراض تفتك بالمخيمات ودمار كامل للبنية التحتية ومؤامرات تُحاك هنا وهناك. مَن قال: إن دولة غاية كدها أن تحاصر المجاعة ومدمني الأفيون نموذجًا حاول حتىٰ التطبيق؟

---

(١) الفقرة الأخيرة من وحي كتاب خرافة الإلحاد، د. عمرو شريف، والفقرات قبلها من وحي كتاب ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان، د. عبد الله الشهري.

يقول الأُستاذ مصباح عبد الباقي الأكاديمي الأفغاني الشهير: "بعد تدمير أمريكا لأفغانستان أُرسلت ٩ فتيات أفغانيات إلىٰ أمريكا لتشكيل فريق كرة قدم نسائي أفغاني، وقد أصرت أمريكا إصراراً شديداً علىٰ هذا الأمر، وسيتم تدريبهن وفحصهن طبيًّا، وسيلتقين بعدها بعدد من مسئولي الرياضة بأمريكا في انتظارهن .. لكن المدهش أنه إلىٰ الآن لا يوجد فريق كرة قدم للرجال ولم يهتم أحد بذلك وهذا مدعاة لعجب لا ينتهي مادامت في الناس عقول".

وهذا في الوقت الذي يموت فيه في مخيم مسلخ وحده ٤٠ طفل يوميًّا بسبب الجوع والمرض، وتموت امرأتان أفغانيتان يوميًّا بسبب الدرن .

أما الصومال، فالنزاعات القبلية بها لا تنتهي، ومؤامرات الغرب وأثيوبيا ودول الجوار تجعل أقصىٰ ما تطمع فيه الصومال هو تقليل شهور المجاعات كل عام لا أكثر.

مَن قال: إن هذه الدول تمثل الإسلام؟

الإسلام يمثله النص المقدس وتطبيقه بقدره لا أكثر .

ونحن لو جارينا طريقة تفكير الملحد، فيُمكن أن نُصدر دول الرفاهة الاجتماعية- دول الخليج- علىٰ أنها تمثل الإسلام، خاصةً وأنها تمثل جملة من أعلىٰ دخول الفرد في العالم.

ويمكن أن نُصدر النموذج التركي بعد الاستقرار السياسي والاقتصادي الذي تشهده تركيا هذه الأيام بعد وصول الإسلاميين فيها للحُكم، مع العلم أن قبلها بعقد واحد فقط كان الصراع والحكومات الائتلافية وحل البرلمان كل عدة شهور وكان الانهيار الاقتصادي علامة بارزة في كل تركيا طوال العقود الماضية، وما أن وصل الإسلاميون للحكم حتىٰ ارتفع متوسط دخل الفرد من

٣ آلاف دولار في عام ٢٠٠١ الىٰ ١١ ألف دولار في ٢٠١١، ووصلت النزاعات بين تركيا وجيرانها الىٰ الصفر .. وهدأت المشكلة الكردية لأول مرة منذ عقود . وتم حل مشكلة المواصلات ومشكلة المياه ومشكلة التلوث في اسطنبول عاصمة الزحام .

ويُمكن أن نُصدر النموذج الماليزي ذا القوة الاقتصادية والعلمية العملاقة.

ويمكن تصدير النموذج الأندونيسي الذي استطاع مضاعفة متوسط دخل الفرد للضعف خلال ١٤ عام فقط، في حين احتاجت الولايات المتحدة ٤٧ سنة لمضاعفة دخل الفرد لديها[١].

ويمكن تصدير إمارة بروناي الإسلامية والتي تحكم رسميًّا بالشريعة الإسلامية منذ العام ٢٠١٤ وهي واحدة من أصحاب أعلىٰ دخول الفرد في العالم، ويحكمها أغنىٰ رجل في العالم "حسن بلقية".

بل ويمكن تصدير الشرق الأوسط ككل كمنوذج لأكبر طبقة متوسطة في العالم، وأقل معدلات علىٰ الإطلاق في تعاطي المسكرات وأقل المعدلات علىٰ الإطلاق في الإيدز وجرائم الاغتصاب كما يحدد الموقع أدناه[٢].

لكن نحن حقيقةً نرث رسميًّا أطول حضارة في تاريخ البشرية -الحضارة الإسلامية-، وتم فيها مباشرةً تطبيق مشروع الإسلام السياسي، وظلت الحضارة الإسلامية ١٢٠٠ عام تقود العالم وتتربع علىٰ عرش العالم بأكبر

---

(١) صدام الحضارات، صمويل هنتنجتون، ص١٧٠ .

(2) http://www.nationmaster.com/graph/cri_rap-crime-rapes.

جيش وأكبر قوة علمية وفكرية، وأكبر وحدة سياسية واقتصادية ودينية عرفها التاريخ .

وفيها تحول الشرق الأوسط إلىٰ متحف عملاق لكل الأثنيات والطوائف الدينية.

في حين لم تحتمل الدول الملحدة المؤمنين أكثر من عقد واحد فقامت بتأسيس رابطة الملحدين العسكرية League of Militant Atheists التي أبادت مئات الآلاف من المتدينين وحولت ٤٢ ألف مؤسسة دينية إلىٰ تراب في أنحاء أوربا[١].

(٣٢) يدعي الملحد أن الدين سبب الشرور في العالم.

الرد:

عاشت البشرية مع ديانات التوحيد آلاف السنين، ومع الديانات الإبراهيمية الثلاث الكبرىٰ أربعة آلاف سنة، ولم تمثل هذه الديانات خطرًا مباشرًا علىٰ الجنس البشري بل قدمت للبشرية قيمًا أخلاقية عليا يتفق عليها المؤمن والملحد وأسست لحضارات أصيلة بل يمكن أن نزعم أن كل خير في الأرض هو من آثار تلك النبوات، في حين أن قرن واحد اقتربت فيه بعض الدول من الإلحاد كانت البشرية كلها علىٰ شفير هلاك!

ثم يأتي الآن هؤلاء الملاحدة ويحدثونا عن خطر الدين علىٰ البشرية، وعن ضرورة التخلص منه!

صراحةً لا أعرف الحل الأمثل مع هؤلاء.

---

(١) http://en.wikipedia.org/wiki/League_of_Militant_Atheists.

يا أيها الملاحدة! لم يعرف التاريخ البشري دينًا أشد بؤسًا وأحقر منهجًا وأخطر إفزاعًا للبشرية كلها من الإلحاد، فلم تكن مذابح الكولاج في الإتحاد السوفيتي السابق علىٰ يد الملحد ستالين وقبله لينين، وإبادة الأقليات الأثنية في ألمانيا النازية، وتفريغ ربع كمبوديا من البشر علىٰ يد الملحد Pol Pot، وقتل ٥٢ مليون صيني في الثورة الثقافية الكبرىٰ علىٰ يد الملحد ماو تسي تونج Mao Zedong، وظهور رابطة الملحدين العسكرية League of Militant Atheists في أوربا والتي أغلقت رسميًّا ٤٢ ألف مؤسسة دينية –كنائس ومساجد–، وقتلت عشرات الآلاف من المتدينين، إلا إفرازات إلحادية صرفة.

بل إن الحربين العالميتين الأولىٰ والثانية كانتا حروبًا علمانية، تحكمهما تصورات إلحادية للأجناس البشرية وخرافات السعي نحو النقاء العرقي فكانت النتيجة إبادة قرابة ٥٪ من سكان العالم وأرجعت كلاً من المنتصر والمهزوم ثلث قرن إلىٰ الوراء، وقام الفلاسفة بوضع مبولة في وسط باريس بدلاً من تمثال الجندي المجهول كنايةً عن نهاية الحضارة.

وخلفت المعارك الإلحادية ترسانات من الأسلحة النووية تكفي لإزالة الجنس البشري كله مرات عديدة.

إن قراءة بسيطة لحروب القرن العشرين تُظهر مدىٰ بؤس الإلحاد.

ولذا لم ينتهِ القرن العشرون إلا بتراجع الإلحاد وأضحىٰ رسميًّا لا يتجاوز معتنقوه أكثر من ٢٪ من سكان العالم atheists١٢.٠٪[1].

---

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/List_of_religious_populations.

ولم تبق دولة تعلن أنها ملحدة إلا المجنونة كوريا الشمالية North Korea is officially only atheist state التي يتم الإعدام الفوري فيها لكل صاحب ديانة وكل حامل كتاب مقدس وكل مستمع لبرامج كوريا الجنوبية[١].

لقد خلَّف الإلحاد وراءه فكرة أن زوال الجنس البشري في أيَّة معركة قادمة هي فكرة قائمة، هذا هو الإفراز الذي يمكن أن نجعله حكرًا على الإلحاد والملحدين.

(٣٣) يدعي الملحد أن الإلحاد يخلو من القيادات المتعالية على النقد.

الرد:

وفي واقع الأمر فإن زيارة واحدة لدولة كوريا الشمالية تُحول هذه الدعوى إلى هشيم تذروه الرياح، يكفي أن تشاهد إعادة تنصيب كيم جونج أون رئيس كوريا الشمالية- الدولة الوحيدة الملحدة على وجه الأرض Atheism State-، و كيم جونج أون بابا فاتيكان كنيسة الإلحاد، الأب الكاهن مُلهم الملحدين على وجه الأرض، وفي مراسم إعادة التنصيب تجد تصفيق جنوني؛ لأن الذي يتوقف أولاً سيتم إعدامه في مرحلة لاحقة، وسيتُهم بالخيانة العظمى كما حدث مع زوج عمته منذ شهور قليلة[٢].

---

(1) http://arabic.rt.com/news/633358.

(2)https://www.facebook.com/photo.php?v=718551211520635.

وهذا الكهنوت الإلحادي صار ملازمًا لأي دولة تُطبق الإلحاد، يقول الكسندر سولجنستين في كتاب أرخبيل الكولاج: "عندما يقف الرفيق ستالين في مؤتمر الحزب يقف الجميع ويبدأ موجة من التصفيق الحاد دقائق طويلة، في مرحلة جنون لا يُطاق ويظل التصفيق مستمرًّا بينما يقف رجال المخابرات في كل مكان وهم متنبهون جيدًا إلىٰ من سيتوقف أولاً، ويستمر التصفيق ما يزيد علىٰ عشر دقائق متواصلة ... من أين لهم هذا الهوس الجماعي الذي لا يوصف ولا يقاوم؟!!".

فالكهنوت الإلحادي يرفض أية دوغما مضادة، وقد اعتبر لينين الدعاية المعادية للإلحاد واحدة من أصل ست جرائم جنائية، تعاقَب بالإعدام، طبقًا للقانون الجنائي الذي قدمه لينين RSFSR .

الإلحاد في صورته النهائية دوغما حمقاء يجري خلفها المخابيل ويتصدر لها مفاليس القيم، فالإلحاد طوفان فاجر في أزمان الكفر وأرضه، ونهايته الحتمية تقويض أركان النظام الأخلاقي وانهيار الأمم .

(٣٤) يدعي الملحد أن الإلحاد هو نسق يدخل فيه كل منكر لوجود الخالق.

الرد:

في واقع الأمر هذه دعوىٰ فارغة فهناك علاقة تضاد بين فلسفة الإلحاد بطابعها النيتشوي الماركسي، والأطروحات المثالية التي يتغنىٰ بها الإلحاد الجديد.

أيضًا جنة الملحد الشيوعي لن يدخلها الملحد الليبرالي.

أيضًا هناك طوائف وأحزاب إلحادية تقتات علىٰ الصراع الفكري لأحزاب إلحادية أُخرىٰ، حتىٰ صارت الفِرق الإلحادية بالآلاف وكُل فرقة ترىٰ أنها

الحقُّ، وأنها هي التي تفهم الإلحاد فهماً صحيحاً أما غيرها فعُملاءُ خونةٌ دُخلاءُ على الإلحاد.

وأصبح هناك:

(إلحاد شيوعي - إلحاد علماني - إلحاد ليبرالي - إلحاد سلبي - إلحاد إيجابي).

(لاديني إلوهي - لاديني متوقف - لاأدري وقتي - لاأدري دائم).

strong atheism

weak atheism[1].

والإلحاد الشيوعي ينقسم بدوره إلى:

إلحاد شيوعي لينيني

إلحاد شيوعي ماوي

إلحاد شيوعي ستاليني

إلحاد شيوعي بلانكي

إلحاد شيوعي تروتسكي

والإلحاد الشيوعي في الفرق السابقة ينقسم إلى آلاف الطوائف، وكما يقول الشيوعي الشهير مكسيم لوروا في كتابه "رادة الاشتراكية الفرنسية" يقول: "لاشك في أن هناك اشتراكيات متعددة، فاشتراكية بابون، تختلف أكبر الاختلاف عن اشتراكية برودون، واشتراكيتا سان سيمون وبرودون، تتميزان عن

---

(١) http://commonsenseatheism.com/?p=6487.

اشتراكية بلانكي، وهذه كلها لا تتمشىٰ مع أفكار لويس بلان، وكابيه وفورييه، وبيكور، وإنك لا تجد داخل كل فرقة أو شعبة إلا خصومات عنيفة، تحفل بالأسىٰ والمرارة ".

هذا في فرنسا وحدها فما بالنا بتفريعات تروتسكي وستالين وماو وبول بوت وكوريا الشمالية، وآلاف التفرعيات والانشقاقات الأُخرىٰ.

وهكذا كل فرقة من الفرق الإلحادية تنقسم علىٰ نفسها، وتتشظىٰ وتتفتت إلىٰ ما لا نهاية

والعلمانية الإلحادية تنقسم إلى:

إلحاد علماني سطحي

إلحاد علماني مستنير

إلحاد علماني متعمق

إلحاد علماني نضالي

إلحاد علماني صراعي

إلحاد علماني منفتح

إلحاد علماني فعلي

إلحاد علماني جديد

إلحاد علمانية واقعي

والعلمانية الفاشية fascist-secularism داخل المؤسسة العسكرية التركية مثالاً.

وكلها علمانيات متنازعة ومتضاربة وتحارب بعضها بعضًا

وظهرت في الغرب مصطلحات :

إلحاد رأسمالي رشيد

إلحاد رأسمالي حقيقي

إلحاد رأسمالي شكلي

إلحاد رأسمالي منبوذ

وعلمانية فرنسا تختلف تمام الاختلاف عن علمانية هولندا، وكلاهما لا تمتان بصلة لعلمانية أمريكا، وعلمانية الصين كأنها دين آخر تمامًا، وهكذا .

(٣٥) يدعي الملحد أن قرار الإلحاد نابع عن فكر منطقي مجرد.

الرد:

هذا الادعاء جريمة بحق المعرفة، فقرار الإلحاد كأي قرار آخر خاضع لمتغيرات كثيرة فهو فرع عن تجارب المرء الشخصية، ومواقفه النفسية، وتحْكمه أحوال معرفية وظروف اجتماعية وشروط ثقافية في غاية التنوع والتعقيد.

(٣٦) يقول الملحد: أنتم مؤمنون بالوراثة ولو أُتيح لكم الشك والاطلاع علىٰ الشبهات سيلحد منكم الكثيرون.

الرد وهو هام جدًّا لتكرر ترويج الشبهة عندهم:

هذا ادعاء مناقض لأُسس علم النفس، هناك في علم النفس شيء يسمىٰ قابلية المحل للتلقي، والمحل هنا هو النفس الإنسانية، فلو كانت النفس الإنسانية تقبل الشبهة وعُرضت عليها الشبهة ستتشربها، ولو لم تُعرض عليها ستتشرب ما بيدها المهم أن تصل إلىٰ قعر القابلية.

وبالتالي ففي التحليل الأخير: كل انسان يصل إلىٰ قعر ذاته بغض النظر عن التعرض للمؤثرات الخارجية، ويمكن أن يكفر مَن لم يسمع بالكفر قط، ويمكن أن يؤمن مَن لم يسمع بالإيمان قط، ويدخل الجنة مَن لم يعملوا خيرًا قط كما في الحديث، وأول من تُسعر بهم النار بعض أئمة الدين.

هذه حقائق تؤكد علىٰ حتمية الذات الإنسانية Ego Effect التي ناقشناها في كتاب كهنة الإلحاد الجديد تحت عنوان يحمل نفس الإسم" حتمية الذات الإنسانية".

(٣٧) يدعي بعض الملحدين أن الإيمان بالوراثة لا أكثر!

الرد:

أولاً: هناك إيمان عن اقتناع وهناك إيمان عن تقليد، وهناك إيمان عن مزيج من المسألتين معًا، وإيمان لسبب خارج عن المسألتين.

ولا ننسىٰ أن الكفر كذلك بنفس الدرجات.

إذن هناك إرادة حرة مبنية علىٰ اقتناع عقلي objective -باستحالة وجود الكون بلا خالق-، وهناك إيمان نتيجة الأخذ بطريق السلامة والتقليد subjective، لكن النتيجة واحدة في النهاية وهي أن العقل يختار أحد الطريقين، فهنا يوجد عمل للعقل وقرار عقلي يتخذه المقلد وغير المقلد، وإن كان تحري الدليل أفضل وأحكم!

ثانيًا: المقلدون الذين يقلدون مجتمعهم المؤمن، هذا فيه دليل علىٰ أن الإيمان في أصله لا يعارض الفطرة السليمة، وإلا لاصطدم بفطرة أغلبية البشر- المؤمنة بالخالق-، لكن أيضًا الذي يكفر هو بصورة ما مُقلد يقلد مَن سبقه بالكفر والتمرد، ويقلد ما يدور في عقله من أماني مثل: أنه جاء إلىٰ العالم عبثًا

وأنه ولا بعث ولا نشور، بل إن أغلب الملحدين في بلادنا يلحدون علىٰ صيت إلحاد بعض العلماء في أوربا.

ثالثًا: التقليد أقرب منطقيًّا من ترك التقليد إلىٰ إيمان بعقيدة إلحادية أبعد ما تكون عن العقل.

رابعًا: الإيمان في الجملة يبدأ فعليًّا ووراثيًّا، ثم يمر بمرحلة اختبارية- في الغالب-، ثم ينتهي باعتقاد يتخلله الكثير من الاختياريات في كل لحظة وفي كل موقف يمر به الإنسان، وفي كل شيء يراه ويقيس عليه أصول دينه وعقيدته، وهل يجد فيها تحليلًا متكاملاً لما يراه، وهل ثمة تناقض جوهري أم صوري وهكذا إلىٰ يُقبض ويوم القيامة يفصل الله بينهم فيما كانوا فيه مختلفين.

خامسًا: إن لم يكن في الإيمان اختيار وإن لم يمر الإنسان بمرحلة اختيارية، **فلماذا يوجد الملحدون والكافرون؟**

(٣٨) يقول الملحد: نبيكم – صلىٰ الله عليه وسلم- أكثر من الزوجات.

الرد:

يلوم بعضهم النبي –صلىٰ الله عليه وسلم- لكونه تزوج بضع نساء كسيرات القلب في السنوات العشر الأخيرة من حياته.

وبقراءة مختصرة لسيرته –صلىٰ الله عليه وسلم – نرىٰ أنه في البداية تزوج وعمره ٢٥ سنة من خديجه، ثم ماتت وهو في الخمسين من عمره، وظل بعدها ٣ سنوات لم يتزوج.

ثم تزوج سودة بنت زمعة ذات الـ ٦٩ عامًا بعد أن عادت من الحبشة ومات زوجها، ولم تجد أحدًا يحميها بمكة من بطش المشركين.

وبعدها تزوج عائشة البكر الوحيدة والصغير الوحيدة التي تزوجها، وهي تعد ثاني أعظم راوي للأحاديث النبوية في الإسلام، وفي هذا قال تعالىٰ: ﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾[1].

ثم تزوج أُم سلمة أيضًا كبيرة السن صاحبة العيال.

ثم السيدة أم حبيبة رمله بنت أبىٰ سفيان -رضىٰ الله عنها- حين تنصر زوجها بالحبشة، وخشي المسلمون عليها وهو في بلد غريبة، فأرسل رسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم- إلىٰ النجاشي يخطبها، وكان هذا الموقف الرجولي المبهر من رسول الله- صلىٰ الله عليه وسلم- سببًا رئيسيًّا في إسلام أبىٰ سفيان فيما بعد.

ثم جويرية بنت الحارث سيِّد بني المصطلق، والتي أعتق المسلمون بزواجها من رسول الله جميع الأسرىٰ والسبايا من بني المصطلق، كما أسلم أبوها وأسلم معه قومه.

ثم السيدة صفية بنت حيىٰ بن أخطب -رضىٰ الله عنها- والتي كانت من يهود بنىٰ النضير وابنة زعيمها، فخيّرها النبىٰ صلىٰ الله عليه وسلم بعد أن وقعت فىٰ الأسر بين أن يعتقها وتكون زوجته أو تعود لأهلها، فاختارت أن يعتقها وتكون زوجته؛ فأراد النبىٰ صلىٰ الله عليه وسلم بذلك عدم إذلال هذه المرأة وأن يشجع المسلمين علىٰ إعتاق الرقيق، وأن يشجع اليهود علىٰ الإسلام أو علىٰ الأقل عدم إيذاء المسلمين.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية (٣٤).

والمدقق في حياته صلىٰ الله عليه وسلم يرىٰ أن كل حركاته وسكناته لدعوته ولقضيته الكبرىٰ، ولذا لم يعِب المشركون عليه صلىٰ الله عليه وسلم شيئًا في أخلاقه ولا مبادئه ولا حظ نفسه وهم الذين رفعوا عليه السيف وانتظروا له الهفوة وألبوا عليه قبائل العرب، لكنهم كانوا أكثر حيادية من ملحدينا السذج والمنصرين السفهاء.

(٣٩) يدعي الملحد أن الالتزام بالأخلاق ناشئ عن المصلحة.

الرد:

نحن نلتزم بالأخلاق اضطرارًا؛ لأنها الفطرة، صبغة الله التي صبغ الناس عليها، فحتىٰ أفجر الملحدين يؤكد إيمانه بصورة ما من صور الاخلاق، فالأخلاق فيها المثالية المتجاوزة-مثالية اللامادة واللامعنىٰ واللاعقل- لأنها تستمد معناها من عالم آخر، وتستمد قيمتها من عالم غير مادي وإلا لما كان لها معنىٰ.

بل إن الملحد لا يُلحد إلا بسبب الأخلاق المثالية التي يفتقدها في الدين بسبب عيب في الدين أو عيب في تصوره هو للدين، فلو لم يكن للأخلاق معنىٰ فلن يكون للإلحاد وجود.

بل ولنا أن نسأل: هل الملحد يلتزم بالاخلاق بسبب المصلحة؟؟ إنها صبغة!

(٤٠) يدعي بعض الملحدين أننا نؤمن خوفًا من النار وطمعًا في سعادة أبدية، وحور عين، وجنة!

الرد:

أولاً: يمكننا نحن أيضًا أن ندعي بالمثل أن الكافر يكفر حتىٰ لا يشعر بالذنب، وحتىٰ يستطيع أن يتفلت من تكاليف الشرع، وأن يستمتع بشهواته بلا قيد **"فللكفر لذة"**، لكن هذا منطق ضعيف فيه حكم بالظن لا بما يعتقد هو.

ثانيًا: ليس معنىٰ وجود أشياء جيدة في الإيمان كالجنة والسعادة الأبدية والبعث، أنها غير صحيحة، فليس معنىٰ وجود هذه الأشياء التي يُجمع الكافر والمؤمن علىٰ حُسنها، ليس معنىٰ ذلك عدم صحتها!

وليس معنىٰ الموت بلا بعث والفناء الأبدي الذي يجمع البشر علىٰ قبحه أنه صواب، فالقضية لا تقاس بهذا المعيار.

ثالثًا: الإيمان بالجنة والسعادة الأبدية هو إيمان تابع لإيماننا بالرسالة الدينية، أي أنه ليس إيمانًا مستقلًّا، وليس مبررًا للإيمان؛ وإلا فهل نترك مثلاً إيماننا لمن يدعي أنه سيعطينا جنتان بدلاً من جنة؟

القضية الأخروية بكل معالمها نفس الشيء هي قضية تابعة لعقيدتنا وليست إيمان مُستقل، ولا يستقل العقل بالوصول إلىٰ تفاصيلها ولا التسليم بوجودها، لولا التضمين الديني للقضية واعتبارها أحد مسلمات وجودنا!

رابعًا: ما المانع العقلي في نعيم أُخروي؟ بل أليس هو الأقرب عقلاً ومنطقًا لمن تعفف في الدنيا ابتغاء رضوان الله أن يُرزق بنعيم أُخروي: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾[1].

هل يوجد مانع فكري أو فلسفي أو مادي أو ديني يمنع من الزواج في الجنة؟

ثم إن لكل رجل في الجنة زوجتين فقط، إلا الشهيد الذي يُزوج بـ٧٢ من الحور العين، وتُغفر ذنوبه مع أول قطرة دم، - وهنا نتحدث عن الشهادة في سبيل الله في مواطنها -، وتتفق جميع دساتير العالم أن أعلىٰ تكريم مادي ومعنوي يناله إنسان في أي دولة، هو ذلك الذي خاض غمار معركة، ولو قُتل في

(١) سورة الرحمن: الآية (٦٠).

سبيل وطنه، فإن أعلىٰ درجات التكريم تنال ذريته مدىٰ الحياة من بعده، فما بالنا بذي الفضل والمنة سبحانه وتعالىٰ؟

خامسًا: وجود المؤمن والكافر والملحد في هذه الدنيا هو أكبر دليل عقلي علىٰ الاختيار الحر والإرادة، وأن النعيم الأُخروي ليس دافعـًا مستقلًّا للإيمان.

(٤١) يدعي الملحد أن الأخلاق نابعة من مبدأ الصراع من أجل البقاء.

الرد:

الإنسان لا يلتزم بمبدأ الصراع من أجل البقاء، بل يلتزم بالمبدأ الأخلاقي في أحلك الظروف، وهذا ما أثبته المؤرخ الرسمي للجيش الأمريكي صامويل مارشال Samuel Marshall في كتابه man against fire إذ أثبت أن ٧٥٪ من الجنود لا يطلقون نيران أسلحتهم بشكل مباشر لقتل أحد الأعداء حتىٰ وهم مُعرضون للخطر، بل إن رادعهم الأخلاقي الرافض للقتل يجعلهم يتوقفون، وقد عُرفت هذه النسبة بمعدل مارشال لإطلاق النار في الحروب.

يفترض الدراونة أن الالتزام الأخلاقي هو فقط لمصلحة مستقبلية، لكن شرط الداروينية هو عدم الإعداد للمستقبل، فالتطور ليست له بصيرة مستقبلية؛ أمام هذا التحدي افترض هربرت سيمون Herbert Simon الاقتصادي الحائز علىٰ جائزة نوبل أن السلوك الأخلاقي نابع من محدودية العقل؛ بلفظ آخر: الأخلاقيون في هذا العالم هم الأكثر غباءًا.

وهذا التحليل من هربرت سيمون، يعني الفشل في تحليل معنىٰ الإنسان. ففيه تصريح مباشر أن الإنسان شيء والتحليل المادي شيء آخر تمامًا، فالأكثر أخلاقًا هم دومًا الأكثر ذكاءًا وعبقرية وقيادة.

الخلاصة:

الإلحاد لا يصلح لتفسير ظاهرة الوجود الإنساني ولا حتىٰ الاقتراب منها.

في الواقع الإنسان فقط هو القادر علىٰ التمرد علىٰ طغيان جيناته؛ لأنه ليس ابن المادة[1].

(٤٢) يدعي الملحد أن الكفار أيضًا يفعلون الخيرات، وأنجلينا جولي تساعد الفقراء وتؤمن بالقيم.

الرد:

صراحةً شمامسة الإلحاد يروجون كثيرًا لهذه الدعايات، ومع أن أنجلينا جولي لا يوجد جزم بإلحادها أصلاً، والحديث عن الإلحاد في المجتمع الأمريكي شيء ممجوج ومستقبح للغاية ويدعو للغثيان، ولذا نادرًا ما يُعلن شخص عن إلحاده.

ومع ذلك فتصرفات أنجلينا جولي الأخلاقية، تؤكد علىٰ قيمة الأخلاق ومطلقيتها وأن الجميع يعتنقونها بوعي وبغير وعي، فالبشر ليسوا مُخيرين في رفض التكليف الإلهي، فالأخلاق يعتنقها الجميع ويؤمنون بمعناها، مع أن هذه الأخلاق ليست ربحية، فقيمة الأخلاق ليست من هذا العالم، فالأخلاق الأصلية تأتي دائمًا ضد المصلحة الشخصية وضد المادة، وفي هذا توكيد سامق علىٰ استحالة رد الإنسان للنموذج المادي، أو تحليله في إطار حتميات مادية.

فالقيمة لها معنىٰ غير مادي وتستمد قيمتها من عالم آخر ولا تعتمد علىٰ نزوات البشر أو طموحاتهم فهي غير مادية وغير مصلحية وغير عقلية، بل إن

(١) من وحي كتاب خرافة الإلحاد، م.س.

الأخلاق والقيمة علىٰ المستوىٰ المادي ضارة، ويقرر ذلك ماندفيل Bernard mandeville أستاذ علم الأخلاق الإنجليزي حين سُئل: ما أهمية الأخلاق لتقدم المجتمع والتطور الحضاري؟ وأجاب ببساطة: لا شيء بل لعلها تكون ضارة.

بل إن قصور الإنسان في القوة ناتج عن إلتزامه الأخلاقي القيمي، فالقيم لا معنىٰ لها من هذا العالم، فهي تحمل في طياتها معنىٰ التكليف الإلهي، ولذا فحتىٰ الملحد لا يستطيع أن يرفض ذلك التكليف الإلهي، ثم إن الملحد يفترض مسبقًا مطلقية القيمة ولذا يُعطي أحكامًا ويطرح رؤيةً ويقرر الصواب والخطأ وينتقد ويمتدح بناءًا علىٰ هذا الوعي الفطري داخله بمطلقية القيمة، وفي هذا الحجة الأولىٰ والأكبر للدين.

لكن هنا قد ينتفض الملحد العربي ويعترض ويفضل نسبية القيمة، ولتذهب أعمال أنجلينا جولي إلىٰ الجحيم، في مقابل أن يحتفظ بأُسس إلحاده سليمة دون تشكيك، وهنا طبقًا لرؤية الملحد العربي ذاته تصبح أعمال أنجلينا جولي الخيرية مرذولة ومستهجنة ولا معنىٰ لمدحها أو حتىٰ التفكير فيها؛ لأن المسألة في النهاية نسبية.

فإما أن تكون أعمالها الخيرية عظيمة فعلاً وساعتها لا معنىٰ للإلحاد، وإما أن تكون أعمالها الخيرية بلا معنىٰ وساعتها لا مجال لمدحها.

لكن قد يسأل سائل: هل أنجلينا جولي تنال ثوابًا مقابل عملها هذا؟

يقول الشيخ عبد العزيز الزنداني حفظه الله في كتابه "التوحيد" ما يلي: «إن الذين لا يؤمنون بالله ولا يرجون ثوابه، ولا يخافون عقابه يعملون أعمالهم وهم لا يريدون بها وجه الله، ولا يبتغون رضاه ولا يهمهم هل عملوا حلالاً أم حرامًا،

فهم بهذا لا يستحقون الثواب علىٰ العمل وإن كان صالحًا؛ لأنهم كفار لم يقصدوا به أن ينالوا ثواب ربهم، ولا ابتغوا به رضا خالقهم . والكافر مُعاقب علىٰ كفره وضلاله ؛ لأنه لم يبحث عن دين الله ولم يحاول الاستماع إلىٰ البيان الإلهي الذي جاء به المرسلون، زيادةً علىٰ ذلك فهو إذا سمع آيات الله تُتلىٰ عليه، اتخذها هزوًا، لذلك فعمله مردود وهو معاقب علىٰ كفره ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[1].

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾[2].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[3]»[4].

ويضرب الدكتور الزنداني مثالاً جميلاً إذ يقول: «دخل رجل إلىٰ بستان كبير لا يملكه فأكل وشرب وظل يلهو ويعبث داخل البستان، بينما دخل البستان رجل آخر فقال: لا أفعل شيئًا حتىٰ أتصل بصاحب البستان أو مَن ينوب عنه. وأخذ يسأل ويبحث، فإذا بمندوب صاحب البستان يصل إلىٰ الرجلين، ووبخ اللامبالاة وعدم الامتنان الذي يبديه الرجل الأول، وشكر للرجل الثاني صنيعه وبحثه، وظل الرجل الأول علىٰ استهتاره وعبثه، فهل هذا حتىٰ لو أحسن في

---

(١) سورة الفرقان: الآية (٢٣).

(٢) سورة إبراهيم، الآية (١٨).

(٣) سورة النور: الآية (٣٩).

(٤) كتاب التوحيد، للزنداني، ص٩.

البستان ينتظر أن يُكافأ؟ إنه لم يفعل ذلك إلا لمصلحته هو ولذته هو ولا يبالي بصاحب الحق –صاحب البستان– شيئًا.

وكذلك هذه الأرض وما فيها ملك لله ورسل الله هم المندوبون، والمؤمن هو الذي يتبع سبيل الرسل، والكافر هو الذي يتصرف بلا إرشادات».

إن القضية ليست فعل الخير، وإنما القضية الآكد هي لمن تفعل الخير، وهل تفعله اتفاقًا وتفعله لمصلحتك الشخصية كمزيد سعادة أو تسميع في الدنيا، أم انكسارًا لله ورضًا بعبوديته؟

(٤٣) يقول الملحد: ما هو مصدر القيمة؟ وما المانع أن تكون إنتاجًا بشريًّا؟

الرد:

القيمة والمعنىٰ والأخلاق كلها أمور لا تستند إلىٰ ركيزة مادية أو جينية، بل هي كما قلنا من قبل تُمثل عبئًا ماديًّا، فالأخلاق والقيم موضوعية لا ذاتية فهي لا تعتمد علىٰ رغبات البشر أو نزواتهم، فالخير خير عند الصالح والطالح، والشر شر عند الصالح والطالح، فالأخلاق تعتمد علىٰ شيء خارج الذهن البشري، تعتمد علىٰ إرادة الله التي يريدها لهذا العالم، فالأخلاق لها غرضية كونية فيها استقلال عن أفكار البشر ورغباتهم، والقيم الأخلاقية يعتنقها كل إنسان بوعي أو بغير وعي.

وقد دخل الإنسان التاريخ برأس مال أخلاقي مبدئي هائل، وهذا يؤكد علىٰ أصالة ظهور الإنسان، ثم لو خلق الإنسان القيم بعقله فقد يتشكك فيها، قد يقول لنفسه: ما الذي يُلزمني بها؟ ولماذا أُضحي بسعادتي ولذتي السريعة وجميع الفوائد الأُخرىٰ من أجل بضعة أفكار؟

لو كان للأخلاق والقيم معنىٰ – وهذا ما يُجمع عليه الملحد والمؤمن والكافر – فلن تكون من هذا العالم!

ولو لم يكن لها معنىٰ، لما كان للالتزام بها مزية خاصة .

يقول الكاتب نجيب محفوظ: "الله هو الذي يُعطي القيم معناها، الله هو الذي يعطي الوجود معناه، بدونه لا معنىٰ للوجود، لا معنىٰ للقيم، وبديله هو العبث، اللا معنىٰ!"[1].

---

(١) نجيب محفوظ، وطني مصر، ص٦٣، دار الشروق.(لست ملحدًا لماذا؟ م.س).

استراحة قصيرة

قطعًا لرتابة تسلسل الادعاءات، أحكي لكم صورة من صور سذاجة كهنة الإلحاد علىٰ الإنترنت:

أطلعني أحد الأحباب علىٰ مقال لأحد الآباء الكهنة الملحدين العرب؛

وفي هذا المقال يتعرض نيافة الملحد للدقة العلمية في القرآن الكريم، ولكنه يسبق المقال بمقدمة لا علاقة لها بالمحتوىٰ لكن من باب التعالم، وعندما اطلعت علىٰ المقدمة وجدتها لا تحتوي علىٰ معلومة واحدة صحيحة علميًّا، بل ولا يعرف نيافة الكاهن الملحد ضابط الحد الإبسمتولوجي للنظرية العلمية، فيخلط بين الحد الماهوي والحد الإبستولوجي لمسمىٰ النظرية العلمية فيقول:
"ولا يوجد أي نظرية علمية علىٰ الأرض خاطئة بشكل كامل؛ لأنها لو كانت خاطئة لما كان اسمها نظرية، لكن هناك ما يسمىٰ عدم دقة، فهي نظرية غير دقيقة في كذا وكذا".

وهذا الكلام في لغة العلم ضحك على السذج والحمقى والمغفلين، فنظرية القلوجستون التي ترىٰ أن كل عُنصر قابل للاشتعال يحتوي داخله علىٰ مادة الفلوجستون،- وهي بداهةً علم زائف الآن pseudoscience -ما زالت تحمل مُسمىٰ النظرية العلمية، والأوتار الفائقة التي لم تنضبط بدليل إمبريقي واحد علىٰ الإطلاق حتىٰ الآن تسمىٰ نظرية علمية وتُدرس في كل جامعات العالم تحت هذا المُسمىٰ، لكن يبدو أن نيافة الأب الكاهن الملحد لا يعرف الفرق بين الحد الماهوي والحد الإبستمولوجي لمسمىٰ النظرية، فوقع في هذه الفضيحة المعرفية التي توجب شلحه من كنيسة الإلحاد، بتهمة الضحك علىٰ السذج والتهريج .

ينتقل نيافته بعد ذلك إلىٰ لُب الموضوع وهو الاستهزاء بالقرآن الكريم، وبما أن نيافته من خلفية نصرانية وغير ضابط للغة العربية فقد أتىٰ بعجائب لم أرغب في الرد عليها – استتفاهًا واستحقارًا- لولا إلحاح أحد الأحباب.

يقول نيافته: "عندما يقول القرآن: إن النحل يأكل من الثمرات. فهل هناك أي وجه للدقة في هذا الكلام؟".

نعم نيافتك هناك وجه للدقة! لأن مِن للتبعيض وابتداء الغاية، فتُسمىٰ الزهرة ثمرة في لغة العرب بما تئول إليه، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾[1]، والخمر لا تُعصر إنما يُعصر العنب الذي يئول إليها، فالقرآن نزل بلغة العرب فلابد أن ينضبط المعنىٰ بلسانهم!

والنص يقول: ﴿كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[2]، وهذا إعجاز علمي لم يتبين إلا بعد دراسة نظم حياة النحل مؤخرًا، **وأن الإناث هي المسؤلة في الخلية عن كل هذه المسائل، ولذا جاء الوصف بالتأنيث﴿كُلِي﴾**.

يقول نيافته: "عندما يوزع القرآن الميراث فيزيد وينقص المجموع عن الواحد الصحيح، فهل هناك أي وجه للدقة في هذا الكلام؟"

ويقصد نيافته مسألة العول، وفي هذه المسألة يُعول أصلها إلىٰ ٢٧ سهمًا بدلاً من ٢٤ سهمًا، فتُقسم التركة علىٰ ٢٧ سهمًا.

يقول نيافته: "عندما يقول القرآن: إن ماء الرجل يخرج من ظهره وصدره (الصلب والترائب) فهل هناك أي وجه للدقة في هذا الكلام؟".

---

(١) سورة يوسف، الآية: (٢٦).

(٢) سورة النحل، الآية: (٦٩).

يا حضرة القمص هذا إعجاز علمي، **وفقرك المعرفي في البيولوجيا لا يبرر أن تدلس وتجعل من جهلك تكذيبًا**، فالصلب هو العمود الفقري والترائب هي الضلوع وهذا هو المكان الجنيني للخصية والمبيض، وبعد نزول الخصية في مكانها تظل تُغذيها أوردة وأعصاب خارجة من نفس المكان الجنيني، وهذا من عجائب الخلق، يعني المفترض أن الخصية يغذيها شريان بجوارها وهكذا أغلب الأعضاء، لكنك تجد أن الخصية يغذيها شريان ينزل من الأعلىٰ من المكان الذي وُجدت فيه في المرحلة الجنينية، ويُغذيها عصب يخرج من مكان تواجدها أيضـًا في المرحلة الجنينية، فصار خروج الحيوان المنوي ظاهريًّا من الخصية وحقيقةً من بين الصلب والترائب؛ لأن مكان تغذيته ومصدر الإشارة العصبية التي تطلقه جاء من ذاك المكان - المكان الجنيني الموجود بين الصلب والترائب-!! وهذه أعلىٰ درجات الدقة العلمية، بل إن نسبة النطفة إلىٰ الخصية نسبة غير دقيقة علميًّا أو بيولوجيًّا وهي نسبة يعرفها العرب منذ آلاف السنين، لكن القرآن جاء بضبط لم تسبق إليه الأفهام ولم تستوعبه علوم ذلك الزمان، لكن نيافة الأب الكاهن الملحد يتيح لنا أن تتفتح أذهاننا علىٰ معارف القرآن الكريم وعجائب دقته التي تخفىٰ علىٰ الحاقدين وتنير قلوب المؤمنين!

يقول نيافته: " عندما يقول: إن الجبال أوتاد" نحن نعرف تمام المعرفة أن الجبال ليس لها أي علاقة بتثبيت الأرض، فأين الدقة في هذا الكلام؟".

يا حضرة القمص هذه أيضًا معجزة جيولوجية بحثت عنها بنفسي وسأطلعك علىٰ خلاصة بحثي، الجبال بأنواعها المختلفة المتصدعة والبركانية والمنطوية، كلها نشأت نتيجة انضغاط هائل في قشرة الارض فظهرت الجبال كتفريغ مادي لشحنة عالية جدًّا من الضغط علىٰ منطقة معينة من قشرة الأرض - سواءًا كان الضغط أفقيًّا أو رأسيًّا، فالنتيجة واحدة وهي ظهور جبال -، لو لم

يحدث هذا التفريغ - ظهور الجبال -، كان سيظهر نشاطًا زائدًا في قشرة الأرض بحيث لا تسمح بقرار أحد عليها ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[1].

فالجبال هي تفريغ شحنة.

المهم عندما يحدث تفريغ للشحنة الزائدة - ظهور الجبال -، يقبع جزء منها منطمرًا تحت الأرض، ويظهر جزء فوق الأرض فتكون أشبه بالوتد

يقول الدكتور André Cailleux في كتابه "تشريح الأرض":

The mountains, like pegs, have deep roots embedded in the ground, These roots are deeply embedded in the ground, thus, a mountain have a shape like peg.

الترجمة: الجبال تشبه الأوتاد فهي تملك جذورًا عميقة في الأرض، هذه الجذور ممتدة بعمق داخل الأرض ولذلك، فإن شكل الجبل يشبه الوتد.

هل وجدت نيافتك دقة جيولوجية أعلى من ذلك؟

بالمناسبة نيافتك: **قائل هذا الكلام المعجز منذ أكثر من ١٤٠٠ عام، هو رجل كان يرعىٰ الغنم علىٰ قراريط لأهل مكة!**.

يقول نيافته: "عندما يقول: إن اللبن يخرج من البطن، فأين الدقة في هذا الكلام؟"

هذا إعجاز علمي نيافتك!!!

فمنذ أن أنزل الله سبحانه هذه الآية المباركة، وبعد مضي أكثر من ١٤٠٠سنة لم نتجاوز هذه الحقيقة التي جاء بها القرآن الكريم، وذلك فيما يتعلق بأن الحليب الذي هو خالص (يعني مصفىٰ) وسائغ (مستطعم ومستساغ

---

(١) سورة النحل، الآية: (١٥).

بفضل احتوائه علىٰ المشهيات وهي الدسم والسكر)، لا يتشكل إلا من مواد موجودة ما بين الفرث (والفرث هو محتويات الكرش من علف مخمر بفعل جراثيم نافعة تساعد علىٰ تخمير الأعلاف المعقدة الهضم)، ومن مواد موجود قسم منها في الدم بالأصل، وقسم يأتي إلىٰ الدم من الكرش، كل ما تقدم يقول عنه رب العزة جل جلاله: إن فيه عبرة للمتدبر عظيم الخلق!

وتتمتع الأنعام بتعدد المعدات وبخاصية الاجترار وبقاء الطعام مدة طويلة لتخميره للحصول علىٰ قدر كبير من هضم وامتصاص الطعام وتحويله إلىٰ إنتاج سواء لحم أو حليب، ويقوم سيفون الضرع بتخليص اللبن من الدم ثم حلبه عبر الحلمات بعد ذلك، فأي دقةٍ هذه وأي إعجاز معرفي هذا!

بالمناسبة يا نيافة الكاهن الملحد لا تنس أن الداروينية التي هي أحد عقائد نيافتك، وأحد أركان إيمانك الكنسي الإلحادي، تنص علىٰ أن: "بعض صغار الزواحف بدأت تلعق عرق الأُم لتلطيف جسمها، وفجأةً تحول هذا العرق إلىٰ لبن"، وهذا أصل نشأة اللبن بالمفهوم الدارويني، وهذا مستحيل بل ودجل نيافتك؛ لأنه ببساطة لبن الأم به تعقيد غير قابل للاختزال، فاللبن موجود منذ البدء بعناية وتركيز معين حسب عُمر الجنين، وضبط مُعين دقيق للأجسام المناعية، وكمية البروتين ..!!

فعندما تفترضون أن اللبن هو إفراز جلدي خالص، وتُسلِّمون لهذا الاعتقاد الدوغمائي حتىٰ لا يتضرر إلحادكم الكهنوتي، فأنتم أحرار لكن رجاءًا لا تنشروا هذه السخافات بين العقلاء، فمقادير المضادات الحيوية التي يضخها ثدي الأُم في أول أربعة أيام والتي تطهر مجاري جسد الرضيع كله معجزة بحد ذاتها، وبعد هذه المعجزة يظهر اللبن الانتقالي بعد الأربعة أيام الأولىٰ من الرضاعة ويستمر

لعشرة أيام ويتم فيه إعداد معدة الرضيع لتقبل الدهون والكازيين، وعدم خلو لبن الأم بعد ذلك من أية مادة غذائية لشهور كاملة هو معجزة تفوق كل ما أنجزته البشرية من علمٍ وفكر.

عندما تقترض نيافتك أن هذا اللبن مصدره عَرق، فهذه عقيدة دوغمائية تفوق أشد الديانات إغرقًا في الوثنية، ولا مشكلة عندنا في اعتقادك الخرافي المهم ألا تُلبس العلم لبوس العلم الزائف حتىٰ تروج لخرافاتك!

يقول نيافته: " عندما يقول: إن الأرض خُلقت قبل السماوات، فأين الدقة في هذا الكلام؟"

هذه فضيحة معرفية لجهلك أبجديات القرآن وأنا بداهةً أعذرك لخلفيتك النصرانية، لذا سأوضح لك الصواب:

يقول تفسير القرطبي رحمه الله؛ من مجموع الآيات أن الله خلق أولًا دخان السماء ثم خلق الأرض، ثم استوىٰ إلىٰ السماء وهي دخان فسواها، ثم دحىٰ الأرض بعد ذلك فهذا قوله تعالىٰ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾[1].

هل أُوضح لك الإعجاز العلمي في هذا الترتيب يا نيافة القمص والذي ذكره القرآن قبل أكثر من ١٤٠٠ سنة، أم تذهب نيافتك مشكورًا لأي طالب علم في الكوزمولوجيا ليشرح لك روائع الآيات ومطابقتها الحرفية لما توصل له العلم؟

ثم تأتي أنت يا حضرة القمص وتحدثنا عن الدقة بل وتحدثنا عن أخطاء، لنكتشف أنها إعجازات تلو إعجازات .

---

(١) سورة النازعات، الآية: (٢٧-٣٠).

الخاتمة:

كانت هذه هي الأخطاء التي أخذها نيافة القمص علىٰ القرآن الكريم وقد غربلناها له، وبينّا أوجه قصوره ودلائل الإعجاز ولله الحمد والمنة!

لكن بقي أن نقول: إن القرآن الكريم كتاب أدبي وعقيدي في نفس الوقت وبنفس الدرجة، مهمته الأصلية هي تقديم مجموعة من الحلول للمشكلتين الخالدتين ألا وهما "المعرفة"، و "السلوك"، وداخل هذه الوحدة الأدبية تتوافر الدقة العلمية والدقة المعرفية؛ لأنه كتاب موحىٰ به من خالق السماء والأرض، وها هي الإشكالات التي أفرد لها الكاهن الملحد مقالاً كاملاً يتبين أنها إعجازات معرفية، ولذا فالقرآن هو الكتاب المقدس الوحيد علىٰ وجه الأرض الذي يخلو من خطأ علمي واحد، وهذا بحد ذاته أعظم إعجاز علمي علىٰ الإطلاق، بل إنني أقول أعطني كتيب أو مطوية صغيرة مكتوبة منذ مائتي سنة فقط تصف أي شيء من الوجود وسأُخرج لك منها أخطاء علمية صريحة، فقد كَتب أرسطو ثلاثة كتب علمية "في الطبيعيات، في السماوات، في الأرض" هذه الكتب الثلاثة لا توجد اليوم فيها جملة واحدة صحيحة علميًا، وكان أرسطو يرىٰ أن أسنان المرأة تختلف في العدد عن أسنان الرجل، ويوجد في صدر المرأة ٣ ضلوع فقط، ووظيفة المخ تبريد الدم بينما وظيفة القلب تسخينه، وكان يرىٰ أن المياه الجوفية تتكون نتيجة فجوة في قلب الأرض تنقل مياه المحيط إليها، بينما يقول القرآن في هذه المسألة الأخيرة مثلاً خلاصة ما توصل له العلم منذ عقود قليلة فقط، وهو أن المياه الجوفية مصدرها مياه الأمطار: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[١]، فمصدر المياه الجوفيه هو الينابيع المتكونة من الأمطار، وليس فجوة أرسطو التي في عمق القارة.

فمعجزة الضبط المعرفي للقرآن الكريم هي عندي أعظم معجزة علمية علىٰ الإطلاق، مع أنه كتاب ضبط للمعرفة والسلوك في المقام الأول، وطبقا للمبدأ البوكيلي Bucaillism - الذي قام بصكه موريس بوكاي منذ عقود قليلة- فإن القرآن الكريم بعد مراجعة علمية دقيقة هو الكتاب الوحيد الذي لا يوجد به خطأ علمي واحد رغم أن عمره ١٤٠٠ عام، تخيلوا لو أن نصًّا واحدًا من أكثر الكتب تحريفًا علىٰ الإطلاق كالفيدا - الكتاب المقدس للهندوس- كان موجودًا في كتاب الله؟

تقول الفيدا أن: "الأرض ثابتة لا تتحرك" [الريج فيدا ٢-١٢-١٢]، "وخلق الله الأرض ثابتة" [ياجور فيدا ٣٢-٦].

"والشمس تدور حول الأرض داخل عربة ذهبية يقودها سبعة أحصنة" [ياجور فيدا ٣٣-٤٣]، "والثور يُثبت السماء" [ياجور فيدا ٤-٣٠][٢].

ويقول الفيشنو بارانا أن الشمس تبتعد عن الأرض ٨٠٠ ألف ميل بينما علميًّا ٩٣ مليون ميل ويقول أيضًا: إن الشمس أقرب للأرض من القمر.

ويقول الآثارفا فيدا: "وفي خضم الماء يدور القمر" [آثارفا فيدا ١٨-٤-٨٩].

---

(١) سورة الزمر، الآية: (٢١).

(٢) الياجور فيدا هي أحد الكتب الأربعة القانونية المقدسة لدىٰ الهندوس.

وغيرها الكثير، مع أن كتب الهندوسية يتم تحريفها كل ٥٠٠ عام تقريبًا، **فالحمد لله علىٰ الدين الخاتم المعصوم المحفوظ، الذي بلغه لنا أشرف الخلق محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم، كاملاً غير منقوص**، ولينتحر الملحد كمدًا وغيظًا وحنقًا؛ ولله الحمد رب العالمين!

لا يلزم الملحد العربي هذه الأيام إلا بعض البخور والمجامر، ثم يعتلي قبة كنيسة الإلحاد ويبدأ في التكريز لكهنوته الإلحادي متمايلًا مع الترانيم، بئس الدين دينهم وبئست الدوغما مُحركهم!

مسلسل الادعاءات

والآن نعود لمسلسل الادعاءات

(٤٤) يدعي الملحد أن المسلمين لا يحركهم لعمل الخير إلا الإيمان باليوم الآخر؟

الرد:

لا ينبغي هنا للمسلم الذكي أن يرد حقيقة الإشكال إلىٰ تصور امتناع الالتزام بالأخلاق دون حافز أخروي، فالقرآن أخبر عن إمكان وقوع الخير من أجل الدنيا وإمكان وقوعه من أجل الآخرة ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾[1]، فمن الناس مَن يكون أمينًا رجاء مصلحة دنيوية، ومن الناس مَن يلتمس الأمانة، وإن تعارضت مع مصلحته الشخصية، فالأول يريد الدنيا والثاني يريد الآخرة.

لكن هل بالفعل عمل الخير قرين بإرادة الآخرة فقط، أم ربما إملاء فطرة وطبع؟

أولًا: الله فطر الخلق علىٰ فطرة مستقيمة، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[2]، فلا غرو أن يحب كل إنسان مبادئ الأخلاق، ولو كان غير مؤمن حتىٰ بالآخرة- كما فصلنا من قبل-، وكما وقع من مشركي قريش، ومن بعض الملحدين أنفسهم اليوم.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٥٢).

(٢) سورة الروم، الآية: (٣٠).

ثانيًا: الخير لا ينتمي في معناه إلىٰ هذا العالم، فلو كنّا أبناء هذا العالم فلن يبدو فيه خير أو شر، قداسة أو نجاسة، فهذه إضافات تستمد معناها من عالم آخر.

فلا يوجد تفاعل كيميائي يفرز الضمير، ولا توجد وصلة عصبية تُعطي القيمة أو تُحرر المعنىٰ، ولا يؤدي تبادل أيونات الصوديوم والبوتاسيوم علىٰ جدران الخلايا العصبية إلىٰ ظهور الأخلاق، فالقضية متجاوزة في معناها وفي سماتها ويعتنقها كل إنسان بوعي أو بدون وعي وفي هذا حجة كبرىٰ للدين.

ثالثًا: سمة الإسلام الأساسية هي تعبيد كل شيء لله خالقه، فتعبيد أخلاقك التي فُطرت عليها وجعلها مقصودة لله هذا مقصد الإسلام الأسمىٰ، وهو محك العبودية، أما الذي يستخدم فطرته الأخلاقية، ويلتزم بها من أجل مصالح دنيوية ودوافع أنانية مثل الشهرة وحب الناس والمنصب، فهذا ممن لا يريدون إلا الحياة الدنيا ﴿ **فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا** ﴾[1].

ومن العجيب أن الدافع الدنيوي لفعل الخير لا يكفي لتبرير شعورنا الضروري بحسن ما نفعل وقبح ما نترك، والذي يزعم أن الأخلاق تجربة بشرية، لا يعي أنه ليس لدينا مبرر مستقل عن التجربة البشرية يطمئننا بشأن ما نؤمن به من قيم، وبالتالي لا يمكن التأسيس للأخلاق في إطار كهذا، ولا يمكن استيعاب وجودها الضروري في كل نفس بشرية إلا بالإحالة إلىٰ الما وراء.

ومن أراد الآخرة؛ اكتسبت الأخلاق عنده قيمة إضافية، وأبعاد معنوية جديدة، وكما قال الإمام الشاطبي رحمه الله: «المقصد الشرعي من وضع

---

(١) سورة النجم، الآية: (٢٩).

الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه، حتىٰ يكون عبدًا لله اختيارًا كما هو عبد لله اضطرارًا»[(١)].

(٤٥) يدعي الملحد أن الإيمان عاطفي، وبالتالي ليس عقليًّا.

الرد:

للعاطفة دور أساس في قيادة منظومة التفكير، فالعقل ليس غريزة فقط، ولا قضايا ضرورية مجردة فحسب، وإنما فعل يُكتسب وأخلاق تُجتلب، ومعانٍ تُركب وأفكار عاطفية، وعواطف فكرية وهذا خلاصة ما انتهىٰ إليه أنتونيو دماسيو وجورج لاكوف وفيليب جونسون وغيرهم، وهو التصور الذي يلتقي مع المفهوم القرآني النبوي للعقل.

وابن الجوزي مثلًا يُعد علو الهمة من كمالات العقل[(٢)]، والإمام مالك يرىٰ أن رأس الحكمة معرفة الدين والعمل بالدين، فالوضع المعرفي هو حالة مُركبة من فكرة وعاطفة وعادة، فالوضع المعرفي له أساس فكري وآخر عاطفي وثالث سلوكي، والحالة المعرفية ثمرة نهائية لعمل العقل في تكامل مكوناته، وهي حالة خالصة من تراكب العادة بالعاطفة بالفكرة، ومن العاطفة ينشأ باعث الفكر وبالعاطفة تتأثر هيئة الفكرة.

فالذي يُنكر دور العاطفة في العملية العقلية هو أجهل الناس بالعقل.

وعندما يعمل العالم في مختبره، فإن الفكر يسيطر عليه لا إشكال في ذلك، لكن هل ينطلق فكره من عاطفة؟ الجواب: نعم؛ إنه ينطلق مهما ادعىٰ وصلًا

(١) الموافقات: ٢-٢٨٩. (ثلاث رسائل، م.س.).

(٢) صيد الخاطر، لابن الجوزي، ص٤٦.

بالموضوعية من أساس عاطفي، أي: حاجة تدفعه لفعل ما يعمل وحب ما يعمل ومحاولة البروز والتميز والتفرد فيما يعمل، بل إن الدافع العاطفي هو الآكد والأصل والجوهر.

يقول جيمز مثلاً: " كلما زادت خيبة الأمل في تقديم براهين علىٰ نظرية التطور، زاد الباحث التطوري إيمانًا بنظريته؛ لأنها تتطلب منه المزيد من الجهد"(١).

وهكذا يكون الدافع عاطفي في الأساس.

فالعملية العقلية مركبة من عاطفة ومنطق وفكر ولا يستقل أحدها عن الآخر.

فالعاطفة جزء لا ينفصل عن العملية العقلية السليمة!(٢).

(٤٦) يدعي الملحد أن العقل هو الحصن الموضوعي لأية مشكلة فكرية.

الرد:

تصور العقل أنه يتمتع بكينونة وجودية مستقلة ontologically independent – حيز أنطولوجي من الجسد المادي- هذا التصور الآن يقبع في دائرة الخرافة العلمية.

فالعقل عملية وظيفية للروح وليس عضو جسدي أو إفراز لعضو جسدي، ولا يوجد في الطب جزء من الجسد يُسمىٰ عقل.

---

(1)James, W., the Sentiment of Rationality, p.95.

(٢) الرد من وحي كتاب ثلاث رسائل، م. س.

ولذا لم ترد صيغة العقل في القرآن الكريم ولو لمرة واحدة بصيغة اسمية – عقل–، وإنما وردت أكثر من خمسين مرة كلها بصيغات فعلية، يعقلون – نعقل – يعقل .

والعقل ليس حصن موضوعي عديم الصلة بأي مضمون ذاتي، بحيث نفزع إليه متىٰ أردنا الفرار من ذواتنا صونًا لأحكامنا، بل هو جزء لا يتجزء من الرؤية الذاتية وانعكاس لها، لذا فالعقل العاطفي مثلًا هو وظيفة عقلية سليمة – كما فصّلنا قبل قليل– وليس شيء مجانبًا للعقل .

خطأ ديكارت الأكبر أنه قام بفصل العقل عن الجسد، ثم أسقط الفكر المجرد علىٰ العقل وأعطاه قداسة ذاتية، واعتبر أن الإنسان إنسان فقط بالعقل وأن الجسد لا قيمة له؛ في الواقع هذا الخلل أثر جدًّا علىٰ العقل الغربي فيما بعد، فإهمال بقية خصائص النفس شيء غير جيد وإهمال معنىٰ الجسد ظلم يترتب عليه تشوه التصور فيما بعد، وأول الأخطاء في الفكر الغربي اعتبار أن العاطفة شيء منفصل عن التفكير بينما هما متآزران متكاملان والعاطفة تفرض معنىٰ معين علىٰ التفكير ولا تلغيه.

فالعقل ينبوع الفكر والعاطفة، وليس مجرد آلة منطقية أرسطية، وإنما عملية حية متكاملة وليست برمجية.

والعقل ليس آلة ذات خوارزميات خطية منطقية محايدة، ومنعزلة عن حقائق النفس الأخرىٰ، بل الكل متداخل والعاطفة في أقصىٰ درجاتها تحتوي علىٰ مكون معرفي.

فالعاطفة مُضمنة في تضاعيف عملية التفكير والعكس، والعقل مشتق من مطالب الجسد ومعبر عنها.

ويوجد في العقل مكان للبصيرة insight ومكان للحكمة wisdom، فالعقل لا يخضع لعملية البرهان المنطقي المنظم فقط، وإنما يسيطر عليه الوجدان والعاطفة والبصيرة والحكمة وكلها وظائف عقلية سليمة لا تقل قيمة عن وظيفة العقل المنطقي، بل قل ربما أهم.

وهنا نقرر أن العلم ثمرة من ثمار العقل قائمة به وحالة من أحوال العقل ولا تتجاوز ذلك.

وربما هنا لمزيد فائدة نقرر مكان العقل من الجسد:

مكان العقل غير معلوم وإن كان النووي يقرر في "شرح صحيح مسلم": أن العقل في القلب. وقال أبو حنيفة: هو في الدماغ. واحتج القائلون أنه في الدماغ بأنه إذا فسد الدماغ فسد العقل، ولا حجة لهم في ذلك؛ لأن الله أجرىٰ العادة بفساد العقل عند فساد الدماغ، ولا امتناع من ذلك»[١].

وتأثر العقل مع تلف الدماغ هو أمر تزامني وليس سببي كما أثبتت دراسات علم أعصاب الدماغ مؤخرًا، وقد فصّلنا في هذه المسألة في الحوار مع د. عمرو شريف في أول الكتاب.

والدماغ إذا أصابه العطب لم يصنع التصورات التي تُدرك فيما بعد عبر العقل، فلا تصل للعقل مواد المعاني أو تصل مشوهة ومضطربه فيكون إدراكه قاصرًا [٢].

---

(١) شرح صحيح مسلم، ١١/ ٢٩.

(٢) الرد من وحي كتاب ثلاث رسائل، م. س.

(٤٧) يقول الملحد وصلًا بما سبق: الإيمان مسألة ذاتية وليست موضوعية؟

الرد:

هذا أيضًا من تداعيات تصور العقل بالرؤية الديكارتية، فالموضوعية والذاتية ينطلقان من ذات واحدة هي ذات الإنسان، فلا سبيل للانفصال عن النفس للاتصال بالموضوعية مثلاً، فالموضوعية حالة عقلية وليست حصنًا نلوذ به من الذاتية، وكذلك الذاتية حالة عقلية وليست حصنًا نلوذ به من الموضوعية، إنه لخطأ كبير أن ننظر إلىٰ الموضوعية علىٰ أنها صديقة الحقيقة، بينما تكافئ الذاتية الوهم.

فالموضوعية والذاتية موقعان إدراكيان طبيعيان متكاملان متآزان ومشروعان للعقل، فالذات والموضوع يتداخلان في كافة مستويات الوعي، ولن تجد إطلاقًا موضوعية مستقلة تمامًا عن الذاتية؛ لأن المعرفة التجريبية المنطقية الحسية في أكثر صورها مادية هي معرفة قائمة بالذات وناشئة عن الذات.

والرصد التجريبي قائم بالذات المؤمنة لحظة تدينها دون انفصال ودون تعارض ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[1].

فالموضوعية ممكنة لكنها متصلة بالذات وهي مع الذاتية حالتان للعقل تعتوران الوعي، فينفتح علىٰ ضروب مختلفة من الخبرات والمعاني.

أما مبادئ العقل الأولىٰ أو بديهياته فهي في مأمن لا علاقة لها بالذاتية ولا الموضوعية بل هي مستقلة، وقد أثبت كانط استعدادًا إدراكيًّا أصليًّا متمكنًا في

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٩١).

النفس البشرية منذ البدء، وربما هذا نظير قوله تعالىٰ: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[(١)]، فإن قدرة الإنسان علىٰ التعرف علىٰ الأشياء وتمييزها بالتسمية فرع عن ثبوت ملكة تمكنه من ذلك، ففكرة إمكان المعرفة هي بفضل تمتعنا بنظام إدراكي إيجابي فاعل لا لوحة سلبية منفعلة لمدخلات الحس[(٢)(٣)].

(٤٨) يدعي الملحد أن أصل إلحاده يقوم علىٰ رغبة فكرية محضة، وليس دواعٍ نفسية.

الرد:

رغبة الملحد في التحرر من الدين ليست رغبة فكرية صرفة، وإنما لها محتوىٰ عاطفي كبير متضمن داخل العملية الفكرية، مثل الرغبة في التحرر والاستقلال بالنفس، والشعور بالاستغناء وتذوق القوة، أو الراحة من دفع الشك.

(٤٩) يدعي الملحد صعوبة إثبات الخالق تجريبيًّا.

الرد:

لا يعقل أن يُطلب دليل علىٰ وجود الخالق بشروط المنطقية الوضعية التجريبية المتطرفة، بحيث يكون الخالق-حاشا لله- موضع تجربة وإثبات، فهذا شأن أسخف العقول علىٰ الإطلاق، وإنما الاستدلال بنظر العقل علىٰ كون هيئة موضوع النظر- الطبيعة- دالة علىٰ موجد لموضوع النظر، وبداهةً هذه

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٣١).

(2) Lavine, T. Z., from Socrates to Sartre, p.193.

(٣) الرد من وحي كتاب ثلاث رسائل، م. س.

الدلالة متيسرة للعقل لا متعذرة ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[١].

فاستيعاب العالم دليل علىٰ الخالق، وتصميم العالم دليل علىٰ المصمم ووجود العالم دليل علىٰ الموجد، فهذه أدلة تعتمد علىٰ الإدراك العقلي المباشر لا القياس العقلي، فالكون لا يحمل داخله ما يكفي لتفسير وجوده، وآثار الخلق تتبدىٰ للعالم والعامي والجاهل، وخاصة الناس وبسطائهم بما يغني المقال عن حشد الأدلة والشواهد التي سارت بها الركبان عبر التاريخ.

لو كنّا أبناء الطبيعة فلا معنى للثقة بعقولنا

الذي يزعم أن الإلحاد هو فلسفة عقلية هو أجهل الناس بالعقل، لأن لازم قوله بإلحاده هو تطوره عن كائنات أدنىٰ، وبالتالي ليس لعقله ثقة ولا لمعرفته قيمة، يقول تشارلز داروين: " ولكن هنا يراودني الشك الآتي: هل يمكن أن يكون عقل الإنسان، والذي أؤمن إيمانًا جازمًا أنه تطور عن عقل كذاك الذي تمتلكه أدنىٰ الكائنات، محلًّا لثقتنا وهو يُدلي بتلك الاستنتاجات العظيمة"[٢].

وبالتالي فلا يكون العقل عقلًا إلا بإثبات الخالق أولًا.

وقد طوّر الفيلسوف ألفن بلانتيجا Alvin Plantiga نواة هذا البرهان الذي تحدث عنه داروين، فقد قال بلانتيجا: إذا كان العقل قد طورته الطبيعة لتحقيق غاية بقاء النوع كما تفترض الداروينية في صورتها المعيارية، فإن هذا

---

(١) سورة فصلت: الآية (٥٣).

(2) Charles Darwin to W. Graham, the Life and Letters of Charles Darwin, vol.1, p.282.

يعني أن أحكام العقل الأُخرىٰ إما ثانوية أو لا وزن لها، فتحقيق غاية البقاء ممكن من دون الحاجة إلىٰ الوعي بقيمتي الحق أو الباطل، أو القيمة أو الأخلاق أو الأدب أو المعرفة، والدليل من الواقع علىٰ إمكان ذلك هو عالم البهائم، فالتطور أصم أبكم أعمىٰ غير آبه بالقيمة المعنوية لهذه الأحكام، وهذا يلزم عنه ألا يستمسك ملحد ولا يثق بأيٍ من أحكامه العقلية، بل كل حكم عقلي أو تقييم معرفي يراه يجب أن يفترض أنه لغوٌ فارغ بلا معنىٰ، لكن البشر يتملكهم شعور اضطراري بأنه يجب عليهم أن يثقوا في قيمة أحكامهم ولا يتأتىٰ ذلك إلا بافتراض تميز موقعهم الإدراكي من أصله.

يقول الناقد الأيرلندي الشهير كليف لويس C. S. Lewis: " لا يمكن لاقتناعنا بأن الطبيعة تعكس نظامًا أن يكون أهلًا لثقتنا إلا إذا اعتبرنا نوعًا خاصًّا من الميتافيزيقيا صحيحًا".

ويقول أيضًا: "إذا كان الحق الذي نؤمن به هو بدرجة ما شبيه بنا، أي: إذا كان نفسًا عاقلة صدرت عنها أنفسنا العاقلة، ففي هذه الحالة يمكننا بالفعل أن نثق فيه". غير ذلك فالحق الذي نؤمن به هو بلا معنىٰ ولغو فارغ[1].

فإذا كان الإلحاد صحيحًا فهو غير صحيح، فلو كنَّا أبناء هذا العالم لما كان لأحكامنا العقلية معنىٰ[2].

(٥٠) يدعي الملحد أن التأزم النفسي يؤدي إلىٰ الإلحاد.

الرد:

---

(1)Nathan, N. M. L. , Naturalism and Self-Defeat, p.135.

(٢) الرد من وحي كتاب ثلاث رسائل، م. س.

ادعاء الملحد باستمرار أن التأزم النفسي والشر والبلاء حالة تنفجر باتجاه الإلحاد، فهي حالة أُحادية الإتجاه دومًا. هذا غير صحيح وتصور خاطئ وكاذب، فقد تؤدي حالة التأزم إلىٰ الإيمان كما حدث مع عمالقة الفكر عبر العصور الذين نقلتهم حالة التأزم المفاجأة من الكفر إلىٰ الإيمان ويحضرنا في عصرنا هذا: أنتوني فلو، وفرانسيس كولينز، وعبد الوهاب المسيري، ومحمد عمارة، وغيرهم خلق لا يحصي عددهم إلا الله، وقد يؤدي التأزم إلىٰ مزيد من الإيمان بالخالق والتشبث به كما حدث ويحدث مع الغزالي وكيركيغارد وليو تولستوي وغيرهم الكثير(١).

(٥١) يدعي الملحد أن الأخلاق إفراز الطبيعة المادية.

الرد:

عندما تنظر إلىٰ صراع الغابة والحشرة التي تتغذىٰ علىٰ بدن اليرقة، تشعر ساعتها أنك أخلاقك البشرية تحتوي علىٰ مطلقية وشمولية لا تُحللها الداروينية القاصرة، وليست إفرازًا ماديًّا، فالأحكام الأخلاقية تتجاوز محيط الخبرة البشرية ومحيط استعدادها بالمنظور الداروين، فهي أحكام مطلقية متجاوزة ثابتة.

بل وليس كفر الملحد واعتراضات الملحد إلا انفعالات في ضوء التصورات الأخلاقية المطلقة التي فُطر عليها.

فالمفترض لو كان الإنسان ابن الطبيعة أن يكون قاصرًا بقصور الطبيعة المادية ومحكومًا بحدودها وقوانينها، ولا تتجاوز خبراته الذاتية حدود العالم

(١) الرد من وحي كتاب ثلاث رسائل، م. س.

المادي، لكن نحن حين نتحدث عن الأخلاق فالأمر قبلي- أي يسبق- الخبرة الذاتية ويتجاوزها ويعطي تقييم مبدئي مطلق؛ فمن أين أتي الإنسان بهذه الأحكام المطلقة والبرهان الضروري. إلا بتقرير كمون الحس الأخلاقي لحظة خلق الإنسان بوازع الروح التي وهبها الله للإنسان.

(٥٢) يقول الملحد: أنا ألتزم بالأخلاق؛ لأن ضميري يدفعني لذلك وليس الدين.

الرد:

ما مصدر إلزامية الأخلاق Obligation لماذا هي إلزامية؟

لماذا هي صالحة من الأساس؟

ماذا نجني من وعينا بضرورة قبح ضدها وحسنها في ذاتها؟

ولماذا يستمر هذا علىٰ نحو كوني universal دون أدنىٰ تغيير منذ الإنسان الأول؟

لماذا نشعر شعورًا ضروريًّا بمطلقية القيمة الأخلاقية في ذاتها؟

ثم ما معنىٰ الضمير الذي نتحدث عنه؟

وهل تبادل أيونات صوديوم وبوتاسيوم علىٰ جدران خلية عصبية في الدماغ تفرز ضمير أو قيمة أو معنىٰ؟

القضية هي تكليف إلهي بداخل الإنسان وليس بوسعه التمرد عليه!

فالله تعالىٰ خلق الوجود كله بالحق علىٰ هيئة تُمكن الإنسان من فهم الأمانة والقيام بها، فالأخلاق وكونيتها لها استقلالية تامة عن أي سياق زماني أو مكاني، ودعائم الأخلاق الثلاثة التي لا تنفك عنها هي: وجود الله واليوم الآخر وخلود الروح، فلو لم يوجد يوم آخر ما كان للأخلاق معنىٰ ولا قيمة ولو لم توجد روح

فلن نستوعب الأخلاق، وقد جمع الله عز وجل هذه الدعائم الثلاث في آيةٍ واحدة فقال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1].

معضلة الشر

يقول الملحد: "لو افترضتم أن هناك تصميم في الطبيعة، فهناك أيضًا شر وبلاء وإشكالات ".

الرد:

للتصميم أو بلغة السلف: الصنعة أو أثر الصانع، ثلاثة أركان:

الركن الأول: التنظيم organization وأحد اعترافات الملحد الشهير كارل ساغان أن مظاهر النظام في الكون لا تخفىٰ.

الركن الثاني: التعقيد complexity، فكلما زاد التعقيد كان دليلاً علىٰ التصميم، وهذا يُقر الملحد بوجوده أيضًا.

الركن الثالث: الغاية purpose وهو ركن النزاع بين الملحد والمؤمن.

ودليل الغاية يشير إليه الماديون بالوظيفية function هربًا من إلزامات دلالة الغاية.

هذه الأركان هي أحكام مُنتزعة من العالم المادي، أحكام معرفية. والشيء المادي يظل عديم المعنىٰ حتىٰ يتحول إلىٰ معرفة، والمعرفة مفتقرة إلىٰ كائن عاقل، إذن وعينا يتصل بطبيعة معرفتنا عن الموضوع المادي الذي سنعرفه قبل أن نعرفه، فهناك عالم الخبرة الواعية القائمة بذات الإنسان من حيث هو كائن

(١) سورة الجاثية، الآية (٢٢).

مدرك؛ هذا العالم شيء إضافي مستقل وجوهري في إدراكنا للغاية وليس جوهريًّا علىٰ الإطلاق بل وبلا معنىٰ لو كنا أبناء المادة.

والعالم المادي يشتمل علىٰ متشابه ومُحكم، فكما أن في الكتاب المسطور "متشابه قرآني تنزيلي" فإن في الوجود المادي المنظور متشابه تكويني عيني، فالأول في الآيات المتلوة والثاني في الآيات المشاهدة، والفرق بين الملحد والمؤمن أن الثاني يرد المتشابه إلىٰ المحكم في الآيات المتلوة والمُشاهدة، والأول يرد المحكم إلىٰ المتشابه، وهنا يتجلىٰ البُعد النفسي في أعمق وأغمض مستوياته.

والقرآن لا ينفي وجود متشابهات بل يُثبتها، إنها موجودة في الآيات المتلوة والمُشاهدة، لكن أثرها بحسب إدراك الملاحظ وحظه من استخدام عقله والرجوع لبديهياته والتسليم لوجدانه وفطرته، فالذين في قلوبهم زيغ بغير سلطانٍ أتاهم يتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، أما المقاومون لحظوظ ذواتهم فينجذبون للمحكم، ويطمئنون إليه ويقولون في المتشابه: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[١].

فالعالَم سيظل مفتوحًا لتأويل غير إيماني وتأويل إيماني، يقول وليام دريز William Drees: "إن كان للصورة العلمية أن تتغير في المستقبل فإن كل نسخة جديدة ستتيح نفسها لقراءة دينية، ولكن أيضًا لقراءة إلحادية، إن الكون ذو دلالة دينية مزدوجة"[٢].

(١) سورة آل عمران، الآية (٧).

(2) Dress, W., Beyond the Big Bang Quantum Cosmologies and God, p.26.

وفلسفة الإلحاد ككل تقوم علىٰ إحالة المُحكم إلىٰ المتشابه، فإذا قدّمت للملحد أدلة قاطعة علىٰ التصميم الدقيق لحظة الخلق الأولىٰ والمعايرة الدقيقة للكون والشروط الأولية، فإن الملحد يحيلك إلىٰ المتشابه ويخبرك عن انفجارات في قلب المجرات.

وأصل استشكالات الملحد مُركبة من افتراضات وخيالات، فهو يُحيل في العادة إلىٰ ما لم نُحط بعلمه فصار إلحاده قائمًا علىٰ ثغرات وفجوات معرفية.

يقول ابن الوزير اليماني: «فسبب الشك والكفر: هو النظر في المتشابهات، التي لم يحط البشر بها علمًا، ولا عرفوا تأويلها»(١).

لكن فلسفة المؤمن تقوم علىٰ إحالة المتشابه إلىٰ المحكم والتسليم بشواهد الإحكام والنظام، وشخصيات هذه الفئة هم الغالبية الساحقة من البشر عبر كل العصور وهو منهج البشر في الجملة.

يقول ابن القيم رحمه الله: «وعسىٰ أن يكون في ذَنب الدابة حكم آخر تقصر عنه أفهام الخلق، ويزدريه السامع إذا عُرض عليه، فإنه لا يعرف موقعه إلا في وقت الحاجة»(٢).

ويقول في موضع آخر: «ما حكمة هذا النبات المبثوث في الصحاري والقفار والجبال التي لا أنيس بها ولا ساكن، وتظن أنه فضلة لا حاجة إليه ولا فائدة من خلقه».

---

(١) العواصم: ١/ ٢١٤.

(٢) مفتاح دار السعادة: ٢/ ٦٦٩.

ولما انتهىٰ رحمه الله إلىٰ ذلك التمس رد المتشابه إلىٰ المحكم فقال: «وهذا مقدار عقلك ونهاية علمك، فكم لباريه وخالقه فيه من حِكمة وآية من طعم أوحش وطير ودواب مساكنها حيث لا تراها تحت الأرض وفوقها، فذلك بمنزلة مائدة نصبها الله لهذه الطيور والدواب تتناول منها كفايتها ويبقىٰ الباقي كما يبقىٰ الرزق الواسع الفاضل عن الضيف لسعة رب الطعام وغناه التام وكثرة إنعامه»(١).

ويقرر ابن الجوزي رحمه الله منطقية رد المتشابه إلىٰ المحكم فيقول: «ولو قيل للعقل: قد ثبت عندك حكمة الخالق بما بنىٰ، أفيجوز أن يقدح في حكمته أنه نقض؟ لقال: لا؛ لأني عرفت بالبرهان أنه حكيم، وأنا أعجز عن إدراك علل حكمته، فأسلم علىٰ رغمي، مقرًّا بعجزي»(٢).

ويقول أيضًا: «فأما من يقول: لم فعل كذا؟ وما معنىٰ كذا؟ فإنه يطلب الاطلاع علىٰ سر الملك، وما يجد إلىٰ ذلك سبيلاً، لوجهين: أحدهما: أن الله تعالىٰ ستر كثيراً من حِكمه عن الخلق. والثاني: أن ليس في قوىٰ البشر إدراك حِكم الله تعالىٰ كلها فلا يبقىٰ مع المعترض سوىٰ الاعتراض المخرج إلىٰ الكفر ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾(٣)، والمعنىٰ: مَن رضي بأفعالي، وإلا، فليخنق نفسه، فما أفعل إلا ما أريد»(٤).

---

(١) مفتاح دار السعادة: ٢/ ٦٤٩.

(٢) صيد الخاطر، ص٧٩.

(٣) سورة الحج: الآية (١٥).

(٤) صيد الخاطر، ص ٣٦٨- ٣٦٩.

يقول ديكارت في كتابه "التأملات": "ليس لدي أدنىٰ سبب يجعلني أتذمر من أن الله لم يمنحني قدرة أعظم علىٰ الفهم، أو أنه لم يهبني نورًا طبيعيًّا أكثر مما وهب، فمن الطبيعي أن تظل هناك أشياء غير مفهومة بالنسبة لفهم محدود، ومن الطبيعي أن يظل الفهم المخلوق محدودًا، عوضًا عن هذا، يتوجب علي أن أشكر له أنه لم يجعلني مدينًا له بقدر كرمه عليّ، بدلاً من أن أظن به أنه أخفق في إعطائي، أو أنه أخذ مني تلك الأشياء التي لم يعطني إياها في الأصل"[1].

وإضافةً إلىٰ ما سبق وتكملةً للفائدة في هذه النقطة -معضلة الشر- التي يُكثر الملحد الحديث حولها فإنني أقول: إن **الشر والمتشابه هما أكبر دليل علىٰ وجود الله !**

فالخير والشر موجودان وشاء الله وجودهما .... امتحانًا واختبارًا

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[2].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾[3].

إذن الخير والشر موجودان؛ لأننا في دار امتحان ...

لكن لماذا نقول: إن الشر أكبر دليل علىٰ وجود الله؟

لأن الشر أصلاً غير مُستوعب وغير مُدرك؛ إذ لو كان الإنسان ابن الطبيعة أو ابن المادة، وتجري عليه قوانين الطبيعة الحتمية، فلن يدرك وجود الشر، ولن

---

(1) Descartes, R., Meditations and Other Metaohysical Writings, p.49.

(٢) سورة الأنبياء: الآية (٣٥).

(٣) سورة الملك: الآية (٢).

يستوعب ماهية الشر ولا معنىٰ كلمة شر، فهل تُدرك أكثر الحيوانات تطورًا – طبقا للداروينية – معضلة الشر؟

فاستيعاب الشر يعني أننا لسنا أبناء هذا العالم، وأننا نبحث عن عالم كلي الخير، وفي هذا الحُجة الأولىٰ والأقوىٰ للدين ..

فالإنسان لو كان ابن الطبيعة وتسري عليه قوانين الطبيعة فلن يوجد في الطبيعة شر ولا خير ولا قداسة ولا نجاسة، فالطبيعة حتمية تحكمها قوانين صارمة، عندنا حامض وقاعدي ... نضيفهم في المعمل .... تكون النتيجة ملحًا وماء ... لو تكررت هذه التجربة مليار مليار مرة لن تتغير ... قوانين حتمية ..

الآن المحلد يقول: لا لا لا .... يمكن أن تكون النتيجة عسل أبيض وليس ملح وماء ... ثم فجأة يكتشف العسل أنه المفترض أن يصير ملحًا وماء، فيعرف خطأه الشديد ويندم ..!!

هذا هو السيناريو الذي يدعمه الملحد عند طرح فكر الشر، والمفترض أن نُصدقه والمطلوب أن نُسايره .!!

مشكلة الربوبي والملحد أنهما يعترفان بوجود الشر، ووجود المتشابه، ويعترفان أن وجوده مُعضلة، ولا يملك تحليل معضلة الشر إلا الإطار الديني، فهو الوحيد الذي يُقدم التفسير ...

يقول المفكر الأيرلندي كليف لويس: "وقد كانت حُجتي ضد الله أن العالم بدا في منتهىٰ القسوة والظلم .. ولكن كيف حصلت علىٰ مفهوم الظلم والعدل هذا؟

إن المرء لا يصف خطًّا بأنه غير مستقيم إلا إذا كانت لديه فكرة ما عن ماهية الخط المستقيم .. فبماذا كُنت أُقارن هذا العالم لما دعوته غير عادل؟

وإذا كان العرض كله سيئًا وتافهًا من الألف إلىٰ الياء إذا جاز التعبير، فلماذا وجدت أنا نفسي في ردة فعل عنيفة هكذا تُجاهه، مع أني من المفترض أن أكون جزءًا من العرض؟

إن الإنسان يشعر بالبلل عندما يسقط في الماء؛ لأنه ليس حيوانًا مائيًّا، أما السمكة فما كانت لتشعر بالبلل.

وكان من شأني طبعًا أن أتخلىٰ عن مفهومي للعدل بمجمله بقولي: إنه ليس شيئًا سوىٰ فكرة خاصة من بنات أفكاري، ولكن لو فعلت ذلك لانهارت أيضًا حجتي ضد الله؛ لأن رُكن تلك الحجة كان القول بأن العالم غير عادل فعلاً وليس فقط أنه لم يصدف أن يُرضي ميولي.

وهكذا ففي محاولتي إثبات عدم وجود الله، تبين لي في ذلك الفعل ذاته حقيقة وجوده؛ لأن الإنسان بإنكاره وجود العدل في فعلٍ ما يُرغم علىٰ التسليم بوجود مفهوم العدالة، وبناءًا علىٰ ذلك يتبين أن الإلحاد ساذج جدًّا.

ولو كان الكون كله عديم المعنىٰ لما كان قد تبين لنا إطلاقًا أنه عديم المعنىٰ.

فالوضع شبيه تمامًا بهذا: لو لم يكن في العالم نور، ولم تكن في العالم مخلوقات لها أعين لما كُنا نعرف قطعًا أن الظُلمة مسيطرة ولكانت الظُلمة كلمة عديمة المعنىٰ ".

إذن الشر هو أكبر دليل علىٰ أننا لسنا أبناء هذا العالم... وأن المقدمة الدينية هي الوحيدة التي تملك التفسير والمعنىٰ والقيمة..!![1].

(١) الجزء الأول من الرد من وحي كتاب ثلاث رسائل، م. س.

(٥٣) يدعي الملحد عدم إمكان استيعاب المعجزة، مما يجعلها خرافة.

الرد:

" لا توجد ضرورة عقلية تُحيل إمكان تبدل المعهود من القوانين إلىٰ هيئات لا تخطر علىٰ العقل البشري فيما اعتاده من ظواهر العالم الطبيعي".

وسبحان الله قائل العبارة السابقة هو ديفيد هيوم أشهر منكري المعجزات، قال هذا الكلام في معرض نقده لقانون الاستقراء والنتائج المنتزعة منه.

فعدم العلم بالإمكان ليس علمًا بعدم الإمكان، فيلزم وقوع المعجزة بناءًا علىٰ ما يلزم من قول هيوم إزاء الاستقراء، فالمعجزة لا مانع عقلي منها والعقل يستطيع أن يستوعبها، وإذا كان الله موجوداً فما المانع من المعجزات [1].

هل الإنسان مُسير أم مُخير؟

يدعي الملحد أن علم الله بما سيقع ينفي قضية الحرية والتخيير.

الرد:

علم الله بما سيقع ليس جبرًا؛ يقول د.عمرو شريف: "تخيل إنسان اخترع آلة الزمن وسافر مائتي عام للمستقبل ورأىٰ ما سيفعل أحفاده وأحفاد أحفاده ثم عاد إلىٰ زمانه هو وسجّل ما سيحدث، هل تدوينه مُلزِم لهم؟ هل يُلام علىٰ علمه المستقبلي؟ إن الله عز وجل أراد أن تكون لنا إراده وأراد أن نختار ﴿إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[2].

---

(١) الرد من وحي كتاب ثلاث رسائل، م. س.

(٢) سورة الإنسان، الآية: (٣).

الله هو مَن قال أنه يعلم كل شيء وفي نفس الوقت قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾[1].

وأيضًا قال سبحانه: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[2].

أما كون الملحد يريد أن يجعل من علم الله مانعًا لإرداة الإنسان فهو يُعطل أحد أفعال الله علىٰ حساب فعل آخر وهذا حال كل كافر، أما المسلم فهو يُسلم بكل أفعال الله وأنها كلها واقعة.

لكن الله عز وجل يُخبرنا في كتابه العزيز أنه يهدي مَن يشاء ويُضل من يشاء، فكيف يتناسب هذا مع التخيير؟

يقول عبد المجيد الزنداني-حفظه الله-: «إذا قلنا أن: الحكومة الفلانية حرة تحبس من تشاء وتكافئ من تشاء، وقلنا أيضًا: الحكومة نفسها لا تحبس إلا من يستحق الحبس، ولا تكافئ إلا من يستحق المكافأة، فهل بين القولين تعارض؟

الجواب: لا، فالقول الأول يدل علىٰ أن الحكومة مستقلة وقوية ولا يستطيع أحد التدخل في شئونها، والقول الثاني يبين أن هذه الحكومة المستقلة القوية عادلة ولا تظلم.

فقد بين الله تعالىٰ ولله المثل الأعلىٰ أنه مطلق المشيئة، ولا يقيد مشيئته قيد ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3].

---

(١) سورة الليل، الآية: (٥-١٠).

(٢) سورة البلد، الآية: (١٠).

(٣) سورة النحل، الآية: (٩٣).

وبيّن سبحانه في آيات أخرى أن مشيئته التي لا سلطان لأحد عليها مشيئة عادلة لا تظلم أحدًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

وأنه سبحانه لا يهدي إلا من يستحق الهدى ويحرص عليه ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[2].

ولا يُضل إلا من يستحق الضلال ﴿زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[3].

فالأمر واضح جلي: مشيئة الله حرة مطلقة، وشاء سبحانه أن يخلق للإنسان إرادة حرة ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[4].

وإذا كان الله يفعل ما يشاء فإن مشيئته عادلة لا تهدي إلا من استحق الهدى، ولا تضل إلا من استحق الضلال".

لكن لماذا خلق الله الملحدين والكافرين وهو يعلم أنهم سيكفرون؟

إذا كان الملحد يستحق الكفر في علم الله فما المانع من خلقه ثم محاسبته؟

هل بما أنه سيكفر إذن يريحه ولا يخلقه؟ أليس هذا محض تحكم وافتراض ساذج؟

إذا كان الملحد يستحق الخلود في النار فمن العدل أن يذهب لما يستحق.

فالذي يستحق النار ليس من العدل ألا يدخلها أو لا يُخلق ليدخلها.

---

(١) سورة النساء، الآية: (٤٠).

(٢) سورة محمد، الآية: (١٧).

(٣) سورة الصف، الآية: (٥).

(٤) سورة الإنسان، الآية: (٣).

أُكرر مرَّة أُخرىٰ: الذي يستحق النار ليس من العدل ألا يدخلها أو لا يُخلق ليدخلها.

ثم إن معيارنا للحكم علىٰ العدل ليس معيار مطلق، بل معيار محدود بحدود طبيعتنا البشرية، والعدل المطلق هو الله سبحانه وتعالىٰ وأخبر أنه لن يظلم عباده ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(١)، فيكون هذا هو المرجع فيما قصرنا عن استيعابه، وهذا أسلم عقلاً ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾(٢).

(٥٤) يدعي الملحد أن القضية الدينية قضية جانبية.

الرد:

لن يعرف إنسان مهما أوتي من علمٍ وحكمة وفلسفة وفكر لماذا جاء إلىٰ الدنيا؟ ولا غاية وجوده، إلا بإخبار من خالقه فأصبحت القضية الوجودية الكبرىٰ حصرية علىٰ الدين ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾(٣).

فلا يعرف الإنسان الطريقة الصحيحة لاستخدام أية آلة إلا بإرشاد من صانعها، لذا الذي لا يتبع الإرشاد الإلهي تفسد دنياه وآخرته حتىٰ لو بدا أنه يُحسن صنعًا.

---

(١) سورة ق، الآية: (٢٩).

(٢) سورة يونس، الآية: (٣٩).

(٣) سورة البقرة، الآية: (١٥١).

لماذا لا يجيب الله دعاء الملحد فيُلجم ويتوب

يقول الملحد: لماذا لا يجيب الله دعائي؟

الرد:

يظن بعض الكفار أنهم قد بلغوا منزلة من العلم تؤهلهم للاقتراح علىٰ الله، ويظن الملحد أنه بلغ منزلة من العقل تؤهله لطلب أنواع من البينات والأدلة التي تكون مقبولة عنده، ولو أجاب الله لاقتراح المقترحين لازدادوا عنتًا ولأصبحت سمة كل كافر ومعاند وملحد، فهذا يقترح أن يقتل الله خصومه وهذا يقتل أن يحيي الله ميت أمامه، وذاك يقترح أن يحيا ألف عام وآخر يقترح أن يمتلك قوة ألف رجل ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾[1].

فلو اتبع الحق أهوائهم لفسدت السنن، لكن من فضل الله سبحانه أنه لا يقبل تعنت الجاهلين، فقد أقام الله تعالىٰ ما يكفي من الدلائل والبينات والبراهين فانتفع بها من انتفع وعاند واستكبر مَن عاند ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾[2].

فلا حُجة للكافر عند ربه بعد أن آمن الناس بالبينات وشهدوا للبراهين ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[3].

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: (٧١).

(٢) سورة المؤمنون، الآية: (٧١).

(٣) سورة الشورىٰ، الآية: (١٦).

أيضًا لا يقبل الله دعاء المتعنت؛ لأن فيه كبر وتعنت، بينما يجيب سبحانه دعوة المضطر لأن فيها إيمان وتذلل وخضوع وحاجة، ولا يكاد يوجد إنسان علىٰ ظهر البسيطة كافر أو مؤمن إلا وجرَّب دعاء المضطرين ووجد جوابه حقًّا وواقعًا ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾[1].

والبشر حين يصيبهم البلاء العظيم، ينكسر غرورهم وتبطل حججهم وينسون تعنتهم، وساعتها يعلو صوت الفطرة ويُخبتون لله ويدعونه دعاء المضطرين، لكن ما أن يأمنوا ويصلوا لبر السلامة يعودون لجحودهم ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾[2].

فالواقع أنه لا يوجد ملحدون في الخنادق كما يقول أيزنهاور –رئيس الولايات المتحدة الأمريكية السابق– There are no atheists in foxholes، فالإلحاد يختفي في أوقات الكرب والشدة والكل ينكسر لله[3].

وكما أخبر الدكتور المسيري رحمه الله في كتابه رحلتي الفكرية أنه اكتشف أن التروتسكيين –رفاقه القدامىٰ– في إحدىٰ المعارك وبعد أن أُحيط بهم، إذا بكل واحد منهم يتلو أدعية دينية ويطلب العون من الله ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[1].

---

(١) سورة النمل، الآية: (٦٢).

(٢) سورة لقمان، الآية: (٣٢).

(3) http://en.wikipedia.org/wiki/There_are_no_atheists_in_foxholes.

(١) سورة العنكبوت، الآية: (٦٥).

إن القضية الإلحادية هي قضية استكبار وليست طلب أدلة.

قضية تعنت وجحود وليست تحري للحق.

هل الإلحاد دين كهنوتي؟

يدعي الملحد أن إلحاده فكري وليس ديني كما يزعم المتدينون.

الرد:

الإلحاد الجديد هو إلحاد ديني كهنوتي بامتياز.

فقد أصبح الإلحاد دينًا له كهنته المتعالين علىٰ النقد، وشمامسته الذين يروجون له ويبشرون به، وجدول دعاة الإلحاد الجديد مليء بالزيارات الدعوية التكريزية في كل مكان.

ويقرر الملحد التطوري ديفيد سلون David Sloan هذه الحقيقة فيقول: "الإلحاد الجديد يمتلك كل سمات الدين المتخفي، بما في ذلك حالة الاستقطاب التي تُشخص نظامه الاعتقادي، بالإضافة إلىٰ سلطة قادته المتعالية علىٰ النقد"[(١)].

ومن أوضح التطبيقات علىٰ ذلك ممارسات الملحدين العرب التكريزية - التبشيرية -، من كتب إلحادية غربية تتم ترجمتها للعربية بانتظام، إلىٰ قنوات علىٰ اليوتيوب، إلىٰ لقاءات تليفزيونية لا يألون جهدًا في حضورها مُضحين بسلامتهم الشخصية في مقابل الترويج لإلحادهم الكهنوتي، إلىٰ حلقات وفقرات ووثائقيات وأفلام لا تنتهي علىٰ اليوتيوب يترجمونها أو يقومون هم

---

(1)Sloan, D. (2012) Atheism as a Stealth Religion; Hoff-post, Posted 12/14/07.

بتصويرها، إلىٰ تسجيل لقاءات مع ملحدين جدد، إلىٰ صفحات لا تُحصىٰ علىٰ الشبكة العنكبوتية تضيع فيها الأعمار وتُنفق من أجلها نفائس الأموال، ولهم في الملحد ريتشارد داوكينز عرّاب الإلحاد القدوة والمثل.

وانظر إلىٰ أسلوب الملحد ريتشارد داوكينز في مقدمة كتابه الأخير ص٤ حين يقول: "ما أن يتصفح المؤمنون كتابي حتىٰ يلحدوا قبل أن يضعوه جانبًا"(١).

أليس هذا أسلوب الوعاظ؟!

لقد أصبح الإلحاد الجديد يحمل رسالة تتجاوز الاشتغال بالعلم فقطن إلىٰ الاشتغال ببلورة رؤية ميتافيزيقية دعوية كهنوتية.

يقول الفيلسوف الملحد مايكل روس Michael Ruse: "لقد جعلني كتاب وهم الإله لريتشارد داوكينز أشعر بتوتر وارتباك أثناء قرائته لكوني ملحد. إن داوكينز يتحدث كواعظ أصولي يحمل طريق الخلاص ويتوعد بالطرد من الرحمة، بمنتهىٰ الوضوح: إذا كان الإله غير موجود فلماذا كل هذا التطرف ضده؟"(٢).

بل ويصف الفيلسوف الملحد توماس ناجل Thomas Nagel إلحاد داوكينز بالإلحاد المقزز والمقرف.

ويقرر عالم الوراثة التطوري آلين أور H. Allen Orr رأيه الجديد في داوكينز فيقول: " بالرغم من اعجابي السابق بنشاط داوكينز إلا أنه قد آن الأوان

---

(١) مُقتبس من كتاب: خرافة الإلحاد، د. عمرو شريف، مكتبة الشروق الدولية.

(٢) مُقتبس من كتاب: خرافة الإلحاد، د. عمرو شريف، مكتبة الشروق الدولية.

لنفترق. إن كتاب وهم الإله سيئ للغاية، لقد تبين أن داوكينز ملحد هاوٍ لا أكثر"[١].

وليس أبدع من وصف سكوت هان Scott Hahn حين قال عن كتاب ريتشارد داوكينز: " الكتاب هو هذيان شخص ملأه الغرور بعد أن شرب أقداح الخمر، فوقف يشتم كل من يعارضه الرأي، إنك أمام شخص يائس من كثرة المعارضين لا أكثر فيبعثر الكلمات"[٢].

إن ممارسات الإلحاد الجديد أصابت الملاحدة أنفسهم بالغثيان والتقزز الشديد.

ودعاة الإلحاد الجديد أمثال داوكنز يتحدثون في كل شيء وينتقدون كل شيء، يقول الناقد البريطاني الكبير تيري إيغلتون Terry Eagleton:"ريتشارد داوكينز أحد علماء اللاهوت الإلحادي يسهب في الحديث عن علم البيولوجيا ومبلغه فيه لا يتجاوز ما ورد في ((كتاب الطيور البريطانية))"[٣][١].

لقد صار لكهنة الإلحاد الجديد الحق في الحديث عن كل شيء والإفتاء في كل شيء وإعطاء قيمة معيارية لكل شيء.

---

(١) مُقتبس من كتاب: خرافة الإلحاد، د. عمرو شريف، مكتبة الشروق الدولية.

(٢) مُقتبس من كتاب: خرافة الإلحاد، د. عمرو شريف، مكتبة الشروق الدولية.

(3)Terry Eagleton, Lunging, Flailing, and Mispunching, Vol.28, No.20.

(١) مُقتبس من كتاب: ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان، د. عبد الله بن سعيد الشهري، مركز نماء للبحوث والدراسات.

مثلاً: يجيز داوكينز الإجهاض؛ لأن الجنين كتلة خلايا لا أكثر، المهم أن نعرف أنه لا يعاني بمجرد إجهاضه(١).

ويرىٰ الملحد التطوري بيتر سينجر Peter Singer أنه يجب معاملة الكائنات ذات الأمخاخ المتطورة نفس معاملة الإنسان، ولذلك خنزير بالغ أفضل من طفل مولود حديثًا، وقتل الحيوانات المريضة لا مشكلة فيه وبنفس المقياس قتل النازي للضعفاء والمرضىٰ لم يكن جريمة(٢).

ويجيز داوكينز أكل لحوم البشر بشرط أن يكونوا من الأعداء لا الأصدقاء(٣).

ويقول كريستوفر مانيز Christopher Manes: " لا يوجد مستند لرؤية البشر ككائن أرقي من غيره"(٤).

فالإلحاد أصبح دين متكامل يقدم أجوبة كليشية جاهزة لكل الأسئلة، فنحن أمام إفراز إلحادي متوقع طمعًا في الوصول بالانحلال إلىٰ محطته الأخيرة.

(٥٥) يدعي الملحد أن الإلحاد هو الفطرة.

الرد:

في واقع الأمر جميع الملحدين الذين نحاورهم يُقرون أنهم عانوا قبل أن يدخلوا في الإلحاد، ولم يكن القرار سهلًا، وحاولوا ضبط الإشكالات

---

(1)The god delusion, p.297, 298.

(2) Practical Ethics, p.261-373.

(3) Selfish Gene, p. 83.

(4) Christopher Manes , the green rage.

والشبهات لكنهم فشلوا وانتهوا إلىٰ الإلحاد.

وهذا إقرار من محل الشاهد بأن الإلحاد ليس حالة تلقائية للنفس، وليس حالة مريحة يصل إليها الإنسان دون تجشم معاناة ومجاهدة نفسية، بل الإلحاد حالة عقلية مُركبة، وليس حالة تلقائية للنفس أو العقل.

يقول الدكتور عبد الله الشهري- حفظه الله-:" الإيمان هو ردة فعل تلقائية تجاه الكون والحياة، أما الإلحاد فهو ردة فعل غير تلقائية تجاه التدين، فضلاً عن أن يكون ردة فعل غير تلقائية تجاه الكون والحياة، فضلاً عن أن يكون ردة فعل تلقائية تجاه الكون والحياة، لكن محاولات الإلحاد الجديد تجعله يبدو تلقائيًّا مع أن أبسط التحليلات للقضية الإلحادية تبين مدىٰ المعاناة والمعالجة والتجشم التي يعانيها الملحد حتىٰ يستطيع أن يهضم الإلحاد"[(١)].

(٥٦) يدعي الملحد أن الصدفة والزمن يفسران كل شيء.

الرد:

يعتمد الإلحاد الحديث علىٰ ألوهية الصدفة، وألوهية المدة الزمنية ويجعلون من ذلك وثنًا يُعبد، وهنا مغالطة منطقية شهيرة، فهناك فرق جوهري بين الممكن العقلي والمستحيل العقلي، فأي رقم مضروب بصفر ناتجه صفر، لكن الملحد يتوقع أن الزمن كفيل بإعطاء رقم إيجابي مع تكرار العملية الحسابية، - وهذا هو التوثن الإلحادي الذي نتحدث عنه-، فاحتمال ظهور الشيء يعتمد علىٰ العناصر المستخدمة في التجربة قبل التجربة، فما معنىٰ وجود

---

(١) (ثلاث رسائل، م. س).

تجربة دون وجود عناصر لتجربة أصلًا ؟ وأي تجربة عناصرها العدم ناتجها هو العدم أيضًا.

فالكافر مؤمن بإله مفاجئ عشوائي هو الصدفة، هذا الإله يقع في إطار المستحيل العقلي، ونحن نؤمن بإله حكيم خبير، وعقليًّا الإيمان به هو الاختيار الذكي والمسئول.!

(٥٧) يدعي الملحد أن عدم وجود دليل علمي علىٰ جبريل مثلاً ينفي وجوده .

الرد:

العلم هو منهج يتعامل مع ما يوجد ويتكرر في الطبيعة بشكل طبيعي وتحكمه قوانينها، فالعلم هو تحليل الظاهرة بغية تفسيرها، وهو يختص بجمع المعلومات وطرح الفرضيات وإجراء التجارب وتحليل الشواهد وتعديل الفرضيات ووضع النظريات ثم تحكيم الأقران.

هذا النوع من العلم يُسمىٰ علم تجريبي إمبريقي رصدي ميثودولوجي!

الملحد يظن أن هذا هو العلم وأي شيء آخر ليس بعلم، وهو بذلك دون أن يدري أخرج جميع العلوم الإنسانية التي هي الأخلاق والفلسفة والاجتماع والقانون والآداب وغيرها خارج دائرة العلم، وصار الحديث عن القيمة أو الأخلاق أو المعرفة، أو المعنىٰ أشياء لا معنىٰ لها، أو هي لغو فارغ، طالما أن العلم لم يثبتها!

فالذي يفترض أن العلوم الطبيعية بطرائقها البحثية هي فقط العلم فهو أسخف الناس.

بل إن كل علوم التاريخ وعلوم التاريخ الطبيعي- البيولوجيا-، ونشأة الكون والحياة والانسان وعلوم البدايات كلها لا تخضع لمقاييس العلم التجريبي الإمبريقي وإنما لمناهج استدلالية مستقلة inference to the best explanation، فهل الملحد ينكر وجود بداية للكون وينكر وجود التاريخ لمجرد أن هذه القضايا لا تخضع للرصد الإمبريقي؟

نُكرر مرةً أُخرىٰ: هل كل الأحداث الغير قابلة للتكرار - بداية الحياة وبداية الكون وكل أحداث التاريخ -، غير موجودة لمجرد أنها لا تخضع للرصد الإمبريقي؟

العلم التجريبي هو حيز ضيق من المعرفة الإنسانية وليس كل المعرفة الإنسانية**!**

مشكلة الملحد أنه أشبه ما يكون بعالِم صمم جهازًا قادرًا علىٰ رصد موجات الضوء المرئي فقط، ثم يدعي أنه ليس في الكون موجات غير مرئية (كالأشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية) لاشك أننا جميعًا نستقبح أن يفعل عاقل ذلك، لكن هذا ما يحدث تمامًا في الحقيقة، لقد وضع الملاحدة منهجًا لا يرصد إلا الطبيعة، ثم افترضوا أن العلم ينفي ما سوىٰ الطبيعة، مع أن العلم ذاته لم يقر لهم بذلك.

نعود الآن لسيدنا جبريل عليه السلام؛ الإيمان بسيدنا جبريل عليه السلام هو قضية غيبية خارج حدود الزمان الومكان ولا تخضع لقوانين أو قواعد الزمان والمكان، والإيمان به يعود إلىٰ التسليم بصدق الرسالة المحمدية بشواهدها القطعية!.

قال شيخ الإسلام: «فمَن قامت البراهين والآيات علىٰ صدقه فيما يبلغه عن الله كان صادقـًا في كل ما يخبر به عن الله»[(١)].

فنحن نؤمن بالمُغيبات تبعـًا لإيماننا بالرسالة المحمدية وليس إيمانـًا مُستقلًّا !

(٥٨) يدعي الملحد أن تجاوز الإنسان لأقطار الأرض دليل علىٰ أن الدين لم يستوعب لحظة نشأته هذا التقدم المتوقع.

الرد:

إمكانية تجاوز الإنس لأقطار السماوات والأرض رصدها القرآن في الوقت الذي كانت فيه فكرة الطيران لمسافة خمسة أمتار تعد أسطورة لا تُصدق ولا تُتخيل ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾[(٢)].

أيها البشر لن تنفذوا إلا بسلطان، لكن عليكم أن تُدركوا أن لنفاذكم حدود معينة وستفشل جهودكم عند مرحلة معينة، عندما يُرسل الله سبحانه عليكم شواظ من نار ونُحاس، فتُهزمون وتُردون علىٰ أعقابكم ﴿ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾[(٣)].

فقد أخبر القرآن أن الإنس سيُتاح لهم سلطان النفاذ من أقطار السماوات والأرض، وسينجحون في بادئ الأمر إلىٰ مرحلة معينة، لكن لا يجوز لهم

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ٢/ ٣٤.

(٢) سورة الرحمن، الآية (٣٣).

(٣) سورة الرحمن، الآية (٣٥).

تجاوزها، فبعدها سيُرسل عليهم شواظ من نار ونُحاس، ونحن هذه الأيام نرصد قدرة الإنس علىٰ النفاذ وعلىٰ وضع أجهزة عملاقة لرصد أية أصوات أو موجات تأتي من الخارج، ويقول بعض الباحثين: أنهم لن يتمكنوا من معرفة ورصد ما بالخارج إلا بتجاوز المجموعة الشمسية، وربما يكون هذا هو الحد الذي لا يجوز للإنسان تجاوزه، فيُرجم كما رُجم الجن من قبله، والله أعلم(١).

(٥٩) يدعي الملحد أن الإيمان الديني هو أدلة متراكمة، فهل هذا يوصل لليقين؟

الرد:

تقديم الأدلة المتراكمة والشواهد يضيف إلىٰ رصيد الحجة بما يوصلها إلىٰ البرهان القطعي evidence based، وأنت حين تدخل علىٰ عملية جراحية كبرىٰ تعرض فيها حياتك للخطر فأنت فقط تستخدم دليل اطراد نجاحات سابقة، بل حتىٰ مخاطرة ركوب طائرة يستخدم فيها العقل نفس القدر من الحجية وهو اطراد نجاحات سابقة لرحلات طيران ذهبت وعادت بسلام، هذا دليل واحد يكتفي به العقل ليتقدم إلىٰ مخاطرة كبرىٰ مثل إجراء عملية جراحية أو ركوب طائرة، فعندما يأتي نفس العقل ويزعم أن أدلة كبرىٰ متزاحمة ومحتشدة مثل النظام والإيجاد والعناية والضبط والسببية والغائية، والفطرة والرسالات لا تكفي كدليل علىٰ وجود منظم وضابط وخالق ومسبب، فهذا من أكذب العقول وأفجرها وإن ادعىٰ خلاف ذلك.

---

(١) كتاب التوحيد، د. عبد المجيد الزنداني، دار السلام الجزء الثالث ص٦٧.

فهنا تزاحم الأدلة انتقل بها من الدلالة إلىٰ البرهان، ومن الظن إلىٰ اليقين وهو الشيء الذي لا يستطيع العقل أن يدفعه، وقوام الحجة الدينية كلها في هذا الباب، فالدين يقوم علىٰ التفكير والتدبر لا الدليل الاضطراري -الدليل القاطع الذي لا يلزم منه إعمال عقل مثل وجود الشمس- الذي يُفقد التكليف الإلهي معناه.

والإلحاد بإنكاره السببية وإنكاره بديهة البعرة تدل علىٰ البعير، اضطر لافتراض أن البعرة تُنتج البعير لا محالة، فأيهما أقرب للعقل والمنطق يا دعاة العقل! التسليم لبرهان السببية العقلي وإثبات خالق للوجود، أم افتراض أن البعرة أنتجت البعير والإنسان وكل شيء؟[1].

(٦٠) يقول الملحد: كيف لي أن أقتنع بوجود التصميم في هذا العالم؟

الرد:

العلم ينطلق من منطقية العالم وانضباط الوجود.

فالتصميم شيء جوهري في هذا العالم ولولاه لما استوعبنا العلم ولا فهمنا شيء عن هذا العالم.

فمبدأ انتظام الطبيعة مبني علىٰ الإيمان المسبق بالتصميم.

أيضًا يتسم الوجود بالثبات والقانونية، وهو ما يمَكِّنا من التنبؤ والرصد.

أيضًا الوجود يلتزم بقوانين قابلة للفهم والاستيعاب، فبنية العالم قابلة للتوصيف بالمعادلات efficacy وقابلة للاستيعاب في آنٍ واحد accessibility فقد أراد الخالق أن نستوعب الوجود، وأن نُسخره.

---

(١) من وحي كتاب خرافة الإلحاد، د.عمرو شريف.

بل نزعم أن القول بالتوحيد-توحيد الخالق- أصل تاريخي لإدراك أن الكون منظم علىٰ بنية واحدة ومن خامة واحدة، وغاية العلم الحديث الوصول إلىٰ النظرية الواحدة التي تفسر كل شيء TOE فالعلم الحديث كله يقوم علىٰ أساس التوحيد، بل نجزم أن الإله الذي يستقر في عقول العلماء ليس أحد تلك الصور الوثنية وإنما هو الخالق المتجاوز الواحد البائن من خلقه.

بل إن الحضارات لم تقم إلا علىٰ انضباط سنن الوجود، بل لم يتبنَّ البشر عبر كل الحضارات العلم إلا بتسليم مسبق أن الطبيعة تتبع قوانين.

فاستيعاب التصميم يعطي شعورًا فياضًا بالمصمم الخالق وهو شعور مبني علىٰ إدراك عقلي مباشر وليس قياس عقلي، ولذا عندما سألت التلميذة Phyllis Wright أينشتاين في عام ١٩٣٦هل العلماء يصلون؟ أجاب أينشتاين: يشعرنا العلم بشعور ديني خاص، ولا أتصور عالمًا حقيقيًّا لا يؤمن بذلك.

(٦١) يقول الملحد: العلم سيعرف الغاية من كل شيء يومًا ما.

الرد:

العلم لن يعرف الغاية، فقط يعرف الكيفية بظاهريتها، أما الغاية والكيفية بحقيقتها فلا علاقة لها بالعلم، أيضًا العلم لن يستطيع أن يحلل جمال اللوحة، لكن يمكن أن يحلل مقادير الألوان وأثمانها ونوعية القماش وتلاصق الألوان واحتمالات ذهاب اللون، أما القيمة والغاية من صنع اللوحة فلا علاقة له بالعلم، أيضًا الحس الجمالي الذي يقع في النفس من مشاهدة اللوحة هو أمر لا يفهمه العلم.

بل إن أكثر الأسئلة أهمية وإثارة تقع خارج دائرة العلم، وخارج قدراته.

يقول سير بيتر مداور Sir Peter Medawer في كتابه نصيحة للعالِم الصغير adivce to a young scientist: "لا شيء يُفقد الثقة في العالِم أكثر من ادعاؤه أن العلم يمكن أن يجيب عن كل الأسئلة يومًا ما". (خرافة الإلحاد، م.س.)

بل إن أبسط التساؤلات علىٰ الإطلاق مثل لماذا نحن هنا؟ ما الغاية من وجودنا هنا؟

هذه التساؤلات لا توجد لها إجابة ولو بدائية داخل مضامين العلم.

بل إن العقل ذاته –وليس العلم فقط– يعجز عن التوصل للغاية مستقلًّا، لكنه حتمًا يستطيع أن يحكم علىٰ مصداقيتها، فإذا جاء الخبر –الدين– بوجود خالق، وأن لخلقنا غاية ولوجودنا معنىٰ، فإن الخبر – الدين– في هذا الإطار لا يُعطل العلم ولا يضاد العقل بل هو يُكمل الصورة ويضبط الفهم ويحدد الاتجاه، ويطرح الإجابة علىٰ الأسئلة الأكثر أهمية في الوجود البشري.

أيضًا علمتنا اللاحتمية أو اللايقين عند هايزنبرج أن الراصد له دور في نتائج التجربة، وهو ما يعني عدم الثبات وغياب المطلق، ويعني أيضًا استحالة الإحالة إلىٰ العلم وحده في تحرير كل جواب، فالقصور من صميم طبيعة العلم ذاته كما فصلنّا في الباب الأول.

(٦٢) يدعي الملحد أن الإنسان كان من الممكن أن يصير أضخم من ذلك في القوة مثلاً، فلماذا تقولون: إنه خُلق في أحسن تقويم؟

أيضًا لماذا لا يتمتع الإنسان بقدرات فائقة؟

ولماذا يتعرض للأمراض والبلايا؟

ألم يُخلق في أحسن تقويم؟

الرد:

يقول الأُستاذ كريم فرحات في كتابه "لست ملحدًا لماذا؟" ردًّا علىٰ هذا السؤال: «**الإنسان خُلق في أحسن تقويم في إطار كونه بشرًا**، ولا يدعي مؤمن عاقل أن الإنسان مخلوق كامل؛ لأنه لو أصبح كذلك لتحول إلىٰ إله.

فلم يُخلق الإنسان ليصير إله لا يمرض أبدًا، وإنما خُلق ليصير بشرًا».

يقول الله عز وجل في كتابه العزيز: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾[1].

ثم السؤال هنا: هل أنشأ العلم منظومة واحدة وظيفية تقارب أية منظومة وظيفية في الإنسان، حتىٰ يتألىٰ الملحد علىٰ خلق الله؟

عندنا العقل والعلم والإرادة والحكمة والمصانع الجبارة والجامعات العملاقة والتخطيط والإرادة والإدارة! وما زلنا نعجز عن مضاهاة أبسط صور الوعي في أي كائن علىٰ الإطلاق، ونعجز عن مضاهاة أبسط المنظومات الوظيفية في أي كائن حي.

فأدق الكائنات الحية علىٰ الإطلاق يقودها الغرض والهدف والغاية، وتتمتع بالوعي و تحليل المعلومات ثم إعطاء رد فعل بِناءًا علىٰ تلك المعلومات، مثلاً الأميبا وحيدة الخلية لو جاء بجوارها غِذاء متحرك فإنها تلف أذرعها حوله بحذر حتىٰ لا يهرب، في حين لو كان الغذاء ثابتًا لا يتحرك – حُبيبة نشا – فإنها تلتصق به دون احتراس.

والأميبا كائن وحيد الخلية بلا مخ ولا عين ولا أعصاب ولا حواس.

---

(١) سورة لقمان: الآية (١١).

لا يمكن أن يبلغ الكمبيوتر مهما اشتد تعقيده أبسط درجات الوعي في كائن وحيد الخلية كالأميبا، ومع ذلك عملية تصنيع الكمبيوتر عملية واعية وذكية للغاية وفي حدود زمان ومكان، أما الخلية الأولية كالأميبا التي تفوق في كل عضية من عضياتها أعلىٰ الكمبيوترات تعقيدًا بل ربما لا مجال للمقارنة- لأن نسبة وعي أذكي الكمبيوترات علىٰ الإطلاق تساوي صفر I.Q.=ZERO -، هذه الخلية الأولية تقوم بتحليل المعلومة وإعطاء رد فعل ذكي وواعي، ومع ذلك المطلوب أن نُصدق أن العشوائية أنشأت الأميبا والإنسان، في حين أن الذكاء الإنساني لم يستطع أن يُنشئ أبسط صور الوعي، إنها أضيق حدود السذاجة إن استطعت ابتلاعها ابتلعت بعد ذلك أي شيء.

إنه السؤال المفصلي والجوهري، بين الدين المنطقي والإلحاد العبثي .

يقول داروين في كتابه "أصل الأنواع" عن مسألة وظيفية تخصصية واعية مثل العين، يقول: " أنا أعترف أن افتراض أن العين نشأت عن طريق انتخاب طبيعي هو افتراض علىٰ أعلىٰ درجة من العبثية"[1].

وكل أطروحات التطوريين فيما بعد داروين بخصوص هذه القضية – قضية إعجاز العين-، وكل فرضياتهم التدرجية تنتهي بهم أيضًا إلىٰ استحالة عقلية ومنطقية لنشوء جهاز أولي حساس للضوء يُخصص خلايا تستشعر الضوء، وتحوله إلىٰ نبضه كهربية يفسرها المخ، وكأنه مرآه لما يوجد أمامه مع أن المخ

---

(1) To suppose that the eye could have been formed by natural selection seems, I freely confess, absurd in the highest possible degree.

مظلم -يوجد داخل صندوق عظمي-، ولا يعرف ما يوجد أمامه أصلاً ولا تصله إلا نبضات كهربية .

فالقضية ليست بالسذاجة التي تحللها الرؤية التطورية؛ لأن القضية منقوصة من البدء، وتحتاج إلىٰ شيء خارج المخ يتطلع لما يُرىٰ ثم يُحول النبضة إلىٰ تلك الرؤية وليس العكس.

(٦٣) يدعي الملحد أن الغاية من الوجود ظهرت بعد وجوده.

الرد:

هل الغاية تسبق الوجود- الفكر الديني-، أم الوجود يسبق الغاية-الفكر الإلحادي-؟

الذي يُسلم مثلاً بأن الغاية من الأعضاء في الكائنات الحية توجد بعد ظهورها- الرؤية الداروينية-، وليس بسبب خطة مسبقة من حكيم خبير- الرؤية الدينية-، هو يسلم بمغالطة العربة قبل الحصان.

إن وجود الأوكسجين وتوفره لا ينتفع به جسم الإنسان إذا لم يوجد لديه جهاز يستقبله، فخلق الله جهازاً دقيقاً في جسم الإنسان وهو في بطن أمه، وهو الجهاز التنفسي الذي يعمل منذ أيام الولادة الأولىٰ حتىٰ الوفاة باستمرار دون كلل أو ملل أو توقف، ويعمل في كل مكان وفي حالة النوم واليقظة. فمن رحمة الله أن يسّر لنا أخذ الهواء بطريقة سهلة لا تعيينا، ولا تؤلمنا، ولا تكلفنا جهداً أو مشقة، فالذي خلق لك هذا الجهاز وأنت جنين في بطن أمك وهيأه لاستقبال الهواء الصالح (الأوكسجين) الذي لا وجود له وأنت في بطن أمك، وهيأه لطرد الهواء الفاسد (ثاني أكسيد الكربون) الذي لا يوجد أيضًا في بطن أمك، لا شك أنه عليم بأنك ستخرج من بطن أمك إلىٰ عالم فيه ذلك الهواء، وله غاية من

خلقه قبل خلقه وإلا لم يخلقه، وأنه خبير بأنه يتحول إلىٰ هواء فاسد (ثاني أكسيد الكربون) فأعد لك ما تحتاج إليه علىٰ الأرض وأنت لا تزال جنيناً في بطن أمك .

ومن هذا المثال البسيط يتضح أن الغاية من وجود أي شيء تظهر قبل وجوده بداهةً، وهذا يبين مدىٰ الفرق بين الرؤية اللامنطقية اللاعقلية الإلحادية، والرؤية المنطقية العقلانية المنضبطة الدينية.

(٦٤) يدعي الملحد أن التعقيد الغير قابل للإختزال Irreducible Complexity والذي قدمه مايكل بيهي، يمكن الرد عليه بأن بعض الأنظمة ربما تكون لها وظيفة ما في حال تم اختزالها!

الرد:

أولـًا: الأصل أن حذف أي جزء من الأنظمة يؤدي إلىٰ وقف وظيفة النظام الأساسية.

ثانيـًا: المعضلة التي يجب أن يجيب عنها الملحد، ليست إمكانية وجود نفس الوظيفة بشكل أقل كفاءة في حالة حذف جزء منه أو لا، ولكن يجب أن يقدم تفسيرات علمية مقبولة بالنسبة لكيفية التقاء وتجميع أعضاء معينة في نظام مُعقد ليصل إلىٰ وظيفته الحالية بعد تحسينها عن شكلها الأول.

ثالثًا: لماذا كل كائن مزود بأفضل الإمكانات بالنسبة لطبيعته والمطلوب منه، هذا هو السؤال الجوهري في الأمر؟

لماذا مثلاً: تصبح الطيور أفضل ما يطير وتمتلك أفضل ديناميكية طيران في العالم، وتحاول شركات الطيران العملاقة أن تقلدها لتقليل الطاقة والإحتكاك؟

بل لقد توصل العلماء إلىٰ ضرورة محاكاة الطبيعة فلابد من آله تُشبه حشرة في الصحراء وتشبه سمكة في المحيطات وهكذا؛ فأفضل نظام حركة علىٰ الأرض مثلاً تملكه مفاصل الأرجل وليس العجلات، وأفضل نظام حركة في البحر تملكه انسيابية الأسماك .

لماذا مثلاً: تحتفظ خلية النحل بالشكل السداسي وهو أكثر الأشكال الهندسية علىٰ الإطلاق قيامًا بالدور الذي تحتاج إليه حيث يتيح أكبر مساحة تخزين بأقل كمية شمع ممكنة، وزاوية ميل خلية النحل مع الخط الموازي للأرض تساوي ١٣ درجة وهي زاوية رائعة، حتىٰ لا ينزلق العسل فيما بعد علىٰ الارض.

لماذا أسنان القنادس الأمامية تطول باستمرار فتُعوض ما يتكسر منها حين تقوم بقرض الأشجار وبناء سدودها العملاقة؟

هذه هي الأسئلة التي يجب أن تتم إجابتها وفي كل كائن علىٰ حدة، وفي كل مهمة وظيفية علىٰ حدة، وكيف يحسب الكائن ما هو أنسب له حتي يختار الأكفأ والأروع والأتقن.

إنه وبمنتهىٰ البساطة صنع الله ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[1].

(٦٥) يقول الملحد: استيعاب وجود الخالق صعب، ولا أتصوره عن نفسي.

الرد:

إن الخالق سبحانه ليس شيئًا ممتنعًا لذاته، ولا يحكم العقل بضرورة انتفاء وجوده، لأنه لو كان كذلك لانتفت الحاجة لتجشم إثبات امتناع وجوده، لكن

---

(١) سورة النمل: الآية (٨٨).

الحكم فرع عن التصور فيستحيل أن يخوض الملحد في قضية ممتنعة لذاتها إلا لو كان خوضه سفه وطيش، فإنكار الملحد للخالق عائد علىٰ تصور معين لا إلىٰ عدم وجود الخالق، والممكن لا يمكن الحكم عليه بنفي أو إثبات إلا بدليل، والمثبتون يحشدون الأدلة ليل نهار، فلم يبق إلا التدليل علىٰ دعوىٰ النفي وهي دعوىٰ الملحد وهي الدعوىٰ التي لم يتقدم عليها بدليل واحد إلىٰ الآن، وإنما غاية اتجاه الملحد نقد التصور وليس نقد وجود ذات الخالق[1].

(٦٦) يدعي الملحد أن كل المعارف مُكتسبة، وبالتالي لا معنىٰ للفطرة.

الرد:

هناك سبق للأوضاع المعرفية علىٰ المتصوَرات الوجودية- أي سبق للمعرفة داخل العقل علىٰ الوجود المادي الخارجي-، فلابد من وجود مفاهيم أولية في تركيب العقل، وهذه المفاهيم يُسلطها الإنسان علىٰ العالم فيفهمه به كما يقرر كانط، فالمفاهيم الأولية لها حضور ضروري لا يتخلف.

وهذا ما قرره عالم اللغويات الكبير نعوم تشومسكي، فهو يرىٰ استحالة نشأة اللغة دون وجود معارف أولية -فطرية- لدىٰ الإنسان ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[1].

وهو عين ما أثبته روجر بنروز من أزلية الحقائق الرياضية بالنسبة للوعي البشري، وهو مما يعني سبق الأوضاع المعرفية.

---

(١) (ثلاث رسائل، م. س).

(١) سورة البقرة، الآية: (٣١).

والمفاهيم الأولية هي صمام أمان عملية الإدراك لدينا، ثم تأتي المعرفة المكتسبة نتيجة تفاعل المفاهيم الأولية مع العقل مع الوجود المادي وهنا المعرفة المكتسبة تحتاج علىٰ الدوام إلىٰ الاتساق باستمرار مع بعضها البعض، لكن تظل المفاهيم الأولية مصدر ثقتنا في تصوراتنا عن الأوضاع المعرفية المكتسبة وحُكمنا عليها.

فالوضع المعرفي سابق علىٰ المتصَور الوجودي عند إرادة الحُكم.

وأقل مطلب يمكن أن يؤمِنه الإيمان بوجود خالق هو مطلب الثقة في عقولنا، وطمأنتنا علىٰ الاقل بأن قيمة الحق صادرة عن حق هو أصل كل الحق؛ كل هذا نتوفر عليه من مجرد الإقرار بوجوده سبحانه فقط.

(٦٧) يدعي الملحد أن القضية الدينية قضية غير علمية ولا تخضع للمنهج العلمي.

الرد:

لا تكون النظرية علمية إلا لو كانت قابلة للنفي **falsifiable**، وهذا أصل النظرية العلمية كما يقرر كارل بوبر Karl Popper فيلسوف العلوم، وهذا ما قاله أينشتاين نفسه يومًا ما حين قال أنه: "لا يمكن لأي عدد من التجارب أن يثبت أنني علىٰ صواب، ولكن تجربة واحدة تستطيع أن تثبت أنني مخطيء"[(١)].

No amount of experimentation can ever prove me right, a single experiment can prove me wrong.

---

(١) (لست ملحدًا لماذا، م. س).

فمثلاً النسبية العامة لأينشتاين تم إثباتها علىٰ يد رذرفورد حيث تم رصد تحدب شعاع الضوء، لكن يوم أن نكتشف خطأ الرصد أو خطأ القياس ستصبح النسبية العامة خرافة، لأنها قابلة للنفي في أي لحظة، ولذا فالنسبية العامة نظرية علمية محترمة. وهذا هو أصل النظرية العلمية، ولذا يرىٰ كارل بوبر نفسه أن الإنتخاب الطبيعي ليس نظرية علمية لعدم قابليته للنفي، فما هي اللحظة التي نستطيع فيها أن نقول أن الإنتخاب الطبيعي خاطيء؟ هذا غير موجود في الإطار العلمي لأن الإنتخاب الطبيعي كما يقرر أنصاره لا يمكن إثباته إمبريقيـاً – تجريبيًا- أو رصده، ولا يوجد عليه دليل واحد مباشر حتىٰ الآن ولا نطمع أن نجد هذا الدليل يومًا ما، وإنما هو مُعطىٰ دوغمائي لا أكثر، لا نستطيع نفيه لأننا لا نملك أدوات رصده، وبذلك يكون الإنتخاب الطبيعي خارج إطار النظرية العلمية لعدم قابليته للنفي.

وفي هذا الإطار يمكننا القول أن الإيمان الديني نظرية علمية محترمة لقالبيته للنفي، فوجود خطأ في النص الديني مناقض لقانون كوني مثلاً فإن هذا يعني خطأ الإيمان الديني، وبالتالي فقابلية الإيمان الديني للنفي تجعله يدخل في إطار النظرية العلمية المحترمة ويُنعت أتباعها بالأكثر عقلانية.

(٦٨) يقول الملحد: ما رأيك بتعطيل الصفات الإلهية في الفكر الإعتزالي وشيء من الأشعري مخافة التجسيم.

الرد:

كارثة الأشاعرة والمعتزلة

كثيرًا ما يحدثني الأحبة بشأن رؤية الأشاعرة والمعتزلة للصفات الإلهية، ويظن بعضهم أن التعطيل لبعض الصفات الإلهية الذي يشوب الفكر الإعتزالي

وشيئًا من الفكر الأشعري هو من باب تنزيه الخالق، وكذبوا. وإلا فإن أرسطو هو أعظم المنزهين لله حين رفض أي صفة لله غير الخلق Prime Mover .

الأشاعرة يُثبتون لله تعالىٰ سبع صفات (السمع، والبصر، والحياة، والعلم، والكلام، والإرادة، والقدرة) ثم يتوقفون بعد ذلك، ولأمثال هؤلاء قال شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله: «القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر .. فإن ما نفيتموه من الصفات يلزمكم فيه نظير ما أثبتموه، فإما أن تعطلوا الجميع وهو ممتنع، وإما أن تشبهوا الصفات وهو ممتنع، وإما أن تُثبتوا الجميع علىٰ وجه يختص به لا يماثله فيه غيره وحينئذٍ لا فرق بين صفة وصفة»[١].

ونفس الكلام يُساق للمعتزلة: «فمن أثبت لله الأسماء الحسنىٰ وأحكامها لزمه ما يلزم مَن أثبت الصفات»[٢].

أما خشية التجسيم فمرفوعة، إذ أن الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها علىٰ المحل دون غيره.

لكن في واقع الأمر: الكارثة الحقيقية التي ارتكبها الأشاعرة وما زالوا يُؤصلون لها هي: نفي تأثير الأسباب بالكلية، وأن الله يفعل عندها لا بها، فأسقطوا فاعلية الأسباب، واعتبروا مثلاً أن السكين لا تقطع ولكن القطع يحدث عند حد السكين(مُلازمةً)، وكذلك الحرق يحدث عند النار وليس بالنار (ملازمةً)، وهذا يخالف منهج أهل السنة والجماعة من الإيمان بالأسباب.

يقول ابن القيم رحمه الله: «هذا المذهب مفسد للدين والدنيا»[١].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ، ٦/ ٤٥ بتصرف.

(٢) درء التعارض، ١٠/ ٢٣٥.

(١) مدارج السالكين، لابن القيم، ٣/ ٤٩٦.

وبالفعل كان هذا التصور مفسدة وكارثة علىٰ الحاضرة الإسلامية وأدىٰ إلىٰ توقف المد الفكري والعلمي والعملي لحاضرة الإسلام، إذ أن حاصل قولهم إبطال فاعلية الأسباب وبالتالي استحالة التحقق من تجربة أو ضبط معرفة أو ارتقاء في تحصيل علم مادي تجريبي، إذ لا يمكن الجزم بفاعلية الأسباب وبالتالي عقم كل علوم المادة.

لقد كان انتشار الفكر الأشعري في حاضرة الإسلام بمثابة كارثة أوقفت المد العلمي والمعرفي إلىٰ حين.

أما المعتزلة الذين حاربوا أهل السنة وسجنوا الأئمة، وكفَّروا المنكرين لأصولهم الخمسة، وتحالفوا مع أئمة الجور- المأمون والمعتصم- مع مخالفة ذلك لمذهبهم، فقد كانوا عبئًا حتىٰ علىٰ المسلمين الجدد فقد قالوا: أول واجب علىٰ المكلف هو الشك، بينما قال الأشاعرة أن أول واجب علىٰ المكلف هو النظر، بينما الذي يُسلِّم له أهل السنة أن: أول واجب علىٰ المكلف هو الشهادتين.

قال شيخ الاسلام في درء التعارض: «والنبي عليه الصلاة والسلام لم يدع أحدًا من الخلق إلىٰ النظر ابتداءًا بل أول ما دعاهم عليه الصلاة والسلام إليه الشهادتان وبذلك أمر أصحابه، والقرآن ليس فيه أن النظر أول الواجبات، ولا فيه إيجاب النظر علىٰ كل أحد، وإنما فيه الأمر بالنظر لبعض الناس - الذين لا يحصل لهم اليقين إلا من خلال النظر-».

إن فهم أهل السنة والجماعة - الفهم السلفي - هو الوسيلة الأنقىٰ والأسلم والأحكم والأعلم لضبط التنازع التأويلي لفهم الكتاب والسنة.

وبفضل الله الجميع –**سنة وأشاعرة ومعتزلة**– يعترفون بمرجعية اتفاق الصحابة، ولا يبقىٰ إلا التسليم بعقيدتهم في الأسماء والصفات بأن نُثبتها للخالق سبحانه من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1]، هذا هو الفهم السلفي السليم البعيد عن الأساليب الكلامية وهرطقات الفلاسفة.

أذكر ذات يوم قال لي أحد المعتزلة: ماذا تقول في قوله تعالىٰ: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[2].

قلت له: العرش العظيم خلقه الله تعالىٰ إظهارًا لعظيم قدرته ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾[1]، ولم يتخذه مكانًا لذاته، لأن المكان من صفات الخلق والله سبحانه تنزه عن المكان والزمان .

قال الإمام الطحاوي رضي الله عنه: «لا تحويه (أي الله) الجهاتُ الستّ كسائر المبتدعات»، وقال سيدنا عليّ رضي الله عنه: «إن الله خلق العرش إظهارًا لقدرتهِ ولم يتخذه مكانًا لذاته»[2].

بل ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ: «وإذا كان المسلمون يكفرون من يقول إن السموات تقله أو تظله لما فىٰ ذلك من احتياجه إلىٰ مخلوقاته، فمن قال إنه فىٰ استوائه علىٰ العرش محتاج إلىٰ العرش كاحتياج

---

(١) سورة الشورىٰ: الآية (١١).

(٢) سورة الرعد: الآية (٢).

(١) سورة الرعد: الآية (١٦).

(٢) رواه عنه الإمام أبو منصور البغدادي.

المحمول إلىٰ حامله فإنه كافر لأن الله غنيٌ عن العالمين حيٌ قيوم، هو الغنىٰ المطلق وما سواه فقير اليه»[١]. انتهىٰ

فقال المعتزلي: هل أنت أشعري؟

قلت له: أقول لك قال علي بن أبي طالب وتقول أشعري؟

فسكت الرجل.

الشاهد أنهم يُقرون أن الصحابة لم يكن فيهم أشعري ولا معتزلي.

(٦٩) يقول الملحد: حسنًا لقد وصلنا إلىٰ مرحلة متقدمة من الحوار وأنا شاكرٌ لك، فقد شفيت سقمي ورفعت غمي وأجبت عن كل ما يؤرقني، لكن إذا سلَّمت لك بصحة القضية الدينية، فلماذا تُلزمني بطقوس خاصة؟

الرد:

لأن قواعد المنظومة تنص علىٰ ذلك، وإذا اشتركت في المنظومة عليك أن تلتزم بقواعدها.

بل أنت إذا دخلت لعبة كرة قدم تلتزم بقوانين اللعبة ولا تجد في نفسك حرجًا.

والذي يرفض دفع المال بحجة أن الزكاة جباية فإنه يدفع أضعافه للدولة الشيوعية وهو مرتاح الضمير، فالقضية شخصية بحتة!

ثم إن الذي يرفض تهذيب غرائزه يكون كالطفل الذي يرفض ترك اللعب من أجل مذاكرة دروسه!

---

(١) مجموع الفتاوىٰ، ٢/ ٨٨.

(٧٠) يقول الملحد: طالما أن الدين بهذه القوة فلماذا حد الردة؟

الرد:

في البداية مَن هو المرتد؟

هو من يعلن كفره، فالمنافق لا يُقتل ردةً حتىٰ لو ظهر نفاقه، فما دام لا يعلن ردته فهو مسلم لنا. أما المرتد فهو من يعلن ردته ويدعو الناس للكفر.

هل يقتل الإسلام أحدًا لأنه كافر؟

لا؛ فالكافر الأصلىٰ مثل: الذمىٰ والمعاهد والمستأمن لا يجوز قتلهم، بل ومن قتَلهم قال النبىٰ -صلىٰ الله عليه وسلم- «**أنه لن يرح رائحة الجنة**».

هل حد الردة يعني ضعف الدين الإسلامي؟

أبدًا بل هو دين تحدىٰ العالمين بحجته، ويأمر أتباعه بذلك ومن أصوله الدعوة الدائمة والمقارعة بالحجة، ومعجزته العظمىٰ هي كتاب- القرآن الكريم-.

هل الإسلام يهتم بكثرة الأتباع ويجبر الناس علىٰ الدخول فيه؟

لا بل قال الله تعالىٰ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[1]، ويسمح لغير المسلمين بممارسة طقوسهم وتربية أبنائهم علىٰ دينهم، وها هم اليهود والنصارىٰ فىٰ ديار المسلمين حتىٰ يومنا هذا!

هل يقتل المرتد مباشرة؟

لا، بل يستتاب وتبين له الحجة ويناقش ويُعَّلم؛ فإن لم يقتنع فيسعه أن يكتم كفره.

(١) سورة البقرة، الآية (٢٥٦).

ولذلك أنا أقول دائمًا: فليعبد الإنسان "زلطة" لكن في بيته، في غرفته، أما أن يُفضل أن يُقتل علىٰ أن يترك دعوة الناس للكفر فهذا **فتّان**.

من الذي له الحق فىٰ قتل المرتد؟ ولي الأمر أو من ينوب عنه!

لماذا إذن قتل المرتد ما دام لم يُقتل بعلة الكفر، وما دام الإسلام لا يهتم بالعدد ولا يخاف من التشكيك؟

يُقتل من أجل حق غيره فىٰ النجاة؛ فكأىٰ نظام اجتماعىٰ يراعىٰ مصلحة المجتمع ويلفظ الخائن المفارق لجماعته -بلفظ الحديث-، فالمرتد مفارق لجماعته مناهض لها، والمرتد معتدٍ علىٰ البسطاء الذين يسول لهم الكفر، ويغرر بالأحداث صغار السن،، فمن المعلوم أن صغير السن يتعلق قلبه بالغريب والشاذ ويفتتن بمخالفة الجمهور، فهذه فتنة كبرىٰ، والتعدىٰ بالفتنة أشد من التعدىٰ بالقتل، فالمرتد خائن وحكمه في جميع دساتير العالم القتل.

ئودولة الإسلام قوامها الدين والخروج علىٰ الدين يعني خروج علىٰ الدولة، ولذا نصْ حديث النبي صلىٰ الله عليه وسلم" التارك لدينه المفارق لجماعته"، فترك الدين في دولة الاسلام يعامل معاملة الخيانة العظمىٰ، والتي حكمها الإعدام في جميع دساتير العالم كما قلنا[1].

(٧١) يقول الملحد: إلىٰ هنا طاشت الشبهات بحمد الله وهدأت النفس وسكنَ القلب، لكن الآن: لماذا أهتم بعبادة الله؟

الرد:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]، أي: لم أخلق

---

(١) الرد من مجموعة ورينا نفسك علىٰ الفيس بوك بتصرف.

(٢) سورة الذاريات: الآية (٥٦).

الثقلين إلا مُهيئين لعبادتي بما ركَّبت فيهم من العقول والحواس والقُوىٰ، فهم في حالة صالحة للعبادة، مُستعدة لها، فمن جرىٰ علىٰ موجب استعداده وفطرته آمن بي وعبدني وحدي، ومَن عاند واستكبر اتبع غير سبيل المؤمنين، كما يقول الشيخ محمد حسنين مخلوف شيخ الأزهر السابق -رحمه الله -في تفسير الآية.

أم أنك تُريد من الإله أن يكون عبد عندك يطعمك ويرزقك ولا يحاسبك؟

وجوهر إيمانك بالله هو العقل؛ ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[1].

والعقل هو مناط التكليف ويوجِب علىٰ صاحبه النظر والاستدلال والقيام بما كُلف به.

قال الله تعالي في كتابه العزيز ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[2]؛ **قال ابن عباس معناها إلا ليعرفون.**

ثم يا صاحبي! هل لوجودنا معنىٰ دون تحرير هذه الحقيقة؟

هل ينكر ملحد واحد فضلاً عن مؤمن أن أهم ما في الوجود هو معرفة الله؟

فمعرفة الله ومحاولة تبين طرائق خلقه وحكمته، هي غاية كل البشر، في كل كبيرة وصغيرة تحدث لنا، علىٰ المستوىٰ الفردي أو المستوىٰ الجمعي!

بل إن أكثر الناس حديثًا عن الله هم الذين يدَّعون إنكار وجوده- الملحدون-، حتىٰ قال قائلهم – زياد الرحباني-: "أمريكا مع السُنة وروسيا مع الشيعة، أما الملحدون فلهم الله"!.

---

(١) سورة الملك: الآية (١٠).

(٢) سورة الذاريات: الآية (٥٦).

وهل كل مسعىٰ البشرية الأزلي إلا لمعرفة الله وطرائق صنعه؟

بل إذا نزلت مُصيبة بأكثر الناس إلحاداً فإنه لا يتفكر في الأسباب المادية المباشرة، بل يتفكر مباشرةً في الخالق معترضـًا ومثبتـًا لصحة موقفه، والمؤمن موقنًا بالحكمة وشاكرًا وحامدًا!

صدقني يا صاحبي! ما خلق الله الإنس والجن إلا لتحرير هذه الحقيقة، فمن جرىٰ علىٰ موجب استعداده وفطرته آمن بالله وعبده، ومَن عـاند واستكبر اتبع غير سبيل المؤمنين وضل وخسر!.

بل إن أشهر ملحد عبر كل العصور - كما يصفه ول ديورانت في موسوعة قصة الحضارة – فولتير؛ قام ببناء كنيسة في أواخر عمره بالقرب من قصره، نقش علىٰ مدخلها "يا رب اذكر عبدك فولتير"، وادعىٰ أنها الكنيسة الوحيدة المخصصة لله وحده علىٰ هذه الأرض، أما الكنائس الأخرىٰ فهي مخصصة للقديسين.

إن فطرة الإتجاه لله وحده بالعبادة لا تُمهلك حتى للمعاندة!

ويجرر بي هنا أن أوضح لك أن ترك عبادة الله تؤدي إلى الضياع والعبثية واللامعنى وانهيار القيم، فظهرت حرائق حيوانات البشر حين تصورنا أنه لا غاية من وجودنا.

حديقة حيوان البشر!!

Human zoo

قد يبدو هذا العنوان صادمـًا، ويظنّه البعض نوعـًا من المجاز، لكنّه للأسف حقيقةٌ تاريخيّة ووصمة عار في جبين المذاهب الإلحاديّة، لا يمكن إنكارها أو تبريرها، مهما حاولوا أو روَّجوا لخلاف لذلك!.

وحتىٰ نفهم جذور هذه الفضيحة الأخلاقيّة، نحتاج للعودة إلىٰ الوراء، سنجد أن تشارلز داروين Charles Darwin قد أوضح في كتابه نشأة الإنسان أن: " الأعراق البشرية مجرد أنواع مختلفة من الكائنات الحية، لا يربط بينهم رابط، وبالعودة إلىٰ الوراء فإنه يبدو من المستحيل الإشارة إلىٰ أية نقطةٍ محددة يتحتّم عندها استخدام مصطلح الإنسان، ولكنه أمر ذو أهمية قليلة جدًّا"[١].

لقد كان داروين يرىٰ أن الأجناس البشرية المُختلفة التي تعيش بيننا الآن مجرد حيوانات مُختلفة لا تنتمي لجدٍّ بشري واحد، وقد أقام داروين الدليل علىٰ ذلك باستخدام حُجّة القمل، فاختلاف نوع القمل الذي يعيش بين السكان الأصليين لبعض القارات عن القمل الذي يوجد في أوربا، يؤكد اختلاف أنواع البشر وعدم انتمائهم لجدٍّ بشريٍّ واحد.

يقول داروين: "بالفحص الدقيق للقمل الذي تمّ جمعه من أقطار مختلفة من الأعراق المختلفة للإنسان، وُجد أن هذا القمل لا يختلف في اللون فحسب، ولكن في التركيب الخاص بالمخالب والأطراف، وفي كل مرّة يتمّ فيها الحصول

---

(١) نشأة الإنسان The descent of man .. تشارلس داروين .. ترجمة مجدي محمود المليجي .. المجلس الأعلىٰ للثقافة ٢٠٠٥ .. ص ٥٢.

علىٰ العيّنات فإن الاختلافات تكون ثابتة، وعندما شرد القمل الذي كان يعيش علىٰ سكّان إحدىٰ جزر البدائيين وانتقل إلىٰ أجساد البحّارة الإنجليز، مات خلال ثلاثة أو أربعة أيام، وكان هذا القمل داكنًا وأكبر في الحجم وأكثر ليونة من القمل الأوربي، وهذه الحقيقة الخاصة بأن الأعراق الإنسانية يتمّ ابتلاؤها بالطفيليّات التي يبدو أنها متباينة بشكل خاص، من الممكن تقديمها كبرهانٍ علىٰ أن الأعراق البشرية في حدّ ذاتها من الواجب تصنيفها علىٰ أساس أنها أنواع مختلفة ومتباينة من الكائنات الحية"[١].

هذه الرؤية العنصرية العجيبة تمّ استخدامها لاحقًا في تبرير إبادة الأقليات والأعراق البشرية الأدنىٰ، واعتبارهم مجرّد كائناتٍ حيّة مُختلفة تُسمىٰ مجازاً: البشر!.

ومن المعلوم أن بدايات القرن العشرين كانت ملحمة المعاناة للسود والأعراق الأفريقية والمغولية، لكن ما لا يعلمه كثيرٌ من القرّاء أن تلك الحقبة شهدت ظهور حدائق حيوان الإنسان، والمعارض الأثنية ethnological expositions، وفي صورة مُهينة للغاية، وعنصرية قبيحة وداروينيّة فجّة، فكان يوصف هؤلاء البشر بأنهم حلقات في سلسلة الإنسان القرد[٢].

وكانت الفترة الذهبيّة لحدائق حيوان البشر هي الفترة من ١٨٧٠ – وقت ظهور كتاب أصل الإنسان لداروين– إلىٰ نهاية الحرب العالمية الثانية، وظلت

---

(١) المصدر السابق ص٤٠٢.

(2) http://en.wikipedia.org/wiki/Human_zoo - cite_ref-١Mullan, Bob and Marvin Garry, Zoo culture: The book about watching people watch, Second edition,1998,P32

تُعرض في حدائق حيوان البشر مجموعةٌ واسعة من الحيوانات، وبينها توجد أقفاص تحتوي علىٰ بشر من مختلف الأجناس، وكان يوضع في الأقفاص بجانب السود: الأقزام والمصابين بالبهاق ومُحدبي الظهور-باعتبارهم أعراق أدنىٰ في شجرة التطور الداروينية-(١).

وقد وُجدت حدائق حيوان البشر في باريس وهامبورج وبرشلونة، وأنتيورب ولندن وميلانو ونيويورك، ولا تكاد تخلو مدينة أوربية أو أمريكية من حديقة حيوان يُعرض فيها البشر، وفي عام ١٨٧٤ قرر الألماني كارل هاغنبيك Carl Hagenbeck أن يُحضر مجموعة من النوبيين من مصر باعتبارهم أحد الحيوانات التي يتم البحث عنها لملء بقية الأقفاص (٢).

وأدرّت أقفاص النوبيين الدخل الوفير لكارل هاغنبيك Carl Hagenbeck حيث قام بعمل جولة بهم في باريس ولندن وبرلين .

ومن الشواهد الفاضحة للمظالم الإلحاديّة، ما جرىٰ في عام ١٨٧٧ حيث قرّر مدير حديقة جوفروا دو سانت هيلير Geoffroy de Saint-Hilaire، تنظيم حديقتي حيوان مستقلتين للنوبيين وأهل الإسكيمو ووصل عدد الزوار إلىٰ ما يقارب المليون مما أتاح مضاعفة الحديقتين إلىٰ ٣٠ حديقة بين عامي ١٨٧٧ إلىٰ عام ١٩١٢ (٣).

وبانتهاء عام ١٨٨٩ عرضت حديقة الحيوان العالمية في باريس وحدها ٤٠٠ شخص من السكان الأصليين، وأصبحت زيارات تلك الحدائق تحقق

---

(1) www.discoverparis.net/newsletter.html?insight=3162983825694464

(2) http://mondediplo.com/07/08/2000 humanzoo.

(3) ibid.

دخولاً رهيبة مما ساعد في انتشارها في أنحاء أوربا وصولاً إلىٰ أمريكا الشمالية وكولومبيا، ومن المدهش أن حديقة حيوان كولومبيا عام ١٨٩٣ كانت تضم مصريين رسمياً [١].

-ربما لا يصدق الملحدين المصريين أن أجدادهم رسميًا كانوا داخل أقفاص منذ أقل من قرن وربع بإسم الداروينية والإلحاد- .

و مع بدايات القرن العشرين تحوّلت حدائق حيوان البشر إلىٰ ظاهرةٍ علمية فقد أُنشئت في مدينة سانت لويس St. Louis بأمريكا حديقة حيوان تعرض كثيراً من الفلبينيين فيما كان يُسمىٰ بموكب التقدم الدارويني التطوري parade of evolutionary progress، والرسالة التي أريد منها أن تكون واضحةً للزوّار: تبرير عبء الرجل الأبيض، في استعمار العالم وأخذ ثروات هؤلاء البدائيين الذين لا يعرفون قيمتها.

وكانت الأقزام من غينيا الجديدة تُعرض في قسم الثدييات الرئيسية في حديقة حيوان برونكس.

The Primate section of the Bronx Zoo[2].

وفي أحيان كثيرة كانت تقوم بعض حدائق الحيوان بنقل قرىٰ بأكملها مع تراكيب البيوت التي يعيش بها هؤلاء البشر مع كافّة أمتعتهم، حتىٰ تُضفي مزيدًا

---

(1)http://en.wikipedia.org/wiki/Human_zoo - cite_ref-٩Anne Maxell, "Montrer l'Autre: Franz Boas et les soeurs Gerhard", in Zoos humains. Pp33-339.

(2) http://www.modelminority.com/article750.html.

من البهجة للزوار، حيث تم عرض القرية الكونغولية في معرض بروكسل ١٩٥٨ في العالم[1].

لكن كيف أضحىٰ هؤلاء البشر المساكين يُمضون أوقاتهم في أقفاص الحيوانات؟! تذكر لنا الروايات أن متوسط الفترة التي يمضونها لا تتجاوز ثلاثة أشهر حيث يُصابون بأمراض عُصابية ونفسية خطيرة، وأقدم الكثيرون منهم علىٰ الانتحار، وكان أشهر هؤلاء المنتحرين علىٰ الإطلاق هو أوتا بينجا Ota Benga حيث عاش في إحدىٰ قرىٰ الكونغو وكان متزوجًا ولديه طفلان، وقد اقتيد من قريته وعُرض داخل أحد الأقفاص بجانب قرد الشامبانزي في نفس القفص، ثم مع إنسان الغاب وصُنِّف كأحد الحلقات المفقودة، وظل معروضًا في حديقة حيوان برونكس في نيويورك شهوراً طويلة، ونظرًا لوضعه المأساوي فقد قرر الانتحار، والتخلص من حياته[2].

بقي أن نقول: إن حدائق حيوان البشر كانت في العقل الأوربي منذ القرن السادس عشر الميلادي، منذ أن بدأ الأوربيون يجوبون العالم ويُنشئون مستعمراتهم، وقد رأىٰ العقل الأوربي في هؤلاء الزنوج والأقزام والهنود والسكان الأصليين درجة أدنىٰ بكثير من الجنس الأبيض، ولذا ما فعله داروين صراحةً هو تقديم المبرر البيولوجي، والمسوّغ العلمي الذي يتيح لهؤلاء مزيداً من التنكيل والإهانة وتدمير قرىٰ بأكملها باسم الداروينية، ولذا كانت حدائق

---

(1) http://query.nytimes.com/gst/abstract.html?res=9C04EvD81F3EE733A25753C1A96F9C946797D6CF

(2) Philips Verner Bradford, Harvey Blume, Ota Benga: The Pygmy in The Zoo, New York: Delta Books,1992.

حيوان البشر توجد علىٰ استحياء قبل داروين، لكن عصرها الذهبي كما ذكرنا هو من عام ١٨٧٠ – العام الذي أصدر فيه داروين كتابه نشأة الإنسان – إلىٰ عام ١٩٤٥، فقد حرّرت الداروينية هؤلاء من أيّة أعباء أخلاقية في تعاطيهم مع بقية البشر.

بقي أن نقول أن المساواة بين البشر نابعة من الاعتقاد بـأن الإنسان مخلوق لله، فالمساواة بين البشر مسألة دينية بحتة، وتأسيسًا علىٰ الدين فقط يستطيع الضعفاء المطالبة بالمساواة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[1].

* هذا المقال تمت الإشارة إليه في كتاب "**كهنة الإلحاد الجديد**" لنفس المؤلف.

وهكذا عندما تركنا عبادة الله يا صاحبي تحولنا إلى حيوانات داخل أقفاص؛ فلن نستمد الإيمان بقيمة وجودنا ولا معنى وجودنا إلا بالإيمان بالله والتسليم له بالخلق والأمر، فالتسليم لله هو نهاية قصة المصير الإنساني كله سواءً شئنا أم أبينا، إنه الاستجابة المُثيرة للقضية الإنسانية الكُبرى.

إن الإسلام لم يأخذ اسمه من قوانينه ولا نظامه ولا مُحرماته

وإنما من شيء يشمل هذا كله ويسمو عليه

– من حقيقة التسليم لله –

إنـه استسلام لله

والاسم إسلام

(١) سورة الحجرات: الآية (١٣).

ختامًا

يا صاحبي!

لا تجعل من جهلك مُبرراً لكفرك!

لا تجعل مما لم تُحِط بعلمه دليلًا على العلم !

وعدم معرفتك بالشيء ليست معرفة تبني عليها كُفرك!

القضية الدينية مُسلمة عقلية ومعرفية ووجدانية وفطرية ونقلية بدرجة يقينية، فلا تجعل من افتراضك بديلًا لليقين، ومن ظنك بديلًا للبديهة، فما أكثر الافتراضات والظنون، فهذا طريق يزينه الشيطان، فهو سوق الشيطان الوحيد وقِوام بضاعته، وعليه ينصب رايته.. فهل من عاقل ينتصر علىٰ شيطانه، ويستسلم لبديهة عقله، ونداء فؤاده، ويتواضع للحق متىٰ ظهر واستعلن؟!

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

وعندما تلتفت يا صاحبي يمينًا وتجد ساعة يد فوق الطاولة لم تكن موجودة، فإن جميع الناس سيقولون: إن لها صانعًا.

الشخص الوحيد الذي يقول بل وُجدت دون صانع هو الملزم بتقديم الدليل .

منكر مبادئ العقل هو الملزم بتقديم الدليل.

هداك الله، وأصلح قلبك، وغفر ذنبك، وشكر سعيك في معرفة الحق!

---

(١) سورة يونس: الآية (٣٩).

وقصة

وهنا أود أن أختم كتابي «**العودة إلىٰ الإيمان**» بقصة جميلة، وهي خلاصة قصيدة الملاح القديم لكوليردج، وهي من الشعر الرومانتيكي؛ وأنقلها من ترجمة دكتور عبد الوهاب المسيري -رحمه الله-:

تحكي قصيدة الملاح القديم لكوليردج؛ قصة ملاح يتسم بسطحية الماديين ونفعيتهم، فيصرع طائر القطرس الأبيض -رمز الجماعة الإنسانية، والمحبة وأيضًا رمز الإله-، عندئذٍ يواجه عالمًا ماديًّا بلا إله، لا رحمة فيه ولا محبة، وتصبح الحياة خرابًا يبابًا وتتوقف سفينته عن الإبحار، بل تتعفن المياه ذاتها، وبالتدريج يكتشف الملاح أن عالم المادة وحسابات المكسب والخسارة لم تعد تنفع ولم يعد لها معنىٰ، **فيعود للإيمان مرةً أُخرىٰ**، عندها يتحول عالمه من مادة محضة إلىٰ عالم تسري فيه الروح والقداسة فيدرك جمال أصغر المخلوقات البحرية وأكثرها قبحًا ويباركها، ويفقد الرغبة في السيطرة والتحكم. حينئذٍ تذهب اللعنة وتحل البركة، بعد أن أثبت مقدرته علىٰ الحب والإحساس بالجمال وعلىٰ الانطلاق من عالم المادة. ويعود الملاح للجماعة الإنسانية بعد طول عزلة وغربة وانفصال.

أفضل عشرة كتب في نقد الإلحاد

أفضل عشرة كتب في نقد الإلحاد واللادينية أرشحها لك بالترتيب:

(١) الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش[١].
(٢) آلة الموحدين لكشف خرافات الطبيعيين، أبو الفداء بن مسعود[٢].
(٣) ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان، د.عبد الله بن سعيد الشهري، مركز نماء للبحوث والدراسات[٣].
(٤) النبأ العظيم، د. عبد الله دراز[٤].
(٥) وهم الإلحاد، د. عمرو شريف[٥].
(٦) العودة إلىٰ الإيمان، د.هيثم طلعت.
(٧) كهنة الإلحاد الجديد، د. هيثم طلعت[٦].
(٨) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، د. عبد الوهاب المسيري[٧].
(٩) موسوعة الرد علىٰ الملحدين العرب، د. هيثم طلعت –إصدار قديم–[١].
(١٠) أشهر ٣ مناظرات في الإلحاد واللادينية[٢].

---

(1) http://laelhad.com/index.php?p=8-0-15.
(2) http://www.4shared.com/web/preview/doc/PoQOIuRaba.
(٣) غير متاح علىٰ الشبكة العنكبوتية.
(4) http://laelhad.com/index.php?p=8-0-23.
(5) http://laelhad.com/index.php?p=8-0-90.
(6) http://laelhad.com/index.php?p=8-0-92.
(7) http://laelhad.com/index.php?p=8-0-21 (المجلد الأول).
http://laelhad.com/index.php?p=8-0-22 (المجلد الثاني).
(1) http://laelhad.com/index.php?p=8-0-85.
(2) http://laelhad.com/index.php?p=8-0-91.

صدر للمؤلف:

١ - موسوعة الرد على الملحدين العرب.

تحت الضبط الإملائي والتنقيح، تصدر قريبًا إن شاء الله بحُلة جديدة!

٢ - كتاب: كهنة الإلحاد الجديد[1].

٣- كتاب: أشهر ٣ مناظرات في الإلحاد واللادينية[2].

٤ - كتاب: مناظرة اللاأدريين[3].

---

(1) http://laelhad.com/index.php?p=8-0-92.

(2) http://laelhad.com/index.php?p=8-0-91.

(3) http://laelhad.com/index.php?p=8-0-93.

فهرس الموضوعات

زميلي الملحد!

إن هذا الكتاب الذي بين يديك، حبّرته لك تحبيرًا، ولم آلُ جهدًا في ضبطه وتحريره وتنفيذه، فخرج بصورةٍ رضيتُ عنها وقدمته إليك سهلًا قريبًا من مذاقك، وأحسب أن طريقة عرضه ومادته لم أُسبق إليها، بل كنت حريصًا كل الحرص أن يخرج الكتاب بصورةٍ قشيبةٍ مُرضية بعد رحلة بفضل الله موفقة مع كتبي السابقة، لكن هذا الكتاب أتىٰ تتويجًا لرحلة عقل ودربة بحث ودعاء طلب، أتطلع أن يمثل علامة فارقة في حياتك، ويضع حدًّا لشكوكك، ويعيد ضروراتك العقلية إلىٰ مكانها، سائلًا ربي في كل ذلك التوفيق والسداد، فلا حيلة للعبد الضعيف إلا بسببٍ من مولاه، وأحسب أن هذا الكتاب لو كُتب له التوفيق والنشر لصار علامةً فارقة في الملف الإلحادي، لا أقول بصيغته العربية، وإنما بصيغته في أيّة بقعةٍ أُخرىٰ من بقاع العالم.

وأعترف بيني وبين نفسي أن غايتي ليست ضبط ضروراتك فحسب، وإنما عودتك إلىٰ بيتك -إلىٰ إسلامك- ترتشف منه مرةً أخرىٰ المعنىٰ والقيمة والهدف والغاية لوجودك.

سائلًا المولىٰ سبحانه أن يكتب به الهداية لمن ضل؛ والحمد لله رب العالمين.

١٤٣٥ هـ-٢٠١٤م